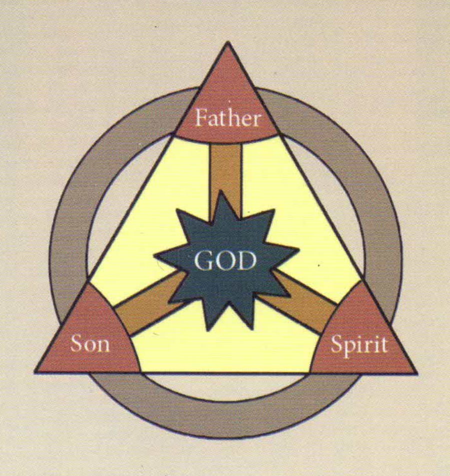
نقض كتاب

تثليث الوحدانيّة في معرفة اللّه

نموذج لعلم العقيدة والكلام عند مالكية الغرب الإسلامي

الإمام المحدِّث

أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي



دراسة وتحقيق وتقديم

د. يوسف الكلام د. نادية الشرقاوي

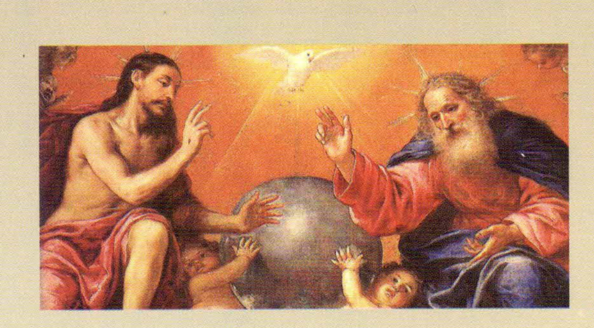


نقض كتاب تثليث الوحدانية في معرفة الله

ليست الرغبة في تحقيق هذا الكتاب وليدة اليوم، وإنما ترجع إلى عقد من الزمان، عندما أسسنا «جمعية الإمام ابن حزم للطلبة الباحثين في مقارنة الأديان»، وكان من أهدافنا إعداد فهرسة لكتب المقارنة بين الأديان، وتكلفنا نحن بفهرسة الخزانة الملكية.

وأثناء القيام بهذا العمل أثار انتباهنا مخطوطة لمؤلف مجهول تحمل عنوان: «نقض تثليث الوحدانية»، فقمنا بطلبها، فتبين أن المخطوطة هي لكتاب الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام للقرطبي، فقمنا باقتناء الكتاب وقررنا إعادة تحقيقه. ولا ندعي أن ما قمنا به تحقيق تام، فلازال ينقصه الشيء الكثير ولكن لما رأينا جهدا مُهماً قد بُذل في هذا العمل، لم نشأ أن نتركه يضيع، ونحرم الباحثين في هذا المجال من الإطلاع على هذه المخطوطة التي لم تعتمد في التحقيقات السابقة، ونكفيهم مشاقّ التنقل إلى الخزانة الملكية وطلبها للقراءة، فقررنا نشر هذا العمل حسب ما وصلنا إليه، آملين أن نعيد نشره مرة أخرى في طبعة منقحة مفيدة بحول الله تعالى.

المحققان



ISBN 978-9933402891





تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح

نقض كتاب

تثليث الوحدانية في معرفة الله

نحو فكر
حضاري متجدد

الكتاب: نقض كتاب تثليث الوحدانية في معرفة الله

تحقيق وتقديم: يوسف الكلام-نادية الشرقاوي

عدد النسخ: 1000/ عدد الصفحات: 388

الإصدار الأول 2012م



صفحات للدراسات والنشر
سورية - دمشق - ص.ب: 3397
هاتف: 095 13 22 11 00963
تلفاكس: 013 33 22 11 00963
www.darsafahat.com
info@darsafahat.com

ISBN الترقيم الدولي
978-9933-402-89-1

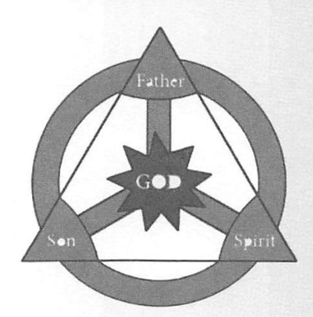
تصميم الغلاف: جمال الأبطح
الإشراف العام: يزن يعقوب /جوال 181 418 933 00963
الإخراج الفني: فؤاد يعقوب /جوال 764 902 933 00963

نقض كتاب
تثليث الوحدانية في معرفة الله

نموذج لعلم العقيدة والكلام
عند مالكية الغرب الإسلامي

الإمام المحدّث

أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي



تحقيق وتقديم

د. يوسف الكلام   د. نادية الشرقاوي



المحتوى

تقديم

من مصادر علماء الإسلام في مجادلة أهل الكتاب.

اهتم المسلمون في ظل الحضارة الإسلامية بعلوم شتى تنوعت مشاربها ومنابعها، فبرزوا في العلوم الشرعية ونبغوا في العلوم الكونية والإنسانية. ولقد دفعهم إلى ذلك دعوة القرآن إلى العلم والتعلم وحثه عليهما، وساعدتهم عليه ليونة الدين الإسلامي، وسعة صدره في احتواء كل الفعاليات الفكرية، واستيعابه لكل الطاقات البشرية بغض النظر عن نزعاتها العرقية، وقد ساهم في إغناء المعا رف الإسلامية اعتراف القرآن الكريم بمختلف العقائد الدينية، وفتحه لباب الحوار معهم تحت مبدأ ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [1]، فتمكن العديد من غير المسلمين من العمل في ظل الحكم الإسلامي، ومارسوا نشاطاتهم الدينية بكل حرية دون أن تكون معتقداتهم المخالفة للإسلام عائقا يمنعهم من بلوغ المناصب الكبرى التي يرغبون في الظفر بها، بل على العكس، تمكن كثير منهم بفضل مكانتهم العلمية، خصوصا في الطب والترجمة، أن يحتلوا مكانة مرموقة ومناصب هامة في قصر الخلافة الإسلامية في المشرق أو المغرب.

وكان لابد في ظل هذا التنوع العقائدي والاختلاف الفكري، من ظهور ونشأة علم من أبرز العلوم التي عرفتها الحضارة الإسلامية، وهو علم مقارنة الأديان. وإذا كان التعريف الذي يعطيه الغرب اليوم لهذا العلم هو: " اتخاذ الأديان بعامة -كتابية أو وضعية - والعقائد الدينية أو الملل والنحل موضوعا للدراسة العلمية بمناهج موضوعية لها أصولها وخصائصها وضوابطها التي اصطلح عليها أهل هذا الحقل ."[2] فذلك بالضبط هو ما أقامه علماء مقارنة الأديان المسلمين ممثلا في كتاباتهم، وقد سلكوا في ذلك مناهج عديدة نذكر منها:

1. المنهج التاريخي الوصفي: أي الاقتصار على ذكر نشأة كل ديانة، والتعريف بأعلامها، وعقائدها، وكتبها، وفرقها، وبرز في هذا المنهج البيروني والشهرستاني.

1-سورة البقرة آية 256.

2-بحوث في مقارنة الأديان، محمد عبد الله الشرقاوي، القاهرة، دار الفكر العربي 1410هـ/ 2000م، ص:32.

2. المنهج التحليلي والمقارن: ويعتمد على تحليل كل ديانة ومقارنتها بأخرى، على مستويات عدة، ويعد أبو الحسن العامري رائدا في هذا المنهج.

3. المنهج النقدي: ويعتمد فيه صاحبه على نقد الديانة موضوع الدرس ببيان ما تتضمنه من عقائد وكتب، وأشهر من عرف من المسلمين في هذا المجال، علي بن سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي القرطبي.

4. المنهج التناظري الكلامي: وتميزت به المجالس والمناظرات التي كان يعقدها المسلمون مع المخالفين لهم في العقيدة، وأشهر هذه المجالس مجالس إليا المطران ومحاورة المهدي للجاثليق.

والباعث الذي دفعنا لكتابة هذا التقديم قبل التعرض لكتاب أبي العباس القرطبي موضوع هذا العمل الذي نقدمه للباحثين المسلمين، هو سؤال كثيرا ما أرقنا ونحن نبحث في هذا العلم علم الأديان المقارنة وهو: ما هي المصادر التي اعتمدها علماء مقارنة الأديان المسلمين عند تأليفهم لهذه الكتب العظيمة التي لازلنا ندهش لدقة وموضوعية كثير منها إلى اليوم؟ وبعد بحث طويل وتقص استطعنا حصر مصدرين مهمين هما:

1. القرآن الكريم.
2. الكتب المقدسة للديانات المخالفة.

وهذا لا يعني عدم وجود مصادر أخرى اعتمدها علماء المسلمين في مجادلة أهل الكتاب، بل هناك مصادر كثيرة استعان بها هؤلاء في كتاباتهم الجدلية نذكر منها اعتمادهم على:

1. المؤلفات الفقهية لأصحاب الملل والعقائد المخالفة.
2. كتب التاريخ التي وضعها أصحاب الملل والعقائد المخالفة للتأريخ لدياناتهم كتاريخ يوسيفوس اليهودي، وتاريخ المجامع الكنسية وغيرها.
3. المناظرات الكتابية والشفهية بين المسلمين ومخالفيهم..إلخ

ولكننا سنكتفي في هذا التقديم الذي أحببنا أن نضعه لكتاب أبي العباس القرطبي على ذكر المصدرين الأولين فقط حتى لا نطيل كثيرا، على أن نقوم بنشر باقي المصادر في بحث مستقل بحول الله، وهدفنا من ذلك تنبيه القارئ على أن المسلمين لم يخوضوا في هذا العلم إلا بعدما أحاطوا بمصدرهم الأول وبمصادر مخالفيهم المعتمدة.

المصدر الأول: القرآن الكريم:

يحتل القرآن الكريم المرتبة الأولى في الإسلام في كل جوانب المعرفة، فهو المصدر الأول لمعرفة أصول العقيدة واستنباط أحكام الشريعة، كما يعد المصدر الأساس الذي عرف من خلاله علماء مقارنة الأديان المسلمين عقائد الأمم السالفة والحضارات الغابرة. فمبدأ الحوار وطريقة الحجة والمناظرة اللذان اتبعهما القرآن الكريم لإثبات ما يدعيه من عقائد جديدة، جعله قبل الرفض والطعن في أي من تلك التي كانت تعج بها جزيرة العرب، وعلى الخصوص مكة المركز التجاري والديني الذي كان يستقطب مختلف الأجناس إما للتجارة أو العبادة في موسم الحج، أن يواجههم أولا بما يقولون ويأخذ منهم إقرارا بكل ما يدعون، وذلك حتى لا تنسب إليه تهمة الفرية، فكان يبدأ بعرض أقوالهم العقدية، ثم يأتي على تفنيدها بالحجة والبرهان، وبيان مواطن الخلل وأماكن الزيغ والزلل فيها، وكان لا يتردد في ذكر حتى تلك التي تمس مبدأ التوحيد الذي كان يدعو إليه، أو تلك التي تصف الذات الإلهية بالنقص، أو تمس جلال الله وعزته، ثم يدحضها بالحجة والدليل. وأهم العقائد التي تعرض إليها القرآن بالنقض بعد أن ذكر مقالات أصحابها بأمانة هي:

عقيدة المشركين والدهريين: كان المشركون أول من واجه القرآن الكريم في دعوته وذلك لغالبيتهم العظمى في المجتمع العربي عموما والقرشي خصوصا، وكعادته، ذكر القرآن عقائدهم سواء تلك القائلة بوجود آلهة مع الله، أو تلك التي تعتقد أن الملائكة بنات الله.. ولبيان بطلان كل هذه العقائد، كان خطاب القرآن للمشركين على مستويات كثيرة منها:

- ذكره لأقوالهم في الشرك، وذكر السبب الذي لأجله ينسبون الشريك لله:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[1].

- بيان أن شركهم بالله لا يقوم على العلم ولا يستند دليلا وإنما هو اتباع للظن:

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[2].

1-سورة الزمر الآية: 3.

2-سورة يونس آية: 66.

- بيان حقيقة شركائهم وما يتصفون به من العجز: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾[1].

- تبرؤ الشركاء من المشركين يوم القيامة: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾[2].

- دعاؤه لهم للتخلي عن العناد والرجوع للحق الذي يعرفونه حق المعرفة: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾[3].

- بيان استحالة الشرك في العقول السليمة: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[4]، ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[5]، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾[6].

- بيان خطورة الشرك وعاقبة المشركين: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾[7].

1-سورة الأعراف الآيات: 191—195.
2-سورة يونس آية: 28.
3- سورة الأنعام، الآية: 40-41.
4- سورة الأنبياء، الآية: 22.
5- سورة المؤمنون، الآية: 91.
6- سورة الإسراء الآية: 42.
7- سورة النساء الآية: 116.

أما الدهريون فقد ذكر القرآن قولهم الذي لا يستند إلى العلم، فقال عز وجل: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.[1]

وقد استفاد علماء مقارنة الأديان المسلمين من هذه الآيات البينات في الرد على المشركين والدهريين، فهذا أبو بكر الباقلاني في كتابه التمهيد يستوحي دليله في إثبات أن الصانع للعالم واحد من قوله عز وجل:﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ حيث يقول: " وليس يجوز أن يكون صانع العالم اثنين ولا أكثر من ذلك، والدليل على ذلك أن الاثنين يصح أن يختلفا ويوجد أحدهما ضد مراد الآخر فلو اختلفا وأراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته لوجب أن يلحقهما العجز"[2]، وكما يظهر فهو استدلال مستوحى أيضا من قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ .

واستعمل ابن حزم نصوص القرآن في البراهين التي قدمها لإثبات حدوث العالم، فبعد أن قدم البرهانين الأولين ختمهما بقوله :"وهذان الدليلان قد نبه الله تعالى عليهما وحصرهما بحجته البالغة إذ يقول:﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [3] "[4]، وختم برهانه الثالث أيضا بقوله: "وقد نبه الله تعالى إلى هذا الدليل وحصره في قوله تعالى: ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ [5]"[6]، وعزز برهانيه الرابع والخامس قائلا: "وقد نبه الله تعالى على هذا الدليل وعلى الذي قبله وحصرهما في قوله: ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴾[7] [8].

1- سورة الجاثية الآية: 24.
2- القاضي أبو بكر الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الثالثة 1414هـ/1993م بيروت لبنان ص:45.
3- سورة الرعد، آية: 8.
4- أبو محمد علي بن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمان عميرة، دار الجيل بيروت لبنان الطبعة الثانية 1416هـ/1996م، الجزء الأول ص:59.
5- سورة فاطر، الآية:1.
6- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الأول، ص:62.
7- سورة الجن، الآية: 28.
8- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الأول، ص:63.

هكذا نرى كيف كان علماء الإسلام يستحضرون آيات الذكر الحكيم وهم يردون وينتقدون كل من خالف الدين الحنيف. وبالقرآن مرة أخرى رد كل من الباقلاني وابن حزم على النصارى والمجوس لتعدادهما لهما من المشركين لقولهم بالتثليث والثنوية، وسيأتي الحديث عن ذلك في موضعه.

عقيدة المنكرين للبعث: اتبع القرآن مع المنكرين للبعث منهجا دقيقا، فهذه العقيدة ليست من الأمور السهل تقبلها عقلا، فكيف يصدق الإنسان أنه بعد أن يصبح رميما أن هناك حياة أخرى تنتظره، حياة خالدة قد تكون سعيدة أو شقية. ونظرا للصعوبة في تقبل هذه العقيدة ذكر الله أقوال المنكرين لها، حتى تبقى خالدة مسطرة في كتابه يقرأها كل من يأتي بعد ذلك في كل زمان ومكان. وبعد أن ذكر الله عز وجل الآيات الدالة على الخلق في الكون والحيوان والأنفس وأمر بالتفكر فيها حيث قال:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1]. فهذا الخلق المتنوع دليل صريح على قدرة الخالق على البعث.

ولم يتردد كتاب الله من سرد تساؤلات هؤلاء واستغرابهم واستبعادهم لما يدعيه القرآن بخصوص البعث، ثم رد عليهم بالحجة الدالة على حدوثه فقال:﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾[2]، وقال تعالى أيضا على لسان هؤلاء المنكرين:﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[3]، وبين تعالى في آخر سورة يس أن قدرة الله تغير من طبيعة

1- سورة آل عمران، الآية: 190-191.
2- سورة الإسراء، الآيات: 98-99.
3- سورة الإسراء، الآيات: 49-51.

الأشياء إلى نقيضها، وبالتالي فالبعث ليس بالعزيز على الله المقتدر: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [1]، فالله بقدرته التي جعلت من الشجر الأخضر نارا باستخراج زيت يوقدون منها – والعادة أن النار تحتاج الشجر اليابس للاشتعال – قادر على أن يحيي العظام وهي رميم. وبين في قوله:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [2] أن الصعوبة والاستغراب الحقيقيين هما في الخلق الأول وليس في إعادة الخلق.

إن هذا المنهج الاستدلالي في إثبات الحقائق التي جاء بها الإسلام كان الصراط الذي سار عليه علماء مقارنة الأديان، والسراج الذي أضاء لهم الطريق للوصول ولإيصال الحق.

عقيدة المنكرين للنبوة: لم يترك القرآن قذفا ولا تهمة رمى المنكرون بها نبي الإسلام عليه السلام، أو اتهموه بها إلا وأوردها ثم ردها وأدحض حججهم فيها، فرد عنه تهمة الساحر والمجنون والكاهن والشاعر، وبين أن كل هذه الادعاءات مردها عدم تمييز هؤلاء لمفهوم النبوة التي يدعيها محمد عليه السلام عما كان سائدا عندهم من مفاهيم، حيث كانوا يعتقدون أن لابد لهذا الذي يدعي النبوة أن يكون ملكا أو تربطه بالله صلة غير كونه عبدا بشرا فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [3]، وقال:﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ

1- سورة يس، الآيات: 78-81.
2- سورة الروم، الآية: 27.
3- سورة الذاريات، الآية: 52.

لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [1].

و لم يهمل المسلمون في ذكرهم للعقائد والملل هذه العقيدة، بل نجدهم فصلوا فيها وميزوا بين المنكرين للنبوة مطلقا وهم البراهمة، والمنكرين لبعضها وهم الصابئة والمجوس واليهود والنصارى، وفي هذا الباب يقول ابن حزم: "ذهبت البراهمة وهم قبيلة بالهند فيهم أشراف أهل الهند ويقولون أنهم من ولد برهمى ملك من ملوكهم قديم... وهم يقولون بالتوحيد على نحو قولنا إلا أنهم أنكروا النبوات"[2]، وبخصوص المنكرين لبعض النبوات يقول: "إن أهل هذه الملة يعني اليهود وأهل هذه النحلة يعني من أنكر التثليث من النصارى موافقون لنا في الإقرار بالتوحيد ثم النبوة وبآيات الأنبياء عليهم السلام وبنزول الكتب من عند الله عز وجل إلا أنهم فارقونا في بعض الأنبياء عليهم السلام دون بعض وكذلك وافقتنا الصابئة والمجوس على الإقرار ببعض الأنبياء دون بعض"[3].

أما الباقلاني فقد خصص بابا للكلام على المجوس وآخر للكلام على البراهمة، فيقول: "وقد افترقت البراهمة على قولين: فمنهم من جحد الرسل وزعم أنه لا يجوز في حكمة الله سبحانه وصفته أن يبعث رسولا إلى خلقه وأنه لا وجه من ناحيته يصح تلقي الرسالة على الخالق سبحانه، وقال الفريق الآخر إن الله تعالى ما أرسل رسولا سوى آدم عليه السلام وكذبوا كل مدع، وقال قوم منهم بل ما بعث الله تعالى غير إبراهيم وحده وأنكروا نبوة من سواه"[4].

وتعرض القاضي عبد الجبار للفرق المجوسية خاصة، وسيأتي الحديث عن ذلك، وألف البيروني كتابا جمع فيه عقائد البراهمة كلها وذكر كتبهم العقدية والتشريعية وترجم اثنين منهما حيث يقول: "وكنت نقلت إلى العربي كتابين أحدهما في المبادئ وصفة الموجودات واسمه "سانك" والآخر في تخليص النفس من رباط البدن ويعرف ب"باتنجل"

1- سورة الإسراء 90-94

2- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الأول ص: 137.

3- نفسه ص:177.

4- تمهيد الأوائل.. ص:126-127.

وفيهما أكثر الأصول التي عليها مدار اعتقادهم دون فروع شرائعهم، وأرجو أن هذا ينوب عنهما وعن غيرهما ويؤدي إلى الإحاطة بالمطلوب بمشيئة الله "[1].

عقيدة أهل الكتاب: أما أهل الكتاب فقد ذكر القرآن كثيرا من عقائدهم وشرائعهم وقصص حكاياتهم مع أنبيائهم، وتعرض للفساد والتحريف الذي عرفته عقيدتهم نتيجة لغلوهم في الدين، وبين كتاب الله الكريم أن رفض أهل الكتاب للإسلام ورسوله هو من باب العناد والتعصب، فقال سبحانه: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[2].

عقيدة اليهود في القرآن: تحدث القرآن عن كثير من العقائد والممارسات اليهودية، وإذا كان كتاب الله قد اعترف باليهودية كديانة سماوية، واعترف بأن التوراة كتاب الله المنزل على كليمه موسى عليه السلام، فقد أنكر على اليهود ما هم عليه وبين أنه مخالف لما جاء به موسى عليه السلام، فخطأهم فيما يتصورون بخصوص الذات الإلهية وما يصفون به الله عز وجل من نقص كوصفهم له بالفقر: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾[3]، وقولهم إن يده مغلولة:﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾[4] وادعائهم أن عزيرا ابن الله:﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾[5]. وأما عن ما ألحقوه بكتبهم من تحريف فقد وردت عدة آيات في ذلك، منها قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

1- أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ت440هـ، "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد الدكن الهند 1377هـ/1958م السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية11، ص:6.

2- سورة البقرة: الآية: 120.

3- سورة آل عمران، الآية: 181.

4- سورة المائدة، الآية: 64.

5- سورة التوبة، الآية: 30.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [1]، وقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [2]، وقال أيضا: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [3].

واستفاد المسلمون من نصوص القرآن في معرفة العقائد اليهودية واعتبروها نصوصا داعية إلى كشف حقيقة اليهود كما صرح بذلك الجاحظ في قوله: "ولولا أن الله قد حكى عن اليهود أنهم قالوا عزير بن الله ويد الله مغلولة وأن الله فقير ونحن أغنياء وحكى عن النصارى أنهم قالوا المسيح بن الله وقال "قالت النصارى المسيح بن الله" وقال" لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة" لكنت لأن أخر من السماء أحب إلي من أن ألفظ بحرف مما يقولون ولكني لا أصل إلى إظهار جميع مخازيهم وما يسرون من فضائحهم إلا بالإخبار عنهم والحكاية منهم."[4]، ولابن حزم قول مثل ذلك حيث يقول: "ولو ما وصفه الله تعالى من كفرهم وقولهم يد الله مغلولة وأن الله فقير ونحن أغنياء ما انطلق لسان بشيء مما أوردنا ولكن سهل علينا حكاية كفرهم ما ذكره الله تعالى لنا من ذلك "[5].

وعمل علماء المقارنة المسلمين على إثبات وجود التحريف والتناقض في كتب العهد القديم المنصوص عليه في القرآن وجعلوا منطلقهم قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [6]، فما عفا عنه النبي عليه السلام،

1- سورة آل عمران، الآية: 77 -78.

2- سورة البقرة، الآية: 79.

3- سورة النساء، الآية: 46.

4- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المختار في الرد على النصارى، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي دار الجيل بيروت لبنان مكتبة الزهراء القاهرة الطبعة الأولى 1411هـ/ 1991م ص:75.

5- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الأول ص: 327.

6- سورة المائدة، الآية: 15.

عملوا جاهدين على بيانه وكشفه. من أجل ذلك خصص معظمهم فصولا في إثبات التناقض في التوراة وكتب العهد القديم. فقدم ابن حزم سبعة وخمسين فصلا في كتابه الفصل لهذا الغرض، وذكر السموأل بن يحيى المغربي فصلا أعرب فيه عن بعض فضائح اليهود[1]، وآخر بيّن فيه الافتراءات المنصوص عليها في التوراة في حق الأنبياء.[2] ودفع قوله عز وجل:﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[3] بعلماء الإسلام إلى استخراج هذه النبوات بخصوص النبي عليه السلام في كتب العهد القديم وقد برز بشكل كبير في هذا الباب المهتدون إلى الإسلام يهودا ونصارى، وقد ذكر علي بن رين الطبري في كتابه الدين والدولة نبوات أنبياء العهد القديم بمحمد عليه السلام[4]، وذكر السموأل النصوص المشيرة إلى اسمه في التوراة وكشف الحجاب عنها[5]، وقدم القرطبي بدوره فصلا في إثبات نبوته عليه السلام بإخبار الأنبياء قبله ووصفهم له في كتبهم[6]؛ وزاد السموأل فصلا تحدث فيه عن النسخ الذي تتكره اليهود في التوراة راجيا من ذلك إلزام اليهود بنبوة محمد عليه السلام وشريعته باعتبارها ناسخة لكل الشرائع السماوية التي سبقتها[7]، كما نص على ذلك قوله عز وجل: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[8]، وقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[9].

1- السموأل بن يحيى المغربي، بذل المجهود في إفحام اليهود قدم له وخرج نصوصه وعلق عليه عبد الوهاب طويلة، دار القلم دمشق الدار الشامية بيروت الطبعة الأولى 1410هـ/1989م ص:179.

2- نفسه ص169-171.

3- سورة الأعراف، الآية: 157.

4- علي بن رين الطبري، الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد ﷺ تحقيق وتقديم عادل نويهض منشورات دار الآفاق الجديدة الطبعة الرابعة 1402هـ/1982م ص:137-179، حيث ذكر نبوات إشعيا وميخا وحبقوق وصفنيا وزكريا وارميا وحزقيال ودانيال.

5- السموأل، بذل المجهود في إفحام اليهود، ص:86-91.

6- القرطبي، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام تقديم وتحقيق أحمد حجازي السقا دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ص:263-280.

7- السموأل، بذل المجهود في إفحام اليهود،ص:19-52.

8- سورة البقرة آية 105.

9- سورة المائدة آية 48.

عقائد النصارى في القرآن: أما النصارى فقد ركز القرآن عند ذكره لهم بالدرجة الأولى على عقيدة التثليث التي يقولون بها، فرفض ادعاء القائلين إن الله هو المسيح بن مريم، وادعاء القائلين إنه تعالى ثالث ثلاثة، فهما مقالتان مخالفتان لمبدأ التوحيد الذي جاء به عيسى عليه السلام ومن قبله من الأنبياء، فقال عز وجل: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [1] وقال أيضا: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [2]. وأنكر القرآن على لسان المسيح أن يكون هذا الأخير قد دعا الناس إلى عبادته وبرأه من هذه الفرية التي نسبت إليه حيث قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [3]. وبين الباري تعالى أن المسيح بشر كسائر البشر لما قال:﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [4]، وصفة الأكل والشرب وما يترتب عنهما ليستا من صفات الألوهية.

وحرص القرآن على أن يبين أن أول ما تلفظ به المسيح وهو في المهد اعترافه بالعبودية لله عندما قال:﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ [5]، أما ولادته المعجزة فقد بين القرآن أنها أمر ليس بالعزيز على الجبار المقتدر في قوله:﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [6] فأمر ولادته وخلقه عليه السلام كخلق آدم بل أيسر، فآدم خلق

1- سورة المائدة آية 72.
2- سورة المائدة آية 73.
3- سورة المائدة آية 116-117.
4- سورة المائدة آية 75.
5- سورة مريم، الآية: 30.
6- سورة آل عمران، الآية: 58.

من غير أب ولا أم. كل هذه الآيات الاستدلالية نجد لها الوقع والأثر البليغ في كتابات علماء مقارنة الأديان المسلمين، وقد سبق قول الجاحظ، أما ابن حزم فلم يستطع بدوره إلا الاستفادة مما ورد من آيات في الموضوع وهو يرد على النصارى في كتابه الفصل حيث يقول: "ولولا أن الله وصف قولهم في كتابه إذ يقول تعالى لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وإذ يقول تعالى حاكيا عنهم إن الله ثالث ثلاثة وإذ يقول أ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ما انطلق لسان مؤمن بحكاية هذا القول الشنيع السمج السخيف"[1].

ولإثبات التحريف في الأناجيل وأسفار العهد الجديد خصص ابن حزم سبعين فصلا في ذكر التناقضات الموجودة في الأناجيل وحدها، كما ذكر تلك الموجودة في باقي كتب النصارى[2]، كل ذلك لإثبات قوله تعالى:﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[3]. ولإثبات بشرية المسيح التي نص عليها القرآن في قوله: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾[4]، والتدليل على نُبوته ونفي بُنوته لله اجتهد علي بن ربن الطبري في كتابه الرد على النصارى لاستخراج تلك النصوص الدالة على ذلك بذكره لسبع مسائل كلها من نص الإنجيل، فيقول في المسألة الثانية: " إنا نسألهم عن ما وصف به المسيح نفسه هل يكون محقا في بعض ومبطلا في بعض، فإن قالوا إنه محق في بعض ذلك ومبطل في بعضه كفروا به وكذبوا بأخباره، وإن قالوا إنه محق في جميع ذلك فقد أقروا بأنه مبعوث وأنه مربوب وأن الله واحد فرد... لأن المسيح قال عن نفسه ما حكاه عنه يوحنا في آخر إنجيله أنا ذاهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم... وقال يوحنا التلميذ في الفصل الخامس من إنجيله إنني لم آتي لأعمل بمشية نفسي بل بمشية من أرسلني ومشيته أن لا أضيع شيئا مما وهبه لي فهذا الإقرار بأنه موهوب مبعوث وليس بجحود"[5]، وسلك كل من الغزالي وابن تيمية[1] والقرطبي المسلك نفسه.

1- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، الجزء الأول ص: 111-112.

2- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، الجزء الثاني، ص:27 إلى ص:210.

3- سورة النساء، الآية: 82.

4- سورة المائدة، الآية: 75.

5-AR-RDD'ALA-N-NASARA AT TABARI, édité par IA KHLIF, S.J et W. KUTSH, S.J mélange de l'université St Joseph tome XXXVI 1959 page: 122 (10)-123 (11).

هكذا نلاحظ أن لا أحد من علماء الإسلام حاد عن المنهج الذي رسمه القرآن، سواء في إثباته للتحريف الموجود في التوراة والإنجيل، أو لإثبات نبوة محمد عليه السلام واستخلاص النصوص الدالة على نبوته فيهما.

عقيدة المجوس: لم يأت ذكر المجوس في القرآن إلا مرة واحدة في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2]، وتعرض كتاب الله تعالى لقولهم بالثنوية في قوله﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[3].

ويقول المجوس والثنوية بوجود إلهين اثنين إله للخير وآخر للشر، أو إله للنور وآخر للظلمة واستغرب القرآن من عقول هؤلاء، حيث إذا أصابهم الشر الذي ينسبونه لغير الله دعوا الله أن يدفعه عنهم، والأولى بهم -وهم يؤمنون بإلهين اثنين- أن يدعوا إله الشر فهو من أصابهم بما يكرهون، وهو ما عبر عنه تعالى بقوله:﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[4].

وإذا كان القرآن مقلا في ذكره لعقائد المجوس عكس ما فعل مع أهل الكتاب، فالمسلمون تعرضوا لهم بالنقض وصنفوهم مع أهل الكتاب، وقد دفع الحضور الكبير للمجوس في المجتمع الإسلامي، خصوصا في عهد الدولة العباسية بالعلماء المسلمين إلى نقض عقائد هؤلاء نظرا للمكانة الكبيرة التي احتلوها في الدولة الإسلامية، وهم من عرفوا في الفكر الإسلامي بالزنادقة[5]، أضف إلى مكانتهم الوظيفية، فقد كانت لهم

1- أبو حامد الغزالي، الرد الجميل على إلهية عيسى بصريح الإنجيل ضبط نصه وعلق عليه أبو عبد الله السلفي الداني بن منير آزهوى، المكتبة العصرية للطباعة والنشر الدار النموذجية المطبعة العصرية الطبعة الأولى 1420هـ/1999م. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح مطبعة مدني القاهرة،1379 هـ/ 1959 م.

2- سورة الحج، الآية: 17.

3- سورة النحل، الآية: 51.

4- سورة النحل، الآية: 53-54.

5- يمكن الرجوع للفهرست لابن النديم، ضبطه وشرحه وعلق عليه وقدم له يوسف علي طويل وضبط فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1416هـ/1996م. لمعرفة التواجد الهام لفئة المجوس في الدولة العباسية، فقد خصص المؤلف فصلا سماه :" أسماء وذكر رؤساء المنانية في دولة بني العباس"، ص: 522. وذكر أيضا عقائدهم وأعيادهم ومذاهبهم وفرقهم وتاريخهم، في المقالة التاسعة ص:495-540.

مجالسهم التي يدرَسون فيها كتبهم ومؤلفاتهم ويدرِّسونها، يقول القاضي عبد الجبار فيهم: "ومن الكتب التي وضعها الملحدة وطبقات الزنادقة كالحداد وأبي عيسى الوراق وابن الروندي والحصري وآمالهم في الطعن في الربوبية وشتم الأنبياء صلوات الله عليهم وتكذيبهم فإنهم وضعوها في أيام بني العباس وفي وسط الإسلام وسلطانه وملوكه أكثر مما كانوا إذ ذاك وأشد ما كانوا ولهم القهر والغلبة والعز."[1]، ولوجود هذه المجالس التعليمية التي كانت لهم والتي تسببت في افتتان بعض المسلمين بهم انتقدهم القاضي عبد الجبار حيث قال: "والمنانية تزعم أن الفلاسفة عنها أخذت هذه المذاهب وإنما ذكرت ذلك بهذا المكان لتعرف مقدار عقول الزنادقة والملحدة ولولا فتنة قوم من الرؤساء والكتاب والوزراء بهم ما ذكرناهم "[2]، وبالإضافة إلى القاضي عبد الجبار فقد تعرض كل من ابن حزم والباقلاني لمختلف عقائد الفرق المجوسية الديصانية، والمزدكية، والخرمية والمنانية...

لقد أثر القرآن بشكل كبير على علماء مقارنة الأديان المسلمين حتى في طريقة تصنيفاتهم وتبويب كتبهم، فنجد أن أهم الأديان التي تعرضوا لها لا تخرج عما ذكر القرآن إلا في بعض التفاصيل، ويظهر ذلك جليا في كتاب أبي الحسن العامري الإعلام بمناقب الإسلام حيث جعل منطلقه قول الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [3] فقارن بين الأديان الستة على كل المستويات عقديا وتشريعيا ونصا، ورغم تقسيم ابن حزم في مقدمة كتابه الفصل للفرق المخالفة للإسلام إلى ست[4]، الأمر الذي قد يبدو غريبا، إلا أن قراءة الكتاب تظهر أن كل ما تطرق له ابن حزم من الأديان داخل في ما نص عنه القرآن، فقد تعرض للدهريين في الفرقة القائلة بأن العالم لم يزل وأنه لا مدبر له، وأدخل النصارى والمجوس مع المشركين في الفرقة القائلة بأن العالم محدث وله أكثر من مدبر، وأدخل البراهمة في الفرقة المنكرة للنبوة مطلقا، واليهود

1- القاضي عبد الجبار الهمداني، تثبيت دلائل النبوة، تحقيق وتقديم عبد الكريم عثمان الجزء الأول دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع لبنان د ت،ص:129.

2- نفس المصدر السابق ص: 80.

3- سورة الحج، الآية: 17.

4- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل،الجزء الأول ص: 36-37.

والنصارى والمجوس مرة أخرى في الفرقة المنكرة لبعض النبوات، فيكون بذلك تعرض لما سبق وأن ذكره القرآن عن الأديان المخالفة للإسلام.

وقبل أن أختم الحديث عن هذا المصدر تجدر الإشارة إلى مسألة هامة بخصوص تعرض المسلمين للأديان، وهي أن علماء المقارنة المسلمين فصلوا في بعض الأديان مع أن القرآن كان مقلا في ذكرها وبالأخص عقيدة الدهريين وعقيدة المجوس، فعن الدهريين لم يرد في كتاب الله إلا قوله:﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [1] وعن المجوس لم يرد سوى الآيتين السالف ذكرهما، في حين نجد ابن حزم يخصص فصلا طويلا في إثبات حدوث العالم وتقديم البراهين على ذلك لإفحام الدهريين، ولعل ذلك راجع لوجود الإلحاد في مجتمعه يدل على ذلك حديثه عن مناظرات عديدة له مع الملحدين حيث يقول: "وقد أخبرني بعض أصدقائنا وهو محمد بن عبد الرحمان بن عقبة رحمه الله تعالى أنه عارض بهذا البرهان بعض الملحدين وهو عبد الله بن عبد الله بن شنيف فعارضه بقوله بخلود الجنة والنار"[2] وقال أيضا : "وقد قال بعض أهل الإلحاد"[3]، وقال في مكان آخر: " وإنما هو رأي قلدوا فيه بعض قدماء الملحدين..."[4]، ونفس الأمر قام به الباقلاني حيث قدم بابا للكلام في إثبات حدوث العالم[5]، وفصل القاضي عبد الجبار في كتابه تثبيت دلائل النبوة القول عن المجوس، ولعل هذا الأمر راجع كما قلنا للحضور الكبير للمجوس في الدولة العباسية، وقد سبقت الإشارة إلى القسط الكبير الذي خصصه بن النديم في الفهرست للحديث عنهم مما يدل على كثرتهم وانتشار أفكارهم.

وفي الوقت نفسه نلاحظ أن القرآن خصص مجالا واسعا في مناظراته مع المنكرين للبعث، في حين لم يتعرض المسلمون لهذه العقيدة بشكل مستقل وإنما أدخلوها في حديثهم عن الملحدين بما أن المنكر لوجود الله منكر بالضرورة لوجود البعث، ومن ثم الحساب والعقاب والثواب.

1- سورة الجاثية، الآية:24.
2- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الأول، ص: 19.
3- نفسه ص: 19.
4- نفسه ص: 32.
5- الباقلاني، تمهيد الأوائل.. ص: 41.

2. المصدر الثاني: الكتب والنصوص الدينية المقدسة:

بينا آنفا أن القرآن هو المصدر الأساس الذي اعتمد عليه المسلمون في معرفة العقائد المخالفة لدين الإسلام، لكننا عندما نقرأ القرآن نجده لم يذكر عن عقائد المجوس إلا قوله:﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ ولم يذكر لهم نبيا ولا كتابا ولم يرد فيه ذكر للبراهمة ولا لكتبهم، وعن أهل الكتاب لم يذكر من كتب اليهود سوى التوراة والألواح والزبور، ومن كتب النصارى سوى الإنجيل، وعن عقائد اليهود لم يتطرق إلا لما عرفته هذه الأخيرة من تقلب وانحراف عن أصل التوحيد، وبعض الأوصاف التي وُصف بها الله مما لا يليق وجلاله، وعن النصارى لم يذكر من عقيدتهم غير قولهم أن الله هو المسيح بن مريم أو أن الله ثالث ثلاثة، أو أن المسيح بن الله أو أنه وأمه إلهان من دون الله.

في حين لما نقرأ ما وصل إلينا من كتب المسلمين ومؤلفاتهم في هذا العلم، نجدها تعرضت لكتب مقدسة لأصحاب ملل وأديان لم يرد لها ذكر في القرآن، ولعقائد غير تلك المنصوص عنها في كتاب الله تعالى، فنجدها تتحدث عن المانوية ورسولها ماني، والزرادشتية ورسولها زرادشت وعن كتبهما المقدسة، وعن البراهمة ورسولها براهمى وكتبه الدينية. أما أهل الكتاب فنجد المسلمين تعرضوا لأشياء لم يتحدث عنها القرآن فيذكرون العهدين القديم والجديد وكتب الأنبياء وأسمائهم أمثال إشعيا وميخا وحبقوق... وعن الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى والتي يقول عنها اليهود أنها التوراة، كما جاء بخصوص النصارى ذكر الأناجيل الأربعة عوض الإنجيل مع ذكر أسماء من تنسب إليهم وهم متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، وذكرت رسائل بولس وباقي أسفار العهد الجديد.

أما عن العقائد فتعرضوا لعقائد للمجوس ولأهل الكتاب لم يشر إليها القرآن كتجسيم الله وتشبيهه ووصفه بصفات بشرية ككونه يأكل ويشرب ويندم، وتناولت مؤلفات المسلمين عقيدة التثليث على نحو ما يقول به المسيحيون ممثلا في الآب والابن والروح القدس، وعقيدة الصلب والفداء والخلاص، وذكروا الأمانة الكبرى بألفاظها وفصلوا في مختلف الفرق المجوسية والبراهمية واليهودية والنصرانية.

فكيف تعرف المسلمون على هذه النصوص التي استشهدوا بها في مؤلفاتهم؟

لاشك أن المسلمين اطلعوا منذ زمن مبكر على الكتب الدينية التي تؤمن بها الملل المخالفة للإسلام خاصة كتب أهل الكتاب، فمنذ العصر النبوي كان المسلمون على اطلاع

واسع بكتب اليهود المتداولة بين يهود المدينة. ولقد روى أبو هريرة عن النبي عليه السلام أنه قال: "كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها لأهل الإسلام بالعربية فقال رسول اللهعليه السلام: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد."[1]، أضف إلى ذلك ما عرفه القرن الأول من تسرب روايات أهل الكتاب إلى كتب التفسير وهو ما عرف بالإسرائيليات، حيث بحث بعض المفسرين عن تفاصيل القصص القرآني عند أهل الكتاب. وبعد القرن الأول بدأ المسلمون يتعرفون على كتب الملل الأخرى بشكل كبير ويقومون بدراستها وتمحيصها لبيان ما لحق التوراة من التحريف والتبديل المنصوص عليهما في القرآن، وأيضا بهدف بيان صدق نبوة محمد عليه السلام وكشف النصوص المبشرة بقدومه عليه السلام، واهتموا بدراسة كتب المجوس والبراهمة لبيان فضل الإسلام وتميزه عن كل الأديان باعتباره الدين الحق الذي ارتضاه الله لخلقه:﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾[2].

ويظهر لنا تمكن المسلمين من دراسة الكتب المقدسة في مؤلفاتهم، فالهاشمي عبد الله بن إسماعيل يقول في رسالته التي وجهها إلى الكندي: وأنت تعلم أني رجل أتت عليَّ سنون كثيرة وقد تبحَّرْتُ في عامة الأديان وامتحنتها، وقرأت كثيراً من كتب أهلها وخاصة كتبكم معشر النصارى، فإني عُنيت بقراءة الكتب العتيقة والحديثة التي أنزلها الله على موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام. فأما الكتب العتيقة التي هي التوراة، وكتاب يشوع بن نون، وسفر القضاة، وسفر صموئيل النبي، وسفر الملوك، وزبور داود النبي، وحكمة سليمان بن داود، وكتاب أيوب الصدّيق، وكتاب إشعياء النبي، وكتاب الإثني عشر نبياً، وكتاب إرميا النبي، وكتاب حزقيال النبي، وكتاب دانيال النبي فهذه هي الكتب العتيقة.

فأما الكتب الحديثة فأولها الإنجيل وهو أربعة أجزاء، الأول منها بشارة متى العشار، والثاني بشارة مرقس ابن أخت سمعان المعروف بالصفا، والثالث بشارة لوقا المطبّب،

1- صحيح البخاري، مراجعة وضبط وفهرسة محمد علي قطب وهشام البخاري المكتبة العصرية صيدا بيروت الطبعة الخامسة 1420هـ/1999م أخرجه في كتاب الشهادات الباب 29 الجزء 2 ص:814، وكتاب التفسير في تفسير سورة البقرة الباب 11 الجزء 3 ص: 1355-1354، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة الباب 25 الجزء 4 ص: 2295-2296.

2- سورة المائدة، الآية: 3.

والرابع بشارة يوحنا بن زبدي. فهذه أربعة أجزاء، منها بشارة رجلين من الحواريين الإثني عشر الذين كانوا ملازمين المسيح، هما متى ويوحنا، وبشارة رجلين من الحواريين السبعين الذين كانوا للمسيح، وبعثهم إلى الأمم دُعاةً له وهما مرقس ولوقا. ثم كتاب قصص الحواريين وأحاديثهم وأخبارهم من بعد ارتفاع المسيح إلى السماء الذي كتبه لوقا، ورسائل بولس الأربع عشرة."[1] وهذا تصريح من الهاشمي على أنه مطلع على سائر كتب العهدين.

أما الجاحظ فيقول: "إنما قبلوا دينهم عن أربعة أنفس اثنان منهم من الحواريين بزعمهم: يوحنا ومتى، واثنان من المستجيبة وهما: مرقش ولوقش."[2]، أما نقله عن التوراة والإنجيل فثابت عنه، حيث يقول وهو يبرهن على أن بنوة المسيح هي من باب التبني والتربية لا بنوة حقيقية: "إن الله قال إسرائيل بكري أي هو أول من تبنيت من خلقي وأنه قال إسرائيل بكري وبنوه أولادي وأنه قال لداود سيولد لك غلام يسمى لي ابنا وأسمى له أبا وأن المسيح قال في الإنجيل أنا ذاهب إلى أبي وأبكم وإلهي وإلهكم "[3]، كما نجده نقل نصوصا من الوصايا العشر والمزامير فيقول: "ولكنهم يخبرون أن الله تبارك وتعالى قال في العشر الآيات التي كتبتها أصابع الله: إني أنا الله الشديد وإني أنا الله الثقف وأنا النار التي آكل النيران آخذ الأبناء بحوب الآباء القرن الأول والثاني والثالث إلى السابع... وإن داود أخبر أيضا في مكان آخر عن الله تعالى فقال: وانتبه الله كما ينتبه السكران الذي قد شرب الخمر."[4]، ونقل نصوصا أخرى من سفر الخروج وسفر إشعيا وسفر التثنية[5].

ونقل أبو الحسن العامري بدوره نصوصا من التوراة والإنجيل لبيان أن نبوة محمد عليه السلام واردة فيها فنجده يقول: "على أنا لا نصدق بهذا القول إلا أن نأتي بشهادة الألفاظ المسطرة في كتبهم خصوصا الكتابان اللذان أشار إليهما القرآن بقوله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[6]؛

1- **dialogue islamo-chrétien sous le calife ALMA'MUN (813-843) les épîtres d'ALHACHIMI et d'ALKINDI thèse de doctorat de 3éme cycle présenté par Georges TARTAR pasteur professeur d'arabe 1977 université des sciences humaine de Strasbourg faculté de théologie protestante pp. 8-9**

2- المختار في الرد على النصارى للجاحظ ص: 71.

3- نفسه ص: 72-73.

4- نفسه ص: 76.

5- نفسه ص:76-77.

6- سورة الأعراف آية: 157.

فنحن إذا جدراء بأن نصرف السعي إليه ونحل الشبهة بذكره فنقول: إنا وجدنا في السفر الخامس في التوراة في الفصل الحادي عشر منه قول الله تعالى لموسى: إني أقيم لكم نبيا في أنفسكم ومن إخوتكم وأيما رجل لم يسمع لما يؤديه ذلك النبي انتقمت منه، ثم في هذا الفصل بعينه: إن الرب إلهك مقيم من بنيك ومن نفس إخوتهم نبيا مثلك فاسمعوا له وأطيعوا، ثم في هذا السفر في الفصل العشرين منه إن الرب جاء من طور سيناء وطلع من ساعير وظهر من جبال فاران وعن يمينه ربوات من القديسين فمنحهم القوة ودعا لجميع قديسيه بالبركة. ثم وجدنا في الإنجيل المنسوب إلى يوحنا في الفصل الخامس عشر منه إن فارقليط روح الحق الذي يرسله أبي باسمي هو يعلمكم كل شيء. فهذه هي ألفاظ البشارة من هذين الكتابين ولقد نقلت إلى اللسان العربي من اللسان السرياني وليس يجحدها أحد من أهل المعرفة بالكتابين "[1]؛ وعن معرفته بكتب أهل الكتاب يقول: "فأما الأناجيل الأربعة التي كتبها تلامذة المسيح أعني متى ولوقا ومرقس ويوحنا فهي تشتمل على أخبار المسيح عليه السلام وما جرت عليه أحواله من لدن مولده إلى آخر أيامه مقرونا بذكر ما سمعوه من مواعظه وأمثاله وثنائه على الله -تعالى جده - وتسابيحه ثم لا يزيد عليه. ولقد صنف شمعون الصفا بعد كتابا يعرف ببراكسيس غير أنه لم يودعه إلا أخبار تلاميذ المسيح وما تصرفت عليه أحوالهم، ثم تلاه في التصنيف بولس وسماه السليخ وهو مشتمل على ما يخالف الإنجيل من الأنباء مخالفة ظاهرة وكل ما عدا هذين الكتابين من كتب النصارى فليس يزيد على الأناجيل الأربعة شيئا"[2].

ونقل القاضي عبد الجبار من التوراة في كتابيه، "المغني في أبواب التوحيد والعدل"، و"تثبيت دلائل النبوة" حيث يقول: " فقد ذكر أهل العلم أن التوراة التي في أيديهم مختلفة فيما تتضمنه وتشتمل عليه من ذكر أحكام وتواريخ واستدل بذلك على النقل فيه غير مستمر لأنه لو كان كذلك لما تغير حال ألفاظه حتى يكون في توراة اليهود ما ليس في توراة فرقة يقال لها السامرة من الزيادات والذي بأيد النصارى فيها أيضا زيادات ونقصان.. على أنه قيل إن في التوراة ما يدل على أنه ليس من كلام الله تعالى ولا من كلام موسى لأن فيها الإخبار عن موت موسى عليه السلام وعن أحوال بني إسرائيل بعده كما أن فيها الإخبار

1- أبو الحسن العامري، الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق ودراسة أحمد غرابي، الرياض، مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الطبعة الأولى، 1408هـ/1988م، ص: 202-204.

2- نفسه ص:207-208.

عن أنبياء كانوا بعد موسى كل ذلك يبين أنه من كلام من جاء بعد موسى"[1]. ويقول عن البشارة بمحمد في التوراة:" فأما اشتمال التوراة والإنجيل على البشارة بمحمد عليه السلام فمما عرفناه بالقرآن وقد ذكر في ذلك ألفاظا كثيرة دالة على البشارة بنبي يعظم حاله ولزوم شرعه، وذكر أن في السفر الأول من التوراة أنه تعالى قال لإبراهيم ﷺ: فأما إسماعيل فقد استجبت دعاك وعظمت ذكرك به جدا جدا واذخرته لأمة عظيمة. وفي السفر الخامس منها انه تعالى قال لموسى ﷺ في بني إسرائيل: إني سأقيم لهم من إخوتهم نبيا مثلك وأجعل كلامي في فمه فيقول لهم كل ما أوصيه به. والذي يكون من إخوة بني إسرائيل لا يكون إلا محمدا عليه السلام لأنه من ولد إسماعيل، وبنو إسرائيل من ولد إسحاق"[2].

وإن كان كما يظهر من هذا النص أن القاضي عبد الجبار لم يطلع مباشرة على نصوص التوراة وإنما أخذ عن غيره بدليل قوله "فقد ذكر بعض أهل العلم" وقوله " على أنه قد قيل"، فما ذكره في كتابه تثبيت دلائل النبوة يؤكد أنه مطلع حيث يقول: "وقد قال في التوراة إن إسرائيل ابني وبكري وأولاده أبنائي. وعلى دعوى النصارى تجب لهم الألوهية وقد قال إشعيا النبي ﷺ في كتابه: إن الله أبو جميع العالم. وأنتم معشر النصارى تذكرون أن متى حكى في إنجيله أن المسيح قال: طوبى لكم معشر المصلحين بين الناس فإنكم تسمون أبناء الله. وقال متى في إنجيله إن المسيح قال للناس إن أباكم السماوي واحد فرد"[3]؛ وفي كتابه هذا فصول في إثبات نبوة محمد عليه السلام بإخباره عن النصرانية في أزيد من مائة وأربعين صفحة كلها تدل على أنه مطلع على كتب النصارى إذ تضمنت العديد من النصوص التوراتية والإنجيلية.

وإن كان البيروني قد ألف كتابه: "تحقيق ما للهند من مقولة ..." فهذا لا ينفي أنه اطلع على كتب أهل الكتاب، ففي مقدمة كتابه يذكر الأسباب التي دفعته للتأليف والمتمثلة في فقدان الموضوعية في الكتب التي ألفت لنفس الغرض يقول: "فما وجدت من أصحاب كتب المقالات أحد قصد الحكاية المجردة من غير ميل ولا مداهنة سوى أبي العباس

1- القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل قوم نصوصه على نسختين خطيتين أمين الخولي بإشراف طه حسين، وزارة الثقافة والإرشاد القومي الإدارة العامة للثقافة الطبعة الأولى 1960/.13800م القاهرة مطبعة دار الكتب الشركة العربية للطباعة والنشر، الجزء 16، ص: 136.

2- نفسه ص: 137.

3- القاضي عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة ص: 120.

الإيرانشهيري إن لم يكن من جميع الأديان في شئ بل منفردا بمخترع له يدعو إليه ولقد أحسن في حكاية ما عليه اليهود والنصارى وما تتضمنه التوراة والإنجيل وبالغ في ذكر المانوية وما في كتبهم من خبر الملل المنقرضة وحين بلغ الهند والسمنية صاف سهمه عن الهدف وطاش في آخره لكتاب زرقان ونقل ما فيه إلى كتابه"[1]، وحكمه على كتاب أبي العباس الإيرانشهيري وثناؤه عليه، دليل على أن له اطلاعا على كتب اليهود والنصارى والمانوية وإلا كيف استطاع أن يقيم هذا الكتاب ويثني عليه بخصوص هاته العقائد وفي الوقت نفسه يقول عن صاحبه لما تحدث عن الهند والسمنية أن سهمه صاف عن الهدف وطاش، مما دفعه لتأليف كتابه في مقولة الهند، ويكفي أن نقرأ قوله :"وإذا تأملنا : لفظ الرب في العبرية والسريانية اللتين بهما الكتب المنزلة قبل القرآن وجدنا الرب في التوراة وما بعدها من كتب الأنبياء المعدودة في جملتها موازيا لله في العربي... فقد ذكر فيها أن بني أولوهيم نزلوا إلى بنات الناس قبل الطوفان وخالطوهم وذكر في كتاب أيوب الصديق أن الشيطان دخل مع بني أولوهيم إلى مجمعهم وفي توراة موسى قول الرب له إني جعلتك إلها لفرعون وفي المزمور الثاني والثمانين من زبور داود أن الله قام في جماعة الآلهة يعني الملائكة وسمى في التوراة الأصنام آلهة غرباء ولولا أن التوراة حظرت عبادة كل ما دون الله والسجود بل وذكرها أصلا وخطرها على البال لقد كان يتصور من هذه اللفظة أن المأمور به هو رفض الآلهة الغرباء دون التي ليست بعبرية والأمم الذين كانوا حول أرض فلسطين هم الذين كانوا على دين اليونانيين في عبادة الأصنام ولم تزل بنو إسرائيل كانوا يعصون الله لعبادة صنم "بعلا"وصنم "استروت" للزهرة "[2].

أما اطلاعه على كتب النصارى فيظهر في قوله: "وهكذا اسم الأبوة والبنوة في الإسلام لا يسمح بهما إذ الولد والابن في العربية متقاربا المعنى ... وما عدا لغة العرب يسع لذلك جدا حتى تكون المخاطبة فيها بالأب قريبة من المخاطبة بالسيد وقد علم ما عليه النصارى من ذلك حتى أن من لا يقول بالأب والابن فهو خارج عن جملة ملتهم والابن يرجع إلى عيسى بمعنى الاختصاص والأثرة وليس يقصر عليه بل يعدوه إلى غيره فهو الذي يأمر تلاميذه في الدعاء بأن يقولوا يا أبانا الذي في السماء ويخبرهم في نعي نفسه إليهم بأنه ذاهب إلى أبيه وأبيهم ويفسر ذلك بقوله في أكثر كلامه عن نفسه أنه ابن البشر

1- البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ص: 4-5.
2- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ص: 27-28.

وليست النصارى على هذا وحدها ولكن اليهود تشركها فإن في سفر الملوك أن الله تعالى عزى داود على ابنه المولود له من زوجة أوريا ووعده منها ابنا يتبناه فإذا جاز التبني بالعبري أن يكون سليمان ابنا جاز أن يكون المتبني أبا"[1].

واطلاعه على كتب المنانية ثابت أيضا حيث يقول: "والمنانية تشابه النصارى من أهل الكتاب وصاحبهم ماني يقول في هذا المعنى في كتاب كنز الأحياء أن الجنود النيرين يسمون أبكارا وعذارى وآباء وأمهات وأبناء واخوة وأخوات لما جرى به الرسم في كتب الرسل."[2].

أما اطلاعه على كتب البراهمة فلا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه ويكفي الاطلاع على الكتاب ليظهر ذلك جليا لأول وهلة، فقد خصص فصلا يذكر فيه كتبهم الملية فيقول في باب "ذكر بيد والبرانات وكتبهم الملية ":"بيد تفسيره العلم لما ليس بمعلوم، وهو كلام نسبوه إلى الله تعالى من فم "براهم"ويتلوه البراهمة تلاوة من غير أن يفهموا تفسيره ويتعلمونه كذلك فيما بينهم يأخذه بعضهم من بعض ثم لا يتعلم تفسيره إلا قليل منهم ... وأما البرانات وتفسير بران الأول القديم فإنها ثمانية عشر وأكثرها مسماة بأسماء حيوانات وأناس وملائكة بسبب اشتمالها على أخبارهم أو بسبب نسبة الكلام فيها أو الجواب عن المسائل إليها وهي من عمل القوم المسمين رشين والذي كان عندي منها مأخوذا عن الأفواه بالسماع ...وما رأيت منها غير قطع ... ثم قرأت علي من بشن بران على هيئة أخرى فأثبتها أيضا"[3].

ويقول أيضا :"وأما كتاب سمرت فهو مستخرج من بيد في الأوامر والنواهي عمله أبناء براهم العشرون"[4]، ويضيف في الباب نفسه قائلا :"ولهم كتب في فقه ملتهم وفي الكلام وفي الزهد والتأله وطلب الخلاص من الدنيا، مثل كتاب عمله "كور" الزاهد عرف باسمه"[5] ويكفي أن البيروني ترجم اثنين من كتب الهند كما سبق ذكره ليثبت أنه كان على علم بكتب الهند ولغتهم.

1- نفسه ص: 28-29.
2- نفسه ص: 29.
3- نفسه ص: 96-101.
4- نفسه ص: 101.
5- نفسه ص:102.

أما ابن حزم فيقول في وصفه للتوراة: "فما ظنكم بمثل هذا العدد من الكذب والمناقضة في مقدار توراتهم وإنما هي مقدار مائة ورقة وعشرة أوراق في كل صفحة منها ثلاثة وعشرون سطرا إلى نحو ذلك بخط هو إلى الانفساخ أقرب يكون في السطر بضع عشرة كلمة "[1]، ويقول في حديثهم عن كذبهم على الله: "وكم عرض لنا هذا مع علمائهم في مناظراتنا قبل أن نقف على نصوص التوراة"[2]، وهذا قول صريح يدل على أنه وقف فيما بعد على نصوص التوراة كما يؤكد ذلك قوله: "وقد كنا نعجب من أطباق النصارى ..إلى أن وقفنا على ما بأيدي اليهود فرأينا أن سبيلهم وسبيل النصارى واحد "[3]، ومما يدل أيضا على الأمر نفسه ما أورده من تاريخهم وتاريخ ملوكهم وكله منصوص عليه في سفري الملوك وسفري الأخبار الأيام. وفي نقده لباقي أسفار العهد القديم يقول: "ونذكر إن شاء الله تعالى طرفا مما في سائر الكتب التي عندهم التي يضيفونها إلى الأنبياء عليهم السلام من الفساد كالذي ذكرنا في توراتهم "[4]، ثم يردف القول: "أما كتاب يوشع فإن فيه براهين قاطعة بأنه أيضا تاريخ ألفه لهم بعض متأخريهم ..."[5]، ويقول عن الزبور: "وأما الكتاب الذي يسمونه الزبور ففي المزمور الأول منه ..."[6] ثم يتعرض بعد ذلك بالنقد لكل من المزمور: 44،107،86،77،81،88،61[7]، وينتقل بعد ذلك إلى كتب سليمان قائلا: "وأما الكتب التي يضيفنها إلى سليمان عليه السلام فهي ثلاثة"[8] ومثل ذلك كله فعله معه كتاب حزقيا وإشعيا ...[9].

أما عن الأناجيل فيقول ابن حزم في وصفها: "وأما النصارى فقد كفونا هذه المؤونة كلها لأنهم لا يدعون أن الأناجيل منزلة من عند الله تعالى على المسيح ..بل كلهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألفاها أربعة رجال معروفون في أزمنة مختلفة، فأولها تاريخ ألفه متى اللاواني تلميذ المسيح بعد تسع سنين من رفع المسيح عليه السلام وكتبه

1- ابن حزم، الفصل: ج 1 ص: 285.
2- نفسه ج1: ص: 316.
3- نفسه ج1 ص: 201.
4- نفسه ج 1 ص: 306.
5- نفسه ج 1 ص: 306.
6- نفسه ج 1 ص: 307.
7- نفسه ج 1 ص: 307-308-309.
8- نفسه ج 1 ص:310.
9- نفسه ج 1 ص:311.

بالعبرانية ... يكون نحو ثمان وعشرين ورقة بخط متوسط..والآخر تاريخ ألفه مارقش الهاروني ..بعد اثنين وعشرين عاما من رفع المسيح وكتبه باليونانية.. يكون أربعة عشرة ورقة بخط متوسط ... والثالث تاريخ ألفه لوقا... كتبه باليونانية ..يكون من قدر إنجيل متى والرابع ألفه يوحنا ..بعد رفع المسيح ببضع وستين سنة كتبه باليونانية يكون أربعة وعشرين ورقة بخط متوسط"[1]، وهذا الوصف الدقيق يدل على وجود الأناجيل الأربعة بين يدي ابن حزم وقت وصفه لها، بل أكثر من ذلك فقد توفر على كتب العهد الجديد حيث يصفها بنفس الطريقة قائلا: "ثم ليس للنصارى كتاب قديم يعظمونه بعد الأناجيل إلا الإفركسيس ..وكتاب الوحي والإعلان.. والرسائل القانونية وهي سبع رسائل فقط منها ثلاثة رسائل ليوحنا ..ورسالتان لباطره شمعون.. ورسالة واحدة ليعقوب وأخرى لأخيه يهوذا ..تكون كل رسالة من ورقة إلى ورقتين ...ورسائل بولس ...وهي خمسة عشرة تكون كلها نحو أربعين ورقة."[2].

ولم يكتف ابن حزم بمطالعة كتب أهل الكتاب المقدسة فقط، بل اطلع على تلك التي لا تقل مكانة في القدسية عنها فعند اليهود اطلع على التلمود حيث نجده يذكره في قوله: "وفي كتاب آخر من التلمود يقال له ساندر ناشيم ومعناه تفسير أحكام الحيض"[3]، وعنه أيضا يقول: "وفي كتاب لهم يسمى شعر توما من كتاب التلمود والتلمود هو معولهم وعمدتهم في فقههم وأحكام دينهم وشريعتهم وهو من أقوال علمائهم.."[4]، كما كان يكتفي في بعض الأحيان بقوله عنه: "وعن بعض كتبهم المعظمة..."[5]، وأحيانا بقوله: "وفي بعض كتبهم..."[6].

أما عن الكتب المعظمة عند النصارى غير كتب العهدين فيقول: "ثم كتاب لهم بعد ذلك بلا خلاف بينهم أنه من تأليف المتأخرين من أساقفتهم وبطاركتهم كمجامع البطاركة والأساقفة الكبار الستة وسائر مجامعهم الصغار وفقههم في أحكامهم الذي عمله لهم دكريد الملك وبه يعمل نصارى الأندلس ثم لسائر النصارى أحكام أخرى"[7].

1- الفصل ج 2 ص: 13-14.
2- نفسه ج 2 ص: 14-15.
3- نفسه ج 1 ص: 325.
4- نفسه ج 1، ص: 324.
5- نفسه ج 1 ص:323-324.
6- نفسه ج 1 ص: 322.
7- نفسه ج 2 ص: 15.

كل هذه أقوال دالة على أن ابن حزم كان مطلعا على الكتب المقدسة للنصارى وعلى قرارات مجامعهم الكنسية خاصة مجمع نيقية الذي تقررت فيه ألوهية المسيح بدليل ذكره للفرقة الأريوسية وحديثه عن أريوس[1] وذكره للأمانة الكبرى بلفظها[2] وهي أمانة قررها مجمع نيقية.

وإذا برع ابن حزم بنقده لعقائد اليهود والنصارى وكتبهم فقد كان أيضا مطلعا على كتب المجوس أيضا خاصة كتب المانوية وأقوال رسولها ماني فهاهو يقول: "وقال المتكلمون إن ديصان كان تلميذ ماني وهذا خطأ بل كان أقدم من ماني لأن ماني يذكره في كتبه ورد عليه."[3]، وقال في موضع آخر في رده على أقوال المتكلمين دائما بخصوص المجوس: "فإن المتكلمين ذكروا عنهم أنهم يقولون أن الباري عز وجل لما طالت وحدته استوحش فلما استوحش فكر فكرة سوء فتجسمت فاستحالت ظلمة فحدث منها "هرمن" وهو إبليس ..قال أبو محمد رضي الله عنه هذا أمر لا تعرفه المجوس بل قولهم الظاهر هو أن الباري تعالى وهو "أورمن" وإبليس وهو "هورمن" و"عام" وهو الزمان و"حام" وهو المكان وهو الخلاء أيضا و"توم"وهو الجوهر وهو أيضا الهيولي وهو أيضا الطينة والخميرة خمسة لم تزل"[4]؛ ولا يتسنى لابن حزم أن يحكم على أقوال المتكلمين ويخطئها إلا إذا كان مطلعا على أصول المجوس.

وقبل أن نختم هذا الحديث عن هذا المصدر الثاني من مصادر علماء المسلمين في مقارنة الأديان هناك سؤال يطرح نفسه بإلحاح وهو بأي لغة اطلع هؤلاء العلماء على هذه الكتب هل بالعربية أم بلغاتها الأصلية ؟ وهو سؤال طالما شغلنا ونحن طلبة في وحدة المناظرات الدينية في الفكر الإسلامي خاصة عند ابن حزم الذي كان موضوعا من مواضيع الدرس في سنتي الدبلوم وسأحاول هنا إبداء الرأي فيه.

لا شك أن المسلمين اطلعوا على الكتب المقدسة لمختلف هذه الأديان تارة باللغة العربية وأخرى بلغتها الأصلية. أما عن اللغة العربية فلقد عرفت الحضارة الإسلامية عصرا عرف بعصر الترجمة تم فيه نقل العديد من الكتب اليونانية والسريانية والفارسية إلى العربية وكان أكثر هؤلاء المترجمين نصارى وفرس ولقد تحدث ابن النديم عن عصر

1- نفسه ج 1 ص: 109.
2- نفسه ج 1 ص: 118.
3- نفسه ج 1 ص: 91.
4- نفسه ج 1 ص: 86-87.

الترجمة وذكر السبب الذي دعا المأمون إلى القيام بهذا العمل[1]. أما في الأندلس فقد ذكر لنا صاحب "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام" وجود ترجمتين معتمدتين في الأندلس لدى النصارى وهما ترجمة "يرنوم" و"حفص بن بر" وكان نقله عن هذه الأخيرة في كل النصوص التي أوردها في كتابه حيث يقول في رده على من احتج عليه بنصوص التوراة والإنجيل بلغتهما الأصلية: "وأما قولك فأثبتوه من التوراة بالعبراني ومن الإنجيل بالعجمي فلتعلم أن لولا كره منا أن نتكلم برطانة العجم لكان ذلك علينا أيسر شئ يلتزم ولكنا إن شاء الله تعالى نذكر كلام الأنبياء من كتبكم كما قد ترجمها المترجمون من أهل ملتكم مثل يرنوم وحفص بن بر"[2]، كما أن هناك ترجمة أخرى للعهد الجديد خاصة حيث "تشير المصادر النصرانية إلى يوحنا خوان الإشبيلي الذي عاش في القرن التاسع الميلادي ويعزو إليه رودريجو حمينيت بعد عدة قرون أنه وضع تعليقات عربية على الكتاب المقدس، ودعاه العرب سعيد مطران على أنه من المؤكد أنه وجدت ترجمة عربية للعهد الجديد في مدينة قرطبة تعود إلى سنة 908م وهي من عمل إسحاق بن بلشك velasco ونجد التأثير العربي واضحا فيها فيبدأ كل الجمل بالبسملة الإسلامية ويبدو أنه كان متمكنا من العربية"[3]. والملاحظ أن كتب أهل الكتاب حظيت بعناية كبرى من طرف المترجمين خاصة أن كثيرا من هؤلاء كانوا كما سبق ذكره فرسا أو نصارى أو سريان[4]، وأول خبر عن التوراة والكتب الدينية لأهل الكتاب[5] نقله لنا ابن قتيبة 276هـ حيث يقول في كتابه "تأويل مشكل القرآن": "وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ولذلك لا يقدر

1- ذكر ابن النديم أن من هذه الأسباب أن المأمون رأى ارسطوطاليس في منامه يقول له: "من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد، فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب" ص397 وذكر أسماء النقلة من اللغات إلى اللسان العربي وأسماء النقلة من الفارسي إلى العربي ص398-400.

2- القرطبي، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، ص: 220.

3- عبادة كحيلة، تاريخ النصارى في الأندلس، المطبعة الإسلامية المدنية، الطبعة الأولى 1993/ص: 124-125.

4- من أشهر هؤلاء النقلة أبو زيد حنين بن إسحاق الطبيب النسطوري السرياني 810م-877م، وثابت بن قرة الصابئي الطبيب الفيلسوف الرياضي الوثني السرياني 826م-901م،وقسطا بن لوقا البعلبكي المولد النصراني المعتقد اليوناني الأصل 820م-912م،ويحيىبن حميد بن زكريا بن عدي السرياني اليعقوبي الملقب بالمنطقي 893-973. دراسات في الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها دار صادر بيروت الطبعة الخامسة 1399هـ1979 ص:159-169.

5- للمزيد من المعلومات حول ترجمات الكتاب المقدس يمكن الرجوع إلى مقال الآنسة ملك هنانو "من التوراة" مجلة المجمع العربي المجلد التاسع والثلاثون الجزء الثاني أبريل 1964 ص:313-327.

أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نقل الإنجيل من السريانية إلى الحبشية والرومية وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله تعالى بالعربية."[1]، ويذكر المسعودي 346هـ في كتابه "التنبيه": "بطلموس الكصندر وهو الذي نقلت له التوراة نقلها له اثنان وسبعون حبرا بالإسكندرية من بلاد مصر من اللغة العبرانية إلى اليونانية وقد ترجم من هذه النسخة إلى العربي عدة ممن تقدم وتأخر منهم حنين بن إسحاق وهي أصح نسخ التوراة عند كثير من الناس فأما الإسرائيليون من الإشمعث وهم الحشر والجمهور الأعظم والعنانية وهم ممن يذهب إلى العدل والتوحيد فيعتمدون في تفسير الكتب العبرانية التوراة والأنبياء والزبور وهي أربعة وعشرون كتابا وترجمتها إلى العربية على عدة من الإسرائيليين المحمودين عندهم قد شاهدنا أكثرهم، منهم أبو عشر يحيى بن زكريا الكاتب الطبراني اشمعثي المذهب وكانت وفاته في حدود العشرين والثلاثمائة ومنهم سعيد بن يعقوب الفيومي اشمعثي المذهب أيضا وكان قد قرأ على ابن كثير وقد يفضل تفسيره كثير منهم ."[2] أما ابن النديم فنقل إلينا الدقة التي تمت بها ترجمة أحمد بن عبد الله بن سلام للتوراة وحرصه الشديد على ألا يزيد فيها أو ينقص فيقول: "قال أحمد بن عبد الله بن سلام ترجمت صدر هذا الكتاب والصحف والتوراة والإنجيل وكتب الأنبياء والتلامذة باللغة العبرانية واليونانية والصابية وهي لغة أهل الكتاب إلى اللغة العربية حرفا حرفا ولم أبتغ في ذلك تحسين اللفظ ولا تزيينه مخافة التحريف ولم أزد على ما وجدته في الكتاب الذي نقلته ولم أنقص إلا أن يكون في بعض ذلك من الكلام ما هو متقدم بلغة أهل ذلك الكتاب فلا يستقيم لفظه في النقل إلى العربية وهو مثل أن يقول ات مايم تان- ترجمته بالعربية ماء هات فأخرت الماء وقدمت هات."[3]، وأما الترجمة الوحيدة التي يقول ابن النديم أنها وصلتنا فهي ترجمة سعديا الفيومي حيث يقول عنه: "ومن أفاضل اليهود وعلمائهم المتمكنين من اللغة العبرانية ويزعم اليهود أنها لم تر مثل الفيومي واسمه سعيد ويقال سعديا... وله من الكتب كتاب تفسير إشعيا، كتاب تفسير التوراة، نسقا بلا شرح..."[4].

1- تأويل مشكل القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة،شرح وتحقيق أحمد صقر دار إحياء الكتب العربية ص:16.

2- كتاب التنبيه والإشراف لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، طبع بمدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل سنة 1893م ص: 112-113.

3- الفهرست لابن النديم ص:35-36.

4- نفسه ص: 37.

أما عن كتب البراهمة فيكفي ما ذكرناه عن كتاب البيروني "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " ففيه شفاء.

أما عن قراءة هذه الكتب الدينية بلغتها الأصلية فثابت أيضا، فهو أمر مسلم به عند المهتدين إلى الإسلام من أهل الكتاب ونذكر منهم علي بن رين الطبري الذي نقل من التوراة باللغة العبرية في كتابه "الرد على النصارى "حيث يقول: "قال الله تعالى لموسى عليه السلام في التوراة وكل النصارى يشهدون بها إنني أنا الله "اهيا اسّر اهيا"[1].

أما السموأل بن يحيى المغربي فقد أورد نصوصا كثيرة بالعبرية في كتاب "بذل المجهود في إفحام اليهود"، بل إن هدفه من التأليف كما ورد في مقدمة كتابه هو: "الرد على أهل اللجاج والعناد وأن تظهر ما يعتور كلمتهم من الفساد على أن الأئمة ضوعف ثوابهم قد انتدبوا قبلي لذلك وسلكوا في مناظرة اليهود أنواع المسالك إلا أن أكثر ما نوظروا به يكادون لا يفهمونه أو لا يلتزمونه وقد جعل إلى إفحامهم طريقا مما يتداولونه في أيديهم من نص تنزيلهم وأعماهم الله عنه عند تبديلهم ليكون حجة عليهم موجودة في أيديهم"[2].
ومن النصوص التوراتية التي ذكر السموأل ما جاء في أول كتابه: "أقول لهم هل كان قبل نزول التوراة شرع أم لا؟ فإن جحدوا كذبوا بما نطق به الجزء الثاني من السفر الأول من التوراة إذ شرع الله على نوح عليه السلام القصاص في القتل ذلك من قوله تعالى: "شوفيخ دام ها أذم باذام دامو استافيخ كي يصيلم ألوهيم ععاسا ات هاأذام " تفسيره: سافك الدم لإنسان فالحكم بسفك دمه لأن الله خلق آدم بصورة شريفة "[3]وفي إشارته إلى اسمه ﷺ في التوراة قال: "قال الله تعالى في الجزء الثالث من السفر الأول مخاطبا إبراهيم الخليل عليه السلام: وأما إسماعيل فقد قبلت دعاءك قد باركت فيه، وأثمره وأكثره جدا جدا ذلك قوله: "وليشماعيل شمعتيخا هفي بيراختي أوثو وهفرتي أثو وهربيتي بمادماد"[4].

أما عند باقي المسلمين فاطلاعهم على التوراة والإنجيل بلغتهم الأصلية فيدل عليه ما وصلنا من كتبهم، ولعل ما أورده ابن حزم في كتابه الفصل يشير إشارة واضحة أن هذا

1- علي ابن رين الطبري، الرد على النصارى مصدر سابق ص: 121(9).
سفر الخروج:14/3 אֶהְיֶה אֲשֶׁר אֶהְיֶה.
2- السموأل، بذل المجهود في إفحام اليهود، ص: 17-18.
3- نفسه، ص:19-22، سفر التكوين:6/9.
4- نفسه، ص:86-87، سفر التكوين 20/17 וּלְיִשְׁמָעֵאל, שְׁמַעְתִּיךָ--הִנֵּה בֵּרַכְתִּי אֹתוֹ וְהִפְרֵיתִי אֹתוֹ וְהִרְבֵּיתִי אֹתוֹ, בִּמְאֹד מְאֹד: שְׁנֵים-עָשָׂר נְשִׂיאִם יוֹלִיד, וּנְתַתִּיו לְגוֹי גָּדוֹל.

العالم كان على علم بلغة أهل الكتاب حيث نجده يذكر كتبا بأسمائها العبرية فيقول: "في هذا الفصل خلاف لما في كتب اليهود والتوراة التي هي عندهم في النقل كالتوراة وهما كتاب ملاخيهم وكتاب براهياشيم"[1]؛ وتجدر الإشارة إلى التذكير أن لفظ التوراة عند كل علماء الإسلام إلا قليل منهم تطلق على الأسفار الخمسة[2]، ومن تم فابن حزم هنا يقصد بالتوراة الكتب الخمسة وبكتب اليهود باقي أسفار العهد القديم، أما التلمود فقد سماه باسمه كما سبق ذكره أو بقوله في كتبهم المعظمة، وهكذا فكتاب ملاخيهم هو سفر الملوك وكتب براهياميم وفي النسخة غير المحققة لكتاب الفصل برايياميم[3] هو سفر أخبار الأيام وتسميته لهذين السفرين بأسمائهما العبرية يوحي لنا أنه كان على علم بهذه اللغة، ويتأكد أن المقصود بالكتابين المذكورين هما فعلا سفرا الملوك وأخبار الأيام، سياق كلامه حيث يقول وهو يتحدث عن نسب المسيح في إنجيل متى ومخالفته لما ورد في العهد القديم: "وقال ها هنا أحزيا هو بن يهورام[4] وفي كتب اليهود إحزيا بن يورام[5] ...وقال ها هنا يوثام بن حزياهو[6] وهو في كتب اليهود المذكورة يوثام بن عزريا بن أمصيا بن يواش بن أحزيا[7] فأسقط ثلاثة آباء مما في كتب اليهود وهذا عظيم جدا "[8]. كما سبق الإشارة إلى قوله: "وفي كتاب آخر من التلمود يقال له سادر ناشيم ومعناه تفسير أحكام الحيض"[9] فهذا قول لا يمكن أن يصدر إلا من دارٍ باللغة العبرية وإلا كيف يفسر لنا أن سادر ناشيم وهو فصل النساء بأحكام الحيض، وفي مكان آخر يقول: "ولا يصح لهم دليل لا من إنجيلهم ولا من غيره من الكتب أن العلم يسمى ابنا ولا في كتبهم أن علم الله هو ابنه وقد ادعى بعضهم

1- ابن حزم، الفصل ج 2 ص: 28 وهما سفر الملوك: ملخيم מלכים، وسفر أخبار الأيام: دبري هياميم דברי הימים.

2- ملك هنانو، "من التوراة" ص:314.

3- ابن حزم، الفصل في الملل..وبهامشه الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المجلد الأول دار المعرفة بيروت لبنان ط 3 1395هـ/1975م ج 2 ص: 11.

4- متى1-8 :" ويورام ولد عزيا".

5- الملوك 8:25 :"ملك أخزيا بن يورام"، وأخبار الأيام الثاني22-1 "فأقام سكان أورشليم أخزيا بن يورام الأصغر ملكا".

6-متى1-9"وعزيا ولد يوثام".

7-الملوك الثاني11-2:"يواش بن أخزيا"، وفي الإصحاح14-1:" ملك امصيا بن يواش"، وفي الإصحاح15-1:" ملك عزريا بن امصيا". ونفس الشيء ورد في سفر أخبار الأيام الثاني على التوالي في الإصحاح 22عدد 11 والاصحاح 24عدد27 والاصحاح 26 عدد 1.

8- الفصل ج 2 ص:28-29 .

9- نفسه ج 1 ص: 325.

أن هذا تقتضيه اللغة اللاتينية من أن علم العالم يقال فيه أنه ابنه قال أبو محمد رضي الله عنه وهذا باطل ظاهر الكذب لأن الإنجيل الذي كان فيه ذكر الآب والابن وروح القدس لا يختلف أحد من الناس من أنه إنما نقل عن اللغة العبرانية إلى السريانية وغيرها معبر عن معاني تلك الألفاظ العبرانية وبها كان فيه الآب والابن والروح القدس وليس في اللغة العبرانية شئ مما ذكر وادعى."[1]، كيف لابن حزم أن يحكم أن ليس في اللغة العبرانية شئ مما ادعاه النصارى إن لم يكن عالما بهذه اللغة، وأود أن أشير في هذا الباب إلى أن ابن حزم تحدث في كتابه الأحكام عن اللغات فقال: "إلا أن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر لا لغة حمير لغة واحدة ...ومثل هذا كثير فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا... وإذا تيقنا ذلك فإن السريانية أصل للعربية والعبرانية معا."[2]، وهو كلام لا يمكن أن يصدر إلا عن عارف بهذه اللغات السامية الثلاث أما ما يستدل به المنكرون لمعرفة ابن حزم للغة العبرية والمتمثل في ما ورد عنه في قوله: "ولقد أخبرني بعض أهل البصر بالعبرانية ..."[3] فيكفي الرجوع إلى سياق النص لمعرفة أن ابن حزم كان في مناظرة مع اليهود حول تسمية يعقوب بإسرائيل وحتى يقنع خصمه استدل بأقوال اليهود أنفسهم حتى يسد على خصمه كل مسلك، كما نستدل نحن اليوم بأقوال الفرنسيين أو الإنجليز ونحن نعرف كلا اللغتين.

وفي حديثه عن الكتب المنسوبة إلى سليمان يقول: "وأما الكتب التي يضيفونها إلى سليمان عليه السلام فهي ثلاثة واحدها يسمى شارهسير[4] ومعناه شعر الأشعار ... والثاني يسمى مثلا معناه الأمثال ... والثالث يسمى قوهلت[5] معناه الجوامع "[6]، فلو كان العهد القديم الذي بين يدي ابن حزم بالعربية فكيف يسمي هاته الكتب بالعبرية؟

1- نفسه ج 1 ص: 113.

2- ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق أحمد محمد شاكر، تقديم إحسان عباس منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الثانية 1403هـ1983م ص:31-32.

3- الفصل ج 1 ص:233؛ نفى إحسان عباس أن يكون ابن حزم عارفا باللغة العبرية في تحقيقه لرسالة الرد على ابن النغريلة ضمن رسائل ابن حزم الناشر دار العروبة مطبعة المدني 1380هـ/1960م، ص: 14.

4- وهو سفر نشيد الأناشيد: شير هشيريم שיר השירים وسفر الأمثال: مشلي משלי.

5- وهو سفر الجامعة: قوهلت קוהלת.

6- الفصل ج 1 ص:310.

يجب أن لا نغفل أنه من الصعب الحصول اليوم على نسخة للتلمود بالعربية ومعظم الترجمات الموجودة باللغات الأخرى إما غير تامة وإما فيها حذف خاصة تلك النصوص التي تمس بالمسيحية أضف إلى أن التلمود يتوفر على أسرار لا يحب اليهود أن يطلع عليها سواهم فكيف يقومون بترجمته سواء فيما مضى أو اليوم؟[1]

ولقد استدل الإمام الغزالي بدوره بنصوص عبرية في كتابه "الرد الجميل على إلهية عيسى بصريح الإنجيل" حيث يقول: "ولفظ التوراة: وهنا يا ذو مصوراعث كالشولغ وتفسير هذا اللفظ العبراني بالعربية: وهذه يدك برصاء كالثلج."[2]

ونختم هذا المصدر الثاني بالقول أن الاستدلال بالنصوص التوراتية أو غيرها بالعربية ليس بسبب جهل العلماء المسلمين باللغات الأخرى وإنما هو ناتج عن تعظيمهم للغة العربية، حيث لم يكونوا يحبون التأليف إلا بلغة القرآن، ونستنتج هذا الأمر بكل بداهة من قول القرطبي :"فلتعلم أنه لولا كره منا أن نتكلم برطانة العجم لكان ذلك علينا أيسر شئ يلتزم"[3].

1- لقد تحدث عبد العزيز بن عبد الله في مقال له تحت عنوان: "الفكر الإسلامي وأثره في فلسفة بن ميمون وتطور التقاليد اليهودية "نشره في مجلة أكاديمية المملكة المغربية الدورة الثانية لسنة 1985م بأكادير أيام 14-16/ربيع الأول، 27-29/نونبر 1985م تحدث عن ترجمة كاملة للتلمود وشرح له إلا أنه لم يشر إلى مصدر أو مرجع حتى يمكن التأكد من قوله غير الموسوعة اليهودية، حيث قال:"إسحاق بن يعقوب الكوهن الملقب بالفاسي الذي ولد في قلعة ابن أحمد قرب فاس وتوفي باليسانة عام 497هـ/1103م وهو صاحب شرح التلمود في عشرين مجلدا بالعربية وجامع ثلاثمائة وعشرين فتوى بالعربية حول التشريع التلمودي"ص: 3-4 وقال في الصفحة 6-7: "فقد اعترفت الموسوعة اليهودية بأن يوسف بن أبي ثور المتوفي بدمشق 403هـ/1012م قام بترجمة كاملة للتلمود إلى العربية بطلب من الحكم الثاني الخليفة الأموي بالأندلس340/366هـ-961/976م وهو خريج مدرسة قرطبة".

2- أبو حامد الغزالي، الرد الجميل على إلهية عيسى بصريح الإنجيل، ص:29. الخروج4:6 : יָדוֹ מְצֹרַעַת כַּשָּׁלֶג.

3- القرطبي الإعلام بما في دين النصاى من الفساد والأوهام.. ص: 220.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بجلاله، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين، محمد وعلى آل بيته الطاهرين وصحابته أجمعين.

وبعد،

فإن هذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ المسلم عموما، وللمهتمين بعلم الجدل والمناظرة، والردود وعلم الكلام على الخصوص، من الكتب النفيسة والنادرة، التي ثار حولها جدل كبير، منذ عدة سنوات، وكان موضوع الجدل يدور بالأساس على هوية المؤلف من يكون؟

لقد سبق للدكتور أحمد حجازي السقا أن حقق هذا الكتاب[1]، وأخرجه سنة 1980م، اعتمادا على نسخة مخطوطة موجودة في "كوبريلي"، ونسب الكتاب إلى القرطبي صاحب التفسير، المتوفى سنة 671هـ. ومع أن أحمد حجازي السقا، أشار إلى احتمال أن يكون مؤلف الكتاب شخصا غير القرطبي المفسر، معتمدا في ذلك على ما جاء في نهاية المخطوطة التي اعتمدها في التحقيق، والتي تشير إلى أن الكاتب انتهى من رده على صاحب كتاب تثليث الوحدانية سنة 684هـ، مما يؤيد في نظره أن المؤلف لا يمكن أن يكون القرطبي المفسر وإنما قرطبي آخر، إلا أنه مع ذلك مال في الأخير إلى رأي بروكلمان والدكتور "القصبي محمود زلط"، الذي ناقش أطروحته في جامعة الأزهر، عن القرطبي ومنهجه في التفسير، وصاحب كتاب هدية العارفين، حيث اتفق الثلاثة على أن الكتاب هو للقرطبي المفسر.

ولعل اللبس الذي وقع فيه الدكتور أحمد حجازي السقا، راجع إلى عدم وقوفه على كل نسخ الكتاب موضوع التحقيق، وهو خطأ يقع فيه الكثير من المحققين، الذي يكتفون بما وجد لديهم من نسخ المخطوطة قيد الدرس. وقد أشار أستاذنا الفاضل الدكتور أحمد شوقي بنبين، إلى الخطر الذي قد ينتج عن مثل هذا التسرع، لما أولى أهمية قصوى لعملية التفتيش والبحث عن المخطوطات الموجودة، وإلا ستزيغ أبحاثنا ولاشك في متاهة الجرأة الذاتية، البعيدة عن التروّي والبحث الموضوعي. ويضرب لنا مثلا لإقناعنا بضرورة

1- الإمام القرطبي، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبينا محمد عليه السلام، تقديم وتحقيق أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1980.

التروّي، بكتاب سيبويه الذي حققه عبد السلام هارون، اعتمادا على أربع نسخ منه، لتأتي باحثة فرنسية وتعيد تحقيق الكتاب نفسه، اعتمادا على سبع وسبعين نسخة[1].

ولقد وقف ثلة من الباحثين على مخطوطة الخزانة الملكية وهم:

أولا: الباحث محمد إبراهيم الكتاني، حيث كتب في مخطوطة الخزانة الملكية بالمملكة المغربية بالرباط رقم 83، الموسومة بنقض تثليث الوحدانية ما نصه بالحرف: "توجد من هذا الكتاب نسخة في مكتبة كوبريلي بتركيا رقم: 794 مكرر، وفي معهد المخطوطات بالجامعة العربية، نسخة مصورة عنها باسم: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، وإظهار محاسن الإسلام، وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. تأليف القرطبي؟

وفي فهرس المخطوطات المصورة، أن مؤلفه فرغ منه سنة 684هـ بالكرك المحروس (ج.ا .ص.117). ويلاحظ أن بآخر نسخة مكتبة القصر الملكي هذه، أن أحمد بن يوسف السلاسي قرأ الكتاب على مؤلفه سنة 628هـ، وأن أحمد بن عمر قابله على المبيضة سنة 617هـ، فكيف يصح أن المؤلف أتمه سنة 684هـ؟ كما يلاحظ على هذه النسخة ما بآخرها من أنها منقولة عن نسخة كتبت سنة 726هـ. فكيف يصح مع ذلك أن تقابل سنة 617هـ وتقرأ على المؤلف سنة 628هـ، إلا أن تكون هي الأخرى منقولة من نسخة قوبلت وقورنت في التاريخين المذكورين". كتبه محمد إبراهيم الكتاني.

ثانيا: الباحث والمستشرق الهولندي فان كونينزفلد (VAN KONING SVELD)، وهو الذي ذكر لنا وجود نسخة من الكتاب بالخزانة الملكية وأعطى رقمها[2]، كما ذكر النص الموجود بآخر النسخة الذي جاء فيه: "وكان الفراغ منه أواخر يوم الخميس أواخر شهر جمادى الأولى سنة اثنين وأربعين وماية وألف بجزيرة جرية. وأما الفراغ من نسخ أصله ضحوة سادس يوم من شعبان سنة ستة وعشرين وسبع ماية بدمشق المحروسة. ووجدت على الأصل المنتسخ منه ما صورته: "قرأته على الإمام العالم الزاهد مصنفه -رضي الله عنه- بتاريخ مفتتح عام ثمانية وعشرين وستماية. وكتب العبد الفقير إلى الله أحمد بن

1- الطوبي المصطفى، مقالات في علم المخطوطات، تقديم شوقي بنبين، الرباط، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2000 ص: 52.

2- P.S. van Koningsveld, *La apología de Al-kindi en la España del siglo XII. Huellas toledanas de un "animal disputax". "Estudios sobre Alfonso VI y la Reconauista de Toledo.* Actas del II Congreso International de Estudios Mozárabes", vol. 3, Toledo 1989, pp. 107-129.

يوسف السلاسي: "ووجدت على الأصل أيضا : "بلغت المقابلة بالمبيضة والحمد لله وحده، وذلك على يد الفقير إلى مولاه الغني به أحمد بن عمر في العشر الأول لمحرم سنة سبعة عشر وستماية والحمد لله حق حمده والصلاة على محمد نبيه".

ثالثا : الباحث سمير قدوري، الذي حقق نسبة المخطوطة إلى صاحبها، معتمدا أدلة علمية مؤكدة، ولم يكتف كما فعل من سبقه بالتشكيك في نسبة الكتاب إلى القرطبي المفسر، واعتمد في تحقيقه للمؤلف على ما أشار إليه المستشرق الهولندي فان كنونزفلد، ونشر مقالا أوليا بجريدة العلم في صفحة الفكر الإسلامي بتاريخ 11 يونيو 1999 وعنونه بـ: "إثبات هوية القرطبي مؤلف الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام الكتاب نسبه المستشرقون إلى غير مؤلفه الحقيقي"، ثم أعقبه بمجموعة من مقالات أكثر دقة وتوضيحا، نُشرت في مجلات عربية وأجنبية[1]، بين فيها أن صاحب الكتاب، هو أبو العباس القرطبي أحمد بن عمر ت: 656هـ.

ثم جاء بعد هؤلاء مجموعة من الباحثين الذين أيدوا ما ذهب إليه من سبقوهم من كون المؤلف الحقيقي للكتاب، هو أبو العباس القرطبي، أهم هؤلاء الدكتور أحمد أيت بلعيد، الذي ناقش أطروحته لنيل درجة الدكتوراه، بعد تحقيقه للجزء الثاني من الكتاب المتعلق بالنبوات، ونشره بعنوان: "إثبات نبوة محمد"[2]، معتمدا في ذلك على النسخة المحفوظة بالخزانة الملكية بالرباط رقم: 83. وقد حقق بما لا يدع مجالا للشك أن مؤلف "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام"، هو أبو العباس القرطبي، واستفاد بشكل كبير مما ذكره سمير القدوري.

وعليه فلن نذكر في هذه المقدمة حياة المؤلف ولا مؤلفاته، فقد قام بهذا العمل أحمد أيت بلعيد وغيره من الباحثين المشار إليهم من قبل.

وما سنذكره في هذه المقدمة هو: لماذا إعادة تحقيق هذه المخطوطة؟ وما أهمية ذلك؟ ومنهجنا في التحقيق.

أولا: لماذا إعادة تحقيق الكتاب وأهمية ذلك؟

ليست الرغبة في تحقيق الكتاب وليدة اليوم، وإنما ترجع إلى عقد من الزمان، إلى أيام

1- Kaddouri Samir, "Identificacion de al-Qurtubi, autor de al-I'lam bi-ma fi din al-nasara min al-fasad wa-l-awham", al-Qantara, XXI, Madrid, 1(2000), 215-219

2- منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

الدراسة بوحدة المناظرات الدينية في الفكر الإسلامي، وبالتحديد صيف سنة 2000م، حيث أسسنا نحن طلبة الوحدة، جمعية للطلبة الباحثين في علم مقارنة الأديان، أعطيناها اسم: "جمعية الإمام ابن حزم للطلبة الباحثين في مقارنة الأديان"، وكان من أهم الأهداف التي وضعناها في هذه الجمعية: إعداد فهرسة جامعة للمصنفات الإسلامية في موضوع الجدل والمناظرة والمقارنة بين الأديان، فكوّنا مجموعات بحثية تكلفت كل مجموعة باللجوء إلى مكتبة معينة، والبحث في فهارسها على الكتب في مقارنة الأديان، وتكلفنا نحن بفهرسة الخزانة الملكية.

وأثناء القيام بهذا العمل في الخزانة الملكية، أثار انتباهنا، ونحن نبحث في فهارسها، مخطوطة لمؤلف مجهول تحمل عنوان: "نقض تثليث الوحدانية"، وحيث إن الكلمات التي جعلناها مفاتيح في البحث كانت من قبيل "اليهود"، "أهل الكتاب"، "أهل الذمة"، "النصارى"، "التوراة"، "الإنجيل"، "المناظرة"، "الرد"، "النقض"، "الصلب"، "الخلاص"..، وغيرها من الكلمات ذات الصلة بموضوع الجدل والمناظرة والمقارنة، والتي تدخل في الحقل المعرفي الذي يشغلنا، لم نكن لنغفل عنوانا كهذا.

وبالفعل قمنا بطلب المخطوطة، وألقينا عليها نظرة أولية، وبالفعل وجدناها كما ظننا، كتابا غنيا من حيث موضوعاتُه الجدلية والكلامية والعقدية، بالإضافة إلى كونه مصدرا أساسا في كتب مقارنة الأديان، وسهّل علينا العمل مع هذه المخطوطة، إشارة مهمة لمحمد إبراهيم الكتاني، في أول صفحة منها، يقول فيها إن نص المخطوطة طبع من قبلُ، اعتمادا على مخطوطة أخرى بتحقيق أحمد حجازي السقا، وبعنوان آخر هو: "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام"، وأن الكتاب ينسب للقرطبي المفسر.

دفعتنا هذه الإشارة إلى اقتناء الكتاب، ومقارنته بالمخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية والنظر إذا كانت تختلف عن المطبوع أم لا؟ وكانت المفاجأة كبيرة، حيث وجدناهما يختلفان ويكمل أحدها الآخر، فما سقط في المخطوطة ثبت في المطبوع، وما سقط في المطبوع وجدناه في المخطوطة، بل إن الكثير من الكلمات، وكذا بعض الفقرات وردت في المطبوع غير مفهومة وضحتها المخطوطة وبينتها، كما لاحظنا سقطا من حوالي ثلاث صفحات في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية.

وعليه قررنا إعادة تحقيق هذا الكتاب، وبدأنا عملنا فعليا في فاتح شهر غشت من سنة 2000م، فكان أحدنا يقرأ من المطبوع والآخر يتابع في المخطوطة مرة، ثم يقرأ الآخر

من المخطوطة ويتابع الآخر من المطبوع مرة أخرى، إلى أن أتممنا الكتاب والمخطوطة جميعا. بعد هذه الخطوة الأولى عزمنا على تحقيق الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، والأعلام، والأماكن، والأسماء، والفرق، والمذاهب، والأشعار، والنصوص التوراتية والإنجيلية الواردة في الكتاب، ولكن نظرا لانشغالنا ببحثينا للدكتوراه أرجئنا هذا العمل إلى ما بعد مناقشة الدكتوراه، ولكن للأسف مرة أخرى، حتى بعد مناقشتنا للدكتوراه سنة 2006م، لم نتمكن من إتمام العمل لالتزاماتنا المتعددة.

ولما رأينا جهدا مُهمًا قد بُذل في هذا العمل، لم نشأ أن نتركه يضيع، ونحرم الباحثين في هذا المجال، على الأقل من الوقوف على هذه المخطوطة وقراءتها، ونكفيهم مشاقّ التنقل إلى الخزانة الملكية وطلبها للقراءة، وقد لا تتوفر لبعضهم الإمكانيات والوقت لذلك، قررنا نشر هذا العمل على حالته التي وصلنا إليها، آملين أن نعيد نشره مرة أخرى في طبعة منقحة مفيدة بحول الله تعالى. كانت هذه قصتنا مع هذا المخطوطة القيمة.

أما عن أهم سبب دعانا إلى إعادة تحقيق هذا الكتاب هو عدم اعتماد المحققين السابقين للكتاب على المخطوطة المحفوظة في الخزانة الملكية. ونظنه سبب كاف لإعادة تحقيق الكتاب، خاصة والمخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية احتوت على معلومات إضافية قيمة، ترفع اللبس عن كثير من الإبهام الوارد في بعض عبارات الكتاب، بالإضافة إلى السقوط الموجودة في النسخة المطبوعة، والتي تقيمها هذه المخطوطة، بالإضافة إلى ذلك، أردنا أن نكمل العمل الذي بدأه أحمد أيت بلعيد الذي اكتفى بنشر قسم من الجزء الثاني والجزء الثالث من الكتاب المتعلق بالنبوات، وهكذا سيكون مجمل الكتاب بين يدي القراء والمهتمين بهذا العلم الإسلامي الأصيل: علم مقارنة الأديان. ولا ندعي أن ما قمنا به تحقيق تام وشاف، فلازال ينقصه الشيء الكثير ولكن حسبنا أننا قدمنا نص المخطوطة للباحثين والدارسين وقربناها لهم وكفيناهم مؤونة التنقل للاطلاع عليها، ونرجو من الله تعالى أن نتم هذا العمل في طبعة ثانية منقحة ومحققة.

وكنماذج عن التوضيح ورفع اللبس الذي تقدمه هذه النسخة نورد بعض النماذج في ما يلي:

إزالة الخلط الموجود في الكتاب المطبوع:

مثال ذلك ما جاء في الصفحة 68 منه:

فإن العلم شرط الإيجاد، والشرط متقدم في الذهن [على فعلم ويتحقق هذا المعنى على القطع عند من عرف الفرق بين العلم المشروط بالضرورة وكذلك نقول علم زيد فقدر ولا نقول قدر الفعلي والانفعالي].

من خلال قراءة ما بين المعقوفتين نلاحظ خلطا واضحا وكلاما غير مفهوم، والصواب ما جاء في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية حيث يستقيم الكلام:

فإن العلم شرط الإيجاد، والشرط متقدم في الذهن [على المشروط بالضرورة، ولذلك يقول: (علم زيد فقدر) ولا تقول: (قدر فعلم) ولتحقق هذا المعنى على القطع عند من عرف الفرق بين العلم الفعلي والانفعالي. ولو عكستم ما ذكرتم فسميتم العلم: أبا والقدرة ابنا، لكان أحق بذلك وأولى.]

إقامة السقط الواقع في الكتاب المطبوع

مثال ذلك ما جاء في الصفحة **46** منه:

وقد استخرت الله في أن أجمل هذا الكتاب على صدر وأربعة أبواب.

وقد بينت المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية وجود سقط بين كلمة "الكتاب" وجملة "على صدر وأربعة أبواب" فأثبتنا السقط لتصبح الفقرة على الشكل التالي:

وقد استخرت الله في أن أجمل هذا الكتاب [غير مقصور على جواب هذا السائل، بل أضمنه زائدا على ذلك فصولا من عقائدهم، وجملا من أحكامهم، وأتكلم معهم فيها حسب ما أمكن، وأعان الله عليه وبين. ولذلك اشتمل هذا الكتاب] على صدر وأربعة أبواب.

ومثله ما جاء في الصفحة **74** من الكتاب المطبوع:

فحصل من التقسيم، أن الأسماء على أربعة أضرب: أسماء ذات، وأسماء صفات، وأسماء سلوب، وأسماء أفعال. <u>وقد يقال عليها المعتبرين</u>، فإن كنت اصطلحت مع نفسك على غير ما تعارفه النظار، فلست على شيء مما كان عليه العلماء والأحبار، فتكلم باصطلاحك مع نفسك، ولا تخاطب به أحدا من أبناء جنسك.

ويظهر وجود سقط بين قوله: "وقد يقال عليها"، وقوله: "المعتبرين"، وقد بينت المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية هذا السقط:

فحصل من التقسيم، أن الأسماء على أربعة أضرب: أسماء ذات، وأسماء صفات، وأسماء سلوب، وأسماء أفعال. وقد يقال عليها [أسماء إضافات، فهكذا ينبغي أن تفهم

اصطلاح المتقدمين والنظار] المعتبرين، فإن كنت اصطلحت مع نفسك على غير ما تعارفه النظار، فلست على شيء مما كان عليه العلماء والأحبار، فتكلم باصطلاحك مع نفسك، ولا تخاطب به أحدا من أبناء جنسك.

ومثله أيضا ما جاء في الصفحة 131 من الكتاب المطبوع:

وأما التمثيل بنقش الخاتم يعود منحفرا في الشمع... والمنحفر في الخاتم يعود ناتئا في الشمع وذلك لا يتصور إلا في الأجسام، وإن جاز في غير الأجسام، فيلزم أن يكون كل واحد منهما، أعني: اللاهوت والناسوت يؤثر في الآخر ويحل فيه فيكون الناسوت حل في اللاهوت، وذلك محال عند كل فريق. والأمر الثاني أن النقش في الخاتم يوضع مقلوب الكلمات ثم تنطبع مستقيمة...، لانطبعت في الشمع منعكسة، فيلزم على مساق هذا المثال أن تنطبع الكلمة في الناسوت. أما الاستقامة أو بالعكس فإن انطبعت فيه بالاستقامة، فأقنوم الكلمة في الجوهر بالانعكاس، وإن انطبعت فيه بالانعكاس، فلم تبق الكلمة في الناسوت على حقيقتها في اللاهوت، بل هي منعكسة. فلا تبقى حقيقة العلم على ما كانت، بل هي ليس بعلم. وهذا كله مما يلزم على آرائهم الفاسدة ومتحكماتهم الباردة.

فهذه الفقرة فيها سقطان أثبتتهما المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية وهو ما كتب بين معقوفتين:

وأما التمثيل بنقش الخاتم يعود منحفرا في الشمع [فيلزم عليه أمران أحدهما: أن الناتئ من النقش في الخاتم يعود منحفرا في الشمع] والمنحفر في الخاتم يعود ناتئا في الشمع، وذلك لا يتصور إلا في الأجسام. وإن جاز في غير الأجسام، فيلزم أن يكون كل واحد منهما، أعني: اللاهوت والناسوت يؤثر في الآخر، ويحل فيه. فيكون الناسوت حل في اللاهوت، وذلك محال عند كل فريق. والأمر الثاني: أن النقش في الخاتم يوضع مقلوب الكلمات، ثم تنطبع مستقيمة [في الشمع ولو وضعت في الخاتم مستقيمة]، لانطبعت في الشمع منعكسة، فيلزم على مساق هذا المثال، أن تنطبع الكلمة في الناسوت إما بالاستقامة أو بالعكس، فإن انطبعت فيه بالاستقامة، فأقنوم الكلمة في الجوهر بالانعكاس، وإن انطبعت فيه بالانعكاس، فلم تبق الكلمة في الناسوت على حقيقتها في اللاهوت، بل هي منعكسة. فلا تبقى حقيقة العلم على ما كانت، بل هي ليس بعلم. وهذا كله مما يلزم على آرائهم الفاسدة ومتحكماتهم الباردة.

ومثله أيضا قوله في الصفحة 193 من الكتاب المطبوع:

ولا يوثق بكتاب نبي، فلا يلزم شيء من ذلك. فإن الخبر إذا تطرقت إليه أمثال... تلك الاحتمالات، فلا يوثق بنقله، ولا يعول عليه لإمكان تلك الآفات.

وهذه الفقرة أيضا فيها سقط لم يتبين إلا بنص المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية جعلناه بين المعقوفتين:

ولا يوثق بكتاب نبي، فلا يلزم شيء من ذلك. فإن الخبر إذا تطرقت إليه أمثال [هذه الاحتمالات، فلا يكون متواترا إذا كان قابلا لها، وأما كتب الأنبياء، فكل كتاب تطرق إليه أمثال] تلك الاحتمالات، فلا يوثق بنقله، ولا يعول عليه لإمكان تلك الآفات.

ثانيا: منهجنا في الكتاب:

اخترنا لهذا الكتاب العنوان الذي وضعه مفهرس الخزانة الملكية وهو: "نقض كتاب تثليث الوحدانية"، ومن خلال دراستنا للمخطوط، تبين لنا أن الأمر يتعلق بكتاب تثليث الوحدانية في معرفة الله، فقمنا بإضافة عبارة "في معرفة الله". وعدلنا عن عنوان الكتاب الأصلي الذي هو: "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه السلام"، لأننا لم نخرج الكتاب كله، ذلك أننا لم نخرج الجزء المتعلق بنبوة نبينا محمد عليه الصلاة والإسلام، فقد ذكرنا أنه سبق للدكتور أيت بلعيد أن أخرج هذا الجزء. ومادام الأمر كذلك فلو احتفظنا بالعنوان الأصلي للكتاب لن يكون العنوان دالا على المحتوى لحذفنا للجزء المتعلق بإثبات نبوة النبي عليه السلام.

وحيث إن المؤلف يتبع فيه منهج المتكلمين، ويناظر خصمه من منطلق أشعري محض، إلا في بعض الأماكن، نبهنا على واحد منها في متن الكتاب، وحيث إن الشائع لدى عدد مهم من الباحثين، أن بضاعة علماء الغرب الإسلامي في الجدل والمناظرة بضاعة مزجاة. ويعوّل القائلون بهذا الادعاء على ما روي عن ابن حزم، وتفوقه في الجدال على المالكية، وبعض النصوص الواردة في بعض كتب التراجم، نذكر منها ما رواه الحميدي في جذوة المقتبس، في ترجمته لأبي عمر أحمد بن محمد بن سعدي قائلا: "فسمعت أبا عبد الله محمد بن الفرج ابن عبد الله الولي الأنصاري يقول: سمعت أبا محمد عبد الله بن أبي زيد، يسأل أبا عمر أحمد بن محمد بن سعدي المالكي، عند وصوله إلى القيروان من ديار

المشرق، وكان أبو عمر دخل ببغداد في حياة أبي بكر محمد بن عبد الله بن صالح الأبهري، فقال له يوما: هل حضرت مجالس أهل الكلام؟ فقال: بلى، حضرتها مرتين ثم تركت مجالسهم، ولم أعد إليها. فقال له أبو محمد: ولمَ؟ فقال: أما أول مجلس حضرته، فرأيت مجلساً قد جمع الفرق كلها؛ من المسلمين من أهل السنّة والبدعة، والكفار من المجوس، والدهرية، والزنادقة، واليهود، والنصارى، وسائر أجناس الكفر. ولكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه، ويجادل عنه. فإذا جاء رئيس من أي فرقة كان، قامت الجماعة إليه قياما على أقدامهم حتى يجلس فيجلسون لجلوسه، فإذا غض المجلس بأهله، ورأوه أنه لم يبق لهم أحد ينتظرونه، قال قائل من الكفار: قد اجتمعتم للمناظرة فلا يحتجّ علينا المسلمون بكتابهم، ولا بقول نبيهم. فإنا لا نصدّق بذلك، ولا نقره به، وإنما نتناظر بحجج العقل، وما يحتمله النظر والقياس. فيقولون نعم لك ذلك. قال أبو عمر: فلما سمعت ذلك لم أعد إلى ذلك المجلس. ثم قيل لي: ثم مجلس آخر للكلام. فذهبت إليه فوجدتهم على مثل سيرة أصحابهم سواء، فقاطعت مجالس أهل الكلام، فلم أعد إليها. فقال أبو محمد بن أبي زيد: ورضي المسلمون بهذا الفعل والقول؟ قال أبو عمر: هذا الذي شاهدت منهم، فجعل أبو محمد يتعجب من ذلك."[1].

فأردنا من خلال هذا العنوان شد انتباه القارئين إلى أن لهذه المقولة استثناءات، وربما تكون هذه المقولة هي الاستثناء، وأن الحقيقة عكس ذلك تماما، خصوصا والمؤلف لهذا الكتاب محدِّث وهو صاحب "المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم"، ما يفند ادعاء أن المحدثين هم أهل رواية وحفظ، وأنهم أبعد علماء الإسلام عن الجدل والمناظرة والنظر.

وقد اعتمدنا بشكل أساس نص المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية تحت رقم: 83، وأشرنا إليه اختصارا بـ"خ/م"، مع ذكر الاختلاف مع النص المطبوع في الهامش، وأشرنا للنص المطبوع بـ"ط"، وفي الحالات الضرورية كنا نثبت نص المطبوع في المتن، ونشير في الهامش إلى ما ورد في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية؛ وذلك عند وجود تصحيف أو سقط في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية وفي بعض الحالات كنا نستبعد النصين معا إذا ظننا أنهما خاطئان.

1- الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966، تراثنا المكتبة الأندلسية 3، ص: 109- 110.

وذكر صاحب سير أعلام النبلاء الأمر نفسه في ترجمته للشخص نفسه، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، سنة النشر: 1422هـ / 2001م، الجزء 16، ص: 251-252.

نموذج للحالات التي ورد فيها تصحيف في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية:

ما جاء في الصفحة 43-44 من الكتاب المطبوع:

جاء في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية: "دل بقوله على ضعف عقله، وبمكاتبته على سوء محاولته، تعاطى درجة النُظار، وسود بأباطيله ذلك الطومار، ليستزل به الأغبياء الأغما، ويحصل بذلك على مناكلة شنار.. ولكن حل من عنقه ربقة العقول، فهو في كل جهالة يحول، وإليها يدعو وبها يغور.."

فهذه الفقرة اشتملت على كلمات خاطئة هي: الأغما، يحول، ويغور، فغيرناها بما جاء في المطبوع، أي: الأغمار، ويجول، ويقول.

دل بقوله على ضعف عقله، وبمكاتبته على سوء محاولته، تعاطى درجة النُظار، وسود بأباطيله ذلك الطومار، ليستزل به الأغبياء الأغمار، ويحصل بذلك على مناكلة شنار.. ولكن حل من عنقه ربقة العقول، فهو في كل جهالة يجول، وإليها يدعو وبها يقول...

ما جاء في الصفحة 45 من الكتاب المطبوع:

جاء في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية: "ولما أعرضوا عنك لجهالتك، تبحبحت بذلك عند عصابتك."

فقمنا بتصحيح كلمة "تبحبحت" الواردة في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية بكلمة "تبجحت" الواردة في المطبوع.

ولما أعرضوا عنك لجهالتك، تبجحت بذلك عند عصابتك.

ما جاء في الصفحة 154 من الكتاب المطبوع:

جاء في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية: "أما النقل، فهو أن العاقل، إذا أقر بأن الله خاطب موسى بصوت مسموع، أو ظهر في صورة مرئية، فقد قر بأن الله خص ذلك الصوت وذلك الصورة."

فقد احتفظنا بكلمة "أقر" و"تلك" بدل "قر" و"ذلك" الواردتين في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية.

"أما النقل فهو أن العاقل إذا أقر بأن الله خاطب موسى بصوت مسموع، أو ظهر في صورة مرئية، فقد أقر بأن الله خص ذلك الصوت وتلك الصورة."

ما جاء في الصفحة 179 من الكتاب المطبوع:

جاء في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية: "أفعجبت هنا بأنكم يحتج بعضهم على بعض".

أثبتنا في هذا المكان أيضا كلمة "بعضكم" الواردة في المطبوع بدل "بعضهم" الواردة في المخطوطة ليستقيم المعنى.

"أفعجبت هنا بأنكم يحتج بعضكم على بعض".

نموذج للحالات التي لم نثبت فيها أي من النصين:

ما جاء في الصفحة 44 من الكتاب المطبوع:

جاء في المطبوع وكذا في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية: "ومن كلام الحكمة: يزع الله بالسلطان ما لا يزغ بالقرآن. فأعرض العقلاء عنهم، واكتفوا من الرد عليهم بحكاية مذهبهم، ووكلوا الناظر فيه، لظهور تناقضه وفساد معانيه".

وردت في الكتاب المطبوع والمخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية كلمة "يزغ"، والصحيح يزع، لذلك غيرناها بالكلمة الصحيحة.

ما جاء في الصفحة 72 من الكتاب المطبوع:

لا بد لكل ناظر ينظر فيها نظرت أنت فيه..

قمنا بتصحيح قوله "فيه"، بكلمة "فيها"، وأضفنا كلمة "كما"، وجعلناها بين عارضتين.

لا بد لكل ناظر ينظر فيها -كما نظرت أنت فيها-

ما جاء في الصفحة 176 من الكتاب المطبوع:

جاء في الكتاب المطبوع والمخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية: "ولكن لا عليك، فإنما هو جنا يديك، فإني لأرجو أن يقف على هذا الكتاب جماعة المطارين، ويعلموا بما فيه أنك مخالف لمذاهبهم أجمعين، فيخرجوك من بين القسيسين ويلحقوك بالرياسيين."

في الكتاب المطبوع كما في النسخة الملكية وردت كلمتان هما: "جنا"، و"الرياسيين"، وكلاهما خطأ، والصحيح "جني"، و"الأريوسيين" نسبة لأريوس القائل بالتوحيد.

"ولكن لا عليك، فإنما هو جني يديك، فإني لأرجو أن يقف على هذا الكتاب جماعة المطارين، ويعلموا بما فيه أنك مخالف لمذاهبهم أجمعين، فيخرجوك من بين القسيسين ويلحقوك بالأريوسيين."

ما جاء في الصفحة 168 من الكتاب المطبوع:

وأهوى بجراك السماوة والغضا ... ولو أن صنفيه وشاة وعذال

جاء في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية كلمتا "بجراك" و"صنفيه"، وفي الكتاب المطبوع: "لجوان" و"صنفيه"، وكلاهما خطأ أما الصواب فهو: "لجراك" و"ضيفيه". كما ثبت ذلك في البيت الشعري المنسوب لأبي العلاء المعري، ويقول فيه:

وأبغضت فيك النخل والنخل يانع   وأعجبني من حبك الطلح والضال

وأهوى لجراك السماوة والغضا   ولو أن ضيفيه وشاة وعذال

أخيرا، استخرجنا نص كتاب تثليث الوحدانية، وأقوال أغشتين، وأقوال حفص بن بر وصاحب كتاب الحروف، وصاحب كتاب المسائل، وأثبتنا ذلك في ملحق في آخر البحث.

صورة غلاف المخطوطة

وبه نص محمد إبراهيم الكتاني

توجد من هذا الكتاب نسخة في مكتبة كوبريلي
تركيا رقم ٧٩٤ فكري وفي معهد المخطوطات
بالجامعة العربية نسخة مصورة عنها باسم:

الإعلام

بما في دين النصارى من الفساد والأوهام
وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة
نبينا محمد عليه الصلاة والسلام

تأليف

القرطبي؟

وفي فهرس المخطوطات المصورة أن مؤلفه
فرغ منه سنة ٦٨٤ بالكرج؟ تصوير
ج ١ ص ١١١٧ ويلاحظ أن بآخر نسخة وكتبه
الفقير المكي هذه أن أحمد بن يوسف ابن ناصر
قرأ الكتاب على مؤلفه سنة ٦٢٨ وأن أحمد بن
محمد بن عبد الله عنى بنسخه سنة ٦١٧ فكيف يصح أن المؤلف
أتمه سنة ٦٨٤؟ كما يلاحظ على هذه النسخة ما بآخرها
من أنها منقولة من نسخة كتبت سنة ٦٢٣ فكيف
يصح مع ذكر أن تأليفها بل سنة ٦١٧ وتقع أهل المؤلف
سنة ٦٢٨ ؟ إلا أن تكون هذه الأخيرة منقولة من نسخة
قديمة [illegible] قرأتها [illegible]

محمد إبراهيم الكتاني

الصفحة الأولى من المخطوطة
واشتملت على مقدمة المؤلف

الصفحة الأخيرة من المخطوطة

وصحبه أجمعين ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين ... بحمد الله وحسن
عونه وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما
وكان الفراغ منه آخر يوم الخميس أوائل شهر جمادى الآخر سنة اثنين وأربعين ومائة
وألف للهجرة النبوية وأما الفراغ من نسخ أصله فغرة سادس يوم شعبان سنة ست
وعشرين وسبعمائة بدمشق المحروسة ووجدت على الأصل المنتسخ منه ما صورته
قرأته على الإمام العالم الزاهد مصنفه رضي الله عنه بتاريخ مفتتح عام ثمانية وعشرين
وسبعمائة وكتب الفقير العبد الفقير إلى الله أحمد بن يوسف [illegible] ووجدت على
الأصل أيضا بلغت المقابلة بالمبيضة والحمد لله وحده وذلك على يد الفقير إلى مولاه
الغني به أحمد بن عمر في العشر الأول من المحرم سنة سبعة عشر وثمانمائة والحمد لله حق
حمده والصلاة على محمد نبيه وعبده ووجدت أيضا على الأصل المنتسخ منه ما صورته
طالعته من أوله إلى آخره فاستطلعت طلعه في موارده ومصادره ... البحر الزاخر
زلال ... [illegible] ... ما أبدع اختراعه وأبرع ما أبداه وأنواعه
[illegible] في حلية ... [illegible] ... الألباب في ... وتبهر القلوب
[illegible] ... سطراه ... معنوية الكيفية
[illegible] ... ووجدت الواحد بنفي ... [illegible]
[illegible] ... التركيب والتثليث ... [illegible]
[illegible] ... [illegible]
[illegible] ... من الجراح ... [illegible]
[illegible] ... [illegible]
[illegible] ... [illegible]
[illegible] ... [illegible]
[illegible] حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ... أحمد بن ... [illegible]
[illegible] ... بن ... بن ... [illegible]

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن يا الله.

الحمد لله الذي منَّ على عباده[1] بتوحيده، وجعلنا من أفضل عبيده، الذي جنبنا[2] الأهواء المذلة، والآراء المضلة، أرانا الحق إذ هدانا لبرهانه ودليله، وأظهر لنا الباطل. وتفضل علينا بالعدول عن سبيله. نحمده بمحامده التي لا تحصى، ونشكره على الآية التي لم تزل تترى، ونسأله الصلاة على نجبه من كافة الورى، أنبيائه ورسله أئمة الهدى، وخصوصا المبعوث إلى الثقلين، المفضل على العالمين، المؤيد بالآيات الصادعة، والبراهين القاطعة، موضح الحق بواضحات الدلائل، ومزهق[3] الكفر والباطل، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وعلى جميع النبيين والمرسلين. ورضى الله عن خلفائه الراشدين، وعن صحابته أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد وقفت - وفقك الله - على كتاب كتب به بعض المنتحلين لدين الملة النصرانية، سماه كتاب "تثليث الوحدانية"، بعث به من "طليطلة"، أعادها الله إلى مدينة "قرطبة" حرسها الله. متعرضا فيه لدين المسلمين، نائلا فيه من عصابة إله[4] الموحدين، سائلا عما لا يعنيه، ومتكلما بما لا يدريه، فأمعنت النظر فيه، فإذا بالمتكلم يسرف[5] بما لا يعرف، وينطق بما لا يحقق، ناقض ولم يشعر، وعمي من حيث يظن أنه يستبصر، ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[6] يلحن إذا كتب، ويعجم متى أعرب:

1- في ط: علينا.
2- في خ/م: جعلنا وهو تصحيف.
3- في ط: مرهق.
4- في خ/م: الحق وهو تصحيف.
5- في ط: يهرف.
6- سورة الفرقان: 44.

وذي خطــل في القــول يحــسب[1] أنــه مـصيب، فمـا يلمـم[2] بـه فهـو قائلـه.

دل بقوله على ضعف عقله، وبمكاتبته على سوء محاولته، تعاطى درجة النُظار، وسود بأباطيله ذلك الطومار[3]، ليستزل به الأغبياء الأغمار[4]، ويحصل بذلك على مناكلة[5] شنار ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[6]، وليته إذا ادعى النظر سلك طريقه، والتزم شروطه، فاعترف بالبديهيات، ولم ينكر[7] الضروريات التي هي أصول النظريات، ولكن حل من عنقه ربقة[8] العقول، فهو في كل جهالة يجول[9]، وإليها يدعو وبها

1- تحسب وهو تصحيف.

2- في خ/م: يلملم وهو تصحيف لأن البيت الشعري هو لزهير بن أبي سلمى الذي يقول فيه:

دفعت بمعروف من القول صائب إذا ما أضل، القائلين، مفاصله

وذي خطل في ألقول يحسَب أنهُ مصيب فما يلمم به فهو قائله

على معتفيه ما تغب فواضله وأعرضت عنه، وهو بادٍ مقاتله

وقد أورده في قصيدته التي مطلعها:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعري أفراس الصبا ورواحله

3- الطومار هو الصحيفة جاء في لسان العرب مادة طمر: والطُومارُ واحدُ المَطامير (◆ قوله: «والطومار واحد المطامير» هكذا في الأصل والمناسب أن تقول والمطمار واحد المطامير أو يقول والطومار واحد الطوامير). ابن سيده: الطامُور والطُومارُ الصحيفةُ، قيل: هو دَخيل، قال: وأراه عربياً محضاً لأن سيبويه قد اعتدَّ به في الأبنية فقال: هو ملحق بفُسْطاط.

4- في خ/م: الأغما وهو تصحيف، والأغمار جمع غُمْر، بالضم، وهو الجاهل الغرُ الذي لم يُجَرِّب الأُمور؛ قال ابن سيده: ويُقتاس من ذلك لكل من لا غَناء عنده ولا رأي. ورجل غُمْر وَغَمر: لا تجربة له بحرب ولا أمر ولم تحنكه التَّجارب؛ وقد روي بيت الشماخ: لا تَحْسَبَنِّي، وإن كُنْتُ امْرأً غَمراً، كحيَّة الماء بين الصُخْر والشِّيد قال ابن سيده: فلا أدري أهو إتباع أم لغة؛ وهم الأغمار. لسان العرب ابن منظور.

5- في ط: مآكله شَنار، جاء في لسان العرب في مادة شنر: الشَّنار: العيب والعارُ؛ قال القَطامي يمدح الأمراء: ونحنُ رَعيَّةٌ وَهُمُ رُعاةٌ، ولولا رَعْيُهُمْ شَنُعَ الشَّنارُ وفي حديث النخعي: كان ذلك شَناراً فيه نارٌ؛ الشَّنار: العيب والعار، وقيل: هو العيب الذي فيه عار، والشَّنار: أقبح العيب والعار. يقال: عار وشنار.. ورجل شِنِّيرٌ: شرِّير كثير الشر والعيوب. ورجل شِنِّيرٌ: سيء الخلق.

والشَّنار الأمر المشهور بالقبح والشنعة.

6- سورة البقرة: 29.

7- في ط: ينظر.

8- في خ/م: ربغة، جاء في لسان العرب مادة ربق: الرِّبْقُ الخَيْط، الواحدة رِبْقة.. والرِّبْقُ، بالكسر: الحبْلُ والحلْقةُ تشدُّ بها الغنم الصغار لئلا تَرْضَع، والجمع أَرْباقٌ ورِباقٌ ورِبَقٌ. وفي الحديث: لكم العَهْدُ ما لم تأْكلوا الرِّباقَ؛ شبَّه ما يَلزم الأَعناقَ من العَهْد بالرباق واستَعار الأكل لنقْض العهد، فإن البهيمة إذا أكلت الربق خلَصت من الشدِّ. وأخرج رِبقةَ الإسلام من عُنقه: فارَق الجماعة؛ ويروىَ عن حذيفةَ: مَن فارَق الجماعةَ قِيدَ شِبْر فقد خَلَع رِبقةَ الإسلام من عُنقه.

9- في خ/م: يخول.

يقول[1]، فليته لو دفن من عواره ما كان مسطورا؛ ولكن كان ذلك عليه في الكتاب مسطورا.

وإن لسان المرء ما لم يكن[2] له حصاة على عوراته لدليل[3]

فاستخرت الله تعالى في جوابه على تخليط معانيه، وتثبيج خطابه؛ بعد أن أقول له: اعلم يا هذا، إن البغاث[4] بأرضنا[5] لا تستنسر[6]، والتمييز عندنا بين الفضة والقضة[7] متيسر، وها أنا إن شاء الله تعالى أجاوبك على ما كتبت حرفا حرفا، وأبين فساده الذي لا يكاد يخفى، على أنهم لو فتح عليهم بابا من السماء ﴿ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴾[8]، كيف[9] لا، وقد ركبوا من استحالة الاتحاد، والتثليث، والحلول، ما يدرك فساده بضرورة العقول، وقد قالوا في الآب والابن والأقانيم، ما يمجه بفكه الأول[10] كل ذي فهم مستقيم، ولا يتسع لقبوله قلب ذي عقل سليم.

ومن كان اللعين له لسانا فكل جداله زور ونكر

فكل مقالهم إفك وزيغ ونص كتابهم شرك وكفر

ومن أعظم ما ظهر عليهم من العناد[11]، فصُرفوا لذلك عن التوفيق والرشاد، إنكارهم ما يدل على نبوة نبينا من المعجزات، وواضح الدلالات، وقد قاربت الضرورات، حتى أنكروا ما

1- في خ/م: وبه يغور.
2- في خ/م وكذا في ط: تكن، وهو تصحيف لأن البيت الشعري هو: وإن لسان المرء ما لم يكن له--- حصاة على عوراته لدليل. وهو لطرفة بن العبد في قصيدته التي مطلعها: لهند بحزان الشريف طلول--- تلوح وأجنى عهدهن محيل.
3- البيت لطرفة بن العبد، انظر ديون الأمالي الشجرية.
4- في ط: البغاة وهو تصحيف، البغاث والأبغث من طير الماء، كلون الرماد، طويل العُنق؛ والجمع البُغْث والأباغث؛ لسان العرب، واستنسر البغاث صار نَسْراً، وفي الصحاح: صار كالنَّسر. وفي المثل: إنّ البغاثَ بأرضنا يستَنسر أي أن الضعيف يصير قوياً.
5- في خ/م: يوجد بمكان كلمة "بأرضنا" بياض.
6- في خ/م: يستنصر، وهو تصحيف.
7- في ط: القصة، وهو تصحيف والصحيح القضة كما جاء في خ/م: والقضة الحصى الصغير، لسان العرب. وجاءت هذه العبارة في مقامة الحريري، المقامة المراغية.: "يا هذا إن البغاث في أرضنا لا يستنسر والتمييز عندنا بين الفضة والقضة متيسر".
8- سورة الحجر، الآيات:14-15.
9- في ط: فكيف.
10- في ط: تمجه بفطرته الأولى.
11- في ط: الفساد.

جاء في كتبهم من الإعلام على نبوته، وإيجاب إتباع شريعته، فلقد كانوا يجدونه مكتوبا عندهم، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم. وسأذكر إن شاء الله تعالى، ما وقع في أناجيلهم من وصفه، وصحيح نعته، ولما تبين للعقلاء عنادهم، سقط لذلك إرشادهم، ووجب حملهم على السيف وجهادهم، فقد يفعل الله بالسيف والسنان[1]، ما لا يفعل بالبرهان. ومن كلام الحكمة[2]: يزع الله بالسلطان مالا يزع[3] بالقرآن. فأعرض العقلاء عنهم، واكتفوا من الرد عليهم بحكاية مذهبهم، ووكلوا الناظر فيه، لظهور تناقضه وفساد معانيه.

وقد كنت عزمت على الإقتداء بالعقلاء في الإعراض، حتى أكثر هذا المتكلم من التعرض والاعتراض، فتعين لذلك الجواب. وأنا أسأل الله التوفيق للصواب، ومجانبة الخطأ، وما يوجب العتاب، إنه ولي التوفيق، وهو بإجابة السائلين حقيق.

لتعلم يا هذا المنتسب لدين المسيح، أني أجاويك إن شاء الله تعالى بمنطق عربي فصيح، أسلك فيه مسلك الانصاف، وأترك طريق التعصب والاعتساف، على أن كلامك لا يستحق الإصغاء إليه، ولا الجواب عنه، لكونك[4] لا تستحق[5] السؤال، ولا تعرف ترتيب المقال، بل تقول ما لا تفهم، وتكتفي بأنك تتكلم، ولكون كلامك هذا كثير الغلط، ظاهر التناقض والشطط، وأنت مع ذلك لا تعرف مذاهب النصارى المتقدمين، الذين كانوا بنوع نظر متمسكين، وإن كانوا عن مذهب الحق ناكبين، حتى أنهم لو سمعوا كثيرا مما ذكرته، لتبرأوا عنه، ولأنفوا منه، إذ لا ينسب أكثر ذلك إلى من تكايس منهم، ولا يروى بحال عنهم. على أنهم في أصول عقائدهم مختلفون، وفي ورطة الجهل مرتبكون، وسيتبين[6] لك ذلك كله إن شاء الله تعالى.

ولما تبين ذلك منك، أعرض المسلمون عن جوابك، ونزهوا أنفسهم عن خطابك، إذ الإعراض عن الجاهلين، شرعه[7] رب العالمين، على لسان سيد المرسلين؛ وأيضا فمن لم

1- في ط: اللسان.
2- في ط: الحكماء.
3- ورد في ط: وكذا خ/م: يزغ، والقولة المنسوبة لعثمان بن عفان هي: "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن".
4- في ط: لأنك.
5- في ط: لا تحسن.
6- في ط: وسنبين.
7- في ط: شرعة.

يعرف شروط النظر، ولم يسلك مسالك البحث والعبر، فالكلام معه ضرب في حديد بارد، وعمل ليس له جدوى ولا عايد.

ولما أعرضوا عنك لجهالتك، تبجحت[1] بذلك عند عصابتك، فظننت أن سكوتنا عنك، إنما هو لرهبة منك، حتى لقد أبلغنا[2] عنك نكرا، وقلت في كتابك هذا فحشا وهجرا، فنحن وإياك كما قال:

سكتُ عن السفيه فظن أني عييت عن الجواب وما عييت[3]

فعظم هذا الأمر عليّ[4] حين نمى خبره إلي. مع أنه رغّب إلي في ذلك جماعة من الإخوان، فصار ذلك عليّ كأنه من فروض الأعيان، فاغتنمتها[5] فرصة، وسررت بها قصة، لعلمي أن النكاية في العدو بالبرهان واللسان، أوقع من نكاية السيف والسنان.

والرجا من مالك الدارين، الجمع بين الأمرين، وإحراز أجر العملين؛ على أني لا أتعرضهم بقزع السباب، ولا أنزل معهم إلى اعتذار وعتاب، وإنما هو إظهار جهلهم وتناقض مذهبهم وقولهم.

فأذكر كلام هذا السائل كما بلغني، وأبين من خطئه وتناقضه ما شاء الله أن يفهمني، فأناقشه في لفظه وأظهر سوء نقله وحفظه، فتارة أسأله وأخرى أجاويه، ليعلم أن الناقد بصير، والباحث خبير، وليتبين عيبُه[6] وجهلُه للكبير والصغير. ثم من بعد الفراغ من تتبع كلامه، أعطف بالمناظرة على أقسته ورهبانه، فأحكي مذاهبهم كما دونوها في كتبهم، وعلى ما تلقفوها من أساقفتهم، ثم أسبرها على محك العرض، وأبين بعض مافيها من الفساد والنقض. وما توفيقي إلا بالله، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وقد استخرت الله[7] في أن أجمل هذا الكتاب [غير مقصور على جواب هذا السائل، بل أضمنه زائدا على ذلك فصولا من عقائدهم، وجملا من أحكامهم، وأتكلم معهم فيها حسب

1- في خ/م: تبحبحت، وهو تصحيف.

2- في ط: أبلغتنا.

3- البيت الشعري أورده الماوردي في كتابه أدب الدنيا والدين، عن عَمْرُو بْنُ عَلِيّ: إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلاَ تُجِبْهُ فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِه السُّكُوتُ سَكَتُّ عَنْ السَّفِيهِ فَظَنَّ أَنِّي عَيِيتُ عَنْ الْجَوَابِ وَمَا عَيِيتُ.

4- في ط: فعظمَ هذا الأمْرَ حين نمى خبره إلي.

5- في خ/م: فاغتنمها وهو تصحيف.

6- في ط: عيه.

7- في ط: الله تعالى.

ما أمكن، وأعان الله عليه وبين. ولذلك اشتمل هذا الكتاب][1] على صدر وأربعة أبواب.

الباب الأول في الكلام على الأقانيم.

الثاني[2] في الاتحاد والحلول.

الثالث[3] في الكلام على النبوات وإثبات نبوة نبينا عليه السلام[4].

الرابع[5] في جمل من فروع أحكامهم، أبين فيها أنهم ليس لهم[6] في أحكامهم مستند إلا محض الهوى والتحكم واللدد.

وكل باب من هذه الأبواب يتضمن فصولا، وأنا أسأل الله تعالى أن يطلق ألسنتنا بالحق والحكمة، ويخرسها عن الباطل والفتنة؛ إنه ذو الفضل والنعمة والعفو والرحمة.

1- الكلام بين المعقوفتين ساقك من: ط.
2- في ط: الباب الثاني.
3- في ط: الباب الثالث.
4- في ط: عليه الصلاة والسلام.
5- في ط: الباب الرابع.
6- في ط: أن ليس لهم.

صدر الكتاب

نذكر في هذا الصدر كلام هذا السائل في خطبة كتابه، والجواب عليها إن شاء الله.[1].

فصل في حكاية كلام السائل في خطبة كتابه.

قال: "كتاب تثليث الوحدانية في معرفة الله".

ثم قال: "الحمد لله بالغ القوى التي فطرنا عليها، وأمرنا بحمده، فنحن نحمده ونشكره ونعظمه، بمثل تعارفنا في الحمد والشكر والتعظيم لملوكنا، وأهل الرهبة من ذوي السلطان منا، فرضا له شاكرين حامدين، معظمين غير واقفين على ذاته، ولا مدركين لشيء منه، وإنما نقع على أسماء أفعاله في خليقته وتدبيره في ربوبيته".

الجواب عن ترجمته: أما قوله تثليث الوحدانية، فكلام متناقض لفظا وفاسد معنى. بيان ذلك: أن قوله تثليث الوحدانية، كلام مركب من مضاف ومضاف إليه، ولا يفهم المضاف ما لم يفهم المضاف إليه. فأقول لفظ الوحدانية مأخوذ من الوحدة، ومعناها راجع إلى نفي التعدد والكثرة، فهي إذن من أسماء السلوب؛ فإذا وصفنا بها موجودا، فقد نفينا عنه التعدد والكثرة. والتثليث معناه تعدد وكثرة، فإذا أضاف هذا القائل التثليث للوحدة، فكأنه قال تكثير مالا يتكثر، وتكثير مالا يتكثر باطل بالضرورة. فأول كلمة تكلم بها هذا السائل متناقضة وباطلة بالضرورة.

وأما قوله: "في معرفة الله" فقول لم يحظ[2] بمعناه ولا فهم مسماه، وإلا فما حد المعرفة؟ وكم أقسامها؟ وهل يصح أن تكون مكتسبة لنا؟ وهل يجوز عقلا أن يكلفنا بها الأنبياء؟ وإن جاز ذلك فما طريق تحصيلها؟

ثم هول بهذا اللفظ، وأوهم أنه حصل منها على حظ. فإن كان دليلك يا هذا على معرفة الله تعالى، ما ضمنته[3] كتابك، فابك على ما أصابك،[4] واقرع أسفا على عقلك[5]، فإن الواقف على معناه، المتفهم[1] لفحواه، يعلم[2] على القطع والقط، أنك لم تعرف الله[3]

1- في ط: الله تعالى.
2- في ط: لم يحط.
3- في ط: ضممته.
4- في ط: مصابك.
5- في ط: عقل نابك.

تعرف الله[3] قط، لأنك لم تذكر فيه دليلا صحيحا، نعم؛ ولا قولا فصيحا، وإن كان لك دليل آخر على معرفة الله تعالى لم تذكره هنا، فهذه ترجمة بلا معنى، واسم يهول بلا مسمى.

كلامك ياهذا كفارغ[4] حمص خلى من المعنى ولكن يجعجع

ثم نظم هذه الترجمة على ما أبديناه من التناقض أن يقال: تكثير ما لا يتكثر في معرفة الله، وأي رابط لهذا[5] الكلام؟ وهل هذا إلا ضحكة[6] الخاص والعام، وعار لم يصل إليه أحد من عقلاء الأنام.

ثم بعد ذلك شرع هذا القائل في الخطابة وصنعة الكتابة، فسحب على "سحبان" ثوب النسيان، وأنسى "أبان" كل ما أبان، وصير فصيح "وائل" أعيا من "باقل". فقال: "الحمد لله بالغ القوى التي فطرنا عليها". فيا للعجب ولضيعة[7] الدين والأدب.

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الجائع العاري[8]

أما قوله: "الحمد لله" فكلام حق، ومقال صدق عند من عرف معناه، وفهم فحواه، وأما عندك فكلام سمعته وما وعيته، وكيف تعيه، أو تطمع في أنك تدريه؟ وأنت بمعزل عن اللسان، عرين[9] عن تحصيل شرائط البرهان. دليل ذلك: أن الحمد لله يتوجه لأسئلة[10]، وأنت لا تهتدي لفهمها، فكيف لحلها؟ منها لفظية ومنها معنوية. فأولها حده، وإلى ماذا يرجع؟ وما الفرق بينه وبين الشكر؟ وهل هو في هذا الموضع عام أم لا؟ وهل يصح أن يطلق على غير الله؟ وإن أطلق فهل بالحقيقة أم بالمجاز؟ وعلى أي وجه يضاف

1- في ط: المقتحم.
2- في ط: علم.
3- في ط: تعالى.
4- في ط: كفارع.
5- في ط: بهذا.
6- في ط: مضحكة.
7- في ط: ويا لضيعة.
8- البيت المشهور هو للحطيئة ويقول فيه: دع المكارم لا ترحل لبغيتها---واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي.
9- في ط: عري.
10- في خ/م: لأسولة. وردت في جل المخطوطة الملكية كلمة أسولة بدل أسئلة.

إلى الله تعالى، أعلى جهة الملك، أو على جهة الاستحقاق، أو غيرهما من أنواع الإضافة؟ ولأي شيء يوضع في أوائل الكتب ولا يكتفي عنه بالتسمية؟

وأما قولك: "بالغ القوى" فكلام مختل، صدر عمن لم يحصل تنزيل مفهومه على فائدة، إن[1] المتكلم به يجعل[2] "بالغ" موضع "مبلغ" ثم يذهب[3] بمبلغ إلى معنى "خالق"، والعرب الذين تكلم هذا السائل بكلامهم، وتعاطى مفهوم خطابهم، لا يتكلمون ببالغ[4] في معنى خالق[5]، لتباين اللفظين واختلاف المفهومين، ومعنى "الخلق" المشهور عندهم، اختراع ما لم يكن، والإبلاغ هو إيصال كائن إلى غاية ما[6]. فإن أنكر هذا المتكلم أن يكون أراد هذا، فقد شهد على نفسه بالغلط، واعترف بأن كلامه من أرذل[7] السقط.

ثم أضاف بالغ إلى القوى، والقوى جمع قوة، وهي القدرة والشدة. فإن كنت تريد هذا، فأي فائدة للفظك، وأي لطيفة لقولك: "التي فطرنا عليها" وفي الثيران والأباعير والحمير من هو أشد منك وأقوى، فقد فضلها عليك حيث أبلغها من الشدة أكثر مما أبلغك.

ولقد كان ينبغي لك يا هذا أن تذكر من نعم الله عليك، النعمة الخاصة بالإنسان، وهو المعنى الذي به تميز عن أصناف الحيوان، ثم من عجيب أمر هذا السائل، وأدل دليل على بلادته وجهله، أن هذه الخطبة التي صدر بها كتابه، على ما هي عليه من تثبيج النظم، وعدم الفصاحة، إنما نقلها نقلا[8] من رسالة عبد الرحمن بن غصن ختن شبيب، التي كان أساقفة النصارى كتبوا بها إلى الإمام الزاهد أبي مروان بن مسرة[9]، ونسبوها لعبد الرحمن، وكانوا قد اجتمعوا على كتابتها بطليطلة أعادها الله، فلما كتبوها بعثوا بها

1- في ط: لأن.
2- في ط: عمل.
3- في ط: ذهب.
4- في ط: بالغ.
5- في ط: الخالق.
6- في ط: هو أيضا له كائن.
7- في خ/م: سقطت كلمت أرذل الثانية.
8- في ط: نقلها.
9- في ط: ميسرة، والأمر يتعلق بأبي مروان عبد الملك بن مسرة بن عزيز اليحصبي قاضي الجماعة بقرطبة (ت 552هـ) صاحب رسالة ميزان الصدق المفرق بين أهل الباطل وأهل الحق، وهي رد عن كتاب أساقفة النصارى إليه مع قصيدة له نظمها في معنى هذه الرسالة، أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي،ت سنة 575 هـ، فهرسة بن خير، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة دار الكتاب المصري، بيروت دار الكتاب اللبناني،الطبعة الأولى 1989، المكتبة الأندلسية مجلد9، ص 373).

للقاضي[1] أبي مروان بن مسرة، فبعد أن بذلوا جدهم وأجهدوا جهدهم، كتبوا له رسالة مفتتحها هذه الخطبة في بطاقة صغيرة، عدد أسطارها نحو من ثلاثين[2]، لحنوا فيها وصحفوا في تسعة وعشرين موضعا منها، ومع ذلك فأخلوا بالكلام، ولم يتحصل لهم من سؤالهم مطلب ولا مرام، فأجابهم الإمام القاضي رحمه الله وأحسن في الجواب، وأظهر لهم جهلهم وتبلدهم في ذلك الكتاب.

فلو كان هذا السائل عارفا بمصالحه، مميزا بين محاسنه ومقابحه، لاكتفى بإفحام أساقفته المتقدمة، وعثرته الجاهلة المصمة[3]، ولكان يستر ظاهر خطاياهم[4]، وركيك كلامهم، ولكن أراد الله تجديد ما قدم لهم من الفضيحة، بمقالة صائبة[5] صحيحة. ثم ليته إذ نقل إلى كتابه كلامهم لم يفسد[6] المعنى ولم يغير اللفظ، بل غيره تغييرا، يدل على عدم الهجاء وقلة الحفظ. فقال: "الحمد لله بالغ القوى" وإنما قال أخياره[7] في كتابهم المتقدم الذكر، الذي نقل هو منه[8]: "الحمد لله بأبلغ القوى"، وبين مفهوم كلامه وكلامهم ما بين القرن والقدم[9]، وما بين فصاحة العرب ورطانة العجم.

وأما قولك: "وأمرنا بحمده"، فقول لا تعرف حقيقته، ولا تسلك طريقته، حتى تعرف إن كان الله تعالى[10] آمرا أم لا، وإن كان آمرا فما حقيقة أمره؟ وإلى ماذا يرجع؟ وهل هو قديم أو حادث؟ إلى أسئلة[11] كثيرة لا تعرف أنك مأمون من جهة الله تعالى حتى تعرفها. فأعد للمسائل جوابا، وللسائل خطابا.

وأما قوله: "فنحن نحمده ونشكره ونعظمه، بمثل تعارفنا في الحمد والشكر"، فكلام يدور على اللسان ولم يستقر لك شيء منه بالجنان، وكيف يحمد الله من ينتقصه؟ وكيف

1- في ط: إلى القاضي.
2- في ط: نحو ثلاثين.
3- في ط: المضممة.
4- في خ/م: خطايهم، وهو تصحيف.
5- في ط: صابية.
6- في ط: يفسر.
7- في ط: وهي في كتابهم.
8- في ط: الذي نقل منه.
9- في ط: القدم وهو تصحيف.
10- في ط: الله تعالى.
11- في خ/م: أسولة.

يشكره من يكفره؟ وهل الحمد والنقصان والشكر والكفران إلا أمران متناقضان.

بيان ذلك أنكم تجعلون لله ما تكرهون لأنفسكم، وتنتقصون به أبناء جنسكم، هاأنتم تكرهون لرهبانكم وأقستكم، اتخاذ الزوجة والولد لئلا يتلطخ برذيلة مجرى البول ودم الحيض، أو تتشبه نسبة الزوجة والولد. ثم إنكم بجهالاتكم[1] تزعمون، أن اللاهوت تدرع بناسوت المسيح، وسكن في ظلمة الرحم مدة، ثم خرج على مجرى البول ودم الحيض، وتعلقت نسبة الولد والزوجة، فأنتم[2] تجعلون لله ما تكرهون، وتصف ألسنتكم الكذب. لا جرم أن لكم النار وأنكم مفرطون، وكيف يعظمه من يعبد غيره، ويعظم سواه، ويخالفه في أمره، ويرتكب ما نهاه[3]؟ وها أنتم قد اتخذتم المسيح إلها، أو شطر إله، وعبدتم من دون الله غيره، وعظمتم سواه، وخالفتم في ذلك قول المسيح عليه السلام، وعصيتم أمر خالقه ومرسله ذي الجلال والإكرام[4]، وأنتم تقرأون في كتابكم عن إشعياء عليه السلام أنه قال عن الله مبشرا بالمسيح عليه السلام: "هذا غلامي المصطفى وحبيبي الذي ارتضت به نفسي"[5]، وكذلك تقرأون في إنجيل ماركس[6] أن المسيح قال للعالم الذي سأله عن أول العهود: "إن السيد إلهك إله واحد"، وذكر كلاما، فقال له العالم: قلت الحق يا معلم، إن الله وحده ولا إله غيره."[7]

فالله تعالى يقول عن المسيح: هو غلامي، وأنتم تقولون: هو ولدك، فالمسيح[8] يقول: لا إله إلا الله، وأنتم تقولون: أنت إله آخر. فتعالى الله عما تقولون، وسبحانه عما تصفون. وسيأتي الكلام على هذا إن شاء الله تعالى، فها أنتم قد خالفتم أمر الله، وعظمتم سوى الله، وهذا إنجيل لوقا[9]، يشهد عليكم بخلاف ما إليه صرتم، فإن فيه أن المسيح، قال لإبليس حين رام خديعته: قد صار مكتوبا أن تعبد السيد إلهك وتخدمه وحده، وأنتم تعبدون غير الله، وتسجدون لسواه، تتحكمون في ذلك بأهوائكم، وتخالفون قول أنبيائكم.

1- في ط: بجهالتكم.
2- في ط: وأنتم.
3- في ط: ما عصاه.
4- في خ/م: في مكان كلمتي "ومرسله ذي الجلال" بياض يبتدأ ب "ومر".
5- سفر إشعيا42: 1.
6- في ط ماركش.
7- متى 4: 10.
8- في ط: والمسيح.
9- في ط: متاؤوش، أي متى، والنص ورد في متى4: 10، ولوقا4: 8.

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [1]، وتقول بالعظائم على الله.

وأما قولك: "بمثل تعارفنا في الحمد"، فإن كان وضع تعارف موضع معرفة، فقد أخل بالمعنى وخالف اللغة، ولو كان يشم الرائحة[2] من كلام الفصحاء، لوبخ نفسه على المقالة[3] هذه الشنعاء، ولو نزلناه على أنه أراد ما تعارفه[4] مخاطبوه فيما بينهم في معنى حمد الله، لكان كلامه أيضا متناقضا وفاسدا، وعن الصواب حايدا، فإن حمد الله عندهم ذم، وشكرهم له كفر كما تقدم، ومن كان حمده لله ذما، وشكره له كفرا، وكانت[5] معرفته مثل شكره وحمده، فقد حصل من العلم على ضده، وخرج من الشكر عن حده.

وأما قولك: "والتعظيم لملوكنا وأهل الرهبة من ذوي السلطان منا" فقول لا[6] يدل على زهدك في الدنيا، واقتدائك بورع المسيح عيسى، وبخشية المعمد يحيى، عظمت الملوك لملكهم، طمعا في نيل سحت ملكهم، وأعرضت عن القسيسين ونسكهم، ولو هديت السبيل، لكان الأنبياء والحواريون أحق وأولى بالثناء والتبجيل، لكن استهواك الطمع، واستفزك الجشع، فآثرت الدنيا عن الآخرة، فصفقتك إذا[7] خاسرة، وتجارتك بائرة.

وأما قوله[8] "فرضا له شاكرين، حامدين معظمين" فكلام غير منتظم، ليس[9] له مفهوم ملتئم، ذهب معناه لكثرة لحنه، يمجه العاقل ببديهة ذهنه، أتلفت معناه رطانة[10] العجم، فكأنه بقي[11] في نفس قائله مكتتم. وأما قولك: "غير واقفين على ذاته، ولا مدركين لشيء منه"، فلعمري لقد صدقت، وبما أنت عليه من الجهل بمعبودك نطقت، فأين هذا من

1- سورة القصص:50.

2- في ط: رائحة.

3- في ط: القالة.

4- في خ/م: سقطت "ما تعارفه".

5- في ط: كان.

6- في خ/م:، سقطت كلمة لا .

7- في ط: إذن.

8- في ط: قولك.

9- في ط: وليس.

10- في ط: رضانة.

11- في ط: تبقى.

قولك "كتاب تثليث الوحدانية في معرفة الله". فقد جعلت هذا الكتاب بزعمك[1] موصلا إلى معرفة الله، ثم لم ترجع النفس حتى شهدت على نفسك بالجهل بالله، فظهر تناقض اعتقادك على لسانك وفي تقييدك، وكذلك يفعل الله بكل جاهل مهذار[2]. وكيف يعرف الله من لم يقف على معرفة ذاته، ولا علم شيئا من صفاته، وهل ذاته تعالى إلا عبارة عن وجوده، فإن الوجود ذات[3] الموجود، من غير مزيد، على ما يعرف في موضعه بالبرهان، فمن لم يعرف ذاته تعالى، لم يعرف وجوده، ومن لم يعرف وجوده فإما شاك وإما جاهل.

وأما قوله: "وإنما نقع على أسماء أفعاله في خليقته، وتدبيره في ربوبيته"، فكلام لم يورده فصيحا، ولا فهمه صحيحا. دليل أنه لم يرده فصيحا، أنه أراد بقوله: "نقع" "نعرف"، وإلا لم يستقم كلامه، فكأنه قال: وإنما نعرف أسماء أفعاله. وأين "نعرف" من "نقع"؟ [وأي جامع بينهما عند من عقل وسمع، فإن مفهوم وقع وحقيقته، سقط الشيء من أعلى إلى أسفل، وليس لهذا المعنى في كلامه مدخل. وأما أنه لم يفهمه صحيحا، فيدل عليه أنه لا يجيب إذا سئل عنه، فأصغ يا هذا سمعك، واستعن ملاك جمعك، فإني أسألك، وإياهم عن: حد الاسم وحقيقته؟ وهل هو المسمى أو غيره؟ فإن كان غيره، فما حد الاسم؟ وما حد المسمى؟ وما حد التسمية؟ ثم هل ينقسم الإسم بالإضافة إلى المسمى أم لا ينقسم؟ فإن انقسم، فعلى كم قسم؟ وإنما أوردت عليه هذه الأسئلة، كيلا له بضاعة، وليكون ذلك أبلغ في دفعه وأقطع لنزاعه. ثم إنه أضاف أسماء إلى أفعال الله، ولا يشك عاقل فاهم في أن أفعال الله تعالى، إنما يراد بها مخلوقاته. ومخلوقاته وخليقته واحد في المعنى، فكأنه قال على ما يقتضيه ظاهر كلامه: وإنما نقع على أسماء مخلوقاته في مخلوقاته، فأبدل لفظ مخلوقاته بأفعاله؛ وهذا كلام قليل العائدة بل عديم الفائدة. ثم أسماء أفعاله إنما هي عبارة عن الألفاظ الدالة على أفعاله، وأفعاله -كما قلنا- مخلوقاته كلفظ: السماء والأرض وغير ذلك... فمن عرف الألفاظ الدالة على هذه المخلوقات، أي شيء يحصل له بسببها من معرفة الله تعالى؟ وأي دلالة؟ وأي نسبة بين معرفة اللفظ الذي يدل على السماء في التخاطب مثلا وبين معرفة الله تعالى؟ وهل قوله هذا إلا هذيان من القول وارتباك في ورطة الجهل؟

وأما قوله "وتدبيره في ربوبيته": فالظاهر من لفظ التدبير السابق منه إلى الفهم أنه

1- في خ/م: يزعمك.
2- في خ/م: مهدار.
3- في ط: الموجودات.

عبارة عن التفكر النفسي والتقدير الذهني، والباري سبحانه متعال عن التدبير -الذي هو التفكر والتقدير- فإنه لا يتصور إلا في حق من جهل شيئا فأراد أن يستعمل فكرة في تحصيل العلم به، والجهل على الله محال. فالتدبير بمعنى الفكر عليه محال، فإن أراد السائل بكلامه غير هذا فلا بد من بيانه وإيضاح برهانه.

وأما "الربوبية" فلفظ مشتق من لفظ الرب، والرب في مستعمل كلام العرب له معنيان مستعملان: أحدهما السيد والثاني المالك، فإن أراد به المعنى الأول -الذي يرجع إلى السؤدد والشرف- فهو خطأ من حيث أن سؤدده واجب له فلا يحتاج في تحصيله إلى سبب من تدبير ولا مقتضى تفكير، ومقتضى كلامه ومفهومه أنه دبر في ربوبيته وأوجدها عن تدبيره لنفسه، وهذا جهل بواح وكفر صراح. وإن أراد به المعنى الثاني -الذي يرجع معناه إلى الملك- فلا يستقيم أيضا على ظاهر كلامه، فإنه يكون معنى كلامه أنه دبر في ملكه وأوجده عن التدبير الذي هو روية وتفكير، ويتعالى عن ذلك الخالق القدير المنزه عن خواطر النفس وهواجس الضمير.

ثم لما فرغ هذا السائل من خطبته الغراء البديعة الإنشاء، التي من وقف عليها علم أنه عن المعارف مصروف، وأنه لا يفهم المعاني ولا يحسن كتابة الحروف، شرع في طريقة الجدال وكيفية الاستدلال، فكأنه في نظم معقولاته "الطوسى" وفي آداب جدله "البروى"، ولعمر الله لو كان هذا السائل عاقلا لستر عواره، ولم يبد غارة. ولكنه جهل فقال. وحيث وجب أن يسكن جال. ولقد كان ينبغي لهذا السائل ألا يتكلم في شيء من علوم الاعتقاد حتى يحسن شروط النظر، ويحكم ما يحتاج إليه من المواد والفكر، ولما بادر إلى الكلام في ذلك من غير تحصيل شيء مما هنالك تثبج عليه كلامه، وصعب عليه مرامه، فربما كان المعنى الذي يقصده قريبا فيبعده، أو مجتمعا فيبدده، وسيتبين ذلك في كلامه.

ولما كان ذلك، رأيت أني إن تتبعت كلامه كما تتبعت خطبته خرج الأمر عن الاعتدال، وأدى ذلك إلى الكسل والملال، وضياع الزمن في ضروب الهذيان هو غاية الخسران، فرأيت أن أعرض عن آحاد كلماته، وأناقشه في معانيها ومفهوماتها، ثم إني ربما لا أتكلم معه حتى أحكى مذهبه، وأبين له ما أراده بكلام حسن وجيز ليكون ذلك أبلغ في الفهم، وأمكن في التمييز، وإلى الله عز وجل أرغب، وعليه أتوكل في أن يشرح صدورنا وييسر علينا أمورنا ويستعملنا فيما يقربنا منه وينفعنا عنده أنه ولى ذلك القادر عليه.

تم الصدر والآن نشرع في الأبواب.

الباب الأول

في بيان مذاهبهم في الأقانيم

وإبطال قولهم فيها

الفصل الأول

الأقانيم أسماء أفعال

في حكاية كلام السائل والجواب عنه.

قال السائل: "الآن وجب علي أن أسألك في أمر التثليث عن خلق الله لجميع ما خلق، إن كان خلقهم بقدرة وعلم وإرادة، أم خلقهم بغير هذا؟ فإذا اضطرتك المسألة إلى القول بها فإني أسألك: إن كانت أسماء لذاته؟ أو أسماء لأفعاله؟ فإن قلت: هي أسماء لذاته، فقد نقضت، وجعلتها أسماء للذات ووقعت فيما أنكرت من الجسم. وإن قلت: من أسماء أفعاله التي منها سمي قادر عالم مريد فهو التثليث الذي أمرنا القول به".

الجواب عنه: سألت يا هذا المقدام بعد إعجام واستبهام: هل خلق الله تعالى الخلق بقدرة وعلم وإرادة أم بغيرهم؟ وهذا السؤال كان ينبغي لك ألا تسأل عنه حتى تفرغ من معرفة المراتب التي قبله، وذلك أنك لا تصل إلى ما سألت عنه، حتى تعرف معنى الخلق وهل العالم مخلوق، وإن كان مخلوقا فهل يحتاج إلى خالق أم لا؟ فإذا بلغت إلى هنا، وقطعت هذه المفاوز التي لا تقطع بالمنى، ولا يتخلص منها بالهوينى، ولا يكتفي في تحصيل العلم بذلك بالتقليد بل بالنظر[1] السديد[2] والبرهان العتيد، حينئذ كان ينبغي أن تسأل عما سألت عنه، لكنك يجهلك بطريقة النظر قدمت وأخرت، ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾[3]، ولو كنت ممن له في النظر نصيب لضربت فيه بسهم مصيب، ولاقتديت بمعلمكم الأزعم وأسقفكم الأعظم أغشتين فها هو يقول في "مصحف العالم الكائن" في أول ورقة منه: "ينبغي أن يجعل الكلام في النظريات على منازل ودرجات، ليكون من اجتمع معنا في الدرجة الأولى تكلمنا معه في الدرجة الثانية، ومن اجتمع معنا في الدرجة الثانية تكلمنا معه في الثالثة[4]. ثم نمضي كذلك إلى أقصى نهايات الكلام. فإنما يكون فساد الكلام وتناقضه واشتباهه من قبل النقص في معرفة هذا الدرج، لأنا متى ناظرنا

1- الكلام.. سقط بأكمله من المخطوطة الملكية.

2- " في ط: الشديد"، وهو تصحيف.

3- سورة الشعراء، آية: 19.

4- في ط: "في الدرجة الثالثة".

في الدرجة الثانية من لم يجتمع معنا في الأولى، لم يبلغ الكلام غاية ولم يقف على نهاية".

وعلى منواله نسج "حفص بن البر" في أقواله. ولقد كان لك فيهما أسوة، لو كنت أهلا للقدوة، فبينك وبين سؤالك[1] هذا ثلاثة أدراج حارت فيها عقول كثير من النظار، وفنيت لهم فيها أزمان[2]، ونفدت أعمار، فكلامك يا هذا فاسد هجين بشهادة قسيسكم أغشتين.

وأما قولك: "فقد[3] اضطرتك المسألة إلى القول بها" فقول غير صحيح، والجهل[4] على قائله يلوح، وكيف تضطر المسألة مع نظر سقيم، أخذت مقدماته بالتحكم والتسليم. وإنما كان يلزم ذلك لو نزلت في كلامك على شرط السبر والتقسيم، ونهجت منهج النظر القويم، وإلا فبم تنكر على الدهري[5] حيث يقول: "لا أسلم أن العالم مخلوق"؟ وبم تنكر على الفلسفي حيث يقول: "أسلم[6] أنه مخلوق لكن لا أسلم أنه يحتاج[7] إلى خالق يخترعه[8] بعد العدم"؟ وبم تنكر على الطبيعي حيث يقول: "لا يحتاج عالم الطبائع إلى خالق ذي قدرة وعلم وإرادة وحياة"؟ ثم لأي شيء تحكمت وقلت: إنها ثلاثة؟ فلعلها أكثر أو أقل، ولا بد لك من معرفة إبطال مذاهب هؤلاء بالبرهان، وحينئذ تحصل على مرتبة الإيقان. وهذا ليس بعشك[9] فاضطجع على نعشك[10].

خل[11] الطريق لمن يبنى[12] المنار به واقعد ببرزة حيث اضطرك القدر[13]

وأما قولك: "فإني أسألك إن كانت أسماء لذاته، أو أسماء لأفعاله. فإن قلت هي أسماء

1- في ط: وبين من سؤالك.
2- في ط: وفنيت أزمان.
3- في ط: فإذا اضطرتك.
4- في خ/م: الجهل.
5- في خ/م: "الدهر"، وهو تصحيف.
6- في خ/م:"اسم"، وهو تصحيف.
7- في ط: محتاج.
8- في ط: مخترعه.
9- في ط: بغشك وهو تصحيف.
10- في ط: نمشك وهو تصحيف.
11- في ط: خلي، وهو تصحيف.
12- في خ/م: "يدني" وهو تصحيف.
13- البيت لجرير مع اختلاف طفيف، قال جرير: خل الطريق لمن يبني المنار به---وأبرز ببرزة حيث اضطرك القدر.

لذاته هي أسماء لذاته فقد نقضت، وجعلتها أسماء للذات، ووقعت فيما أنكرت من الجسم" فسؤال لا يستحق أن يسمع، ولا لصاحبه في العقل مطمع، قسمت وسبرت وبقيت عليك أقسام وما شعرت. إذ لقائل أن يقول: ليست هذه الأسماء من أسماء الذات ولا من أسماء الأفعال، بل هي قسم آخر، وهو أسماء الصفات. والتقسيم مهما[1] لم يكن دائرا بين النفي والإثبات، فهو معرض للنقوض والآفات، ثم أطرف من العنقاء: شرَع[2] في أول كلامه في المسميات، ثم أخذ يتكلم في الأسماء[3]، ولم يفرق بين الاسم والمسمى فهو جاهل أعمى.

ثم انظر بله هذا السائل، وعدم حسه، فلقد خرج بجهله عن أبناء جنسه[4]. كيف قال: "فإن قلت هي أسماء لذاته، فقد نقضت وجعلتها اسما للذات" وأي فرق بين قوله لذاته[5] في المقدم وبين قوله للذات[6] في التالي؟ وهل هذا إلا بمثابة من يقول: "إن قلت إن[7] هذا اليوم نهار[8]، فقد نقضت وجعلته نهارا".

فما أعرفك يا هذا بنتيجة الشرطي المتصل وحدوده، وبحد النقيض وشروطه، فلو استرزقت الله عقلا، لكان الأحرى بك من الكلام في المعتقدات والأولى. ثم أعجب من ذلك كله أنك لزمت من قال: "إن العلم والقدرة والإرادة أسماء للذات" القول بالتجسيم، وهذا نتيجة الجهل الصميم، والفهم السقيم[9] وهذا من أين يلزم أمن نقيض التالي أو عين المقدم؟ فو الذي خص الأذكياء بالعقول، لقد أربيت في جهلك على كل جهول، وأتيت بما ليس بمفهوم ولا معقول.

وأما قولك: "وإن قلت إنها[10] من أسماء أفعاله التي منها سمي قادر عالم مريد هو[11]

1- في ط: "متى".
2- في ط: "شرعه".
3- في ط: "ثم أخذه في الكلام في الأسماء".
4- في خ/م: سقطت "أبناء جنسه".
5- في ط: سقطت "لذاته".
6- في ط: سقطت "للذات".
7- في ط: سقطت "إن".
8- في ط: "نهارا.
9- في ط: "المستقيم" وهو تصحيف.
10- في ط: "وإن قلت من أسماء".
11- في ط: "فهو".

التثليث الذي أمرنا[1] به" فيقضى أن الأقانيم من أسماء الأفعال، وهذا[2] قول لا يقول به المجانين ولا الأطفال، فإن معنى تسمية الله تعالى بأسماء الأفعال، إنما معناها عند العقلاء أن يخلق الله فعلا يسمى ذلك الفعل باسم، فيشتق لله تعالى من ذلك الفعل اسم. مثال ذلك: خالق ورازق يقالان[3] على الله تعالى، باعتبار خلق الخلق ورزق الرزق، فإن أردت هذا المعنى كان ذلك محالا على الصفات العلى، فإن صفاته سبحانه[4] ليست بمخلوقة، على ما يعرف في موضعه، وأيضا فلو جاز أن يسمى بعلم يخلقه عالما، وبإرادة يخلقها مريدا، وبقدرة يخلقها قادرا، جاز أن يسمى بحركة يخلقها متحركا، وبصوت يخلقه[5] مصوتا، وذلك يجر[6] إلى جهالات لا يقول بها عاقل. فإن أراد هذا السائل بأسماء الأفعال أمر آخر، فهو إنما اصطلح مع نفسه فكان ينبغي له أن يفسر ما يقول إذ لم يتكلم بما اصطلح عليه أرباب العقول.

وأما قولك: "فهذا هو[7] التثليث الذي أمرنا به[8]" فقول فيه كذبت، وعلى الله ورسوله[9] افتريت. فإن الرسل عليهم السلام لم تأمر باعتقاد التثليث لأحد من الأنام. بل قالت الأنبياء عليهم السلام ما يعرفه الخاص والعام: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌ ﴾[10] ولقد حصل للعقلاء بالتواتر، وعلموا بالوراثة أن الله تعالى قال: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ﴾[11] ثم قولك هذا تريد به أنكم أمرتم باعتقاد آلهة ثلاثة، وإنكم قيل لكم اعتقدوا في الله تعالى أنه آلهة ثلاثة إله واحد وقولوا به، وليس الأمر كذلك عند رهبانكم

1- في ط: "أمرنا بالقول به".
2- في ط: "فهذا".
3- في خ/م: "يقولان".
4- في ط: سبحانه وتعالى.
5- في خ/م: "يخلقها" وهو تصحيف.
6- في ط: "مجرى".
7- في ط: "فهو".
8- في ط: "فهو التثليث الذي أمرنا به".
9- في ط: "ورسله".
10- سورة النساء: 171.
11- سورة المائدة: 73.

المتقدمين وأساقفتكم الماضين، هذا أغشتين يقول - بعد أن تكلم في الأقانيم وأثبت[1] أنها صفات على ما يقتضيه كلامه- وذلك[2] أنه قال: "وهذا قولنا في الأقانيم الثلاثة التي لا يمكن جحدها منه ولا وصفه بغيرها" وهذا تصريح منه بأنها صفات، ثم قال -بعد ذلك- : "فهذا قولنا في التثليث الذي وصفه الإنجيل وأمرنا بالإيمان به" وسيأتي نص كلامه، ولم يقل أمرنا بأن نعتقد أن الله واحد ثلاثة، فإن الواحد لا يكون ثلاثة والثلاثة لا يكون واحدا[3]، كما قد تبين فساده، بل مفهوم قوله أن الإنجيل وصف أن الله تعالى موصوف بهذه الصفات، وأمرنا بالتصديق بذلك. ولو أزلتم[4] عن ألسنتكم أمر التثليث، واعتقدتم أن الله تعالى واحد موصوف بصفات الكمال، ونعوت الجلال، لوفقتم في هذه المسألة للصواب، ولحصلتم منها على الحق بلا ارتياب. ولكن من حُرم التوفيق استدبر الطريق، ونكل عن التحقيق.

على أن ما ذكرته في أمر التثليث لا يستقيم على رأي المتقدمين من أحباركم، هذا صاحب كتاب "المسائل السبع والخمسين" يقول: "فيها لا نقول إن التثليث ممتزج في أقنوم واحد كقول شباليش، ولا إلهية منخزلة[5]، أو متبعضة الذات كَفَرية آريش، بل أن أقنوم الآب غير أقنوم الابن، وأقنوم الابن غير الروح. لكن التثليث المقدس ذات واحدة. فإذا لم تكن ممتزجة، وكان كل أقنوم منها غير الآخر، والأقنوم معناه عندكم الشيء المستغني بذاته عن أصل جوهره في إقامة خاصة جوهريته، فكيف يتسع عقل لأن يقول إن هذه الثلاثة المتغايرة التي هي على ما ذكر واحد؟ وهل قائله إلا معتوه أو معاند؟.

1- في ط: "في الأقانيم ما ثبت".
2- في ط: "ذلك".
3- في ط: "لا تكون واحدا".
4- في ط: "أنكتم".
5- في ط: "متحدة".

الفصل الثاني

أقانيم القدرة والعلم والحياة[1]

في حكاية كلامه أيضا:

قال: "فإن قلت لم لا تقولون بسم القادر العالم[2] المريد، إذا قلتم باسم الآب والابن والروح القدوس[3]. فيتبين: آب، وابن، وروح القدوس[4]، ثالثا.

اعلم أن المسيح لما بعث الحواريين إلى جميع الأجناس، قال لهم: "من آمن منهم فعمدوه على اسم الآب، والابن، والروح القدس[5,6] وإنما خاطبنا بمثل تعاقلنا، فجعل هذه الأسماء كاختلاف قضايا تلك الأفعال، ثم واسط، ثم أخر.

فأول القضايا: خلق الله الجميع بريا[7] سماها: أبا، وأضافها إلى القدرة. وأضاف قضية وعظ المسيح للناس إلى العلم، وسماه: ابنا، لأن العلم لا يوقع عليه، حتى يتولد كلاما. وأضاف قضية فناء الدنيا[8] ومكافآت جميع أهلها[9] بأعمالهم إلى الإرادة، وسماها: روح القدس[10]، الذي هو قادر عالم مريد، أسماء[11] للواحد الذي لا يتكثر".

والجواب عن قوله: اعلم يا هذا، إنك لم تحسن السؤال، ولا حصلت منه على صواب مقال، بل حصل منه في عنقك غل، وفي رجلك[12] عقال، فقلبت[13] السؤال، ولم تشعر،

1- هذا العنوان غير موجود في خ/م.
2- في ط: "العالم القادر".
3- في ط: "القدس".
4- في ط: "القدس".
5- في خ/م: "القدوس".
6- متى 28:19.
7- في ط: "بيد".
8- في ط: "فناء جميع الدنيا".
9- في ط: "مكافأة أهلها".
10- في ط: "القدس".
11- في ط: "اسما".
12- في ط: رجليك".
13- في ط: "قلبت".

وجهلت من حيث ظننت أنك تستبصر. أردت أن تقول في الاعتراض الذي وجهته على نفسك. لم لا تكتفون باسم القادر العالم المريد، ولا تقولون: باسم الآب والابن والروح[1] القدس؟ فقدمت وأخرت، وباللفظ والمعنى أخللت، ثم أنتجت النتيجة قبل ذكر المقدمات، فصار لذلك كلامك من أرك الترهات، فقلت فيها: "فيتبين آب وابن وروح القدس ثالثا"، وهذا كلام مختل ناقص، مشوب بالفساد غير خالص. وإنما كان صوابه أن يقول: فيتبين أنه آب وابن. ثم قلت: "ثالثا" بالنصب، بخطك ضبطته[2]، مشعرا بأنك أعربته، بل بالاتفاق كتبته، ولم تشعر بأنك قلبته. وأما قولك: "إن المسيح لما بعث الحواريين إلى جميع الأجناس"، فكلام[3] نقلته مدعيا أنك رويته، ونحن يجب علينا أن نتوقف في أخباركم، ولا نقطع بتصديقكم، ولا بأكذابكم، بل نقول ما أمرنا به الرسول وبلغنا على ألسنة النقلة العدول: "آمنا بالله ورسله" فإن صدقتم لم نكذبكم، وإن كذبتم لم نصدقكم، ومع تسليم ذلك[4] جدلا، فلا بد أن نباحثكم فيما نقلتم، ونتفقه فيما حكيتم.

فنقول: ظاهر قولك هذا، يفهم منه: أن رسالة عيسى كانت عامة لجميع الأجناس، وليس الأمر كما[5] زعمتم، وسيأتي الكلام على هذا في باب النبوات، وكذلك[6] الكلام على المعمودية، وما يلزم عليها يأتي في باب الكلام على أحكامهم إن شاء الله[7].

وأما استدلالك[8] على وجوب اعتقاد[9] الآب والابن والروح القدوس[10]. وإطلاق القول بذلك بما قاله عيسى للحواريين، فلا حجة لك فيه، إذ ليس بنص قاطع، بل هو مما تقولون أنتم عليه[11] متشابه، فإنه يحتمل أن يكون مراده به: عمدوهم على بركة[12] هذا

1- في ط: "وروح".
2- في ط: "ضبطه".
3- في ط: "فكلاما"، وهو خطأ.
4- في ط: "ذك".
5- في ط: "على ما زعمتم".
6- في ط: "وكذا".
7- في ط: "إن شاء الله تعالى".
8- في ط: "وما استدلالاتك".
9- في ط: "على اعتقاد وجوب".
10- "والروح القدس" ساقطة من خ/م.
11- في ط: "فيه".
12- في ط: "تركهم".

القول، كما يقول القائل: كل على اسم الله، وامش على اسم الله أي على بركة اسم الله، ثم لم[1] يعين الآب والابن من هما؟ ولا ما المعنى المراد بهما؟ فلعله أراد بالأب هنا: الملك، الملك[2] الذي نفخ في أمه مريم[3] الروح، إذ نفخه[4] سبب علوق أمه وحملها[5] به. وأراد بالابن: نفسه، إذ خلقه الله تعالى[6] من نفخة الملك فالنفخة له بمثابة النطفة في حق غيره.

ثم لا يبعد أيضا في التأويل - إن صح عن عيسى عليه السلام، أنه كان يطلق على الله لفظ الأب - أن يكون مراده به أنه: ذو حفظ له وذو رحمة وحنان عليه وعلى عباده الصالحين، فهو لهم بمنزلة الأب الشفيق الرحيم، وهم له في القيام بحقوقه وعبادته بمنزلة الولد البار، ويحتمل أن يكون تجوز بإطلاق هذا اللفظ على الله تعالى، لأنه معلمه وهاديه ومرشده، كما يقال: "المعلم أبو المتعلم" ومن هذا قوله تعالى في كتابنا: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ﴾ [7] على أحد تأويلاته.

وعلى[8] هذين التأويلين يصح حمل[9] ما وقع في أناجيلهم من هذا اللفظ، بل هذان التأويلان ظاهران مسوغان[10] فيها، وسيشهد لذلك[11]، قول عيسى للحواريين على ما جاء في سورة الوصية، حيث قال لهم: "إذا صليتم فقولوا يا أبانا السماوي تقدس اسمك وقرب ملكك"[12] ثم قال بعد كلام ووصايا: "فإذا كنتم أنتم على شرتكم تعرفون إعطاء الخيرات أولادكم، فكيف أبوكم السماوي"[13]، وكذلك وقع في إنجيل يحيى[14] أن عيسى قال

1- في ط: "ولم".
2- في ط: ذكرت كلمة "الملك" مرة واحدة.
3- في ط: "مريم أمه".
4- في خ/م: "نفيه" وهو تصحيف.
5- في ط: "وحبلها".
6- في ط: تعالى.
7- سورة الحج:78.
8- في ط: "ومن".
9- في ط: "حل".
10- في ط: "وسائغان".
11- في ط: "ويشهد لهذين التأويلين"
12- متّى6:9-10 ولوقا 11:2.
13-متى 7:11.
14- في ط: "في إنجيل يوحنا (يحيى)".

لليهود: "أنا عالم أنكم من نسل إبراهيم، ولكن تريدون قتلي، لأنكم لا تعلق بكم وصيتي، فأعلمكم بما رأيت عند الآب، وأنتم إنما تعلمون[1] ما رأيتم من أبائكم[2]. فأجابوه وقالوا: إنما أبونا إبراهيم، فقال لهم إن كنتم بني إبراهيم، فاقفوا أثره، ولا تريدوا قتلي. على أني رجل وذنبي[3] إليكم: الحق الذي سمعت عن الله ولم يفعل إبراهيم هذا غير[4]، إنكم تقفون آثار أبيكم[5]. فقالوا به لسنا أولاد زنا وإنما نحن بنو الله. فقال لهم: لو كان الله أباكم لحفظتموني لأني[6] منه."[7].

ثم نقول[8]: لأنه عليه السلام، وإن كان يطلق هذه الأسماء، فإنما كان يطلقها متمثلا بها. وهكذا أكثر كلامه الذي يحكون في إنجيلهم.

ثم قد نهى عن إطلاقها في الإنجيل: الحواريين، قال في إنجيل لوقا للحواريين: "ما تقولون أنتم؟ فأجابه سمعون بيطر وقال له: أنت المسيح ابن الله. فنهاهم"[9] وكذلك كان يقول إذا كان يخرج الجنون عن المجانين فكانت تخرج، وهي تقول: "أنت ابن الله"[10] فكان ينتهرهم ويمنعهم من هذا القول.

فهذا يدل دلالة بينة على: أن المسيح كان يطلق لفظ الآب على الله تعالى، بالمعنى الذي يطلق على إبراهيم عليه السلام أنه: أب؛ وذلك بمعنى: المعلم الشفيق. وكذلك جاء[11] في كتابنا: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [12] [وبذلك المعنى تقول اليهود والنصارى في

1- في ط: "تعملون".
2- في ط: "أبيكم".
3- في خ/م: "وذني"، وهو تصحيف.
4- في ط: "غير هذا ".
5- في ط: "أبيكم".
6- في ط: "لأنني".
7- يوحنا8:37-42، النص كما ورد في إنجيل يوحنا: " أنا عالم أنكم ذرية إبراهيم لكنكم تطلبون أن تقتلوني لأن كلامي لا موضع له فيكم أنا أتكلم بما رأيت عند أبي وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم أجابوا وقالوا له أبونا هو إبراهيم قال لهم يسوع لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم ولكنكم الآن تطلبونـأان تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله هذا لم يعمله إبراهيم أنتم تعملون أعمال أبيكم فقالوا له إننا لم نولد من زنا لنا أب واحد وهو الله فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من قبل الله وأتيت لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني".
8- في ط: "نقول".
9- لوقا 9:20-21.
10- لوقا 4: 41.
11- في ط: "وكذلك جاء اللفظ في كتابنا".
12- سورة الحج:78.

إبراهيم][1] وليس على حقيقة الأبوة، ومع ذلك ف ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2].

وكذلك في الإنجيل في غير ما موضع: قال لكم أبوكم، وقلت لأبي، ويلزم على مساق هذا أن لا[3] يخص المسيح باسم الابن ولا الله تعالى باسم الأب.

وما بالنا نطول الأنفاس مع هؤلاء الجهال الأوجاس[4]، فإنه إذا احتمل اللفظ عنده[5] التأويلات، كان من المتشابهات، ولا ينبغي أن يصير إليه في الاحتجاجات وخصوصا في الاعتقادات؛ ثم نقول: لا يخلو المستدل بذلك أو ما يقاربه على المعنى المتقدم: أما أن يريد به حقيقة الأب والابن أو لا يريد ذلك، فإن أراد الحقيقة كان محالا وباطلا، فإن حقيقة الأب عند العقلاء: حيوان ولد من نطفة حيوان هو من نوعه، وبهذه النسبة والصفة تفهم حقيقة الابن، وهذان الوصفان محالان على القدرة والعلم، فإن العلم ليس بحيوان مولود من نطفة حيوان، ولا القدرة حيوان يخرج منها نطفة يتولد منها حيوان، وهذا معلوم البطلان بالضرورة.

وإن أراد بذلك المجاز، فلا يصح له حمله على المجاز حتى يجتمع المجاز والحقيقة في أمر ما. فإنك إذا قلت: زيد أسد، إنما تجوزت بلفظ الأسد وأطلقته على زيد لأجل الشجاعة الجامعة بين الأسد وزيد ولولا ذلك لما صح المجاز؛ فإذن لا بد لهذا المتجوز من جامع بين الحقيقة والمجاز، فما الجامع الذي لأجله تجوز هذا المحتج؟ فإن قال الأمر الجامع: أن القدرة أصل العلم – وقد قال ذلك في داخل كتابه – منعنا ذلك، ولم نسلمه[6]، وقلنا: المفهوم من القدرة والمعقول منها عند العقلاء صفة بها يوجد ما لم يكن موجودا، والمعقول من العلم أنه صفة كاشفة نفسها، ومعلومها يصدر عنها الأحكام والإتقان، وهما في حق الله[7] أزليان عندنا وعندهم. وإذا كانا كذلك، فلا يتقدم أحدهما على الآخر في

1- هذه الجملة ساقطة من المتن في المخطوطة الملكية ومصححة في الحاشية.
2- سورة آل عمران:67.
3- في ط: "ألا".
4- في ط: سقطت كلمة "الأوجاس".
5- في ط: "إذا احتمل هذه التأويلات".
6- في ط: "نسأله".
7- في ط: "الله تعالى".

الوجود. وإذا لم يصح ذلك فلا يكون أحدهما أصلا للآخر، فإن أراد هذا القائل: التقدم في الذهن، فالعلم هو المتقدم في الذهن لأنه لا يصح فعل اختياري من غير عالم. فإن العلم شرط الإيجاد، [والشرط متقدم في الذهن على المشروط بالضرورة، ولذلك يقول: (علم زيد فقدر) ولا تقول: (قدر فعلم) ولتحقق هذا المعنى على القطع عند من عرف الفرق بين العلم الفعلي والانفعالي][1]. ولو عكستم ما ذكرتم فسميتم العلم: أبا والقدرة ابنا، لكان أحق بذلك وأولى.

ثم نقول: لأي شيء صرتم إلى أن[2] الجامع بين الحقيقة والمجاز هو الذي ذكرتم؟ وبم تنكرون على من يزعم أن هنالك وجها آخر لم تطلعوا عليه ثم تحكمتم بتعيين هذا الوجه الذي ذكرتم؟

ثم نقول: أنتم قاطعون بتعيين[3] هذا الوجه الذي أبديتم أو غير قاطعين؟ فإن زعموا أنهم قاطعون، فما مستند قطعهم؟ فلا بد من إبدائه، ولا شك في أنهم يجدون في هذا المعنى نصا قاطعا. فإن زعموا أنهم ليسوا بقاطعين، فقد اعترفوا بأنهم شاكون في اعتقادهم وقد كفونا مؤنة الكلام معهم، فإنهم أسندوا اعتقاداتهم إلى الشك وكفى بذلك زورا وإفكا. ثم يلزمهم على تسليم ما ذكروه من الجامع الذي أبدعوه: أن يكون الباري - تعالى وتنزه وتقدس[4] - أبا لكل المخلوقات، ثم[5] هو أصل كل المحدثات، أي موجدها ومخترعها.

وأما قولك: "فجعل هذه الأسماء ثلاثا" فيفهم منه أن: هذه الثلاثة الأقانيم - الذي تقدم ذكرها - مجعولة، وأن الله تعالى هو الذي جعلها، وإن كانت بجعل الله فهي بخلقه، وما كان بخلقه فهو محدث. فيلزمك على ظاهر قولك: أن هذه الأقانيم محدثة باختراعه تعالى، وأنتم تقولون أنها أزليات قديمة.

وأما قولك: "التي هي أسماء أفعاله" فقد أبطلناه فيما تقدم حيث بينا حقيقة أسماء الأفعال. ومن وقف على ذلك، تبين بطلانه هنالك. وأما قولك: "مختلفة الأسماء

1- في ط: [والشرط متقدم في الذهن على فعلم ويتحقق هذا المعنى على القطع عند من عرف الفرق بين العلم المشروط بالضرورة وكذلك نقول علم زيد فقدر ولا نقول قدر الفعلي والانفعالي].
2- في ط: "إلى الجامع".
3- في ط: "بتعين".
4- في خ/م: سقطت الجملة الاعتراضية.
5- في ط: "إذ".

كاختلاف قضايا الأفعال[1]، ثم واسط، ثم أخر" فكلام لا يروقك منظره، ولا يعيد فائدة، مخبره يشهد على قائله بالجنون، ويضحك من عدم فائدته وارتباطه العاقلون، أراد هذا الجاهل أن يتكلم فخرس، وكذلك يفعل الله بكل مبطل إذا نكس، وإنما أراد هذا المبطل - ولم تطاوعه العبارة لما لم يحصل-: أن هذه الأقانيم الثلاثة إنما سميت أبا، وابنا، وروح القدس باعتبار قضايا ثلاث؛ وذلك أن القدرة إنما سميت أبا، باعتبار أنها أصل الموجودات، إذ بها وجدت؛ وإنما سمي العلم ابنا، باعتبار أنه اتحد بالابن الذي هو المسيح وصدر عنه؛ وإنما سميت الإرادة روح القدس، باعتبار مكافأة الخلق في الدار الآخرة بالنعيم.

فإن زعمت أنك لم ترد هذا فكلامك غير معقول، وقولك ليس بمقبول وهذا الذي أبديته في هذا الكلام لم يقل به -فيما علمت- أحد[2] من عقلاء نصارى الأنام، وكفى بقولك عارا: مبين مخالفته لأسقفكم "أغشتين" وها[3] هو يقول في "مصحف العالم الكائن": "إنما سمي العلم ابنا بإضافته إلى القدرة إذ القدرة أصله، وكما صار التعارف الأعجمي أن تسمى القدرة - التي هي الأصل والدا، كذلك صار التعارف في ذلك اللسان أن يسمى العلم المنسوب إليها ابنا لها[4]" فقوله هذا مخالف لقولك، ورأيه غير موافق لرأيك، على أنه غلط في قوله أن: "القدرة أصل العلم" ويتبين غلطه عند من وقف على ما قدمته قبل[5]؛ لكنه وإن كان قد غلط، فالأمر عليه أقرب، والخلاف معه أهون، لأنه رجع الخلاف معه إلى إطلاق لفظ وليس وراء ذلك كثير حظ.

وأما قولك: "إن[6] العلم لا يوقع عليه حتى يتولد كلاما" فكلام حطيط ينبئ عن جهل وتخليط، فإن العلم لا يتولد كلاما، إذ لو جاز ذلك لانقلبت حقيقة العلم، ولو جاز انقلاب حقيقة واحدة لجاز انقلاب كل حقيقة، فيقلب القديم حادثا، والحادث قديما، والجسم عرضا، والسواد بياضا إلى غير ذلك من أنواع انقلاب الحقائق. ثم قولك فاسد وباطل بالضرورة، فإنا نعلم أمورا من غير كلام موصل إلى ذلك كعلمنا[7] بوجود أنفسنا وبآلهنا ولذاتنا ومحسوساتنا وبديهياتنا[8].

1- في ط: "قضايا تلك الأفعال".
2- في ط: "لم يقل به أحد -فيما علمت-".
3- في ط: "فها هو".
4- في ط: سقطت "لها".
5- في خ/م: "قبيل".
6- في ط: "لإن".
7- في ط: " وردت "فقولنا" بدل "كعلمنا".
8- في ط: "ومحسوساتنا: بديهيات".

ثم قد صرحت بلفظ التولد وهو باطل من أصله، فإن المتولدات ممكنات، وكل ممكن مقدور بقدرة الله[1]، فكل المتولدات[2] مقدورة بقدرة الله[3]، وإذا[4] ثبت أنها حدثت بقدرة الله تعالى فلا يقال: أنها متولدات.

أقول هذا، والكلام شجون، والعلم فنون على أني أعرف أنك لا تفهم ما أقول وإنما أخاطب أهل الفهم والعقول.

وأما قولك: "الذي هو قادر، عالم، مريد، اسما للواحد الذي لا يتكثر" فقول يدل على تخبطك، وسوء تناولك، نقضت به ما تقدم من قولك، حيث جعلت الأقانيم أسماء أفعال بزعمك، ثم صرحت[5] ها هنا بأنها أسماء للواحد الذي لا يتكثر ولو حكى مثل هذا الكلام عن المستغرقين النوام، لقيل هذا أضغاث أحلام.

وبعد هذا، فلتعلم أني تجاوزت عنك في هذا الفصل، ولم أؤاخذك بكل ما فيه من خطل القول، خشية طول الكلام، وتبدد المطلب، وبعد المرام. وأول ذلك أنك لحنت وصحفت في ثمانية مواضع تتبين للناشئين بل للمراضع[6].

1- في ط: "الله تعالى".
2- في ط: "المولدات".
3- في ط: "الله تعالى".
4- في ط: "وانما".
5- في ط: "قد صرحت".
6- في ط: "المراضع".

الفصل الثالث

تعليل التثليث[1]

في حكاية كلامه أيضا

ثم قال: "إن قلت: [إذ قلتم][2] بالتثليث لأنها أسماء أفعال الله، فأسماء أفعاله أكثر من ثلاثة، فقولوا بها كقولكم بالتثليث، لأن عزيز وقوي وغلوب وسميع وقاهر ويصير وغفور وراضي وساخط ومعاقب وغيرها من أسماء أفعاله، فقولوا بها أجمع كقولكم بالتثليث، قلت لك: هذه التي ذركناها هي أصول جميع التسمية، ومنها تنبثق، وفيها تندغم، فعزير وقوي وغلوب وقاهر وما أشبهها أصلها القدرة، ومنها تنبثق وفيما تندغم، وغفور ورحيم وراضي وساخط ومعاقب أصلها الإرادة، منها تنبثق وفيها تندغم؛ فإن قلت: فقديم وحي ليست منبثقة منها، ولا مندغمة فيها، فقولوا بالتخميس. قلت لك: إن قديم وحي أسماء ذات لا أسماء[3] أفعال، وكل اسم للذات إنما يؤدي معنى واحدا لنفي ضده، فقديم لنفي محدث، وحي لنفي ميت، ورب لنفي مربوب، وإله لنفي مألوه، فكل اسم من هذه: القدرة والعلم والإرادة التي هي أسماء أفعال ثلاثة لذات واحدة لا يتكثر، وكما أنا قد فهمنا أن نفس الإنسان لا يقوم لها فعل إلا عن ثلاثة، إن نقص منها واحد لم يتم له فعل، وإن زاد فيها رابع لم يتفق، كذلك فهمنا عن خالقنا أن تدبيره بنا عن ثلاثة، وذلك أن الإنسان لا يقوم له فعل دون الثلاثة؛ وذلك: القدرة والعلم والإرادة لا[4] رابع منها، فإن عجزت معها[5] واحدة لم يتم له بالاثنين فعل، لأنه إن علم وأراد ولم يقدر فقد عجز، وإن قدر وعلم ولم يريد، فلا يتم له شيء إلا بالإرادة، وإن قدر ولم يعلم، لم يتم له فعل بالجهل. فقرب لنا الكتاب: معرفة الخالق بخلقه لهم، بمثل تعارفنا في أنفسنا، أن القدرة والعلم والإرادة خواص قائمة هي المتممة للفعل منا، وإنها لذات واحدة. وكذلك التثليث في الله واحد."

الجواب عن ما ذكر: اعلم يا هذا أنك اعترضت على نفسك بما يدل على كلال ذهنك،

1- هذا العنوان غير موجود في خ/م.

2- ما بين المعقوفتين ساقط في ط.

3- في خ/م: " اسم".

4- في ط: "والإرادة لا رابع منها" .

5- في ط: "منها".

وعدم حدسك، لأنك أخللت بالسؤال، وتحكمت في الانفصال، أما إخلالك بالسؤال، فأول ذلك: أنك لحنت في هذا الفصل في ثمانية عشر موضعا، وذلك بين عند من تأمل مكتوبك، وثانية: أنه كان ينبغي لك أن تقدم قبل هذا السؤال: النظر في حد هذه الأقانيم، وحقيقتها، ثم في الدليل على وجودها؛ فإن النظر في كون الشيء واحدا أو كثيرا إنما يصار إليه بعد معرفة حقيقته ومعرفة وجوده، فإذا فرغت من ذلك نظرت فيها هل وجودها زائد على الذات – أعني ذات الفاعل- أم هو عين الذات؟ فإذا عرفت هذه المطالب كلها، حينئذ كان يمكنك أن تنظر هل هي واحدة أم كثيرة؟ أو هل ترجع إلى شيء أو يرجع إليها شيء؟ لا بد لكل ناظر ينظر فيها -كما نظرت أنت فيها-[1] أن يعرف[2] قبله ما ذكرته بالبراهين القاطعة، وإلا فكيف تتكلم في فرع لم يثبت عندك أصله، ولو كنت في نظرك من المتفطنين لنظرت على الطريقة التي علمها لكم أغشتين.

وأما تحكمك في الانفصال: فإنما يتبين إذا حكيت كلامك، وفهمت مرادك، وذلك أنك وجهت على نفسك، كأن قائلا قال لك: لم جعلت الأقانيم ثلاثة، وأسماء الله تعالى أكثر من ذلك؟ فانفصلت عن ذلك، وقلت: أسماء الله تعالى، وإن كانت كثيرة فإنما ترجع إلى هذه الثلاثة، فقاهر وقوي وغلوب وما أشبهها راجع إلى القدرة، وغفور ورحيم وما أشبههما راجع إلى الإرادة. هذا مقتضى كلامك بعد التكرار والإكثار، وهذا كله منك تحكم بما لم يقم دليل عليه[3]، ولا يشهد له من كلامك نظر ولا تعليل.

وإلا فما الذي يدلك على أن أسماء مختلفة المفهومات والحقائق، راجعة إلى معنى واحد؟ وإن جاز أن ترد الأسماء المختلفات[4] المفهومات إلى معنى واحد بالتحكم، جاز أن يقضى[5] بعكس ذلك، وهو أن ترد الأسماء المترادفة على معنى واحد، إلى معان مختلفة، وذلك لا يقوله الغبي الجاهل، بله الكيس الفاضل. تقول على جهة السؤال، وبه يظهر تحكمك في الانفصال: بم تنكر على من يزعم أن جميع صفات الكمال، مثل القدرة والعلم والإرادة، والسمع والبصر والكلام، والحياة والقدم والبقاء، وغير ذلك من صفات الكمال والاستغناء، هي أقانيم الموجودات وأصولها؟ فإن الممكنات إنما يتبدل عدمها بوجودها

1- الأصل في كل من ط، وخ/م: "نظرت أنت فيه"، لكن الجملة غير مفهومة على هذا الوجه.
2- في ط: "تعرف".
3- في ط: "لك عليه دليل".
4- في ط: "المختلفة".
5- في ط: "تقضي".

بإيجاد موجد متصف بصفات الكمال، ومنزه عن صفات النقص والافتقار، وإن اتصف بصفات النقص والافتقار. كان محتاجا إلى مزيل النقص عنه، ومن كان محتاجا كان ممكنا، وكل ممكن فلابد أن يستند وجوبه إلى سبب واجب الوجود، فحصل من هذا أن صفات الكمال والاستغناء، كلها لا يصح إيجاد موجود محدث إلا ممن اتصف بمجموعها، وأن من لم يتصف بها فلا يصح منه إيجاد موجود. فإذا[1] هي أصول الموجودات الممكنة، فإذا[2] هي أقانيم على قولك.

وسيأتي مزيد كلام في الأقانيم، ثم نقول: إن قضيت برجوع هذه الأسماء بعضها إلى بعض مع تباين مفهوماتها، واختلاف معانيها فلم لا تقضى برجوع الإرادة إلى العلم، وبرجوع العلم إلى التجرد عن المادة كما زعمت الفلاسفة؟ ولم لا تقضى برجوع القدرة إلى الوجود، كما قد ذهب إليه طوائف من النصارى المتقدمين، فقد كان طوائف منهم لا يعدون القدرة أقنوما، وكانوا يردونها إلى الوجود، وكانوا يردون الإرادة للحياة، فالأقانيم عندهم، الوجود والعلم والحياة. وسيأتي حكاية مذهبهم إن شاء الله[3].

وهذا كله يدل على أنكم في عقائدكم متحكمون، لا ترجعون فيها إلى أصل عليه تعولون.

وأما سؤالك الثاني الذي وجهت على نفسك، فوارد عليك، ولازم لك، ولم تنفصل عنه، على أنك أخللت به، فإن الذي يعترض به عليك أكثر من قديم وحي؛ إذ قد يرد عليك الوجود، فان أصل الأقانيم السمع والبصر، فإن لا يصح رجوعها بحال إلى العلم، فإن العلم لا ينوب عن الإدراك. فأنا بالضرورة نعلم الفرق بين العلم بالصوت، وسماع الصوت. وبين العلم بالمرئي، ورؤية المرئي. مثال ذلك أنا نعلم معلوما على غاية ما يمكن من العلم، ثم إذا رأيناه حصل لنا بالضرورة، مزيد وضوح ومزيد بينة على العلم به، وكذلك في المسموع، فذلك المزيد وتلك المزيد. أما أن نقول أن الله تعالى[4] مدرك لها، أو ليس مدركا لها، فإن لم يدركها فقد فاته بعض المزايا، ولم يحصل له ذلك الوضوح، فيكون من يدركها وحصلت له، أكمل ممن لم تحصل له، فيؤدي إلى أن يكون المخلوق أكمل

1- في ط: "فإذن".
2- في ط: "فإذن".
3- في ط: "الله تعالى".
4- في ط: "تبارك وتعالى".

من الخالق، والمصنوع أشرف وأتم من الصانع، وذلك محال. وإن كان مدركا لها، فبذلك الإدراك يسمى بصيرا سمعيا، وهو زائد على العلم، فإن العلم لا يغنى عنه كما تقدم، ولسنا نشترط فيها بنية مخصوصة[1]، ولا جارحة ولا اتصال أشعة، بل تنزه الله تعالى عن كل ما يوهم النقص والقصور في حقه، وهذا كما أنا لم نشترط في كونه تعالى، عالما قلبا ولا دماغا، ولا في كونه قادرا بنية ولا آلة، بل السمع والبصر إدراكان، أعني صفتين متعلقتين بالمسموعات والمبصرات، على ما يعرف في موضعه، فإذا تبين أنهما لا يرجعان إلى العلم، فعدوهما أقنومين زائدين على ما ذكرتم. وهذا ما لا محيص عنه ولا جواب عليه.

وأما قولك: "وكل اسم للذات إنما يؤدي معنى واحدا لنفي ضده"، فكلام من لم يحنكه الاعتبار، ولا عرف اصطلاح النظار، وذلك أنك أطلقت صفات الذات وصفات الأفعال، على ما لم يطلقه عليه النظار ولا استعمله في نظره أحد من علماء الأمصار.

ونحن نذكر اصطلاح النظار، المعتبرين في صنعة[2] النظر والأفكار، في إطلاق هذه الأسماء، ليتبين للواقف على هذا الكتاب، أنك لم تعرف شيئا من اصطلاحاتهم، ولا حطت على شيء من مفهوماتهم.

قالوا: إنما تطلق الأسماء بحسب المسميات. والمسميات إما ذات أو أمر زائد على الذات، فالذي يدل من الأسماء على الذات، هو الذي يقال عليه اسم ذات. مثال قولنا إنسان وملك، ومن أسمائه تعالى[3]: الله والحق. وأما الذي يدل على أمر زائد على الذات، فذلك الأمر الزائد[4] إما أن يكون نفي شيء عن الذات أو ثبوت شيء للذات، فالذي يدل على نفي شيء عن الذات، هو الذي يقال عليه اسم سلب، مثال ذلك فقير وسالم، ومن أسمائه تبارك وتعالى: القدوس والسلام، فإنها تدل على البراءة من العيوب وعلى نفيها، وأما الذي يدل على ثبوت شيء للذات، فذلك الثابت إما أن يقوم بالذات أو لا يقوم بها، فالذي يقوم بالذات هو الذي يقال عليه اسم صفة، ومثال ذلك عالم وقادر وسميع وبصير، فإن هذه صفات زائدة على الذات. وأما الزائد على الذات الذي لا يقوم بها، فهو الذي يقال عليه: اسم الفعل، وقد يقال عليه اسم الإضافة، مثل خالق ورازق وما أشبه ذلك.

1- في ط: نشترط فيها بنية.
2- في ط: "صفة النظر"، وهو تصحيف.
3- في ط: "تبارك وتعالى".
4- في ط: سقطت كلمة: "الزائد".

فحصل من التقسيم، أن الأسماء على أربعة أضرب: أسماء ذات، وأسماء صفات، وأسماء سلوب، وأسماء أفعال. وقد يقال عليها [أسماء إضافات، فهكذا ينبغي أن تفهم اصطلاح المتقدمين والنظار][1] المعتبرين، فإن كنت اصطلحت مع نفسك على غير ما تعارفه النظار، فلست على شيء مما كان عليه العلماء والأحبار، فتكلم باصطلاحك مع نفسك، ولا تخاطب به أحدا من أبناء جنسك. ولا يظن ظان أن هذا السائل أراد بأسماء الأفعال: الأسماء التي لا يوجد الفعل إلا بها، مثل العلم والقدرة، والإرادة، فإنه قد جعل من أسماء الأفعال، مالا يوجد به فعل، كسميع وبصير وغيرهما مما ذكر. وفيما أحسب أنه أراد هذا المعنى، ولم تساعده العبارة فعني وعنى.

وأما قولك: "حي لنفي ميت، ورب لنفي مربوب، وإله لنفي مألوه"، فكلام مجنون معتوه، فإنه إن جاز أن يكون حيا من أسماء السلوب والنفي، فما المانع من أن يكون العلم من أسماء السلوب. فإنه يمكن[2] أن يقال عالم لنفي جاهل، ومريد لنفي كاره، وقادر لنفي عاجز، وهكذا يجري في جميع الصفات والأسماء التي لها نقائض، وذلك يؤدي إلى جهالات وجحد المعقولات. وأيضا فإن كانت الحياة سلبا فيستحيل أن تكون شرطا للعلم والقدرة والإرادة وغيرها وكونها شرطا لهذه الصفات معلوم بالضرورة والنفي لا يكون شرطا ولا مشروطا في مثل ما نحن فيه.

ثم نقول قولك هذا مخالف لما تقوله أقستكم، هذا صاحب كتاب الحروف يقول: "الباري تعالى لم يزل حيا بروحه، وناطقا بكلمته، فمهما قلت لم يزل حيا، ولم يزل ناطقا، أوجبت في نطقك لحياته ونطقه الأزلية". وهذا منه تصريح بأن الحياة ليست ترجع إلى نفى الموت. ثم قال بعد ذلك بكلام: "وروحه أعني حياته، أقنوم خاص كامل لم يزل"، وسيأتي الكلام معه في هذا إن شاء الله[3].

وأما قولك: "رب لنفي مربوب" فقول مختلط عقله مغلوب، فإن الرب معناه الملك، فهو من أسماء الإضافة والأفعال، وأما الإله فهو من الآلهة، وهي العبادة، فهو مألوه، أي معبود آلهة عبادة، فهو من أسماء الأفعال والإضافة.

1- ما بين المعقوفتين ساقط في ط:.
2- في ط: "ممكن".
3- في ط: "الله"تعالى".

وأما قولك: "وكما[1] قد فهمنا أن نفس الإنسان لا يقوم لها فعل إلا عن ثلاثة، كذلك فهمنا عن خالقنا أن تدبيره بنا عن ثلاثة" فقول يدل على سوء نظرك، وقلة تثبتك؛ وذلك أن مفهوم ما ذكرته في هذا الفصل – على تثبيجه وسوء ترتيبه – هو أنك قلت: إن الإنسان لا يتأتى منه فعل حتى يكون قادرا عالما مريدا، فإن نقصه منها واحد لم يصح إيجاد الفعل منه، فكذلك خالقنا سبحانه وتعالى هو قادر عالم مريد، ولو نقصه منها واحد لم يصح منه إيجاد فعل كالإنسان. هذا مفهوم كلامك على كثرته.

وهذا كلام فاسد لأنه قياس الغائب على الشاهد؛ إذ هو قياس خال عن الجامع، وأيضا فلو كان هنالك جامع لكان باطلا، فإنه قياس جزئي على جزئي؛ وذلك إنما هو صالح للظنيات لا للعلميات[2]، ولو جاز قياس الباري سبحانه على خلقه، للزم ألا يكون قادرا حتى يكون ذا آلة وعصب ويد الجارحة، فإن الواحد منا لا يكون قادرا حتى يكون كذلك. وكذلك كان يلزم ألا يكون عالما حتى يكون ذا قلب ودماغ، إلى غير ذلك من المحالات. ويلزمك على مساق قولك، أن يكون الباري تعالى جسما؛ فإنك كما لم تر موجدا ولا فاعلا لفعل، إلا قادرا عالما مريدا، كذلك لم تر فاعلا ولا موجدا إلا جسما، وهذه جهالات لازمة على قولك، ومنتجة [على صميم قولك][3] عن صميم[4] جهلك، فلا تنتفع بهذا الكلام حتى تسبره على محك النظار الأعلام، ولو تتبعنا خطاك في هذا الفصل لطال الكلام، ولكثر عليك التوبيخ والملام، لكنا نكل الناظر فيه للوقوف على فساد معانيه.

1- في ط: "وكما أنا قد".
2- في ط: "للعمليات".
3- ما بين المعقوفتين ساقط في ط.
4- في ط: "صمم".

الفصل الرابع

دليل التثليث[1]

في حكاية كلامه أيضا

قال: "فإن سأل سائل من المخالفين فقال: فما الدليل على صدق ما تدعون من تثليث وحدانية الخالق؟ وكيف يمكن أن يكون[2] الثلاثة واحدا والواحد ثلاثة، مع ما ابتدأتم به من القول وإثباتكم إياه فردا لم يزل؟

قلنا لهم: أما أن تكون الثلاثة واحدا والواحد ثلاثة، فذلك[3] لعمري مالا يمكن كونه، ولكنا[4] نقول: إن جوهرا قديما لم يزل موجودا بثلاث خواص أزليات، جوهرات غير متباينات، ولا متفرقات في الجوهر القديم الأزلي، الذي لا يتبعض ولا يتجزأ بعينه وكماله، فلا هو ثلاثة، وجميع الثلاثة خواص هي بمعنى ما هو واحد، ولا هو واحد بمعنى ما هو ثلاثة، أعني ليس هي[5] خاصة واحدة، بل ثلاثة خواص، فهذا مذهبنا في تثليث وحدانية الخالق."[6]

1- العنوان غير موجود في خ/م.

2- في ط: "تكون".

3- في ط: "فلذلك".

4- في ط: "ولكن".

5- في ط: "هو".

6- ورد عند عمار البصري نص قريب مما أورده المؤلف هنا على لسان صاحب كتاب "تثليث الوحدانية"، لذلك أورد نص عمار البصري حتى يمكن للقارئ أن يقارن بينهما، وجعلت التغييرات بالبند العريض "إن سأل سائل من المخالفين فقال: ما الدليل على صدق ما تدعون من تثليث وحدانية الخالق؟ وكيف يمكن أن يكون الواحد ثلاثة والثلاثة واحدا، معما ابتدأتم به أيضا من تثبيتكم وحدانيته وإقراركم بأنه واحد ليس له مثل ولا شبه ولا نظير؟ قلنا: أما أن كون الواحد ثلاثة والثلاثة واحدا، فذلك لعمري لا يمكن كونه، وذلك أن العدد الواحد لا يكون العدد الثلثة، فأما المعنى الذي إليه نقصد في قولنا فإنا نعني: أن ذلك الجوهر الواحد القديم لم يزل موجودا بثلاث خواص جوهريات غير متباينات ولا مفرقات. وجميع الثلث الخواص هو ذلك الجوهر الواحد القديم الذي -أي ليس هو ثلثة بمعنى خاصة- لا يتبعض ولا يتجزأ بعينه وكماله، ولا هو ثلاثة، بمعنى ما هو واحد، - واحدة بل ثلاث خواص، فهذا مذهبنا في تثليث وحدانية الخالق.". عمار البصري، كتاب البرهان وكتاب المسائل والأجوبة، تحقيق ميشال الحايك، دار المشرق بيروت، 1977، سلسلة بحوث ودراسات5، ب. سلسلة جديدة الشرق المسيحي. النص من كتاب المساءل والأجوبة، ص: 148-149.

الجواب عنه: هذا السؤال[1] الذي وجهت على نفسك، وارد عليك ولازم لك. وأما انفصالك عنه فيخرجك[2] عن ملة النصرانية، ولا يبقى عليك منها بقية، وذلك أن مرادك من هذا الجواب أنك قلت كلاما معناه: أن كون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحدا، غير جائز عقلا؛ ولكن معنى التثليث أن الله تعالى جوهر قديم لم يزل، موصوفا بثلاث خواص أوليات، فهو واحد بمجموع الأقانيم، وثلاثة بتفرق الأقانيم، وتلك الأقانيم لا تفارق وجوده ولا تباينه، لا[3] يمكن أن يحمل كلامك إلا على هذا، وإن حمل على غيره فهو بعيد وغيره مفيد[4].

وهذا الذي ذكرته، لا يسلمه[5] لك أكثر النصارى، بل يتبرأون عنه ولا يرضون بشيء منه، إذ النصارى[6] قبلك أو أكثرهم[7] متفقون على أن الأقانيم الثلاثة آلهة وأنها إله واحد؛ فأنت تقول هي: خواص وهم يقولون: آلهة. فأي شيء يجمع بين الخاصية والإلهية، وبينهما ما بين السماء والأرض، والرفع والخفض؟ وسيتضح ذلك إذا نقلنا مذاهبهم في ذلك إن شاء الله[8].

ثم نقول لهم: لأي شيء تحكمت[9] بتسمية خالقكم جوهرا؟ وفي أي موضع من[10] كتب الأنبياء وجدتم الأمر بذلك؟ أو على لسان من بلغكم الأمر به، ولا تجدون لإثبات الأمر بذلك سبيلا غير التحكم؟ ولو كنتم ممن يستحي من الله لما تحكمتم عليه بأن سميتموه بما لم يسم به نفسه، ولو أن واحدا منكم سمي له ولد بغير أمره، لأنف من ذلك وعظم عليه ولوبخ المسمي لأنه تصرف فيما لا ينبغي له؛ هذا إذا كان الاسم مما يفهم منه المدح، فما ظنك لو سمي بلقب يفهم منه النقص والعيب؟ ولفظ الجوهر في المتعارف عند أرباب

1- في خ/م: "السائل"، وهو تصحيف.
2- في ط: "فمخرجك".
3- في ط: "ولا يمكن أن يحمل كلامك".
4- في ط: "غير مفيد".
5- في ط: "لا يسأله".
6- في ط: "نصارى".
7- في ط: "قبلك أكثرهم".
8- في ط: "الله"تعالى".
9- في ط: "تحكمتم".
10- في ط: "موضع كتب"، وهو تصحيف.

النظر إنما[1] يطلقونه على المتحيز، وهو الجرم الشاغل قدرا[2] من المساحة، ولا بد له من الحركة والسكون، وهما دليلا تغيره وحدوثه [وربما أطلق لفظ الجوهر بعض النظار على الموجود لأي موضوع وجوده زائد على ماهيته عند هذا المطلق وذلك هو الممكن لا الواجب][3]. فإن أردت به معنى آخر فلا بد من بيانه؛ إذا لم تتكلم بما تكلم به أرباب النظر المذلول سبل العبر.

1- في ط: "ولفظ الجوهر في المتعارف عند النظار وغيرهم".
2- في خ/م: "قدر"، وهو تصحيف.
3- ما بين المعقوفتين ساقط في ط.

الفصل الخامس

في بيان اختلافهم في الأقانيم

نبين في هذا الفصل مذاهب أوائلهم، ونتكلم معهم فيها، ونوضح فسادها[1] إن شاء الله[2]، ونحكي مذاهبهم بألفاظهم كما وجدتها في كتبهم؛ ولم أعول في ذلك على نقل علمائنا عنهم فقط، بل تتبعت ما أمكنني من كتبهم والله الموفق.

قالوا: "لما أفهمتنا الشواهد العقلية: أن الخالق لم يزل حيا ولم يزل ناطقا، قلنا: فهل يحق أن يكون هو بحياته ونطقه شخصا واحدا جامعا لأجزاء مختلفة، كما يقال في حد الإنسان: أنه حيوان ناطق مائت؛ إذ تسمى أجزاء جوهره مع أعراضه المختلفة فيه: أقنوما واحدا، شخصا واحدا، ولا يسمى كل جزء وكل عرض منها أقنوما أنسيا: وذلك أن[3] اسم الأقنوم واجب للشيء المستغنى بذاته القائم بشخصه. ولا لذي اضطرار كالأجزاء ولا لذي الاشتباك. فإن الأجزاء والأعراض لا تقوم مكتفية بذواتها، كما أن حر النار الذي هو جزء من قوى النار لا يقوم بذاته أقنوما منفردا دون أصلية النار وضوئها. وكذلك الأعراض المشتبكة في الجوهر كالسواد والبياض وما أشبههما، لا تقوم أشخاصها مكتفية بذواتها دون الجوهر اللازم لها. فالأقنوم هو المستغني بذاته عن أصل جوهريته كالإنسان المستغنى بخاصية إنسانه عن الناس، والشجرة عن الأشجار، والدينار عن الدنانير، فامتناع أجزاء الإنسان من القيام أشخاصا لاضطرارها وعجزها عن القيام بذواتها كروحه العاجزة عن القيام بتحديدها إنسانا دون جسمه ونطقه، وكذلك نطفة وجسمه يعجز كل واحد منهما عن القيام بتحديده إنسانا دون روحه، وذلك لاضطرار كل جزء منها إلى صاحبه في القيام بإنسانيته.

فإذا تقرر هذا، فحياة الله ونطقه لا يخلو من أن يكونا جزأين من جوهره، كما هو من الإنسان أو غير جوهره، فإن قلنا: هما جزءان من جوهره ألزمناه ما يلزم الإنسان من الاضطرار والتأليف، لأنا وجدنا أجزاء الإنسان لاضطرار بعضها إلى بعض تقصر عن

1- في ط: "ونوضح مسائلهم فيها".

2- في ط: "الله تعالى".

3- في ط: "لأن".

احتمال أسماء الأقانيم، وهذا يستحيل على الجوهر الأزلي، إذ هو يتعالى[1] عن الأجزاء والتأليف والتركيب والأعراض. فوجب[2] أن تكون خواصه لغنائه وكمالها، تسمى أقانيم قائمة بخواصها، ومستحقة أن توصف منها[3] بجوهرية قديمة كقدمه، لا جزأين مركبين، ولا عرضين مضطرين[4]، لأنه لم يزل حيا وناطقا بكلمته.

ومن زعم أن الحياة من الله، والنطق منه: محدثان؛ وصف الله تعالى في أزليته بالموت والجهل. وإن قلنا: إن حياته[5] ونطقه غير جوهره أزليان، فقد أشركنا مع الله في أزليته غيره فلذلك يسمى كل واحد من الروح والكلمة جوهرية خاصة، فوجب أن يكون جوهر الخالق تعالى: أقنوما، خاصا، قائما، كاملا بخاصته[6] لم يزل. ونطقه الذي هو كلمته أقنوما، خاصا كاملا قائما بخاصته[7] لم تزل. [وروحه أعني حياته: أقنوما، خاصا، كاملا بخاصة لم يزل][8] فهذه ثلاثة أقانيم معروفة بمعانيها، لا متفاصلة، ولا متركبة، ولا متشابكة، جوهر واحد، ذات واحدة[9]".

هذا كلام صاحب "الحروف" وهو عندهم القسيس المعروف. ولقد رام تحسين مذهبهم، وتبيين مطلبهم، ولكن لا يستوي الظل والعود أعوج، ولا يصلح المذهب وقائله أهوج.

❖وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر❖

وهم مع ذلك فيما ذكرناه من الأقانيم مختلفون، وبالحيرة عمهون.

هذا صاحب كتاب "المسائل" يقول: "هذه الثلاثة الأقانيم متوحدة لأجل الآب، متساوية لأجل الابن، منتظمة الروح، فنؤمن أن الأب أب لأجل أنه ذو ابن، والابن ابن، لأنه ذو أب، والروح القدس منبثق، لأنه من الآب والابن، فالأب أصلية الإلهية، لأنه كما لا يخلو قط أن

1- في ط: "متعالى".
2- في ط: "فأوجبوا".
3- في ط: "ومستحقة الذي توصف به".
4- في ط: "منفصلين".
5- في ط: "وإن قلنا حياته".
6- في ط: "بخاصية".
7- في ط: "بخاصية".
8- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.
9- في خ/م: "واحد"، وهو تصحيف.

يكون إلها كذلك لم يخل[1] قط أن يكون أبا، الذي الابن منه مولود، والذي الروح القدس منه ليس مولودا، لأنه ليس ابنا ولا غير مولود، لأنه ليس مخلوقا، لأنه ليس من شيء، بل إله منبثق من الآب والابن إله.

وأقنوم الآب غير أقنوم الابن، وأقنوم الابن غير أقنوم الروح القدس، لكن التثليث المقدس ذات واحدة، إلهية واحدة، وهذا تصريح بأن الأقانيم: آلهة، وإن كان كل واحد[2] منها غير الآخر.

وقد ذهب "سباليش"[3] إلى أن[4] الثلاثة الأقانيم ممتزجة في أقنوم واحد، وهو عند كثير منهم مكفرا وكالمكفر. وقد ذهب "آريش" إلى أنه إلهية الأقانيم منخزلة ومتبعضة الذات، وهو عندهم مفتر خارجي".

وقال صاحب كتاب "المسائل": "لسنا نؤمن أن في التثليث شيئا مخلوقا أو خادما كالذي أنشأه "دنونيشيش"، أو غير معتزل كقول "أونوميش"، أو ناقص الامتنان كقول "أوتفش"، أو مقدما أو مؤخرا أو صغيرا كقول "آريش"، ولا ذا جسد كقول "مالطه" و"ترتليان"، ولا مصورا بالجسدية[5] كقول "أريد" و"نمرشيش"، أو محجوبا بعضه عن بعض كقول "أوريان"، ولا مربيا من المخلوقات كقول "فرطنات"[6]، ولا متفرق الإرادة والعوائد كقول "مرحيون"، ولا منقلبا من ذات التثليث إلى طبيعة المخلوقات كقول "أفلاطون" و"ترتليان"، ولا منفردا في رتبة مشتركا في أخرى كقول "أوريان"، ولا ممتزجا كقول "شباليش" بدل كله كامل لأنه كله واحد، ومن واحد لا مفرد[7] كزعم "شلبانش"."

وإذا وقفت على هذه الأقاويل الضعيفة، والآراء السخيفة، لم تشك في تخبطهم في عقائدهم، وحيرتهم في مقاصدهم؛ قالوا في الله تعالى[8] بآرائهم، واتبعوا فيها ظاهر أهوائهم، فهم في ريبهم يترددون، ولجهالهم مقلدون، وبضلالهم مقتدون[9].

1- في ط: "يخلو".
2- في ط: "وإن كان واحد"، وهو تصحيف.
3- في ط: "شباليش".
4- في خ/م: سقطت "أن".
5- في ط: "بالحيدية".
6- في ط: "فرشاط".
7- في ط: "لا تعدد".
8- في ط: " تبارك وتعالى".
9- في ط: "مقتدرون".

ولما رأينا هذه المذاهب الركيكة لا تستحق أن تحكى، بل يضحك من ذهاب عقول أربابها ويبكى، أعرضت عنها إعراض المطلع على عوره أمام من يخاف جوره، فعزمت على نقل مذهب كبيرهم "أغشتين" فإن مذهبه في الأقانيم مقارب في الصفات مذهب المسلمين.

وذلك أنه قال بعد مقدمة كلام يرجع حاصله إلى ما نذكره: "لما أقر علماء المجوس بالقوة الماسكة لكل شيء، وأراد بعضهم أن ينزلوها جوهرا غير حي ولا مستغن بنفسه، وجب علينا أن نحتج عليهم بما يضمهم إلى الإقرار بأن تلك القدرة ذات علم وإرادة".

قال: "وقد رد علينا هذه المقالة "برفيريش" فقال: لا نقول أنه شيء فيكون قد سميناه بالأشياء التي لا تسلم[1] من عيب، ولكنا نقول: "إنه" ولا نقول: "شيء" ثم قال:" ألستم تقرون[2]: أن الذي قدر هو الذي علم، وأن الذي علم هو الذي أراد، فهو واحد في جميع المعاني. وإنما القدرة والعلم والإرادة أسماء صارت فيما بين الخلق والمخلوق، وليست لا خالقة ولا مخلوقة، لأنه لو لم يكن الشيء المقدور لم يسم ذو[3] قدرة، ولو لم يكن الشيء المعلوم لم يسم ذا علم، وكذلك القول في الإرادة، فهذه الأسماء، إنما هي أعراض وأسماء فيما بينه وبين الخلق مثل قولنا: ذو رحمة وذو حكم وذو عقاب، فلو لم يكن الخلق المرحوم لم[4] يلزمه اسم الرحمة وكذلك غيرها".

قال "أغشتين" في جوابه عن قوله: "لا نقول أنه[5] لكل شيء عقيب، وما لم يكن له عقيب فليس بشيء، لأن عقيب شيء لا شيء، وإذا كان إنما ينفي عنه اسم شيء، لأن الأشياء كلها له، فمثل ذلك يجب عليه في قوله:" أنه[6]" أو قوله: "كان"؛ مع أنا لا نعرف شيئا نقول فيه:" أنه[7]" إلا بعد معرفتنا إياه "شيئا"، وحسبنا في هذا قولنا: شيء ليس كشيء من جميع الأشياء".

قال:" وأما قوله: أن القدرة والعلم إنما هي أعراض لزمنه فيما بينه وبين الخلق، وأنها مثل الرحمة والحكم؛ فإنا نحتج عليه في ذلك بأن نقول: لست تنكر أنه كان قبل الأشياء ودون الأشياء بلا ابتداء، فهل تقدر أن تجحد أنه كان أبدا قادرا ؟ فإذا أقررت أنه لم يزل

1- في خ/م: "تتسلم".
2- في ط: "تقرأون".
3- في ط: "ذا".
4- كلمة "لم" ساقطة من خ/م.
5- في ط: "أن".
6- في ط: "أن".
7- في ط: "أن".

قادرا، فقد أقررت أن القدرة صفة أزلية، فإن قلت: أنه لا يجوز أن يسمى قبل أن يكون الشيء المقدور عليه قادرا[1]، وإنما يسمى قادرا بعد كون الشيء المقدور علينا؛ قلنا: أفكان يقدر على أن يقدر، أم لا؟ فلا بد لك من أن تقول: كان يقدر. فيلزمك وصفه بالقدرة على كل حال.

وكذلك قولنا في العلم والإرادة؛ وقولك: يرحم ويغفر ويحكم، ليس مثل قولنا: يقدر ويعلم ويريد، لأنك لا تقول: كان أبدا يرحم، وكان أبدا يخلق. ولا بد من أن تقول: كان أبدا يقدر، وكان أبدا يعلم وكان أبدا يريد".

ثم قال بعد كلامه مع الفلاسفة: "فنحن ما لم نصفه بالعلم والإرادة، لم نصفه بمدبر ولا حي".

ثم قال: "إن قلنا عرفناه بوحدانيته، وعلمناه بذاته من غير نظرنا إلى فعله، الدال على قدرته وعلمه وإرادته، فقد كذبنا. لأنه لا يقدر أحد أن يقول: أنه وقع على معرفته إلا بما نظر إليه من خلقه، وتفكر فيه من حكمه، وبمعرفته بنفسه؛ وكل هذا إقرار بالثلاثة الأقانيم التي ذكرنا، لأنا لما وجدنا الخلق الذي لم يقدر أن يكون بنفسه وجب الإقرار بالشيء الذي به قدر[2] أن يكون، وهي القدرة التي سماها علماء المجوس: الهيول. ثم لما نظرنا إلى تدبير الخلق، وجب الإقرار بالعلم والإرادة، لأن التدبير لا يكون إلا ممن يعلم ويريد فثلاثتها اسم لإله واحد، ونعت لمدبر فرد، ولا تجد هي غيره ولا يجد هو غيرها؛ فهذا قولنا في التثليث الذي وصفه الإنجيل وأمر بالإيمان به وسماه باللسان العجمي: "الآب والابن والروح القدس".

فهذا كلام هذا القس، والنصارى معترفون[3] بأنه أعرفهم بدينهم، وأعلمهم بشرعهم ويقينهم، ينص على أن الأقانيم الثلاثة صفات ونعوت للواحد الفرد، ولا يقال فيها: أنها هو، ولا هي غيره، وهو لعمري من المسددين في هذا النظر، إذ قد سلك مناهج البحث والعبر، ولقد قارب الحنيفية، وتباعد عن الملة النصرانية، إلا أننا ننازعه نزاعين أحدهما: في تسمية هذه الصفات الآب والابن والروح القدس[4]، على ما تقرر، وهذا نزاع لفظي ليس بكبير، ولا له حظ خطير. والنزاع الثاني: في أنه قصر الأقانيم على هذه الثلاثة، ولم

1- في ط: سقطت كلمة "قادرا".

2- في ط: "الذي قدر".

3- في ط: "يعترفون".

4- "الروح القدس" ساقطة من خ/م.

يعد الحياة فيها كما فعل غيره منهم، وكذلك الوجود الموصوف بهذه الصفات لم يعده أقنوما . وقد صرح بأنها صفات، ولا بد للصفات من موصوف بها بالضرورة.

وسنعطف[1] عليه بالرد إذا تكلمنا مع غيره إن شاء الله[2]، ومع هذا فقد سلك هذا الرجل مسلك أرباب العقول، وتبرأ من جهالة كل جهول، وإذا كان كذلك، فسبيلنا أن نتكلم مع الذي صدرنا هذا الفصل بذكر كلامه، فإنه كثير الفساد مضرب عن الرشاد، ويتضمن الرد عليه الرد على غيره ممن يقول مثل قوله أو ما يقاربه، مستعينين بالله متوكلين عليه.

الجواب عن ما ذكره المصدر كلامه:

لتعلم أيها الناظر في كتابنا : أننا يمكننا أن نناقش هذا القائل كما ناقشنا السائل، فإن كلامه كثير الغلط، ظاهر التكلف والشطط، لكنا تركنا مناقشته اللفظية، وصرفنا المناقشة للمباحثة المعنوية، كراهة للإكثار وميلا للإيجاز والاختصار، وأيضا فإن نفس الله في العمر، وصرف عنا عوائق الدهر، فسنرد عليه في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى، أبين فيه غلطاته، وأوضح جهالاته وسقطاته بحول الله وقوته.

فنقول له: لا يشك عاقل سليم الفطرة أن: خالق العالم موجود ليس بمعدوم، وقد اعترفتم بأنه حي عالم، ومن لم يعترف بذلك أقيمت عليه البراهين القاطعة، فإذا تقرر ذلك؛ قلنا : فمفهوم أنه حي هو عين مفهوم أنه عالم أو غيره، فإن كان عينه فقولكم: حي، عالم، كقولكم: حي حي أو عالم عالم؛ والفرق ما بينهما معلوم ضرورة، ولو كان عينه لاختلطت الحقائق؛ فثبت أنهما متغايران متعددان، فإذا ثبت ذلك، فإما أن يرجعا إلى الخالق سبحانه[3] في قولكم أنه حي عالم أو لا يرجعان، فإن لم يرجعا لم يصح الإخبار عنه بهما، ولم يكونا وصفين له، فثبت أنهما يرجعان إليه، وإذا ثبت ذلك فإما أن يكونا من أوصافه تعالى النفسية أعني: الذاتية، فإن كانا من أوصافه النفسية أدى ذلك إلى أن تكون[4] ذاته وماهيته متركبة متبعضة، وذلك محال على ما قررتم فيما تقدم من كلامكم.

وأيضا لو عقل كون العلم والحياة من الأوصاف النفسية في محل لعقل[5] ذلك في كل محل. ويلزم من ذلك كون العلم والحياة من صفات أنفسنا، وذلك معلوم البطلان بالضرورة.

1- في ط: "وستعطف".

2- في ط: "تعالى".

3- في ط: "سبحانه وتعالى".

4- في ط: "يكون".

5- في ط: "عقل".

وأيضا فلو جاز ذلك، للزم أن يكون العلم والحياة قائمين بأنفسهما، أعني موصوفين، لأن جزء القائم بنفسه قائم بنفسه، وقد ثبت بالأدلة القاطعة أن الباري تعالى قائم بنفسه، والمعقول من العلم والحياة أنهما صفتان لا موصوفان، فإذا تقرر ذلك وثبت لزم منه أنهما زائدان على النفس، فإذ ثبت ذلك فإما أن يقوما به أو لا يقوما به، فإن لم يقوما به لم يتصف بهما، ولو جاز أن يتصف بما[1] لا يقوم به لجاز ذلك في حقنا، فكان يلزم عليه أن يكون: "علم زيد[2] يتصف به عمرو" وذلك محال ضرورة، فدل ذلك على أنهما قائمان به؛ فإذا قاما به وهما وجودان زائدان على الذات حصل من ذلك كله أن: ذاته واحدة لا تركيب فيها ولا تعدد؛ وأن صفاته الزائدة هي المتعددة، وهذا لا إحالة فيه بل هو الحق الذي لا غبار عليه، ولا بد لكل ناظر من الرجوع، وأن تخبط إليه، فهكذا ينبغي أن تفهم صفات الباري تبارك وتعالى [وتقدس وتنزه عما يقول الجاحدون والكافرون علوا كبيرا][3].

وهذه الطريقة البرهانية تجري في كل صفة يدعى ثبوتها للباري تعالى. وبعد الانتهاء إلى هذا المحل ينظر: هل أوصافه أزلية أو ليست بأزلية[4]؟ والحق أنها أزلية، ولا يجوز[5] أن يكون شيء منها حادثا، إذ لو كان شيء من صفاته حادثا للزم عليه أن يكون محلا للحوادث، ويلزم على ذلك حدوثه تعالى، وهو محال على ما يعرف في موضعه.

فإذا تمهد هذا الأصل قلنا بعده للمتكلم معه: الأقانيم عندكم لا تخلو من أن ترجع إما إلى صفاته النفسية أو إلى صفاته المعنوية، أعني الزائدة على النفس، ولا واسطة بين القسمين، فإن رددتموها إلى القسم الأول، لزمكم ما تقدم من المحالات، حذو النعل بالنعل، وإن رددتموها إلى القسم الآخر، فلأي معنى قلتم في حد الأقنوم أنه الشيء المستغني بذاته عن أصل جوهره في إقامة خاصة جوهريته؟ وهل المفهوم من هذا إلا أنه صفة نفس؟ لأن المستغني بذاته عن أصل جوهره هو الذي نعبر نحن عنه بالقائم بنفسه، ويعبر عنه غيرنا من النظار بالموجود، لا في موضوع.

وأيضا، إن كان أراد هذا القائل أن الأقنوم هو الصفة الزائدة على الذات فيلزمه أن يجعل الأعراض أقانيم؛ فإنها زائدة على الذات. ومن عجيب أمره أنه ألزم من قال: "إن

1- في ط: "فيما".
2- في خ/م: "زايد".
3- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.
4- في ط: "أم ليست أزلية".
5- في ط: "ولا محرز".

العلم والحياة غير الجوهر" الإشراك به، وأي إشراك يلزم من قال: إن صفات المعاني زائدة على ذات الموصوف بها؟ وكيف يمكن أن يقول عاقل إن الصفة الزائدة على الجوهر أنها عين الجوهر ؟ وهل قائل هذا إلا جاهل أو متجاهل؟

فتحصل من هذا كله: أن الأقانيم لا يصح عندهم أن تقال على الصفات النفسية ولا على الصفات المعنوية، ولا يعقل هنالك أمر آخر متوسط بينهما، فقولهم في الأقانيم غير معقول فكأنه قول مجنون[1].

ثم نقول لهذا القائل: لأي شيء لم تجعل القدرة من الأقانيم كما ذهب إليه مقدمكم الأقدم وأسقفكم الأزعم "أغستين"[2] فتكون الأقانيم أربعة؟ فإن قال: إن القدرة ترجع إلى الوجود كما صرح بذلك بعضهم، فنقول لمن يقول ذلك: ولم ذلك؟ وهلا رجع[3] العلم والحياة إلى الوجود؟ وما الفصل بينهما إلا محض التحكم.

وكذلك القول في الإرادة [سواء، فإن قال الإرادة][4] ترجع إلى الحياة.

قيل له: إن صح ذلك فليرجع إليها العلم، وإن جاز شيء من ذلك فلترجع كل واحدة من هذه الصفات إلى الأخرى، ويرجع الكل إلى الموجود، والوجود هو نفس الذات، فترجع الأقانيم الثلاثة إلى واحد، وهو محال على ما تقدم لكم وعليكم، ويكون هذا أيضا قولا بامتزاج الثلاثة الأقانيم في أقنوم واحد، كقول الخارجي الجاهل "شباليش" وأنتم لا ترضون شيئا من قوله ولا مذهبه.

ثم نقول: لأي شيء تحكمتم بأن الأقانيم ثلاثة؟ وهلا أضفتم إليها القدرة والعلم والسمع والبصر كما تقدم الكلام عليه؟ أو لعلها اثنان؟ وعدم انتصارهم يدل على ضعف أنصارهم، ولا حجة لهم في هذه المواطن كلها أكثر من التحكم، فينبغي إذا[5] أن يتكلم معهم على جهة المناقضة والتهكم، وغايتهم في ذلك: أن يرجعوا إلى الاستقراء والتمثيل، وهما في المعتقدات: طريقا الخطأ والتضليل.

ثم نقول: هذه الأقانيم الثلاثة قد قلتم أن كل واحد منها مستغن بذاته عن أصل جوهره، وإذا كان ذلك، فإما أن يكون كل واحد منها إلها أو جزء إله أو يكون مجموعها إلها

1- في ط: "مجنون مخبول".
2- في ط: "أغشتين".
3- في ط: "وهل لا يرجع".
4- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.
5- في ط: "إذن".

واحدا، فإن كان جزء إله لزم عليه أن يكون الإله متركبا متبعضا، ويلزمكم على ذلك إبطال التثليث الذي تقولون به، ويلزمكم على ذلك الامتزاج الذي ذهب إليه "شباليش"، وإن كان كل واحد منها إلها بانفراده لزمكم على ذلك أمور كثيرة شنيعة[1] باطلة، منها: أن يكون كل واحد من هذه الأقانيم حيا، عالما، مريدا، قادرا، موصوفا بصفات الكمال إذ الإله هو الموصوف بصفات الكمال المتعالي عن صفات النقص، وإن[2] التزم ذلك ملتزم: لزم عليه أن تقوم الصفة بالصفة، وإن جاز ذلك جاز أن يقوم العلم والقدرة بالإرادة، والإرادة والقدرة بالعلم، والقدرة والعلم بالحركة، والحركة والقدرة والعلم باللون إلى غير ذلك من أنواع الجهالات التي لا يبوء بها عاقل ولا يرضى بسماعها فاضل؛ وإن جاز قيام الصفة بالصفة جاز أن يقوم بالصفة صفة، وبتلك الصفة صفة، ويتسلسل. وما يتسلسل لم يتحصل، ويلزم عليه أن تكون الأقانيم لا نهاية لها، إذ العلم يقوم به حياة[3]، وتلك الحياة حية بحياة إلى غير آخر. ومنها: أن تكون القدرة قادرة بقدرة، والعلم عالم بعلم، والحياة حية بحياة إلى غير ذلك من الصفات؛ وهذا غير معقول، فإن العلم والقدرة وسائر صفات المعاني إنما توجب أحكامها للمحال التي تقوم بها، لا لأنفسها، فالعلم[4] لا يكون عالما ولا قادرا، وكذلك القدرة لا تكون عالمة ولا قادرة، وكذلك سائرها وإنما العالم والقادر والمريد والحي هو الذات الذي تقوم به هذه الصفات، وهذا معلوم من غير أسباب ولا إطناب.

ومنها: أن يكون الإله صفة لموصوف، فإن المفهوم المعقول من هذه الأقانيم أنها صفات لا موصوفات على ما تقدم إلى أمور كثيرة يطول الكلام بذكرها.

ثم نرجع إلى بقية التقسيم فنقول: وإن لم تكن هذا الأقانيم حية ولا عالمة ولا قادرة فلا تكون آلهة[5]، وقد أطبق النصارى على أنها آلهة، ويلزمهم أن لم تكن الأقانيم موصوفة بهذه الصفات وصفها بأضدادها أو بالانفكاك عنها إن لم توصف[6] بحياة وصفت بالانفكاك عنها. والمنفك عن الحياة ميت، فيلزم عليه: أن يقولوا بآلهة أموات وكذلك يلزم في سائر الصفات.

1- في ط: "مشينة".
2- في ط: "فإذا".
3- في خ/م: "حياة القدرة".
4- في ط: "بالعلم".
5- في ط: "إلهية".
6- في ط: "يوصف".

وقد كع المصدر بكلامه عن هذا الإلزام، وصعب عليه المرام، فتكلم بما لا يعقل فليته سكت ولم يتقول، وبعد الخبط والتأوه، قال: هذا ما لا يجوز لنا به التفوه. ومن أراد أن يقضي العجب العجاب، فليقف على ذلك الكتاب.

وتلخيص ما ذكره في الانفصال أن قال: إن قلنا إن الأب ليس يحيا كذبنا، وإن قلنا هو الحياة أبطلنا، فإذا كان ليس حيا وليس بحياة، وجب أن يكون حيا بلا محالة، وكذلك قال في العلم والحياة.

ومن أفضى به إلى هذا الهذيان بحثه ونزاعه، فقد تعين تركه وانقطاعه، وحسبك في شر سماعه؛ وذلك كله يدل على أنهم ليسوا من العقلاء، ولا معدودين[1] من جملة الفضلاء، بل قد انخرطوا في سلك الحمقى[2]، الجهلة الأغبياء، فهم قد جعلوا إلههم هواهم فأضلهم لذلك وأرداهم، فهم كما قال الله العظيم في محكم كتابه الكريم: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[3].

وما حكاه[4] صاحب كتاب "المسائل" فكلام يدل على أن القوم ليس فيهم مستحي ولا عاقل، كابروا الضرورات، وجحدوا المعقولات، فتارة[5] يتناقضون، وأخرى يتواقحون، افتراء على الله، واستهانة بحرم الله، وحسبك دليلا على ذلك اختلافهم في البديهيات هنالك، وقد وكلت الناظر فيه لظهور تناقضه وفساد معانيه، فإن غاية الناظر في كلامه أن يلزمه من المحال والتناقض مثل ما صرح بالتزامه، ومن أنكر الضروريات، وارتكب المحالات، فدار المرضى والمجانين أولى به وأليق من اشتغاله بالمعقولات.

1- في خ/م: "معدودون".
2- في ط: "الحمقاء"، وهو تصحيف.
3- سورة الفرقان:43-44.
4- في ط: "وأما حكاية".
5- في ط: "تارة".

الباب الثاني

في بيان مذاهبهم في الاتحاد والحلول وإبطال قولهم فيها

الفصل الأول

اتحاد الكلمة في حكاية كلام هذا السائل

قال السائل: "ثم نبدأ بالقول في الاتحاد، فإن قلت فإذا كان[1] التثليث عندكم أسماء أفعال لخواص قائمة، والذات واحد لا ينقسم ولا يتبعض فلم[2] بعضتموه دون الآب وروح القدوس[3]؟ [ولم سميتم المسيح ابنا][4] ولم سميتموه أبا وروح القدس؟

اعلم أنها لم تفارقنا[5] القضايا بالأفعال، اختلفت أسماءها كما قدمنا فأضفت[6] قضية خلق الخليقة بدءا[7] إلى القدرة وسميت أبا، وأضفت قضية الموعظة إلى العلم المتولد كلاما وسمى ابنا، وانفردت قضية الوعظ باللحمة دون غيرها، لأن المسيح إنما اتخذ في الدنيا للموعظة لا لخلق الخليقة، لأن الله لو اتخذ جسما ليخلق به الخلق بدءا[8] يسمى الجسم أبا، وأضفت اللحمة إلى الأب ولكنه إنما اتخذه لموعظة الخلق، والوعظ مضاف إلى العلم المتولد كلاما فسمى إبنا، فلذلك قال الإنجيل التحمت الكلمة وسكنت فينا، فأفرد الكلمة بالإلتحام لأنها الواعظة بالأمر والنهى دون القدرة والإرادة. فهذا أخصر[9] شرح الإتحاد.

الجواب عن كلامه: يا عجبا من بلادة صاحب هذا السؤال، كيف لم يحسن إذ تتبع عليه المقال، وكثر عليه اللحن والإختلال، حتى أخل بمفهومه وعدل عن السؤال، فصار كلامه لذلك كأنه كلام مجنون مخبول إذا تهذين[10]، ولم يثبت فيما يقول؛ وذلك أنه وجه[11] على نفسه في كلامه هذا أسئلة، انفصل بزعمه عن واحد منها، وتغافل عن سائرها جهلا منه بورودها وحيدا عن جوابها.

1- سقطت كلمة "كان" من خ/م.

2- في خ/م: "فلما بعضمتوه".

3- في ط: "القدس".

4- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.

5- في ط: "لما تعارفت القضايا بالأفعال".

6- في ط: فاختلفت قضية خلق الخليقة.

7- في ط: "بيد".

8- في ط: "بيد".

9- في خ/م: "أحصر".

10- في ط: "تهذبن".

11- في ط: "وجد".

أحد الأسئلة أنه أراد أن يقول: قد قلتم إن التثليث قد رددتموه إلى ثلاثة خواص لواحد لا يتبعض، فلم بعضتم ما لم يتبعض؟ وثانيها لم اتحد الابن بالمسيح دون الآب وروح القدس؟ وهذا تضمنه كلامه حيث قال دون الآب وروح القدس. وثالثها لم سميتم المسيح ابنا؟ ورابعها لم سميتم الله تعالى أبا؟ وخامسها لم سميتم إرادة الله تعالى روح القدس؟

على أن ظاهر كلامه يدل على أن السؤالين الأخيرين إنما هما راجعان إلى المسيح، ألا ترى أنه أعاد الضمير -أعني ضمير سميتموه- عليه، لكنه لم يرد هذا. ويدل عليه أنه لم يسم أحد منهم المسيح أبا ولا روح القدس، وإنما سموه ابنا، فتارة يقولون عليه ابن الله، وتارة ابن الإنسان. وأما روح القدس فقد تقدم في اصطلاح هذا السائل أنه أراد به الإرادة، ومن اصطلاح غيره أنه أراد به الحياة، ولم يقل قط أحد منهم: أن المسيح اتحدت به إرادة الله وحياته. ولم يقل قط أحد منهم: أن المسيح اتحدت به إرادة الله وحياته. فلما وجه على نفسه هذه الأسئلة التي لم يشعر بوجه لزومها ولم ينفصل عن شيء منها. أخذ بعد ذلك بزعمه ينفصل[1] بكلام لا يلتئم ولا يتصل، فأسهب في التكرار والترداد، فصار كلامه لذلك أبرد من حديث معاذ[2].

ثم قال في الجواب ما كان قد فرغ منه، ولقد كان يستغني عنه: "قد قدمنا أن الأقانيم الثلاثة إنما سميت بالابن والآب وروح القدس، لاختلاف القضايا الثلاث. فأضيف الخلق إلى القدرة وسمي أبا، وأضيفت الموعظة إلى العلم وسمي ابنا"، وهذا كلام مكرر مستغنى عنه في جواب ما سئل[3] عنه إذ لاتعلق له به، وإنما الكلام الذي يمكن أن يكون جوابا لبعض ما سئل[4] عنه هو قوله: انفردت قضية الوعظ باللحمة دون غيرها، لأن المسيح إنما اتخذ في الدنيا للموعظة وسكنت فينا لا لخلق الخليقة، ولذلك قال الإنجيل التحمت الكلمة وسكنت فينا". هذا مقتضى كلامه في الإنفصال، بعد تلفيق مبدد وتهذيب مشبج المقال ومع هذا فكلام هذا السائل لا يقبل التلفيق من صانع فإن الفتق اتسع على الراقع وبعد تقرير هذا نقول:

قد تقدم جوابك عن أكثر هذا الفصل فيما تقدم، حيث تكلمنا في الأقانيم، وعلى أسماء الأفعال، وعلى التثليث، وعلى القضايا الثلاث بما أغنى عن إعادته، فمن أراد أن

1- في ط: "يتفضل".
2- في ط: "معاد".
3- في ط: "سال".
4- في ط: "سال".

يتحقق فساد هذا الكلام فليعد نظرا فيما تقدم. وإنما الكلام معك هنا على قولك: "إنما اتحدت بالمسيح الكلمة التي هي العلم، لأن المسيح اتحد[1] للموعظة." كيف يتمكن عاقل من أن يقول هذا الذي ذكرته، وعيسى عليه السلام قد اتخذه الله تعالى لإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وخلق الطير من الطين. وهذه الأمور كلها لا يمكن أن تقع إلا بالقدرة والإرادة. فقولوا: إنهما اتحدتا به، ولا فرق بينهما وبين العلم لولا محض الجهل والتحكم، لاسيما وقد جاء في بعض كتبهم أن عيسى عليه السلام قال: "قدرته قدرتي ومشيئته مشيئتي"، أو قولوا: إنه عليه السلام كان يفعل هذه الأمور الخارقة للعادة بغير قدرة، فيلزمكم أن يفعلها بغير علم، ثم يلزمك على مساق كلامك أن يكون كل من اتخذ للموعظة من الأنبياء والعلماء أن يتحد بلحمته[2] الإبن.

وأما قولك: "لأن[3] الله لو اتخذ جسما ليخلق به الخلق لسمي ذلك الجسم أبا"، فهو إلزام مالا يلزم. فإن الله تعالى قد اتخذ الأرض والماء والهواء والنار ليخلق بهم المخلوقات، ولا يلزم من ذلك أن يكون أبا ولا أن تسمى[4] أبا وهي أجسام.

وأما قولك: "فلذلك قال الإنجيل: التحمت الكلمة وسكنت فينا"، فلقد خالفت التنزيل وحرفت التأويل. فهلا عليك، سترت على مكرك، ولم تُلبس على نفسك وخصمك؟ ولأي شيء لم تذكر الكلام من أوله، وتسوقه على منازله. أتظن أن المسلمين ليسوا بكتبكم عارفين، ولا لتحريفكم وتلبيسكم منتهين. تالله لقد فيهم من يعرف[5] منها الحق الذي لا تعرفون[6] ويتحقق منها ما أنتم فيه تشكون[7] ويعلم منها ما أنتم به جاهلون.

ومن ذلك أن هذا الكلام الذي حكيته عن الإنجيل، وسلكت به مسلك التجهيل، هو في إنجيل يحيى بن سبذاي[8] المصور بزعمكم بصورة عقاب، يقول عن عيسى عليه السلام

1- في ط: "اتخذ".
2- في ط: "بلحمة".
3- في ط: "أن".
4- في ط: "يسمى".
5- في ط: "تعرف".
6- في خ/م سقطت العبارة التالية: " الحق الذي لا تعرفون".
7- في خ/م: "تشكرون".
8- في ط: "يوحنا بن سبداي.

من تقبله[1] منهم وآمن باسمه أعطاهم سلطانا ليكونوا أولاد الله، وهم الذين لم يتوالدوا[2] من دم ولا شهوة لحوم، ولا شهوة رجل، ولكن توالدوا[3] من الله، فالتحمت الكلم وسكنت فينا، ورأينا عظمته كعظمة ولد الله الفرد المحشو رضوانا وصدقا"[4].

هذا مساق كلامه في الإنجيل، وهذا الكلام لا يستدل [به][5] على ما ذكرته[6]، ولا على غيره، حتى يعلم أن عيسى عليه السلام هو الذي قاله. وليس هو في الإنجيل مرفوعا إلى عيسى ولا مسندا إليه ولا مخبرا به عن الله تعالى. وغايته إن صح أن يكون موقوفا على يحيى[7] ومن قوله، وحاشاه[8] عن قول مثله. ثم لو سلمنا ذلك، فليس بمعصوم فإن العصمة إنما ثبتت للأنبياء، أو لمن أخبر الأنبياء عنهم أنهم معصومون، وهذا ليس بنبي، ولا بلغ عن الأنبياء بطريق قاطع أنه معصوم. وسيأتي الكلام على هذا في باب النبوات إن شاء الله[9].

وبتقدير أنه معصوم، فكتابكم قابل للتحريف والتغيير، فإنه لم تكمل فيه شروط المتواتر[10]، فإنه راجع إلى أخبار آحاد، لا تفيد علما على ما نبينه. وعلى التقريب إن أناجيلكم إنما هي أربعة عن أربعة كل واحد منهم لا يفيد خبره العلم، فإنه[11] خبر واحد. ومع ذلك فلو أنهم تواردوا على نقل خبر واحد، لكان نقلهم لا يفيد اليقين. فإن الخبر الذي يحصل به العلم اليقين، إنما هو المتواتر، وحقيقته[12] الخبر المفيد للعلم بالمخبر عنه الذي تحيل العادة على ناقليه الغلط والتواطؤ على الكذب على ما يأتي إن شاء الله.

وعلى تسليم أنه لا يقبل التغيير ولا التحريف، فهذا الكلام ليس بنص قاطع، بل هو

1- في ط: "يقبله".
2- في ط: "يتولدوا".
3- في ط: "لكن توالدوا".
4- يوحنا: 10-14.
5- في ط: "لا يستدل على ماذكرته".
6- في ط: "ذكرت".
7- في ط: "يوحنا".
8- في ط: "وحاشا".
9- في ط: "إن شاء الله تعالى".
10- في ط: "التواتر".
11- في ط: "بأنه".
12- في ط: "المتواتر حقيقة".

محتمل للتأويل، وتأويله معضود بسياقة اللفظ؛ وذلك أن مساق هذا الكلام يقتضي أن كل من آمن بعيسى عليه السلام، فإنه توالد من الله والتحمت الكلمة به وسكنت فيه، ولذلك قال ولكن توالدوا من الله فالتحمت الكلمة[1] وسكنت فينا.

فإن كنت تريد أن تستدل بهذا اللفظ على أن الكلمة اتحدت بالمسيح خاصة، فليس لك فيه دليل، بل يدل ظاهره على أن كل من آمن به التحمت الكلمة به وسكنت فيه، وهذا شيء لا تقولون به، ولا يذهب إليه أحد منكم، فهلا عليكم تفهمتم[2] كتابه، وتدبرتم خطابه، ورددتم آخر الكلام على أوله، حتى تعرفوا نصه من مؤوله. على أنه لو كان نصا قاطعا لا يحتمل التأويل، لما كان ينبغي لعقل أن يقول بمقتضاه. فإن الإتحاد محال قطعا على ما يأتي إن شاء الله[3] إذ تكلمنا على حقيقة الإتحاد والحلول.

وأما قوله: "فأفرد الكلمة بالالتحام، لأنها الواعظة بالأمر والنهي"، فقول لم يقله الإنجيل، ولا دل عليه ظاهر ولا تأويل، وغاية ما في الإنجيل: أن الكلمة التحمت، وليس فيه لأنها الواعظة، فمن عرّفك أن الكلمة التحمت[4] لهذه العلة؟ بل لعلها التحمت لعلة أخرى لم تعلمها أنت ولا غيرك، لعلها التحمت لا لعلة بل لنفسها. وإنما نزلنا في هذا المحل على تسليم الالتحام وإن كان باطلا بالبرهان ليتبين أن هذا المذهب هذيان.

وأما قوله: "لأنها الواعظة بالأمر والنهي"، فقول من لا يعرف فرق ما بين الأمر والنهي والوعظ، ولا حصل من الشرع ولا من العقل على حظ، فإن الوعظ مخالف للأمر والنهي بحقيقته ومقصوده، إذ قد يعظ الواعظ من غير أمر ولا نهي، وينهى ويأمر ولا يعظ، فهما أمران مفترقان غير متلازمين على ما يعرف في موضعه.

وأما قوله: "فهذا أخصر شرح الإتحاد"، فالسين موضع الصاد أليق، إذ الخسران إليه أقرب وبه ألزق، لأنك أوهمت أنك شرحت وأوضحت واختصرت وأوجزت، بل أخللت وطولت وبفائدة ما أتيت. وكيف تصح لك هذه الدعوى، وقد قلت كلاما لا فائدة له ولا جدوى؟ دليل ذلك أنك اعترضت على نفسك باعتراضات كثيرة، ثم إنك حدت عن الجواب، ولم تأت بفصل خطاب، بل أتيت بكلام يشهد عليك عند العقلاء بالبلادة وقله

1- في ط: "فالتحمت بالكلمة".
2- في ط: "فهمتم".
3- في ط: "الله تعالى".
4- في ط: "اتحدت".

التحصيل وعدم الإجادة.

وقد كان ينبغي لك أن تبين حقيقة الإتحاد والحلول، وتبين فرق ما بين مذهب الروم فيه وبين ما به تقول، وتبين الفرق بينه وبين الاختلاط والامتزاج، وبعد ذلك تستدل على صحة وقوعه، وعلى اختصاص عيسى عليه السلام به دون غيره من الأنبياء. فلو فعلت ذلك حينئذ، كان ينبغي لك أن تدعي أنك شرحت وأوضحت، وأما الآن فقد جهلت وافتضحت.

الفصل الثاني

معنى الإتحاد

من حكاية كلامه أيضا قال: "فإن سأل سائل عن معنى الإتحاد، قلنا: نقول بذلك تقليدا للإنجيل والنبيين ورسل[1] رب العالمين فيما نقلوا من ذلك وأعلموناه[2] عن الله، وفيما نص لنا عنهم بتصديق الأخبار الذي لا تكاذب فيها.

فإن قلت: وكيف يجوز أن يتوحد[3] القديم بالحادث، والخالق بالمخلوق؟ قلنا: على تقليد الكتاب وعلى الجائز في العقول؛ وذلك أنا لا نقول: إن القديم في الجوهر صار حادثا، ولا الحادث في الجوهر صار قديما، ولكنا نقول: صار الحادث إلها، ولا نقول صار الإله حادثا[4]، كما نقول: صارت الفحمة نارا، ولا نقول صارت النار فحمة.

فإن قلت: فما علة هذا الإتحاد؟ قيل لك الإرادة[5]. وسائلك[6] هذا كسائل يسأل فقال: لم خلق الله العالم؟ فمن الجواب له أن يقال له: أراد ذلك. فإن قلت: أفهذا الإتحاد[7] قديم أو حديث[8]؟ قيل لك قديم وحادث، فإن قلت فكيف يكون قديما وحديثا[9]؟ قيل لك قديم بالقوة حديث[10] بالفعل. وكل عنده حاضر، لأنه تبارك وتعالى لا تأخذه الأزمان، ولا يعد الأشياء بالأعداد، وكل عنده مقيم حاضر[11]".

الجواب عنه: هذا كلام تمجه الأسماع وتنفر عنه الطباع، سُئل[12] فيه قائله عن حقيقة الاتحاد ومعناه. فأجابه بالدليل عليه وما جرى مجراه، ومن حق الانفصال أن يكون

1- في خ/م: "رسول".
2- في خ/م: "وأعلمونه".
3- في خ/م: "يتوخذ".
4- في خ/م: "ولا إن الحديث في الجوهر صار قديما، ولكنا نقول صار الحديث إلها، ولا نقول صار الإله حديثا".
5- في خ/م: "للإرادة".
6- في خ/م: "سئلك".
7- في خ/م: "الاتخاذ".
8- في ط: حادث.
9- في ط: "حادثا".
10- في ط: "حادث".
11- في ط: "حاضر مقيم".
12- في ط: "سال".

مطابقا للسؤال. فكان يلزمك لما سُئلت عن معنى الاتحاد أن تجيب بحده وحقيقته، ثم بعد ذلك تستدل على صحته ووجوده إن صح ذلك وأمكن الاستدلال هنالك.

أما قولك: "في جواب من سألك عن الاتحاد وحقيقته، نقول بذلك تقليدا للإنجيل والنبيين ورسل[1] رب العالمين". فكلام غير متين لا يصدر مثله عن عقل رصين.

لتعلم يا هذا أن الأنبياء عليهم السلام صادقون مصدقون، والصادق لا[2] يخبر بصحة ما يُعلم بالعقول فساده واستحالته، فإن الصادق لا يناقض قوله دليل العقل ولا يعارضه، بل يصدقه ويشهد بصحته، فلو فرضنا شخصا جاء بأمر معجز فيما يرى، وادعى أنه أرسله الله لنا ليخبرنا أن الثلاثة واحد من حيث هي ثلاثة، وأن الواحد ثلاثة من حيث أنه واحد، وفهم ذلك منه بنص لا يقبل التأويل، لبادر العقلاء إلى تكذيبه، ولعلموا أن ما أظهره على جهة المعجزة، إنما هي حيلة ومخرقة، لأن المعجزة إنما هي دليل الصدق، ولا يقلب دليل الصدق دليل الكذب.

وكذلك لو قال: إن الضدين يجتمعان بعد مراعاة شروط التضاد، وكذلك لو أخبر أن الله تعالى يقلب جوهرا عرضا، ولونا وطعما، إلى غير ذلك من أنواع المحالات. ومن هذا القبيل هو ما ادعيتم من الاتحاد وسيتبين إن شاء الله.

وبعد[3] فلو فرضنا نبينا علمنا صدقه على القطع، تكلم بشيء من هذا، فيكون ذلك الكلام لا يدل على ذلك المعنى دلالة قاطعة، بل دلالة محتملة أو ظاهرة. فسبيلنا أن نتأول إن وجدنا وجها للتأويل، أو نتوقف على تأويله إن لم نجد له محملا[4] في التأويل، مع أن العقل علم[5] استحالة الظاهر ويكل معرفة باطنه إلى الله تعالى، فإن الشرائع وإن لم تأت بما يخالف العقول فقد تأتي بما[6] تقصر العقول عن دركه، وفرق بين يعلمه العقلاء بين العلم بالاستحالة وبين عدم العلم بالاستحالة فإن عدم العلم بالاستحالة لا يلزم منه نفي الجواز ولا إثباته ولا نفي الوجوب ولا إثباته وهذا مما لا خفاء به عند العقلاء.

1- في خ/م: "رسول".
2- في ط: "ما".
3- في ط: "وبعد هذا".
4- في خ/م: "محلا".
5- في ط: "يعلم".
6- في ط: "مما".

وأما قولك: "وعلى الجائز في العقول"، فينبغي لنا أن نسألك هنا أسئلة تبين أنك بما ادعيت جهول. فنقول لك: ما حد العقل أولا؟ وما حد الجائز العقلي؟ وما حقيقته وكم أقسامه؟ وما حد الواجب العقلي؟ وكم أقسامه؟ وما حد المحال العقلي؟ وكم أقسامه؟ فإذا فرغت من جواب هذه المسائل سألناك: هل أحكام العقل تنحصر في هذه الثلاثة أم تزيد عليها أم تنقص عنها؟ ولعمري ما ينبغي أن يتكلم[1] مع من لا يعرفها. وأعلم على القطع والبتات[2] أنك لا تعرفها ولا قرأت على من يفهمها، وإلا فالجواب وإن لم تجب، وإلا فيظهر أنك من دينك على شك وارتياب. ثم نقول كيف يتجاسر عاقل أن يقول: إن علم الله تعالى الذي هو صفته ولازم له وقديم أزلي، حل في جسد إنسان حادث بعد أن لم يكن حالا فيه، ومع أنه حل فيه فهو لم يفارق الله تعالى. ولولا أن الله تعالى[3] سلبكم عقولكم وابتلاكم بظلمة التقليد الذي أفضى بكم إلى مكابرة العقول وإنكار البداية، لما وجد مثل هذا المذهب مستقرا في قلب مجنون، فأجرى في قلب غافل، ولكن لله تعالى سر في إبعاد بعض العباد ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[4].

وأما قولك: "إنا لا نقول أن القديم في الجوهر صار حادثا ولا الحادث في الجوهر صار قديما"، ولكنا نقول صار الحادث إلها". فهذا القول منك يدل على أنك تقول بحلول الحادث في الجوهر، واتحاده به. ولم يقل بهذا قط أحد من المخلوقات، وهذا أشنع وأقبح وأمحل من تحاد القديم بالحادث وحلوله فيه. وهذا الذي ذكرت أنه يلزمك يدل عليه قولك: "ولا أن[5] الحادث في الجوهر صار قديما"، فنفيت عن الحادث القدم وأبقيت عليه الحلول في الجواهر. وهذا بين بنفسه من كلامك. ثم هذا الذي فررت منه يلزمك؛ وذلك أنا نقول: هذا القديم الحال لا يخلو أن يكون حالا في ناسوت المسيح قبل خلق المسيح أو لم يكن، فإن كان حالا فيه قبل خلقه كان محالا وباطلا بالضرورة. فإنه قبل خلقه معدوم والموجود لا يحل في المعدوم. وإن كان حلوله في ناسوته بعد خلقه، فقبل خلقه لم يكن حالا فقد حدث له حلول وقد صار حالا بعد أن لم يكن حالا، ويلزم على هذا أن تقوم الحوادث بالقديم وهو محال. فإنه يؤدي إلى حدوثه على ما يعرفه أرباب النظر.

1- في ط: "تتكلم".
2- في ط: "والثبات".
3- في ط: "ولولا الله تعالى".
4- سورة الرعد، آية: 33.
5- في ط: "ولا الحادث".

وأما قولك: "صار الحادث إلها"، فكلام تشمئز منه النفوس، ويشهد لقائله بالويل والعكوس، وكيف لا يستحي العقل[1] من مثل هذا الكلام الذي والله هو عار على الأنام، وكيف يتصور أن تعقل[2] الإلهية[3] لمحدث مخلوق، يحزن تارة ويفرح أخرى، ويجوع تارة ويشبع أخرى، ويبول[4] ويتغوط، ويظفر[5] به أعداؤه ويعذبونه بالضرب والإهانة، والشوك والصلب والقتل بزعمكم، وهو مع ذلك يقول: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾[6]، ويقول لكم: "إذا صليتم فقولوا يا أبانا السماوي تقدس اسمك وقرب ملكك"[7] ويقول: "إن الله وحده ولا إله إلا هو"[8]، ويقول لإبليس: "إنما أمرت أن تعبد السيد إلهك وحده"[9]، ويقول حين قرب رفعه وأعلمه الله به: "سيلقى ابن الإنسان ما كتب له"[10] يعنى نفسه، ثم تقدم وسجد على الأرض ودعا أن يزاح عنه ما هو فيه، وقال: يا أبتاه إنك قادر على جميع الأشياء فرج عني هذه الكأس"، وقال في إنجيل لوقا: "يا أبتاه إن كانت هذه الكأس لا تقدر تجاوزني حتى أشربها فلتكن إرادتك"[11].

ومن اطلع على أناجيلكم علم على القطع أن عيسى عليه السلام برئ مما تدعونه به، وتنسبونه إليه، وستلقونه بين يدي الله في الوقت الذي يقول الله: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[12]، فيتبرأ من ذلك القول فيقول: ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ

1- في ط: "العاقل".
2- في ط: "أن يعقل".
3- في خ/م: "الإلهة".
4- في ط: "ويتبول".
5- في ط: "وتظفريه".
6- سورة المائدة، آية: 117.
7- لوقا 11: 2. متى6: 9-10.
8- مرقس12.
9- متى4.
10- متى26: 24.
11- لوقا22: 42.
12- سورة المائدة، آية: 116.

مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [1]، وقد جاءنا على لسان من دلت المعجزة على صدقه[2]، أن الله تعالى إذا حشر الخلائق في صعيد واحد، يعني يوم القيامة، فيقال للنصارى ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقول لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد[3]، ثم يقال لهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم[4] بعضها بعضا.

فالله الله أدرك بقية نفسك، قبل حلول رمسك[5]، واستعمل سديد عقلك، ولا تعول على تقليد فاسد نقلك، واتبع الدين القويم، دين الأب إبراهيم، فما كان: ﴿ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [6]. فالله يعلم أني أنظر إليك وإلى كافة خلق الله بعين الرحمة، وأسأله هداية من ضل من هذه الأمة، وأتأسف على الأباطيل التي تنتحلون[7]، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وسيأتي إن شاء الله[8] في النبوات كلام على حقائق الملل، وتبين الهداة[9] والضالين من ذوي النحل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأما قولك: "كما نقول صارت الفحمة نارا، ولا نقول صارت النار فحمة"، فتمثيل ليس بمستقيم، ولا جار على منهج قويم، وذلك أن الفحمة مهما[10] صارت نارا فقد حدثت النارية وانعدمت الفحمة[11]، وليس هذا مساويا لقولك صار الحادث إلها. فإن الشيء

1- سورة المائدة، آية: 116-117.
2- في ط: "بصدقه".
3- في خ/م: "ولا ولدا".
4- في خ/م: "يظلم"، وهو تصحيف.
5- في خ/م: "مسك"، وهو تصحيف لأن الرمس هو طمس الأثر/ وهو المناسب للسياق.
6- سورة آل عمران، آية: 67.
7- في ط: "ينتحلون".
8- في ط: "الله تعالى".
9- في خ/م: "الهداية".
10- في خ/م: "مهمى".
11- في ط: "الفحمية".

الذي صار به[1] الحادث إلها عندكم هو قديم، فكيف تشبهه بالنارية الطارئة وهي حادثة؟ وإن ساويت بينهما لزمك أن يكون الحال في الناسوت حادثا، أو النارية قديمة، فترتفع الفحمية وهو محال بالضرورة.

وأما قولك: "فإن قلت فما علة هذا الإتحاد قيل لك الإرادة"، فهذا قول فاسد؛ فإن الإرادة إنما يصح تعلقها بالجائزات، ولا يصح تعلقها بالمحالات، والاتحاد محال فلا تتعلق به الإرادة على ما نقرره إن شاء الله، إذا نقلنا مذاهب أقستكم في هذا المعنى وتكلمنا معهم عليها.

وأما قولك في جواب من سألك[2] عن الاتحاد هل حادث أو قديم؟ حيث قلت: "إنه قديم وحادث"، فقول لم يقل به مؤمن ولا ناكث، فإن الجمع بين القدم والحدوث مما يعلم فساده بضرورة العقل، فإن معنى القديم الذي لا أول لوجوده، والحادث هو الذي لوجوده أول، والجمع بين نفى الأولية وإثبات الأولية محال.

وأما قولك: "قديم بالقوة حادث بالفعل"، فكلام ليس له أصل، إذ لا يعقل العقلاء في القدم قوة ولا فعلا، فإن القدم من أسماء السلوب، والقوة والفعل فإنما يتواردان عند القائلين بهما على الصفات الوجوديات وعلى عدمها مع إمكان وجودها، ثم إنا نسألك عن حد القوة وحقيقتها؟ وما الفرق بينهما وبين الإمكان؟ وهل هي موجودة؟ وعن حد الفعل وما حقيقته؟ فإنك تكلمت بما سمعته وما حصلته ولا وعيته.

وأما قولك: "وكل عنده حاضر مقيم"، فكلام حق ومقال صدق، إن كنت أردت بحاضر أنه معلوم، وقد أخطأت بإدخالك مقيم في هذا المعنى. فإن المقيم إنما هو مأخوذ من أقام بالموضع إذا ثبت فيه، فإن أردت هذا المعنى لزمك أن تكون[3] المعدومات الممكنة موجودة عنده في حال عدمها، وذلك محال. وإن أردت غيره، فكان ينبغي لك أن تبين مرادك، فإنك لم تتكلم به على مقتضى كلام القوم الذين تعاطيت التكلم بلسانهم.

ثم قولك: "لأنه تعالى[4] لا تأخذه الأزمان"، ذكرته موهما أنك تستدل به على أنه تعالى عالم بجميع الأمور محيط بالكل، ولا يدل ذلك على ما أردته، وإلا فكونه قابلا للزمان أو

1- في خ/م: "صار به صار الحادث".
2- في ط: "سائلك".
3- في خ/م: "أن يكون المعدومات".
4- في ط: "تبارك وتعالى".

غير[1] قابل للزمان، ما المناسبة بينه وبين كونه عالما بجميع المعلومات، أو ببعضها؟ ولا بد أن تسأل[2] عن الزمان ما هو؟ وهل هو موجود أو معدوم؟ فإن كان موجودا فهل هو جوهر أو عرض؟ وإن كان جوهرا أو عرضا فهل هو في زمان أوليس في زمان؟ فإن لم يكن في زمان، فلتستغن الموجودات كلها عن زمان. ويلزم عليه إثبات موجودات ليس بزمانية غير الباري تعالى[3]، وذلك محال على ما تقرر[4]، وإن كان في زمان، فهل ذلك الزمان في زمان؟ ويتسلسل فلا بد لك من علم هذه المسائل إن أردت[5] أن تلحق بالصنف العاقل، ومن أراد أن يعلم فليرحل على الرأس والقدم.

وأما قولك: "ولا يعد الأشياء بالأعداد"، فيفهم منه أن المعلومات لا تتعدد عنده، وإذا لم تتعدد المعلومات عنده، لا تتميز جزئياتها، وإذا كان ذلك فإنما يعلم الأمور على وجه كلي، وهو ما يقوله[6] الفلاسفة. وأهل الشرائع كلهم مطبقون على أن الله تعالى يعلم جزئيات الأمور وإن دقت على التفصيل، ومن لم يقل هذا يحكم عليه في كل ملة بالتكفير والتضليل. فأنت يا هذا في أكثر كلامك بين أمرين إما أن تنكر الضروريات أو تكفر بالشرعيات. فنسأل الله تعالى أن ينور بصائرنا ويسدد أحوالنا وأمورنا، وأن لا يجعل وبالا علينا أعمالنا، وأقوالنا أنه سميع الدعاء قريب مجيب.

1- في خ/م: "غيره".
2- في ط: "أن يسأل".
3- في ط: "تعالى وتقدس".
4- في خ/م: "على ما يتقرر".
5- في خ/م: "بل إن أردت أن تلحق".
6- في ط: "تقوله الفلاسفة".

الفصل الثالث

الواسطة بين الله وبين موسى[1].

من حكاية كلام السائل قال: ثم نقول لمن ناظرني من نافية[2] المسلمين: إن كتابكم يقول إن موسى سمع الله وكلمه تكليما، فكيف كان ذلك وأنتم قد أعجزتم جميع الحاسات من إدراكه في الدنيا والآخرة، لأنه لا مفطور ولا مشبه بشيء مما يتصور في الأوهام[3]، فإن قلتم إنه كلمه بذاته فقد أوجبتم له جارحة النطق ووقعتم فيما أنكرتم[4] من الجسم، وإن قلتم إن الله خلق له كلاما فقد أثبتم كلاما مخلوقا قائما بخلقه، جوهرا في نفسه، إذ لم يكن عرضا في الله قال لموسى: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾[5]، وأثبتم أن الكلام واسطة بين الله وبين موسى، وأن موسى[6] اقر لها[7] بالربوبية لقوله: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾[8]، وقول الصدى الذي هو المتكلم له: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾، فإن قلت إن الصدى لم يقل له أنا الله، ولكنه في مسامع موسى أنا الله، قلت لك إن الصدى هو العامل في مسامع موسى وهو المحرك له، وعليه رد وإياه أجاب[9]. والدليل على أنه كان في غفلة فما كان يريد الله من إرساله إلى فرعون حتى خلق له نارا أبصرها، فنزع إليها فلما أتاها أحجب الله له فيها صدى، قال له: ﴿ أَنَا ٱللَّهُ ﴾، و﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ إلا أن تقولوا إن موسى قد كان يعرف ما كان يريد الله من إرساله إلى فرعون دون النار والكلام، فيكون خبر النار والكلام لا معنى لهما وخبرهما لم يفد شيئا، وهذا من القول تشنيع الكذب. وإذا لم يكن

1- العنوان غير موجود في خ/م".

2- في ط: "باقية المسلمين".

3- في خ/م:" أوهام".

4- في ط: "فيما أنكرتموه".

5- سورة طه، آية: 14.

6- "وأن موس"، ساقطة من خ/م.

7- "لها" ساقطة من ط.

8- سورة الأعراف، آية: 143.

9- في خ/م: "جواب".

بد من أن موسى لم يدرك المرسل له إلا بواسطة اتخذ[1] له يسمى باسمه، فالواسط هو العامل في موسى وعنه تحمل الرسالة حتى يأتي فرعون بمصر ويقول: إن الله تراءى لي بطور سيناء وبعثني إليك لترسل معي بني إسرائيل ولا تعذبهم، مجددا الموضع الذي أقبل منه من عند الله، وكان الله بمصر وفي كل مكان، ولا كان يعجز موسى عن معرفة الأمر والنهي إلا بكلام محدود من جسم مفطور، خلق الله له نارا أبصرها، فنزع إليها ثم أحجب فيها صدى سمعه منها قام عنده مقام خالق فسماه إلها.

الجواب عنه: "أما قولك ثم نقول لمن ناظرني من نافية[2] المسلمين"، فلتعلم يا هذا أنك غلطت في نفسك وغفلت عن حسك، حيث ظننت أنك ممن يستحسن مناظرته أحد من المسلمين، للذي أمروا به من الأعراض عن الجاهلين، وكيف وأنت لا يمكنك النطق بكلام فصيح، ولا تقدر على نظر صحيح، وأنى لك بمناظرتهم ولم تسلك شيئا من طريقتهم، وكيف يمكنك النظر معهم وأنت لم تعرف طريقه ولا التزمت شروطه؟

فو حق دين الإسلام، الذي هو دين إبراهيم عليه السلام، لقد وددت أن تكون من عقلاء الأنام، لتعرف قدر ما يلقى من الأسئلة عليك، وما يكتب به من الحكم إليك، فلعل مقلب القلوب يستنقذك من عبادة إله مصلوب، ويبدلك بها إخلاص العبادة لعلام الغيوب، ولولا رجاء ذلك لما كان ينبغي لي أن أعطى الحكمة غير أهلها كما لا ينبغي أن أمنعها[3] من هو من أهلها.

وأما قولك: "إن كتابكم يقول إن موسى سمع الله وكلمه تكليما"، فكيف يسوغ لك أن تحتج[4] بما أنت منكر لأصله، ولا تعترف بأنه كلام الله، وأنت منكر لتصديق من جاء به، فلا يحل لك أن تحتج لنفسك ولا لغيرك بما تعتقد أنه كذب، وأما نحن فيمكننا أن نحتج عليكم وعلى اليهود بالتوراة والإنجيل، لأنا نعتقد أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى، وهما هدى قبل أن يغيرا ويبدلا وينسخا بغيرهما.

وأما اليوم، بعد أن ثبت عندنا ما ذكرته فلا نحتج بشيء منهما على جهة انتزاع الأحكام، فإن الله تعالى قد أخرجنا بالنور من الظلام، وهدانا لما اختلفتم فيه من الحق

1- في ط: "اتحد".
2- في ط: "باقية".
3- في ط: "أسمعها، وهو تصحيف".
4- في ط: "تجنح، وهو تصحيف".

بنبينا محمد عليه السلام، وسنبين إن شاء الله ما يدل على صدقه من المعجزات وواضح الدلالات.

ثم نقول: إن الله تعالى كلم موسى بكلامه الذي هو صفته، وسمعه موسى بالإدراك الذي خلقه الله له، وقولك: "كيف" ظلم وحيف، إذ سؤالك بكيف في هذا المحل، دليل على أنك جاهل بمطلبها، فينبغي لك أن تعلم أن صيغ المطالب كثيرة وهي مع كثرتها لا يتوجه شيء منها على الله تعالى ولا على[1] صفاته؛ وذلك أن من صيغ المطالب: ما، وأي، ولم، وهل[2] وكيف، ومتى، وأين، وغيرها[3]، مما في معناها ولا يتوجه على الله تعالى بشيء منها لاستحالة معانيها على الله تعالى، فلا يسأل[4] عنه بـ: ما، ولا بـ: أي، إذ لا، جنس له ولا فصل، ولا بـ: لم إذ لا علة له ولا أصل، ولا بـ: متى إذ هو مقدر الزمان، ولا بـ: أين إذ هو خالق المكان، ولا بـ: هل إذ لا نشك في وجوده وهو خالقنا، ولا بـ: كيف إذ لا يناسب جوده ولا صفاته شيئا من أحوالنا وأوصافنا؛ وجوده إثباته[5]، وإثباته ذاته، وعلمه كل شيء صنعه ولا علة لصنعه، لا يتوجه عليه بمخلوق[6] حق ولا يعجزه خلق: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[7].

ثم نقول: ومما يبين لك أنه يصح السؤال بكيف هنا لأن الملطب بكيف إنما هو سؤال عن حال موجود يناسب[8] حال السائل بكيف. فإذا قلت كيف زيد؟ إنما معناه على أي حال هو من الأحوال التي تناسب أحوالنا، في حال صحة أو في حال مرض، أو في حال علم أو في حال جهل، إلى غير ذلك من أحواله المناسبة من أحوالنا[9]، فإذا قلت كيف سمع موسى كلام الله؟ فكأنك قلت على أي حالة سمع موسى كلام الله من الأحوال التي نكون نحن عليها حين يسمع بعضنا من بعض؟ ونحن والعقلاء الذي يعرفون ما يجب لله وما يجوز،

1- في ط: "وعلى صفاته".
2- "هل" ساقطة في ط.
3- في ط: "وغيرهما"، وهو تصحيف.
4- في ط: "تسأل".
5- في خ/م: "إثباتها".
6- في ط: "لا يتوجه لمخلوق عليه".
7- سورة الشورى، آية:11.
8- في خ/م: "تناسب".
9- في ط: "لأحوالنا".

وما يستحيل في حقه، يعلمون بالبراهين القاطعة أنه يستحيل أن يسمع موسى كلام الله على شيء من الأحوال التي يسمع عليها بعضنا من بعض على ما نبينه إن شاء الله.

فعلى هذا إذا سألنا سائل كما سألت أنت، قلنا له: السؤال عن الله تعالى وصفاته بـ: كيف، ظلم وحيف. فإن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وقد سألت بـ كيف في موضع لا مدخل لها فيه. فتأدب مع الله قبل حلول عقاب الله، فإن من لم يستعمل مع الله الأدب، فقد استحق التعب، وحرم الرتب، ومن لم يستنكر[1] هذا الكلام لحق بالبهائم والهوام، فإنه لو سألك عنين لم يذق قط لذة الجماع، وقال لك كيف أدركت أنت لذة الجماع؟ لكان الجواب يصعب عليك، ولم يمكنك تفهيمه إذ لم يذق لذة الجماع. وكذلك كل من لم يسمع كلام الله كما سمعه موسى عليه السلام فهو كالعنين بالإضافة إلى إدراك الكلام القديم إذ لم يسمعه ولا اتصف بالإدراك الذي اتصف به موسى عليه السلام، وكما لا يقال كيف يسمع الله كلام الخلق، كذلك لا يقال كيف يسمع كلامَه أحد من الخلق، وكما لا يقال كيف يرى الله الخلق، كذلك لا يقال كيف يراه الخلقُ، فإن الكيفية محال على الله تعالى وعلى صفاته من جميع الوجوه، ولولا خوف الإكثار، وأنا وضعنا هذا الكتاب على الاختصار، لملأت صدرك من عظمة الله تعالى إن كنت عاقلا، حتى يتبين لكم أنكم لم تعرفوا الله حق معرفته ولا قدرتموه حق قدره.

وأما قولك: "فإن قلتم أنه كلمه بذاته فقد أوجبتم له جارحة النطق ووقعتم فيما أنكرتموه من الجسم"، فلا يلزم من هذا كله شيء، وإنما كان يلزمنا هذا لو قلنا: إن الله تعالى كلمه بصوت وحرف يخرج من لهوات ويقطعه لسان، ونحن لا نقول بشيء من ذلك بل نقول: إن الله تعالى متكلم بكلام هو وصف قائم بذات الله، ليس بحرف ولا صوت، وهذا معقول مفهوم، فإنا نحس من أنفسنا كلاما قائما بذواتنا فنتحدث به مع أنفسنا، ليس بحرف ولا صوت، وهذا مما يجده الإنسان من نفسه بالضرورة ويكون الحرف والصوت دالين على ذلك المعنى الذي في النفس، وهذا لاستحالته في كلام يناسبه[2] من بعض الوجوه لله تعالى، لكن على القدر الذي يجوز في حقه تعالى. وإنما ذكرنا لك أنفسنا مثالا لذلك على جهة التأنيس، كما أنا نقول حقيقة العلم واحدة في القديم والحادث، ونعني بذلك انكشاف المعلوم، لأن العلم القديم يشبه الحادث. فافهم وهذا كله يتبين في موضعه ويعرف بدليله.

1- في خ/م: "ولا تستنكر هذا الكلام فتلحق بالبهائم".
2- في ط: "يناسبه".

فعلى هذا الأصل الذي قررناه نقول: الكلام الذي سمعه موسى عليه السلام هو كلام الله القديم القائم بذات الله الذي ليس بحرف ولا صوت، فإن قلتم كيف يسمع ما ليس بحرف ولا صوت، قلنا: الجواب عنه قد تقدم، إذ لا يصح السؤال عنه بـ: كيف لاستحالة شرط السؤال بها.

ثم نقول سلمنا جدلا أنه يصح السؤال، ثم يكون الجواب عنه أن تقول: يسمع ما ليس بحرف ولا صوت[1]، كما يعلم موجود ليس بجوهر ولا عرض، وكما يرى الله الخلق وليس بذي حدقة ولا عين، وكما يسمع أصواتهم وليس بذي صماخ ولا أذن، وكما يعلم وليس بذي قلب ولا دماغ، وكما يراه المؤمنون في الدار الآخرة كرامة لهم، وليس بذي جسم ولا لون. فكما تصح هذه الأمور كلها، وإن كانت مستبعدة، بالإضافة إلى أوهامنا في حق الله تعالى، فكذلك يصح أن يسمع موسى ما ليس بحرف ولا صوت.

ثم نقول للذي لا تبقى معه حسيكة في النفس ولا استبعاد في الوهم: إن الله تعالى خلق لموسى إدراكا لكلامه القديم، وصل به إلى تحصيل مفهوم كلام الله تعالى ومراده منه، فسمى ذلك الإدراك سماعا وعبر عنه بسمع، كما أنا نجوز أن يكرم الله من شاء من أصفياء خلقه، بأن يطلعهم على بعض ما في نفوس بعض الناس من غير تعبير عنه بصوت ولا حرف، وذلك كما في بعض كتبكم أن عيسى عليه السلام، أعلم بعض الحواريين بما[2] في نفسه، ولو عبر عن ذلك بأن يقال سمع عيسى كلام ذلك الرجل لكان صدقا وحقا، وهذا كله جائز عقلا لا استحالة فيه.

فإن قيل: كيف ينبغي لك أن تقول إن الله تعالى متكلم بكلام ليس بصوت ولا حرف، وقد جاء في التوراة أن الله تكلم بصوت لآدم وحواء، وذلك أنهما لما طفقا يلفقان ورق التين ليسترا بها[3] عورتهما، فسمعا صوت الله الرب يتمشى في الفردوس، إلى أن قال: فدعا الرب آدم وقال أين أنت يا آدم، وقال آدم سمعت صوتك في الفردوس فرأيت أني عار فاستترت واستخفيت. وهذا يدل على أن لله[4] تعالى صوتا وهو خلاف ما ذكرت، فيلزمك على هذا تكذيب التوراة أو تقول بمقتضاها فترجع عما قلته آنفا.

1- في ط: "بصوت ولا حرف".
2- في ط: "عما".
3- في ط: "بهما".
4- في خ/م: "الله".

فأقول[1] ما أمرنا به نبينا عليه السلام عندما تحدثونا بشيء: آمنا بالله وكتبه ورسله، وبعد ذلك نقول في التوراة بمثل ما قلناه في الإنجيل أو قريبا منه، فجدد به عهدا وفيه نظرا.

ثم إن سلمنا صحتها، فليس في هذا الذي ذكرته ما يدل على أن الله تعالى متكلم بحرف وصوت، وإنما الظاهر منه أن آدم سمع حس مشي[2] الله في الفردوس. ألا ترى قوله: فسمعا صوت الرب يتمشى في الفردوس، هذا هو الظاهر من هذا اللفظ، وأنتم لا تقولون به ولا نحن، وإن كانت اليهود أو أكثرها قد قالت بمقتضى ظاهره فجسمت. وأنتم إن قلتم بظاهره يلزمكم ما لزمهم، فإذا[3] هذا اللفظ مؤول عندكم وعندنا، أعني من المتشابهات التي يعلمها الراسخون في العلم، فما لم يستقم حمله[4] على ظاهره تأولتموه أنتم وصرفتموه عن ظاهره، وقلتم أن هذا إنما يراد به كلام الله تعالى الذي هو حرف وصوت عندكم، وهو فعل من أفعال الله تعالى عندكم. وإلى نحو من هذا صار أغشتين. وإذا تأولتم أنتم هذا اللفظ وأخرجتموه عن ظاهره، فنحن نخرجه عن ظاهره بتأويل آخر أحسن من تأويلكم، لا يلزم عليه شيء من المحالات التي تلزمكم وسنبينها إن شاء الله. ولنا في ذلك تأويلان:

أحدهما: أن الله تعالى خلق صوتا في بعض طرق الفردوس يشبه صوت الماشي، وهو الذي يسمى بلسان العرب الهمس والخشخشة، فلما سمع آدم ذلك الصوت تنبه لمخاطبة الله تعالى ولحضوره معه، ثم أضاف الصوت إلى الله تعالى، لأنه هو الذي تنبه آدم عنده لمحاضرة الله، وكأنه كان[5] في غفلة لشدة حزنه وعظيم ما حل به، وهذا كما يعتري الواحد منا إذا كان ملهوفا بأمر هائل، فإنه يشتغل بنفسه بل ويغفل عن حسه. ثم قد يتنبه عند سماع صوت شيء وحس إنسان، فيرجع عند ذلك لنفسه ويتنبه لمن معه، وعلى هذا التأويل يكون في: يتمشى ضمير يعود على الصوت، فكأنه قال يتمشى الصوت في الفردوس لا على الله. إذ يستحيل على الله تعالى ظاهر المشي ومفهومه السابق منه، وهذا تأويل حسن سائغ عند المنصف.

1- في ط: "فنقول".
2- في خ/م: "سقطت كلمة "مشي".
3- في ط: "إذن".
4- في ط: "جعله".
5- في ط: "وكأن آدم كان".

والتأويل الثاني: أن الصوت يراد به الكلام القائم بذاته، وإن كان ليس بصوت. فيجوز أن يسميه صوتا، لأنه يمكن أن يدل عليه بالصوت؛ كما نقول: إن موسى عليه السلام سمع كلام الله القائم بذاته بمعنى: أدركه وفهمه بإدراك خُص[1] به موسى ثم عبر موسى عنه لنا بصوت مقطع، إذ ليس في قوتنا إدراك ما ليس بصوت، وبقريب من ذلك نقول نحن في القرآن.

وهذا النوع من التأويل جائز[2] جار في الكلام، فإنه تسمية الشيء بما يدل عليه؛ كما تقول سمعت علم فلان وإنما سمعت كلامه الذي دل على علمه، والكلام ليس هو العلم. وعلى هذا التأويل يكون في الفردوس معلقا بـ: سمعا لا بـ: يتمشى، ويكون معنى يتمشى يبلغ، والبلوغ عبارة عن الإدراك الذي به أدرك كلام الله تعالى، يعني: سمعه وكذلك قوله سمعت صوتك في الفردوس أي وأنا في الفردوس.

وإن[3] كنت تعرف لسان القوم الذين ترجمت التوراة والإنجيل بلغتهم، لذكرت لك من هذا أمثلة كثيرة، وفي القليل للبصير[4] غنية عن الكثير. فهكذا ينبغي لك ولكل عاقل أن يفهم تأويل الصوت الذي وقع في التوراة، ولعمري لا يبعد أن يتأول تأويلات أخر جارية[5] على السنن القويم والمنهج المستقيم، وفيما ذكرناه مقنع للعاقل فتدبر فهمك الله ما ذكرته، ولا تعتقد في الله تعالى أنه متكلم بصوت محدث فإن ذلك محال. ونحن نبين استحالته مستعينين بالله ومتوكلين عليه فنقول: من المتقرر الثابت عند المتشرعين[6] كلهم أن الله تعالى متكلم، ومن لم يعول في ذلك على ما أخبرت به الرسل ولا وافق على[7] الشرائع أقيمت عليه القواطع التي[8] لا يردها إلا معاند، وليس هذا موضع ذكرها.

فإذا تقرر ذلك فنقول:

إما أن يكون متكلما بصوت أو بغير صوت، فإن كان متكلما بصوت فذلك الصوت إما أن يكون قائما به، أو قائما بغيره، أو لا قائما به ولا قائما بغيره.

1- في خ/م: "يخص به".
2- في ط: "نوع جائز".
3- في ط: "ولو".
4- في ط: "المبصر".
5- في ط: "جاريات".
6- في ط: "المشرعين".
7- في خ/م: "عن".
8- في خ/م: "الذي".

محال أن يكون قائما به، فإن الصوت لا يكون مفيدا حتى يتقطع بالحروف، وتلك التقطيعات لا بد أن تكون حادثة، فيلزم عليه أن يكون محلا للحوادث، وإذا كان محلا للحوادث لم يخل عنها، وإذا لم يخل عنها كان حادثا مثلها على ما تحقق في موضعه، وذلك كله محال على الله تعالى.

وإن قام بغيره فذلك الغير يكون المتكلم به، وسواء[1] كان ذلك المحل جمادا أو حيوانا، فإن قلنا إنه يجوز قيامه بجسم جماد، وإن جاز أن يقوم الصوت بمحل ويكون الباري تبارك وتعالى متكلما به، جاز أن تقوم صفة بمحل وتوجب حكمها لمحل آخر، فيلزم على ذلك أن تقوم حركة بجسم يكون جسما[2] آخر متحركا بها[3]، ويقوم بمحل لون ويكون محل آخر متصفا به، وذلك كله محال بالضرورة، ويلزم عليه أن يكون الباري تعالى متكلما بما يقوم بنا من كلامنا إلى غير ذلك من المحالات.

وباطل أن يقال: لا يقوم به ولا بغيره، لأنه يكون قائما بنفسه ويخرج[4] عن كونه صفة زائدة على النفس، وإذا بطلت هذه الثلاثة الأقسام [استحال أن يكون صوتا، وإذا استحال أن يكون صوتا، وجب أن يكون ليس بحرف ولا صوت][5] وهو ما قدمنا ذكره ومن أراد مزيدا [على هذا][6] فليرحل ويرشد[7] للحق بعد أن يبحث ويسأل.

وإذا ثبتت هذه القاعدة الوثيقة العظيمة الأنيقة التي لا يعرف قدرها ولا عظم خطرها، إلا من نور الله بنور اليقين بصيرته، وأصلح بجزيل التوفيق سريرته، بطل ما أصلتموه[8] ولم يلزم شيء مما ألزمتموه ولا تم لكم شيء مما أردتموه.

فإن جملة ما تريد أن تقوله في هذا الفصل: إن الله تعالى متكلم بصوت، وأن موسى سمع بذلك الصوت وهو يقول: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ وذلك الصوت غير الله. ومع ذلك يخاطبه[9] موسى بقوله: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ وقد اعترف له موسى

1- في ط: "سواء".
2- في خ/م: "جسم".
3- في خ/م: "به".
4- في ط: "خرج".
5- ما كتب بين معقوفتين، ساقط من ط.
6- ما كتب بين معقوفتين ساقط من ط.
7- في ط: "يرتد".
8- في ط: "أملتموه".
9- في ط: "خاطبه".

بالربوبية، فكذلك المسيح في قوله: "أنا الله"، صادق إذ قد اتخذه واسطة بينه وبين خلقه، كما اتخذ جسم النار والكلام واسطة بينه وبين موسى. فينبغي[1] أن نعترف بربوبيته كما اعترف موسى بربوبية الصوت. وهذا الهذيان كله الذي ذكرته، وليتك ما أنحلته، الذي والله لا شرع يعضده، ولا عقل يقبله ويؤيده[2]، مبنى على أن الله تعالى متكلم بصوت، وقد أبطلناه فبطل كل ذلك. ومع ذلك فلنتكلم على أجزاء كلامك، بعد أن بينا جملة مقصودك ومرامك، حتى يتبين أنكم لستم على شيء مما ينتحله العقلاء، بل يتبرأ منه الفضلاء فنقول: أما قولك: "وإن قلتم إن الله خلق له كلاما، فقد أثبتم كلاما مخلوقا قائما بخلقه جوهرا في نفسه"، فنقول: بعد أن أبطلنا الصوت الذي ترومون البناء عليه، نسلمه لكم جدلا، ونبين بعد ذلك أنه لا يلزم شيء مما ذكرته، إذ لا يلزم من تقدير صوت الله تعالى عن ذلك مخلوق، أن يكون الصوت قائما بنفسه جوهرا، فإن الصوت إنما حقيقته أنه صفة لموصوف، وعرض في محل، والعرض لا ينقلب جوهرا، فإن قلت: فيلزمك أن يكون عرضا، قال لك المجيب: وما الذي يلزم منه إن كان عرضا، فإن قلت يلزم منه أن يكون العرض هو الذي قال لموسى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِى ﴾، والصوت لا يتكلم وإنما يتكلم به. [قلنا لك جوابك أن الصوت لا يتكلم عن نفسه وإنما يتكلم به][3] كما قلت أنت. ثم يلزمك أنت إن جعلته جوهرا غير الله تعالى، أن يكون هو الذي قال عن نفسه: ﴿ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾، وله اعترف موسى بالربوبية لا الله، وله سجد لا الله، وإذا انتهى إنسان إلى هذه المخازي فقد كفر بموسى وبإله موسى. نعوذ بالله من أنظار تقود[4] في الدنيا إلى الفضيحة والعار، وفي الآخرة إلى الخلود في عذاب النار، وعلى هذا الكفر الصراح[5] يدل قولك: إن موسى أقر لها بالربوبية، تريد للواسطة، وإذا أقر لها بالربوبية، ولم يعرف قط من موسى عليه السلام أنه أقر بالربوبية لإلهين، فقد اعترف بربوبية الواسطة وأنكر ربوبية الله، وكذلك يفعل الله بكل مسرف مرتاب. أعاذنا الله من الاختلال المفضي بصاحبه إلى الضلال، ثم هذه المخارق يلزم منها قلب الحقائق، فإن الصوت لا يقوم بنفسه ولا بخلقه، والقائل بذلك يشهد العقلاء بحمقه. فإن حقيقته صفة

1- في ط: "فينبغي لنا".
2- في ط: "ويريده".
3- ما كتب بين المعقوفتين ساقط من خ/م.
4- في خ/م: "تعود".
5- في ط: "الصريح".

لموصوف يستدعي وجودها محلا كما سائر الصفات، إذ لا يعقل قيام صفة بنفسها بل بغيرها وهذا ضروري.

وأما قولك فإن قلت إن الصدى لم يقل له: ﴿ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ ولكنه كان في مسامع موسى: ﴿ أَنَا ٱللَّهُ ﴾، قلت لك: إن الصدى هو العامل في مسامع موسى وهو المحرك له، وعليه رد وإياه جاوب[1]، فيلزمك على هذا الانفصال، أن يكون موسى رسول الصدى لا رسول الله، وعليه يدل كلامك، وعنه تحمل الرسالة لا عن الله، وإذا كان ذلك[2]، فقد كذبت موسى عليه السلام على ما يلزمكم، حيث قال لفرعون: أنا رسول الله فإن كان بزعمك رسول الصدى، فإذا كان الصدى يقول: أنا الله، ويعترف له موسى بالربوبية، ويأمر لموسى بتبليغ رسالته، فقولوا: إن الصدى إله، وأضيفوه إلى آلهتكم المتقدمة، فيكون عددهم خمسة، وذلك أن الأقانيم الثلاثة عندكم آلهة، وعيسى إله رابع، والصدى إله خامس. ومنكم طائفة تدعى أن مريم إله، فتكون الآلهة عند هذه الطائفة ستة. وإذا انتهى عقل إنسان لأن يقول[3] هذه المخازي بلسانه ولا يشعر بها، سقطت مكالمته ووجبت مجانبته. ولا معنى لتطويل الكلام مع من يرتكب ذلك الهذيان، فلقد[4] تم للشيطان فيهم أمله، وأنجح معهم سعيه وعمله، ومع هذا فـ ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[5]، وينبغي أن يتعدى[6] أكثر كلام هذا السائل مما[7] هو ظاهر الفساد، ولعلنا نصل إلى ما هو المهم والمراد من نقل مذاهب المتقدمين، أعنى المطارق والقسيسين، إذ كلامهم يمكن أن يعقل أعني ينفهم ويتحصل، ولا بد مع ذلك من نقل كلام هذا السائل، ليعلم الناظر فيه أنه ليس تحته طائل وأن المتكلم به ليس بعاقل.

1- في ط: "أجاب".
2- في ط: "وإذا كان كذلك".
3- في ط: "إنسان يقول".
4- في ط: "فقد".
5- سورة الأنعام، آية: 36.
6- في خ/م: "يتصدى".
7- في خ/م: "فما".

الفصل الرابع

تجسد الواسطة[1]

من حكاية كلامه قال: فإذا لم يكن بد من الصدى، فقد قال: أنا الله، فأسألك: إن كنت تصدق الصدى أم تكذب؟ فإنه لم يكن بدا[2] من تصديقه في قوله بالربوبية[3] إذ قال: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾، قلنا لكم وكذلك صدق المسيح في قوله: أنا الله، وإنا لنرى كذا صدّقه[4] الحواريون ومن اتبعه من غيرهم في قوله في الربوبية، كتصديق موسى للكلام والاتمار[5] له برسالته إلى أهل مصر، وقد أوجبتم أن جسم المسيح وكلامه لما خاطب[6] بالربوبية، مثل جسم النار والكلام إذا خاطب موسى بالربوبية.

فإن قلت: إن موسى لم يعبد النار والكلام[7]، كما تعبد النصارى المسيح. قيل لك: إن الكلام قال له اعبدني وسجد له موسى، وقال: تبت إليك وأنا أول المؤمنين، فإن قال المسلم عند الاضطرار، إن النار والصدى واسطة ولكنها خلاف المسيح وكلامه، لأن النار ليس من طبعها الكلام، وأما المسيح فإنه كان إنسانا معروفا بالكلام، فلا آية فيه. قلنا لك: إذ قد أوجبتم أن الخليقة لا تدرك الخالق إلا بجسم مخلوق يتخذه[8]، وتجعله واسطا بالواسط[9] بينه وبين من خاطب من الأنبياء، ويصير الواسطة لهم إلها، فقد جامعتموه على الإقرار بواسط[10] مخلوق بالربوبية للمسيح، ووقعتم فيما أنكرتم، وليس ينفعكم ملجؤكم إلى القول بأن النار والمسيح ليس آية.

1- عنوان "تجسد الواسطة" غير موجود في خ/م.
2- في ط: "فإذا لم يكن بد".
3- في ط: "قول الربوبية".
4- في ط: "صدق".
5- في ط: "والا يتمارى".
6- في ط: "خطب".
7- "والكلام" ساقط في ط.
8- في ط: "تتخذه".
9- في ط: "واسطة".
10- في ط: "بواسطة".

وإنما أوجبتم علينا الشرك في قولنا بواسطة، فإذن العقل والحق لا يعيب الواسط، فكلا الواسطين بين الله والخلق. وإذا ذهبتم إلى أن النار صادقة لا يتخوف منه[1] الكذب، وأن المسيح يتخوف عليه الكذب، فإن موسى قد أوجز في النار والكلام، وإنما قطع الشك باليقين بآية العصا واليد الذي أدخل[2] في جيبه، وكذلك قطع المؤمنون بربوبية المسيح شكهم بإقرار الموتى عند إحيائه لهم بربوبيته. وإن ذهبتم إلى أن خلق النار في ذاتها أشرف، فإن كل مخلوق في الدنيا هو منافع لولد آدم مسخرة لهم، وكفى بقولكم في قرآنكم[3] إن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم وأن ابليس مسخوط عليه في الأبد لإبائته[4] السجود له، وقوله: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[5].

فإن قلتم كذبتم على المسيح لأنه لم يدع مما قلتم شيئا، قلنا إنما أنكرتم علينا القول بما وجدنا في كتابنا، نحن لا نستدل[6] بمثل هذا في الأبد فاضطررناكم من كتابكم إلى القول بمثله، فلما ثبت[7] قلتم: كذبتم على المسيح. فلم تكذبونا وكتابنا على القول بمثل قولكم في واسطة موسى وعبادته لها؟ وأنتم لما أوجبتم أن الأمة تحاسب بعملها يوم القيامة، أن محاسبها يخاطبها يوم القيامة ويكافئها بأعمالها ثم يقول قرآنكم[8]: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[9].

فما تنكرون أن يكون المسيح الذي كان واسطا[10] للوعظ، أن يكون هذا المقبل مع الملائكة كما قدمه في الإنجيل حيث قال: "يقعد ابن الإنسان أعني[11] الحجاب المتخذ من

1- في ط: "عليها".
2- في ط: "أدخلها".
3- في خ/م: "قولكم"، وهو تصحيف.
4- في ط: "لإبائه".
5- سورة الأعراف: آية: 12.
6- في خ/م: "نعتدل".
7- في ط: "أبينا".
8- في خ/م: "تقول قراءتكم".
9- سورة الفجر، آية: 22.
10- في ط: "واسطة".
11- في ط: "يعني".

نسل آدم في مجلس عظمته ويقدم[1] جميع الأمم بين يديه ويميزهم كما يميز الراعي الغنم من المعز فيحمل المؤمنين عن يمينه والمجرمين عن شماله ثم يعاتبهم ويأمر[2] كل طائفة بمثل ما قدموا في دنياهم"[3].

وإذا أوجبتم أن الله لا مفطور ولا مدرك بحاسة، فقد وجب أن المحاسب المسموع مدرك بالحواس، مع إقراركم أن ربكم قال: ترون ربكم ولا تضامون في رؤية القمر ليلة البدر، أو لم تنكرون أن يكون المسيح الذي كان واسطا للوعظ، أن يكون هو المقبل مع الملائكة كما قال عنه قرآنكم: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾[4].

الجواب عما ذكره: اعلم يا هذا المتكلف في يقينه[5]، المتعسف في تأويل دينه، أنك قلت في هذا الفصل من الباطل والكفر مالا حجة له ولا أصل، خالفت فيه دين النصارى المتقدمين ولم تعرج على مذاهب القسيسين، بل رغبت عن ملة أئمتك المطارين[6]، فوجب على أهل ملتك أن يعدوك في الخارجين ومن الجهال المبتدعين.

وذلك أنك زعمت أن الذي قال لموسى: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي ﴾، إنما كان الصدى ولم يكن الله تعالى، وزعمت أن موسى اعترف للصدى بالربوبية، وأنه هو الذي كلم موسى وإياه جاوب[7]، وعنه تحمل الرسالة حتى أتى فرعون، وأن ذلك الصدى قام[8] عند موسى مقام خالقه[9]، فسماه إلها، وزعمت أن موسى سجد لذلك الصدى، وأنه هو الذي سأل موسى رؤيته، ولذلك زعمت أن موسى قال للصدى: ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ

1- في ط: "وتقدم".
2- في ط: "ويأمن".
3- متى25: 31-33.
4- سورة البقرة، آية: 210.
5- في ط: "بغيته".
6- في ط: لا «مطارين ».
7- في ط: "حارب".
8- في خ/م: "قال"، وهو تصحيف.
9- في خ/م: "خالق"، وهو تصحيف.

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [1] فإذا كان للصدى فلا حاجة لموسى ولا لأحد إلى الله تعالى، فإنه لم يقل: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ وإنما قالها الصدى، والصدى صادق بزعمك فقد بطلت إلهية الله تعالى وثبتت إلهية الصدى.

وإذا كان كذلك فلم لا تعبدون هذا الصدى الذي عبده موسى وسجد له وتاب له بعد أن اعترف بربوبيته؟ وما بال حبقوق النبي لم يعبد هذا الصدى كما عبده موسى ولم يذكره ولم يعترف بربوبيته؟ وكذلك ما بال حزقيال لم يعبد هذا الصدى كما عبده موسى، ولم يذكره ولم يعترف بربوبيته؟

وكذلك إشعياء ويحيى وعيسى وغيرهم من الأنبياء. والحواريون ما بالهم لم يعبدوا ما عبد موسى وسجد له واعترف بربوبيته وأنه لا رب سواه؟ فهؤلاء الأنبياء والأولياء إما أن يكونوا علموا أنه لا إله إلا الصدى، كما قال الصدى بزعمك، أو جهلوا ذلك. فإن كانوا علموا، فلأي شيء لم يعترفوا بذلك وسكتوا عنه، إذ لم يصح قط عن واحد منهم أنه قال: لا إله لكم إلا الصدى، فليزمكم أن يكون سكوتهم عن ذلك إما عن جحد أو تلبيس، فإن كانوا علموا الحق فجحدوه فذلك كفر منهم، وهم صلى الله عليهم أجمعين مبرأون عن ذلك منزهون، ولو كان ذلك لاستحال أن يظهر عليهم من الآيات شيء مما ظهر، وإن كان سكوتهم عن تلبيس، فإن جاز عليهم التلبيس في مثل هذا، جاز عليهم التلبيس في كل ما أخبروا به من الشرائع، إذ كل الشرائع والأحكام محتقرة [2] بالإضافة إلى معرفة الربوبية وإن كانوا جهلوا ذلك فكيف علمت أنت يا أحمق ما جهله الأنبياء والأولياء.

فإن كانوا تكلموا بذلك وقالوا به، ففي أي سفر من أسفار التوراة هو أن موسى أخبر أن الله لا إله له ولا لكم إلا الصدى، وأن الصدى أرسله إلى فرعون، وأنه إله؟ فإن كان ما تدعيه حقا فات [3] بالتوراة فاتلها إن كنت من الصادقين، وفي أي كتاب من كتب الأنبياء جاء مثل ذلك؟ أفي كتاب حبقوق أو في كتاب حزقيال [4] أو في كتاب أشعياء أو في كتاب دانيال أو في إنجيل لوقا أو في إنجيل متاؤوش أو في إنجيل ماركش أو في إنجيل يوحنا أو في مصحف الإعلان أو في أي كتاب من رسائل الحواريين وجد مثل ذلك؟

1- سورة الأعراف، آية: 43.

2- في ط: "تحتقره".

3- في ط: "فائت".

4- في خ/م: "حزقين وهو تصحيف".

هل وقع شيء منه هنالك؟ وهذه الكتب التي ترجعون إليها وتعولون عليها إذا لم يوجد فيها شيء مما ذكرت، علم من حالك أنك على الله ورسله كذبت وافتريت؟ ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [1].

بل قد تواردت الرسل على الأخبار بالقواطع التي لا تجهل بأن الله إله واحد، وأنه ليس له في ألوهيته شبيه ولا مضاد. وإذا تبين بهذا أنك كفرت وأن الله ربك سببت وعلى رسله كذبت وأنك من جميع الملل خرجت تعين على اليهود والنصارى أن يشتوروا في أمرك ويأتمروا في حرقك أو نحرك ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [2].

ثم نقول هذا الصدى الذي وصفت وهو إله عندك كما زعمت، أهو الله تعالى رب العالمين وخالق السموات والأرضين أم إله غيره؟ فإن كان هو الله تعالى، فلم سميته الصدى؟ ولم جعلته واسطا بين نفسه وبين خلقه؟ وهل هذا إلا محال، فإنه لا يتصور في العقل واسط لا بين اثنين ويكون الواسط ثالثا.

ثم يلزمك على هذا أن تجعل ذات الباري، الرب تعالى، صوتا حادثا، فإن ذلك الصدى عندكم حادث. وهذا كله محال بضرورة العقل. وإن قلت إنه غيره فيلزم أن يكون ذلك الصدى هو المتكلم عن نفسه والمخبر بحقيقته. فإذا سمعه موسى يقول: ﴿أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ فإما أن يخبر عن نفسه أو عن رب العالمين. فإن أخبر عن نفسه فهو كاذب، فإن الرب تعالى يكون إلها آخر[3]، وإن أخبر عن الرب، فلأي شيء قلت أنه إله وأن موسى اعترف له بالربوبية وسجد له، بل الإله الحق رب العالمين والصدى ليس بإله ولا رب.

فقولك: "اعترف موسى بربوبيته وعبده" باطل بالضرورة. ثم نقول: هب أن ذلك الصدى هو المتكلم عن الله، وأنه إله، فهل يقدر الله تعالى على أن يتكلم ويخبر عن إرادته بغير ذلك الصدى؟ فإن قلتم لا، فذلك تعجيز لله تعالى وهو القادر على كل شيء، ويلزم عليه أيضا، أن يكون محتاجا لذلك الصدى المحدث[4]، وكل من كان محتاجا فهو ناقص

1- سورة الزمر، آية: 60.
2- سورة الرعد، آية: 34.
3- في خ/م: "فإن الرب تعالى إلها آخر".
4- كلمة "المحدث" ساقطة من المطبوع.

معيب، وليس بغنى. والله تعالى هو الغنى عن كل الموجودات، وليس لشيء من الموجودات عنه غنى، وإن كان قادرا على أن يسمع كلامه بغير واسطة، فلعل موسى سمعه بغير واسطة، وإذا جاز أن تسقط الواسطة، انهدم كل ما رُمت بناءه، على أنا قد كنا هدمناه أولا في أوحر[1] لحظة بأيسر نفخة، وإنما أردنا أن نبين لك ولكل من وقف على كلامك بعض ما يلزمك، وأنت لم تشعر بشيء من ذلك، ولولا خشية التطويل لأوردت عليك من النقوض واللوازم ما يتعجب منه كل حبر نبيل.

ثم نقول: هب أنا نسلم جدلا أن الله تعالى تكلم مع موسى بواسطة الصدى، فلم قلت أن عيسى مثل الصدى أعني أنه واسطة؟ كما أن ذلك الصدى واسطة، وما الذي دلك على ذلك؟ ولأي شيء سويت بينهما والفرق بينهما ظاهر؟ وذلك أن الصدى الذي زعمت أن موسى سمعه، إنما سمعه موسى بعد أن احتجت له بالنار، كما زعمت، النار[2] جماد، وإذا قام بالجماد صوت يفهم منه: ﴿أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ فيمكن أن يعقل هنا غالط مثلك، أن المتكلم بذلك الصوت إما غير الجماد لاستحالة الإلهية عن الجماد، وإما حيوان ممكن أن يتوهم فيه أنه إله كما توهمتم أنتم في ذلك، فلا يصح ذلك فيه[3] لأنه إذا قال: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ فعن نفسه يخبر، وإليه يرجع حكم خبره بخلاف الجماد، فكيف قست أحد الواسطين على الآخر وليس في معناه؟ ولو أردنا تطويل الكلام لذكرنا فروقا أخر تمنع مقايسة النار بالبشر.

وأما قولك: "إن عيسى عليه السلام قال: أنا الله، وأن الحواريين صدقوه في ذلك فكذب صراح، وإفك براح[4]، فإنه لم يرووا عنه عليه السلام ذلك القول[5] بوجه صحيح، ولا بنص صريح، بل الذي صح منه ونُقل بالتواتر عنه أنه كان يقول: اعبدوا الله الذي لا إله إلا هو وأناجيلكم تشهد بذلك عليكم.

ثم نقول: لو ثبت أن عيسى قال ذلك اللفظ بعينه، لكان يسوغ[6] حمله على محمل قويم

1- في ط: "أوحى".
2- في ط: "والنار".
3- في ط: "ولا يصح ذلك في الله".
4- في ط: "بواح".
5- في ط: "في ذلك أقوال".
6- في ط: "فمن الممكن سوغ".

في العقول غير مخالف للمنقول، وهو أن عيسى عليه السلام كان محبا لله تعالى مستهترا[1] في محبته ومن عادة المشغوف بشيء المستهتر[2] به، أن يستحضر ذلك الشيء المستهتر[3] فيه في قلب، ويجعله نصب عينيه حتى لا يلاحظ شيئا سواه، بل ربما ينتهي ذلك به إلى أن يذهل عن نفسه ويغيب عن حسه، ففي مثل تلك الحالة يظن المستهتر[4] أن الشيء الذي شغف به هو هو حتى يقول:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا[5]

وكذلك قال الآخر:

فكل شيء رآه ظنه قدحا وكل شخص رآه ظنه الساقي[6،7]

وكذلك عيسى عليه السلام، لما انكشف له من سلطان الحقيقة أمر ما، غاب عن نفسه وفنى عن حسه، لما شاهد من جمال الربوبية والحضرة الإلهية، فذهل عن كل ما سوى الله، فقال: أنا الله، وهذه أمور عجيبة وأذواق غريبة لا يدركها إلا من اختاره الله من خلقه واصطفاه بحضرته. فـ "ليس بعشك فادرج".

وأما قولك لنا: "قد أوجبتم أن الخليقة لا تدرك الخالق إلا بجسم مخلوق تتخذه، ويجعله[8] واسطة بينه وبين من خاطب من الأنبياء، فقول باطل علينا، فاسد لدينا، فإنا قد أحلنا تلك الواسطة فيما تقدم بوجوه متعددة، وقد حكمنا بتكفير من أثبت واسطا

1- في ط: "مشتهرا". جاء في لسان العرب مادة هتر: الاسْتِهْتارُ فهو الوُلوعُ بالشيء والإفراط فيه حتى كأنه أُهْتِرَ أي خَرِفَ. وفي الحديث: سبق المُفَرِدُونَ؛ قالوا: وما المُفَرِدُونَ؟ قال: الذينَ أُهْتِروا في ذكر الله يَضَعُ الذِّكْرُ عَنهم أَثْقالَهُمْ فيأتون يوم القيامة خفافاً؛ قال: والمُفَرِدُونَ الشيوخُ الهَرْمى، معناه أنهم كَبِرُوا في طاعة الله وماتت لذاتهم وذهب القَرْنُ الذين كانوا فيهم، قال: ومعنى أُهْتِروا في ذكر الله أي خَرِفُوا وهم يذكرون الله. يقال: خرف في طاعة الله أي خَرِفَ وهو يطيع الله؛ قال: والمُفَرِدُونَ يجوز أن يَكون عني بهم المُتَفَرِّدُونَ المُتَخَلُّونَ لذكر الله، والمُسْتَهْتَرُونَ المُولَعُونَ بالذكر والتسبيح. وجاء في حديث آخر: هم الذين اسْتُهْتِرُوا بذكر الله أي أُولِعُوا به. يقال: اسْتُهْتِرَ بأمر كذا وكذا أي أُولِعَ به لا يتحدّثُ بغيره ولا يفعلُ غيرَه.

2- في ط: "المشتهر".

3- في ط: "المشتهر".

4- في ط: "المشتهر".

5- البيت للحلاج.

6- في خ/م: "الساق"، وهو تصحيف.

7- البيت لأبي نواس ويقول فيه: فكل كف رآها ظنها قدحاً ... وكل شيء رآه ظنه الساقي.

8- في ط: "وتجعله".

على نحو ما زعمت، ولا أعلم أن أحدا من المسلمين قال شيئا من ذلك، بل ولا من أهل الملل غيرك.

ثم نقول: هذا الواسط الذي زعمت، لا يخلو أن يدرك الله تعالى، أعني يعرفه ويسمع كلامه أو لا يدرك. فإن قلتم: لا يدرك فقد شهدتم على أنفسكم أن الواسط ليس بالله، إذ الإله لا بد أن يكون دراكا، ويلزمكم على ذلك أن يكون عيسى لا يعرف الله تعالى ولا يسمع كلامه وهو محال.

وإن قلتم: إنه يدرك الله تعالى، فهل يدركه بواسطة أو بغير واسطة؟ فإن أدركه بواسطة أخرى، فالكلام في تلك الواسطة كالكلام في الأولى ويلزم التسلسل، وإن أدركه بغير واسطة فيجوز لنا نحن أن ندركه بغير واسطة، وفي هذا إبطال ما ذكرت من إثبات الواسطة الذي ذكرت أن المسلم قد اضطر إليه.

وأما قولك: "إنما أوجبتم علينا[1] الشرك في قولنا بواسطة[2]، فإذن الحق والعقل لا يعيب الواسط"، فلتعلم[3] أنا لم نوجب عليك الشرك من حيث الواسط فقط، بل من حيث أثبت واسطا إلها[4]، وذلك أنك زعمت أن الصدى قال لموسى مخبرا عن نفسه: أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني، واعترف له موسى بالربوبية، وتحمل عنه الرسالة وعبده وسجده له. فهذا إثبات إله[5] غير الله، وكذلك قلتم في المسيح أنه قال:

أنا الله واعترف له الحواريون بالربوبية[6]، فهذان إلهان ثم إن الأقانيم ثلاثة آلهة، فصارت آلهتكم خمسة، فيا ليت شعري هذه الآلهة الخمسة، هل اشتركوا في إيجاد الموجودات واختراع الكائنات، أو انفرد بها أحدهم؟ فإن كان قد انفرد بها أحدهم فهو الإله الحق الواحد الفرد، وإن كانوا قد اشتركوا وتعاونوا على خلق المخلوقات، فلا معنى للشرك إلا هذا، ويلزم على تقدير اجتماعهم وتوافقهم على الخلق، أن يكون كل واحد منهم مضطرا إلى مساعدة الآخر، وكل مضطر ناقص، والناقص ليس بإله. وإن قدرنا

1- في خ/م: "عليه".
2- في خ/م: "بواسط".
3- في ط: "فلنعلم".
4- في ط: "إلهيا".
5- في خ/م: له.
6- في ط: "واعترف الحواريون له بالربوبية".

اختلافهم في الخلق بحيث يريد أحدهم أن يخلق ويريد الآخر أن لا يخلق، فيؤدي ذلك إلى أن لا يخلق أحدهم شيئا، فلا يوجد الخلق وقد وجد الخلق، فدل ذلك على أن الإله واحد لا شريك له ولا إله غيره[1].

ثم نقول: عباد الأصنام والأوثان أشبه حالا منكم، لأنهم في عباداتهم إنما كانوا يعبدون أصنامهم ليقربوهم إلى الله زلفى، وأنتم إنما تعبدون هذه الآلهة لأنها أرباب من دون الله، متقربون منها. وهذه جهالات بينة وضلالات ظاهرة عميت عنها بصائركم، فانطوت[2] عليها قلوبكم. وأعجب من ذلك كله قولك: الحق والعقل[3] لا يعيب الواسط، أما من قال هذا فقد خرج عن غريزة العقل، وتاه في مفازة الجهل[4]، فإن العقل الصحيح[5] يشهد بضرورته بإبطال الواسطة، وأما الحق فهذه كتب الأنبياء بين أيدينا وأيديكم، ففي أي كتاب منها أن الآلهة خمسة، بل[6] تدل كلها على أن الإله واحد، ولا ولد له ولا والد ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾[7] وستقدم فتعلم، وأنت قد اضطربت في هذا الفصل، ولم يثبت لك فيه فرع ولا أصل، والتكثير[8] مع من لا يعقل عمل من لا يحصل.

وأما قولك: "وأنتم لما أوجبتم أن الأمة تحاسب بعملها يوم القيامة أن محاسبها يخاطبها يوم القيامة ويكافئها بأعمالها"، فقد كان ينبغي لك ألا تحتج بشيء لم يثبت عندك أصله ولا تصدق بنقله، ثم لا حجة لك في شيء مما ذكرته، وذلك أن محاسبة الله

1- لأبي بكر الباقلاني في كتابه التمهيد قولا شبيها بهذا حيث يستوحي دليله في إثبات أن الصانع للعالم واحد من قوله عز وجل: ﴿ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ حيث يقول: " وليس يجوز أن يكون صانع العالم اثنين ولا أكثر من ذلك، والدليل على ذلك أن الاثنين يصح أن يختلفا ويوجد أحدهما ضد مراد الآخر فلو اختلفا وأراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته لوجب أن يلحقهما العجز". تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، القاضي أبو بكر الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الثالثة 1414هـ/1993م بيروت لبنان ص:45.

2- في ط: "فأفطرت".

3- في ط: "العقل والحق".

4- في ط: "وتارة وقع في مفازة الجهل".

5- في ط: "الصريح".

6- في ط: "أنها".

7- سورة مريم، آية: 92-93.

8- في ط: "والكثير".

تعالى للعباد في الدار الآخرة مما يجب الإيمان بها، ومما قد تواردت عليه الشرائع إما بالتصريح وإما بالإيماءات والتلويح.

وذلك يكون ولابد ولأجل مجازاة العباد بأعمالهم في الدار الآخرة، خلق الله الخلق، وبسط الرزق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [1]، ومحاسبة الله للخلق تكون على وجوه جائزة في العقل، وإرادة في النقل، لا تحتاج إلى شيء مما تخيلته منها، أن العبد يوقف في موضع الفصل والقضاء، فيعطى كتابا أحصيت فيه أعماله، ويقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [2]، فإذا وقف عليها، علم أن المكتوب فيها هو أعماله، فإن كان سعيدا قال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [3]، وإن كان شقيا فيقول: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ۝ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ [4] عند ذلك يقال للملائكة: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [5]، فهذا وجه من وجوه المحاسبة، لا تحتاج معه إلى إثبات واسط، ويمكن أن يكون هنالك وجوه ممكنة في المحاسبة ليس هذا موضع ذكرها، ولا أنت أهل لفهمها، لا تحتاج في شيء منها إلى ما رُمت من الواسطة، فكأني والله بك إن مت على ما أنت عليه يؤخذ بناصيتك وقدمك ويحيط[6] بك ملائكة ربك، ﴿ مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ

1- سورة المؤمنون، آية: 115.
2- سورة الإسراء، آية: 14.
3- سورة الحاقة، آية: 19-24.
4- سورة الحاقة، آية: 25-29.
5- سورة الحاقة، آية: 30-32.
6- في ط: "وتحيط".

شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [1]. فتنادي فتقول يا عيسى، يا سيدي، يا إلهي يا ولد الله، فيقول لك كذبت ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، ولست بإله ولم أقل لك كذلك، ولا أبلغتك ذلك، وإنما بلغتك أن لا إله إلا هو، وحده لا شريك له. فكيف ترى خجلتك بين يديه، وحيرتك إذا طلبت في نفسك جوابا ترده عليه، فذلك المقام لا ينفعك فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، إلا ما قدمت يداك من حسن إيمان وصالح عمل، وسعادة قضت لك بها سابقة الأزل. فإن الملائكة والنبيين لا يشفعون إلا لمن ارتضى رب العالمين: فالله الله انظر في خلاص نفسك لتجتني ثمار غرسك.

وأما قوله[2]: يقول قرآنكم: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [3]، فلست لها فما شأنك وإياها، أنت لا تعرف لسان من خوطب بها، ولا تعرف مضمنها[4]، فكيف يمكنك الاستدلال بها والتطواف حولها، وأنت عري عن الشرط الذي به يعرف معناها ويفهم فحواها، وليس مفهومها عند من خوطب بها من العرب الفصحاء البلغاء على شيء مما ذكرت، ولا يقرب مما توهمت، بل معناها عندهم لا تخالفه العقول، ولا يخرج عن أسلوب لسان العرب المنقول، وإنما أكره أن أشافهك به، لأنك فاقد شرطه. فإن كنت ممن ينور الله بصيرته ويحسن سريرته، شرعت في أن تتعلم، ويجب علينا أن نفهمك حتى إن شاء الله تفهم.

وأما قولك في الإنجيل: "يقعد ابن الإنسان في مجلس عظمته ويقدم[5] جميع الأمم بين يديه ويميزهم كما يميز الراعي الغنم" فنقول آمنا بالله وكتبه ورسله[6]، ومع ذلك فنعلم على القطع والثبات أن كل أمة تدعى يوم القيامة بإمامها، وتنادى بمعبودها وأنبيائها، فيتبع كل من كان يعبد الشمس، الشمس. ويتبع كل من كان يعبد الطواغيت، الطواغيت.

وإذا كان ذلك فلا بد لعيسى أن يجمع له كلا من لزمه اتباع شرعه، فحينئذ يميزهم كما يميز الراعي الغنم، فمن آمن به وانتبه على النحو الذي رسم له، فهو من الفائزين ومن اعتقد فيه أنه إله، أو ابن إله، فالنار مأواه، بعد أن يتبرأ عيسى من دعواه.

1- سورة التحريم، آية:6.
2- في ط: "قولك".
3- سورة الفجر، آية: 22.
4- في ط: "مضمونها".
5- في ط: "وتقدم".
6- في ط: "آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله".

وأما قولك: "وإذا أوجبتم أن الله لا مفطور ولا مدرك بحاسة، فقد وجب أن المحاسب المسموع مدرك بالحواس"، فهذا لا يلزم منه شيء مما ذكرت، فإنا إذا قلنا أن الله تعالى ليس مدركا بالحواس، فإنما يريد[1] به أن الله ليس مدركا بالحواس كما تدرك الأجسام والألوان، فيكون محاطا به فيكون ذا حدود وأقطار وذلك محال.

وإذا قلنا إن الله تعالى مرئي[2] في الدار الآخرة، إنما نريد به أن الله تعالى يخلق لنا إدراكا آخر لا تناسب حاله حالة إدراك الأجسام، ولا الألوان. فإن الإدراكات مختلفة باختلاف متعلقاتها، وذلك إدراك خاص له حكم نفسه، لم نذق[3] منه ذوقا في هذه الدار، فإنه إنما يكرم الله به أصفياءه وأولياءه[4] يوم القيامة.

وإذا أنعم الله[5] على وليه بذلك الإدراك المعبر عنه بالرؤية، خلق له من اللذة مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإن أنكرت أن يرى ما ليس بجسم ولا لون، فلتنكر أن يعلم موجودا ليس بجسم ولا عرض، وإن زعمت أن الرؤية غير جائزة عقلا، فقد جهلت موسى حيث سأل الله ما يستحيل عليه، فكيف جهل موسى من وصف الله، ما علمه جاهل مثلك.

وأما استشهادك بحديث نبينا عليه السلام على رؤية ذي الجلال والإكرام، فأنت ممنوع منه لإعراضك عنه، وهو من عبدنا[6] على إثبات رؤية الله تعالى في الدار الآخرة لكوننا عالمين بحقه ودليل صدقه.

ثم إنك نقلت ذلك الحديث فأجحفت، وبالمعنى أخللت، وإنما صوابه: "إنكم ترون ربكم ولا تضامون[7] في رؤيته إلا كما تضامون[8] في رؤية القمر ليلة البدر"[9] وهذا لا حجة لك

1- في ط: "نريد".
2- في ط: "يرى".
3- في ط: "يذق".
4- في ط: "أولياءه وأصفياءه".
5- في ط: "تعالى".
6- في ط: "عمدنا".
7- في ط: "تضاهون".
8- في ط: "تضاهون".
9- روى البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة" قال: "حدثنا عمرو بن عون حدثنا خالد وهشيم عن إسماعيل عن قيس عن جرير قال كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر

فيه، فإنني[1] نقول: إن الله تعالى هو المرئي لا غيره بالأبصار في الدار الآخرة على ما تقدم، وأنتم تقولون: إن المرئي الواسطة. وهذا الحديث يعرف معانيه أهله، وهم الذين يصدقون برسالة من هو قوله، فلا تطمع في معرفته فإنك لست أهلا لداريته.

وأما قولك: "لم تنكرون أن يكون المسيح هو المقبل مع الملائكة[2] كما قال عنه قرآنكم: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [3]، فكيف لا تنكر[4] ذلك، ولم يدل على وقوعه دليل عقل ولا صحيح نقل، وليس معنى الإتيان في هذه الآية إلا كالمجيء في الآية المتقدمة، وكلاهما ليس المراد به المجيء الذي هو نقل الأقدام، بل المجيء والإتيان لهما معان أخر يعرفها العرب المؤمنون.

وهذه الآية فيها محذوف تفسره آية أخرى، تقديره هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمر الله، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [5]، فقد ذكر في هذه الآية ما حذف هنالك، وهذا على المعروف في لسان العرب من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك الكلام على الآية الأولى، وهذا لا خفاء به عند البصير بلسان العرب، فإنها تستعمل الحذف والإضمار والمجاز والاختصار، ثم مالك ولكتابنا، ولأي شيء تنشد ضالتنا، "دعها معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها"[6].

لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا".

1- في ط: "فإنا".

2- في ط: "لم تنكرون أن يكون المسيح الذي كان واسطا للوعظ أن يكون هو المقبل مع الملائكة".

3- سورة البقرة، آية: 210.

4- في ط: "تنكر".

5- سورة النحل، آية: 33.

6- العبارة مقتبسة من الحديث الشريف الذي رواه البخاري في حديث ضالة الإبل: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَبَّاس، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ رَبِيعَةَ، حَدَّثَنِي يَزِيدُ، مَوْلَى الْمُنْبَعِث عَنْ زَيْد بْن خَالد الْجُهَنِيِّ - رضي الله عنه - قَالَ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَسَأَلَهُ عَمَّا يَلْتَقِطُهُ فَقَالَ " عَرِّفْهَا سَنَةً، ثُمَّ احْفَظْ عِفَاصَهَا وَوِكَاءَهَا، فَإِنْ جَاءَ أَحَدٌ يُخْبِرُكَ بِهَا، وَإِلاَّ فَاسْتَنْفِقْهَا ". قَالَ يَا رَسُولَ الله فَضَالَّةُ الْغَنَمِ قَالَ " لَكَ أَوْ لأَخِيكَ أَوْ لِلذِّئْبِ ". قَالَ ضَالَّةُ الإِبِلِ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسَلم. فَقَالَ " مَا لَكَ وَلَهَا، مَعَهَا حِذَاؤُهَا وَسِقَاؤُهَا، تَرِدُ الْمَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ ". كتاب اللقطة باب ضالة الإبل.

ألق السلاح فلست من أكفائنا   واقعد مكانك بالحضيض الأسفل.

ثم نقول من عجيب أمر هذا السائل، أنه لا يصلح أن ينسب لمقلد ولا ناقل، وذلك أن هذا المذهب الذي أبداه من اتخذ[1] الله واسطة صوت الصدى، إنما حمله عليه تقليده لكتاب أغشتين، وذلك أنه أشار في مصحف العالم الكائن إلى نحو مما ذكره هذا السائل، ولعله وقف عليه ولم يفهمه صحيحا، ولا أورده فصيحا، بل زاد عليه كلاما فاحشا قبيحا، وإنا إن شاء الله تعالى أذكر كلام أغشتين في الفصل الذي بعد هذا، وأبين فيه أنه ليس كما فهمه هذا السائل، ثم أعطف على أغشتين بتبيين فساد مذهبه وأوضح أنه غير مصيب في مطلبه، وأحقق فيه أن أغشتين مخالف لغيره من القسيسين.

1- في ط: "اتخاذ".

الفصل الخامس

في حكاية كلام المتقدمين

[منهم في الاتحاد وبيان اختلافهم فيه][1]

لتعلم أيها الناظر في هذا الباب، أن النصارى قد كثر اختلافهم، وعظم خبطهم وارتباكهم، فلا يستقرون[2] فيه على قدم، ولا يمشون منه على طريق أمم، فقليل منهم من نفى الإتحاد والحلول، ولم يقل بشيء من ذلك، وهم طائفة متقدمة يعرفون بـ الأروسية، ولا يكاد مذهبهم يخالف مذهب المسلمين، إلا في إنكارهم نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وجمهورهم على القول به وإثباته، ثم المثبتون له، منهم من قال: لا يقال فيه "كيف"[3]، ولا يسأل عنه بحرف، ومنهم من شرع في بيان كيفيته، وتفسير ماهيته، فصارت اليعقوبية والنسطورية إلى أن الكلمة خالطت جسد المسيح ومازجته، كما يمازج الخمر اللبن، وإلى نحو هذا ذهب الروم وزاد[4] عليهم فقالوا: اختلطت الكلمة بالمسيح، فصارا شيئا واحدا.

ولقد حكى من كلام اليعقوبية[5]، ما يدل على توقحهم وجرأتهم على الله تعالى، وذلك أنهم قالوا: إن الله نزل فدخل في بطن مريم، فاتخذ من لحمها جسدا، فصار الله مع الجسد نفسا واحدة[6].

وربما أطلق بعضهم القول بأن الله اتخذ اللحم[7] والدم، فزاده في نفسه فصار ذلك اللحم الله. وأما النسطورية فقالوا ليست تلك النفس هي الله، وإنما هي بعضه، وهذا هو

1- ما كتب بين المعقوفتين ساقط من ط.
2- في ط: "فلا هم يستقرون".
3- في ط: "بكيف"
4- في ط: "وزادوا".
5- في خ/م: "الملكية"، وهو خطأ لأن القائلين بأن الله هو المسيح بن مريم هم اليعقوبية.
6- في ط: "واحدا".
7- في ط: "الله اتخذ ذلك اللحم".

البهتان الذي يعلم بطلانه بالضرورة كل إنسان، وصار معظم اليعاقبة، إلى أن الكلمة انقلبت لحما ودما.[1]

وصارت طائفة من النصارى إلى أن الكلمة حلت جسد المسيح، كما يحل العرض محله، وصار أخلاط من النصارى إلى أن المراد: بالإتحاد ظهور اللاهوت على الناسوت وربما عبروا عن ذلك بالفيض[2].

ثم اختلفوا في تمثيل ذلك على ثلاثة أوجه: فمنهم من قال مثاله ما ينطبع في الأجسام الصقيلة[3] من الأشياء التي تقابلها، ومنهم من قال: مثاله الطابع المنقوش إذا اتصل بشمع وما يضاهيه، فيظهر نقش الطابع عليه وإن لم يحله شيء من الطابع. ومنهم من قال: معنى ظهور اللاهوت على المسيح، كمعنى استواء الإله على العرش عند الإسلاميين مع مصيرهم إلى استحالة المماسة والمحادات[4].

وربما يعبرون عن الإتحاد بالتدرع كأنهم أخذوا ذلك من لفظ الدرع، يشيرون إلى أنا اللاهوت اتخذ ناسوت المسيح درعا.

هذه مذاهب المشتهرين من طوائفهم. وأما اختلاف آحادهم فمما لا يكاد ينضبط ولا يرتبط، ومن أراد الوقوف على شيء من ذلك فليطالع كتاب المسائل لهم ففيه يرى تحيرهم وخبطهم.

ونفرد بعد هذا إن شاء الله بابا نذكر فيه كلام أغشتين فإن مذهبه في الإتحاد مخالف لمذهب من تقدم ذكره من الفرق والقسيسين.

الجواب عن كلامهم. أما من حكى عنه نفي الإتحاد فقد قال بالحق وأتى بالمراد. وأما من أثبته وقال إن الإتحاد لا يسأل عنه ولا يكيف، فنقول: معنى الإتحاد لا يخلو أن تعرفه أو لا تعرفه، فإن لم يعرفه فقد اعترف بجهله وناقض متقدم قوله، فإنه اعترف بالإتحاد وادعى ثبوته للمسيح وحده، ثم لما طولب بتثبيته قال: لا أعرفه، وهذا تناقض وقول باطل

1- في ط: "وربما أطلق بعضهم القول بأن الله اتخذ اللحم والدم فزاده في نفسه فصار ذلك اللحم الله. وصار معظم اليعاقبة إلى أن الكلمة انقلبت لحما ودما، وأما النسطورية فقالوا ليست تلك النفس هي الله وإنما هي بعضه وهذا هو البهتان الذي يعلم بطلانه بالضرورة كل إنسان. وصارت طائفة من النصارى...".

2- في ط: "وربما عبروا له عن ذلك بالفيض".

3- في ط: "الصقلية".

4- في ط: "المحادات ساقطة من المطبوع.".

وأما من قال أعرفه إلا أني[1] يقصر عن إدراك حقيقته عقلي، ولا أقدر على العبارة عنه، وهذا كما قلتم أنتم في جوابكم عن كيفية سماع موسى كلام الله تعالى، حيث قلتم إنه لا يسأل عنه بكيف، فإنه ظلم وحيف، فنقول: أما قولك: أعرفه إلا أنه يقصر عقلي عن إدراك حقيقته فمتناقض أيضا، لأن كل معروف لا بد أن يرتسم في العقل، ويحصل فيه على الوجه الذي يكون معروفا منه، فإما على الجملة، وإما على التفصيل، وما لم يرتسم في العقل لا جملة ولا تفصيلا، فليس بمعلوم. وأنت إذا ادعيت أنك عالم بالإتحاد، فلا بد أن تكون عالما به، إما على الجملة أو على التفصيل، وكيفما كان، فلا بد لك من أن تعبر عن معلومك على أي وجه كان، وإلا فأنت جاهل بالإتحاد، ومن جهله كافر عندكم، وأما تشبيهك هذا بكيفية سماع موسى فليس بصحيح، لأنا مهما قيل لنا كيف سمع موسى كلام الله، فإنما نسأل عن أمر لم نعلمه علم ذوق وعن تفصيل، ما لم تعلمه[2] تفصيلا بل علمناه على الجملة.

ولذلك أجبنا بقولنا: إن الله تعالى خلق له إدراكا سمع به كلام الله تعالى الذي هو وصفه الذي ليس بحرف ولا صوت، ففهمنا الإدراك على الجملة، ولم نفهمه على التفصيل، وأنت لم تعرف الإتحاد جملة ولا تفصيلا، بل جهلت وادعيت أنك علمت، فـ ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[3].

وأما من قال إن الكلمة خالطت جسم المسيح ومازجته ممازجة الخمر اللبن، فكلام فاسد، قائله للعقل فاقد، وذلك أن المفهوم من المخالطة والممازجة لا يتصور إلا في الجواهر المتحيزات[4]، وذلك إن المخالطة إنما يعبر بها عن تجاور الجواهر واجتماعها، بحيث يكون كل واحد من الجواهر المتمازجة يحفظ حيزه ويشغله ويمنع منه غيره.

ولذلك إذا أفرغت إناء ماء على إناء لبن مثلا وتمازجا، كثر اللبن وصار لا يسعه بعد الممازجة [ما كان يسعه قبل الممازجة][5]، والعلم ليس بجوهر فاستحال عليه الاختلاط والامتزاج بالضرورة.

1- في ط: "أنني".
2- في ط: "نعلمه".
3- سورة البقرة، آية: 111، وسورة النمل، آية: 64.
4- في ط: "المتحدات".
5- ما كتب بين المعقوفتين ساقط من ط.

فإن أرادوا بالامتزاج والاختلاط أمرا آخر، فلا بد من بيانه وإفادة تصوره، ولا يتكلم على الشيء ردا وقبولا، إلا بعد كونه معقولا، ولو سلمنا الممازجة جدلا للزم عليها أنواع من المحالات، منها قيام الصفة بنفسها وانتقالها، وبقاء جوهر الله تعالى عريا عنها، على قولهم والعري عن العلم جاهل، والجهل على الله محال، ويلزم على ذلك أن لا يكون العلم أزليا بل حادثا، مخلوقا [ولأن حاله تغيرت وذلك بعد أن لم يكن مختلطا ممتزجا مختلطا][1].

وهذان أمران حادثان ولا يخلو عن أحدها، وما لا يخلو عن الحوادث حادث على ما يعرف في موضعه، وهذه أمور باطلة فالمفضي إليها باطل وهو الاختلاط.

وأما من قال بالحلول فليس له محصول ولا معقول، لأن حقيقة الحلول إنما هي أن يحصل جسم أو متحيز في شيء أو على شيء، فيسمى الحاصل حالا والمحصول فيه يسمى محلا، وتسمى النسبة بينها[2] حلولا، وهو الذي يسميه النحوي مصدرا هذا هو المفهوم من حقيقة الحلول.

وقد يتوسع فيه فيقال: حل العرض في محله، ومعناه صار المحل متصفا به، وصار العرض قائما به وموجودا فيه. فإن أردتم حقيقة الحلول كان محالا، فإن العلم ليس بجسم ولا جوهر على ما مر.

وإن أردتم الثاني، فهو محال أيضا لأنه يلزم عليه مفارقة العلم الجوهر وبقاؤه جاهلا، ويقوم عرض واحد بمحلين في زمان واحد، ويلزم عليه انتقال الصفة من محل إلى محل وحدوثها، إلى أنواع من المحالات لا يبوء بها عاقل ومنتحلها أحمق جاهل.

وقد صرحوا بأنهم أرادوا بالحلول حلول الجوهر في العرض، وقد صرحنا نحن بما يلزمهم من المحالات على ذلك وبيناه والحمد لله.

ثم نقول لهم بعد ذلك في قولهم بالاختلاط وبأنهما صارا شيئا واحدا، لا يخلو أن حين اختلطا إما أن يبقى العلم موجودا بحاله، والجوهر موجودا بحاله، أم ينعدم أحدهما أو ينعدما معا.

محال أن يبقيا موجودين بحاليهما مع فرض الاختلاط وكونهما شيئا واحدا، فإن الواحد لا يعود اثنين إلا بإضافة غيره إليه، وإذا أضيف غيره إليه ارتفعت الوحدة

1- في ط: "وأن حاله تغيرت وبعد أن لم يكن مختلطا ممتزجا مختلطا".

2- في ط: "بينهما".

بالضرورة على ما تقدم في التثليث، وكذلك الاثنان لا يعودان واحدا إلا إذا انعدم أحدهما، فترتفع الإثنية بالضرورة، ومحال أن يعدما[1] فإنه يؤدي إلى عدم القديم وإلى عدم ما هو موجود في حالة وجوده، فلم يبق إلا أن ينعدم أحدهما دون الآخر، وذلك محال فإن الموجود لا يخالط المعدوم ولا يمازجه بل يبقى الواحد واحدا.

وإذا بطلت هذه الأقسام المنحصرة بطل الامتزاج والاختلاط، ويصير[2] الاثنان واحدا على ما قالو.

وأما من قال إن الكلمة انقلبت لحما ودما، فلقد ارتكب حماقة، والتزم عما[3] يلزمه عليه جواز عكس مذهبه، وهو أن يتقلب[4] اللحم والدم علما، والقديم حادثا، والحادث قديما، إلى غير ذلك من المحالات التي لا تصدر عن من شد أطرفا[5] من المعقولات، ولولا الحمق والتقليدات، لما وجد مثل هذه النواقح[6] في كلام أحد من المخلوقات.

وأما من قال إن الإتحاد هو ظهور وفيض، ومثله بانطباع الصور في المرآة، فهذا المثال إنما كان يصح لو كان العلم صورة محسوسة بالبصر، ويكون جسد المسيح صقيلا تنطبع فيه صورة المقابلات، وكل ذلك معدوم في مسألتنا بالضرورة، فتخيله فاسد وباطل بالضرورة، فكما لا تتمثل ذات الحياة والادراكات في المرآة، كذلك لا تتمثل الكلمة في جسد المسيح، ثم إن جاز انطباع علم الله في جسد البشري، فلينطبع في كل ما يشبهه في الجسدية، وسيأتي لهذا مزيد بيان وفيما تقدم ما يبين فساده واستحالته.

وأما التمثيل بنقش الخاتم يعود منحفرا في الشمع، [فيلزم عليه أمران أحدهما: أن الناتئ[7] من النقش في الخاتم يعود منخفرا في الشمع][8]، والمنحفر في الخاتم يعود ناتئا في الشمع، وذلك[9] لا يتصور إلا في الأجسام، وإن جاز في غير الأجسام فيلزم أن يكون كل

1- في ط: "ينعدما".
2- في ط: "مصير".
3- في ط: "عمى".
4- في ط: "ينقلب".
5- في ط: "أطرافا".
6- في ط: "الفواقح".
7- نَتَأَ الشيءُ يَنْتَأُ نَتْأً ونُتُوءاً: انْتَبَر وانْتَفَخَ.وكلُّ ما ارْتَفَعَ من نَبْتٍ وغيره، فقد نَتَأَ، وهو ناتِئٌ.
8- ما كتب بين المعقوفتين ساقطة في ط.
9- في ط: "فذلك".

واحد منهما أعني: اللاهوت والناسوت، يؤثر في الآخر ويحل فيه، فيكون الناسوت حل في اللاهوت، وذلك محال عند كل فريق. والأمر الثاني أن النقش في الخاتم يوضع مقلوب الكلمات ثم تنطبع مستقيمة [في الشمع، ولو وضعت في الخاتم مستقيمة][1]، لانطبعت في الشمع منعكسة، فيلزم على مساق هذا المثال أن تنطبع الكلمة في الناسوت إما بالاستقامة أو بالعكس، فإن انطبعت فيه بالاستقامة فأقنوم الكلمة في الجوهر بالانعكاس، وإن انطبعت فيه بالانعكاس فلم تبق الكلمة في الناسوت على حقيقتها في اللاهوت، بل هي منعكسة فلا تبقى حقيقة العلم على ما كانت، بل هي ليس بعلم. وهذا كله مما يلزم على آرائهم الفاسدة ومتحكماتهم[2] الباردة.

وأما من لبّس منهم بأن مثّل قولهم في الإتحاد بقولنا في استوائه تعالى على العرش، فذلك مما لا يقال عليه عندنا اتحاد ولا حلول، ولا فيض ولا انطباع، لأنا نريد بقولنا هو على العرش مستوي[3]، واستوى على العرش أن العرش تحت قبضته، ومسخر بقدرته، والاستواء عليه إنما هو بمعنى الاستيلاء على ما يعرفه العرب من كلامها فإنها تقول:

قد استوى بشر على العراق … بغير سيف ودم مهراق[4].

فإن أراد[5] هذا المعنى فهو حق وصحيح، لكنه لا يصح في حق عيسى وحده، فإن الله تعالى مستول على عيسى وعلى غيره، وأما من أطلق منهم لفظ التدرع[6] فيستحيل على

1- ما كتب بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

2- في ط: "تحكماتهم".

3- في ط: "مستو".

4- البيت للشاعر النصراني الأخطل، وهو بيت يستدل به المعتزلة للتدليل على تأويلهم لقوله تعالى استوى على العرش بالاستيلاء، والمؤلف هنا يتبنى رأي المعتزلة لا الأشاعرة في تفسير قول الله تعالى: استوى على العرش. ولقد لعن ابن حزم من يحتج بهذا البيت الشعري في رده على اعتراضاته للمرجئة في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل. "ملعون ملعون قائل هذا البيت وملعون ملعون من جعل قول هذا النصراني حجة في دين الله عز وجل وليس هذا من باب اللغة التي يحتج فيها بالعربي وإن كان كافراً وإنما هي قضية عقلية فالعقل والحس يكذبان هذا البيت وقضية شرعية فالله عز وجل أصدق من النصراني اللعين إذ يقول عز وجل: " يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم " فقد أخبر عز وجل بأن من الناس من يقول بلسانه ما ليس في فؤاده بخلاف قول الأخطل لعنه الله أن الكلام لفي الفؤاد واللسان دليل على الفؤاد فأما نحن فنصدق الله عز وجل ونكذب الأخطل ولعن الله من يجعل الأخطل حجة في دينه وحسبنا الله ونعم الوكيل". الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمان عميرة، دار الجيل، الطبعة الثانية، 1416هـ/1996، ص: 261.

5- في ط: أرادوا".

6- في ط: "النزوع".

الحقيقة والتوسع؛ وذلك أن هذا اللفظ يشعر بأن اللاهوت اتخذ الناسوت درعا أو كالدرع، وهذا كله مستحيل على الإله تبارك وتعالى وعلى علمه. وكل ما تقدم من المحالات على هذا المذهب يلزم.

وعلى الجملة، فهؤلاء القوم أغبياء جاهلون، وعن التوفيق معزولون، فهم عن المعقولات معرضون، وبها مستهزءون، لا يستحيون من خالقهم ولا يتأدبون مع مُأكلهم ورازقهم، فسبحان الله عما يقول الجاهلون، وتعالى عما ينسبه إليه المبطلون، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [1].

ولولا ضرورة الحال، ورجاء قمع أهل الضلال، لما استجزت حكاية مثل هذا المقال، وأنا أستغفر الله ذا العظمة الجلال إنه ذو العفو والأفضال.

ولا بد مع ما تقدم أن نطالبهم أجمعين بصحة الدليل الذي حملهم[2] على ذلك القول الغث الهجين، حتى نتبين تحكماتهم وتظهر لكل أحد ترهاتهم.

فأقول لجميعهم ما الذي حملكم على القول بالإتحاد والتورط في الضلال والإلحاد، فلتعلم أنهم قد اختلفت مسالكهم في ذلك، فمنهم من قال: إنما قلنا بذلك تقليدا للإنجيل، وحذرا من المخالفة والتبديل، كما قال هذا السائل. ومنهم من قال: إنما قلنا بالإتحاد لأن عيسى ظهرت على يديه[3] أفعال لا تنبغي إلا لإله، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وخلق الطير من الطين، وهذه أفعال لا يقدر عليها إلا إله، وهو قد قدر عليها فهذا إذن الإله[4]. ومنهم من قال إنما صرنا إلى ذلك لكون عيسى لم يخلق من الماء الدافق الكائن عن أبوة، ولا خرج عن شهوة آدمية، بل خلق الله ناسوته، من غير أب ليكون واسطا بينه وبين خلقه، وليتخذه لكلمته، وربما قال بعضهم ألستم تقرأون في كتابكم: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [5]، وهذا عين ما أنكرتم علينا من الإتحاد، فإن عيسى رسول الله وكلمته [ألقاها وروح منه][6]، فناسوته رسول الله، ولاهوته كلمة الله على ما أخبر به كتابكم.

1- سورة الإخلاص، آية: 3-4.

2- في ط: "جعلهم".

3- في ط: "ظهرت عليه".

4- في ط: "فهو إذن إله".

5- سورة النساء، آية: 171.

6- ما كتب بين المعقوفتين ساقط في ط.

فنقول: لمن قال بذلك تقليدا للإنجيل. جوابك قد تبين فيما تقدم، إذ قد تقدم أن فهم الإتحاد منه بالمسيح باطل، وأن الصائر إلى الإتحاد بعد الوقوف على ما تقدم معاند جاهل.

وأما من استدل منهم على ذلك بما ظهر على يدي المسيح من خوارق العادات، فنقول له لأي شيء قلت أنها تدل على إلهيته[1]، ولم تقل إنها تدل على ما كان يستدل هو بها من رسالته، [فقد حُكي في الإنجيل أن عيسى لما دعا الله ليحيي أليعازر ومعه جماعة من الخلق][2] فقال: "رب أعلم أنك تعطيني كل شيء ولكن أقول من أجل الجماعة الواقفة ليؤمنوا به وليصدقوا أنك أرسلتني"، فهو قد استدل بإحياء الموتى على رسالته، وأنتم تستدلون بذلك على إلهيته، فيلزمكم[3] من هذا الاستدلال العدول عن شرع عيسى المنقول، ومصادمة العقول.

ثم نقول لهم كيف ينبغي لكم أن تقولوا: هذه الأفعال العجيبة تدل على أنه لاهوت، وأنتم تعزون في كتبكم أن عيسى كان إذا أراد أن يفعل شيئا مما ذكر، تضرع إلى الله ورغب إليه بخضوع وتذلل، حتى يقضى الله حاجته. وهذا موجود في كتبكم كثيرا فيها.

وكفى دليلا على نفي ما تنسبونه إليه قوله حين صلبه بزعمكم: "إلهي إلهي لم أسلمتني"[4]، وقوله قبل ذلك: يا أبتاه إن كانت هذه الكأس لا تقدر تجاوزني حتى أشربها فلتكن إرادتك وهذا كله في سجوده.

وفي هذا الموطن قال: "يا أبتاه إن كان ممكنا فلتذهب عني هذه الكأس"[5].

وفي إنجيل يحيى[6] أنه قال في هذا المقام: "سيلقى ابن الإنسان ما كتب له"[7]، ثم قال بعد ذلك: "يا أبتاه إنك قادر على جميع الأشياء فرج عني هذه الكأس"[8]، فهذا كله يدل دلالة لا شك فيها أنه كان يفعل ما يفعل بإذن الله إذا أراده وأقدره عليه.

1- في ط: "الوهيته".
2- ما كتب بين المعقوفتين ساقطة من ط.
3- في ط: "الوهيته فيلزم".
4- متى27: 46.
5- متى27:46.
6- في ط: "ماركوش".
7- مرقس14: 21.
8- مرقس14: 36.

وأنه إنما كان يتفق له ذلك بعد أن يتضرع ويرغب لله تعالى، وربما كان يسأل أمورا لا يعطيها الله له لما سبق في علم الله أنها لا تكون.

منها: ما تقدم حيث سأل الله أن يدفع عنه أمر الصلب والقتل، فلم يجب لذلك على زعمكم. ومنها أن اليهود كانت تطلبه[1] بمثل بعض معجزات موسى بن عمران فلا يجيبهم بشيء، وسيأتي لهذا مزيد [بيان في باب النبوات وأعجب من ذلك كله أن في إنجيل يحيى][2] أن عيسى قال لليهود: "لست أفعل من ذاتي شيئا، لكني[3] أحكم بما أسمع لأني لست أنفذ إرادتي بل إرادة[4] الذي بعثني"[5]. إلى ما في كتبكم من هذا الذي قد عميتم عنه، ولم تسمعوا حرفا منه، فتارة ينبهكم على وجه الاستدلال، وأخرى يصرح بالمقال، وتارة يسأل فيعطى ويجاب، وأخرى يسأل فلا يرد عليه جواب، وحينا يتبرأ من مشيئته، وأخرى يعترف بزلته وعبوديته[6]. ثم هؤلاء القوم مع ذلك يقولون هو إلهنا ومحيينا وخالقنا، فهؤلاء بُكم[7] كالأنعام وصُم كالأصنام: ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[8].

ثم نقول إن كان إحياء الأموات يدل على الإلهية[9]، فلأي شيء لا تقولون إن اليسع والياس[10] كانا إلهين وأنه حل بناسوتهما اللاهوت؟ وشأنهما في إحياء الموتى لا يقدر أحد على دفعه ولا يخفى[11].

ولم لا تعتقدون إلهية[12] النبي حزقيال، إذ فر قومه وهم ألوف حذر الوباء، فأماتهم الله ثم جاءهم نبيهم فقال لهم: "لتحيوا بإذن الله، فحيوا ورجعوا إلى قومهم سحنة الموت على وجوههم حتى ماتوا بآجالهم"[13]. وهذا معروف عندهم ولا مدفع فيه.

1- في ط: "تطالبه".
2- ما كتب بين المعقوفتين ساقط في ط، وجاء مكانه: "ودليل ذلك من الإنجيل".
3- في ط: "لكنني".
4- في ط: "بل إرادة الله الذي بعثني".
5- يوحنا5: 30.
6- في ط: "وحينما يتبرأ من مشيئته ويعترف بزلته وعبوديته".
7- في ط: "فهؤلاء يكونون بكم كالأنعام".
8- سورة النساء، آية: 78.
9- في ط: "الألوهية".
10- في ط: "إلياس واليسع".
11- الملوك الأول17، الملوك الثاني4و13.
12- في ط: "ألوهية".
13- حزقيال37.

وإن أنكرتم وجود شيء من ذلك، نزلنا معكم إلى ما في الكتب القديمة من قصص الأنبياء وكتبهم، وهذا لازم لهؤلاء القوم لا ينفك عنه واحد منهم أبدا.

ثم من عجيب أمر هؤلاء القوم أنهم يزعمون أن عيسى عليه السلام أيد نفرا من الحواريين بإحياء الموتى، وجعلهم رسلا إلى الأجناس، فأحيوا الموتى بزعمهم[1]، فما الذي أوجب أن يكون المسيح في حال إلهيته[2]، قد أيد بذلك بشرا وجعله رسولا إلى الأجناس كما زعموا؟ وما الذي منع أن يكون الله عز وجل يؤيد بذلك بشرا ويجعله رسولا إلى الناس؟ فإن كان المسيح من أجل أنه أحيا ميتا هو الله، فكل من أحيا ميتا من الحواريين وغيرهم هو الله، ثم كل خارق للعادة يجعلونه دليلا على ألوهيته، فإنهم يعارضون بمثل ذلك في حق غيره من الأنبياء عليه السلام ويدعى ألوهيته، فلا يجدون فصلا بينهم وبين من يعارضهم.

وأما من استدل على ذلك بأنه خلق من غير أب، فيلزمه أن يعترف لآدم بالإلهية[3]، فإنه لم يخلق من نطفة أب، بل إنما خلق من تربة أرض، ثم نفخ فيه من روحه، كما فعل بعيسى عليه السلام[4]، خلقه من نفخة الملك فعلقت بلحمة مريم فنشأ منها وفيها، فتربه بمنزلة لحمه ونفخه بمثابة نفخه، وهذا مالا مخلص منه ولا خروج عنه، [ثم أكرمه][5] الله تعالى بأنواع من الكرامات لم يكرم بها غيره، منها: أنه أسجد له ملائكته وأعلمه بما لم يعلمهم، حتى جعله رسولا إليهم، وكفى بهذا شرفا إلى ما هنالك من خصائصه ومن فضائله.

بل لو أمكن لأحد أن يقول: إن بشرا يتصور أن يكون إلها لكونه من غير أب، لكان آدم أولى بذلك من حيث إنه لم تشتمل عليه أوضار الرحم، فقد شارك المسيح في كونه من غير أب، وزاد عليه أنه من غير أم، لم يتكون في ظلمة الرحم ولم يتلطخ بدم الطمث، ولا خرج من مجرى البول، هذا مع الاعتراف بأن ذلك كذلك، ولم يختلف في ذلك أحد، أعني: في أن آدم مكون مخلوق من غير أبوين.

وقد خالفتكم اليهود لعنهم الله، في كون إلهكم المسيح من غير أب، وأطلقت القول على مريم البتول المبرأة عند الله مما قالوا بما قد علمتم، فلعنهم الله وغضب عليهم فلقد كذبوا.

1- متى:10 .8.
2- في ط: "ألوهية".
3- في ط: "بالألوهية".
4- في ط: "عليه السلام ساقطة".
5- ما كتب بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

وإنما أسمعتكم هذا لتعلموا أنا نعرف ما قالت اليهود لعنهم الله في عيسى وأمه عليهما السلام، وأنا ننزههما عما قال فيهما المبغضون لهما، والمحبون القالون فيهما، فما أجمل بكم لو شاء الله توفيقكم، أن لو قلتم فيهما الحق الذي ينبغي لهما، أن الله جعل عيسى وأمه آية للناس هو عبدا ورسولا وأمه صديقة مباركة.

ثم نقول للمستدل بما تقدم، يلزمك على استدلالك أن تكون حواء أم البشر إلها، فإنها لم تخلق من أبوين، ولا من نطفة وإنما خلقها الله من ضلع من أضلاع آدم، لم تتكون في ظلمات الرحم ولا نشأت بين الأقذار والأوضار، وخلقها من ضلع آدم كخلقه من تراب ولا فرق، و﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1].

وأما استدلالهم بما في كتابنا من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾، فلا حجة لهم في ذلك لوجوه:

أحدها أنهم لا يصدقون بكتابنا فلا يستدلون به على شيء.

والثاني أنهم إن استدلوا على غرضهم بشطر هذه الآية، فإن صدرها يرد عليهم استدلالهم، وكذلك الآيات التي بعدها، قال الله تعالى في كتابه العزيز الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ مخاطبا لهم ورادا عليه: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [2].

1- سورة يس، آية 82.

2- سورة النساء، آية: 171-173.

[إلـزام آخـر يعمهـم][1]: نقـول لهـم حـين صـار أقنـوم العلـم لعيسـى كيفمـا صـار، هـل بقـى الرب تعالى كما كان قبل ذلك أو اختلفت حالـه؟ فـإن بقـي[2] كان كما كان قبل، فلم يصر لعيسى منـه شـيء، وأيضـا فلـو صـار إليـه بعـض أقانيمـه، لبقـى نـاقص الأقـانيم وتبطـل إلهيتـه[3]، فـإن حقيقتـه عنـدهم واحـد ثلاثـة أقانيم، وأمـا إن اختلفـت حالـه فيلـزم عليـه أن يتغير[4] من العلم إلى الجهل، ومن القـدم للحـدوث، وهـذا كلـه علـى اللّه[5] محـال ومرتكبـه في بحبوبة الضلال.

إلزام آخر: نقول لهم حين صار أقنوم العلم لعيسى، فهل بقى البـاري تعـالى عالمـا بـذلك الأقنوم أم بغيره، أو غير عالم؟ باطل أن يقال غير عالم لاستحالة الجهل عليه، وباطل أن يقـال بقي عالما بذلك الأقنـوم، إذ لـو كان ذلـك للـزم منـه ألا يصـير إلى عيسـى، ويلـزم منـه أيضـا أن يكون علم واحد يقوم بمحلين، ولو صح ذلك يصح أن يكون الواحد منا موصوفا بنصف علـم، وذلك محـال. فـإن العلـم الواحـد لا يتـبعض ولا ينقسـم، إذ العلـم الواحـد[6] إنمـا يعقـل في محـل واحد، بمعلـوم واحـد، في زمـان واحـد، فيمـا يقبـل الزمـان والتعـدد، وباطـل أيضـا أن يقـال أنـه يكون عالما بعلم آخر، فإنه يؤدي إلى حدث[7] الأقانيم بل إلى حدثه[8] وذلك كله محال.

إلزام آخر يظهر تناقضهم: وذلك أنه قد تقدم من مذهبهم أنهـم قـالوا في الأقـانيم أنهـا غير متباينة ولا مفترقة، ثم إنهـم قـد قـالوا هنـا إن أقنـوم الابـن اتحـد بناسـوت المسيح دون أقنـوم الآب وروح القـدس، فمفهـوم هـذا أن الابـن اتحـد بناسـوته، ويبقـى الجـوهر[9] وروح القدس لم يتحدا به. هذا[10] تصريح بالمباينة والمفارقة فإن بعض هذه الثلاثة وجب له أمـر دون صاحبيه، فلو لم يباينهما ولم يكن غيرهما، لما وجب لـه مـن الحكـم مـا لم يجـب لهمـا، ولا تناقض أظهر من هذا، وقد كنا أظهرنا اضطرابهم في هذا في باب الأقانيم.

1- ما كتب بين المعقوفتين ساقط من ط، وعوض بـ: "ونورد بعد ذلك إلزامات لهم: إلزام لهم:".
2- في ط: "ساقطة".
3- في ط: "ألوهيته".
4- في ط: "يصير".
5- في ط: "على اللّه تعالى".
6- في ط: "للواحد".
7- في ط: "حدوث".
8- في ط: "حدوثه".
9- في ط: "جوهر الآب".
10- في ط: "وهذا".

ثم نقول تحقيقا لإلزام الجميع: هذه الأقانيم إما أن تكون مباينة للجوهر مفارقة، أو لا تكون كذلك.

فإن كانت مباينة، لزم أن تكون زائدة عليه، وإن كانت زائدة عليه، لزم أن يكون الإله متركبا من أمور كما مر وقد أبيتم ذلك، وهذا[1] محال، ويلزمكم أيضا إخراجها عن كونها أقانيم، ويلزمكم رفع التوحيد إلى محالات كثيرة عندكم. وإن كانت غير مباينة لم يصح إتحاد بعضها دون بعض، بل لو اتحد بعضها لاتحد جميعها، فيلزم على هذا اتحاد العلم والقدرة والإرادة والوجود وهذا بين لا خفاء به.

إلزام آخر وطلبه: نقول لهم لأي شيء قلتم أن الذي اتحد بناسوت المسيح إنما هو الإبن فقط؟ ولأي شيء لم تقولوا أنه اتحد به الآب وروح القدس؟ ولو قلتم ذلك لكان أجرى على ما أصلتم من أن الأقانيم لا متباينة ولا مفترقة.

فإن قالوا: إنما قلنا باتحاد الابن، لأن عيسى إنما أرسله الله ليعلم الناس شريعتهم، ويخبرهم بالمغيبات عنهم ويعظهم، وذلك كله إنما يصح بالعلم.

فنقول لهم: هذا الذي ذكرتم مسلم لكم جدلا، لكن لم قلتم أنه إنما اتخذه الله لهذا فقط؟ وإنما هو اتخذه لهذا ولأمور أخر، منها: ليعبده، ومنها: ليبرئ مرضى كانوا قد أعيوا الأطباء، وأراد الله تعالى شفاءهم على يديه، ومنها: أنه أراد إحياء موتى على يديه. فيحصل[2] من هذا أمران أحدهما: أن هذه معجزات تدل على صدقه، والثاني: أن من أبرأه أفاق من مرضه وجذامه وجنونه وبرصه فانتفع بذلك، وكذلك يحصل للميت الذي حيي، وزائدا على ذلك أن الميت آمن به فأدخله الله الجنة بإيمانه برسوله. وهذه الأمور كلها لا يمكن إنكار أن يكون كل واحد منها مقصودا لله تعالى، وإذا أمكن أن يكون كل واحد من هذه الأمور مقصودا، فلم اقتصرتم على مقصود واحد من هذه الأمور مع إمكان هذه المقاصد؟ وإذا تقرر ذلك حصل منه أن الله تعالى اتخذه لما لا يصح إلا بالعلم والقدرة والإرادة والحياة، فقولوا إن هذه الأقانيم اتحدت به وهذا لازم لا محيص عنه ولا جواب عليه، ثم يلزم على هذا أن يكون كل نبي أرسله الله تعالى يتحد به العلم، فإن هذا الذي استدللتم به في حق عيسى موجود في حق غيره من الرسل، إذ كل واحد منهم إنما أرسل معرفا بشرع الله، ومبلغا رسالة الله، ومخبرا بوعد الله ووعيده. فيلزم على هذا أن يتحد العلم بكل رسول.

1- في ط: "وهو".
2- في ط: "فتحصل".

إلزام آخر: قد تقرر أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طائرا، فإذا قلنا هذا فإما أن يكون عيسى هو الذي يفعل ذلك أو غيره، فإن كان غيره، فليس ذلك إلا الله تعالى، وغاية عيسى أن يكون عبدا يرغب لله تعالى في قضاء حاجته، ثم إن الله تعالى يفعل ما يشاء عند تحديه بالنبوة تصديقا له في دعواه، وعيسى ينظر إلى ذلك ويتعجب عند ذلك من فعل الله ولطيف صنعه، وهكذا كان حال موسى عندما أيده الله بالعصا فقل له: ﴿ أَلْقِهَا ﴾، ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾، فلما رآها على حال لم يعرفه منها هاله ذلك، وولى مدبرا خائفا، وذلك لما شاهد من قدرة الله[1] فلما فرغ قال الله[2] له: ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [3].

وإذا قلنا إن عيسى هو الذي يفعل ذلك، فإما أن يفعله بقدرة وعلم وإرادة، أو لا يحتاج إلى شيء من ذلك، باطل أن يقال أنه لا يحتاج إلى شيء من ذلك، لأن الفعل الاختياري لا بد له من هذه الأمور بالضرورة على ما يعرف في موضعه، فلم يبق إلا أن يفعل ذلك بقدرة وعلم وإرادة، وهذه الصفات هي شروط الفعل، ولا بد وأن تكون منسوبة له ويكون هو موصوفا بها[4]، فإن لم يكن هو موصوفا بها ولا تنسب إليه، فلا ينسب الفعل إليه، وقد نسبتم الفعل إليه فدل ذلك على أنه موصوف بها، وتنسب إليه كلها، وإذا ثبت ذلك فليس من يسلب عنه القدرة والإرادة، ويقول هما صفتان لله[5] وليستا بصفتين لعيسى بأسوأ[6] حالا ممن يسلب عنه العلم، ويقول هو علم الله تعالى وليس علم عيسى، مع أنه صفة عيسى، فيلزم عن هذا البحث أن هذا الفعل المنسوب إلى عيسى موجود عن علم وقدرة وإرادة، وأن هذه الثلاثة إنما تنسب لواحد، فإما لله وإما لعيسى، ولا يجوز عقلا أن ينسب[7] بعضها لله وبعضها لعيسى، فإن هذه الثلاثة مشروط بعضها ببعض، فالمحل أو الجوهر الذي يجب لأحد هذه يجب للباقي وهذا مالا خفاء به عند العاقل الموفق.

1- في ط: "الله تعالى".
2- في ط: "الله تعالى".
3- سورة طه، آية: 21.
4- في ط: وردت هذه العبارة: "أو لا تكون منسوبة إليه ولا يكون هو موصوفا بها"، بعد قوله: "موصوفا بها".
5- في ط: "تعالى".
6- في ط: "فتبرؤوا".
7- في ط: "تنسب".

إلـزام آخـر: قـد تقـرر عنـد هـؤلاء القـوم أن علـم الله اتحـد بعيسـى، ولا خـلاف بـين جمهورهم في هذا المعنى وإن اختلفت عباراتهم عنـه، فعيسى عـالم والله تعـالى عـالم بعلـم واحد، فقد اتحد أقنوم العلم وتعدد المحل. فإذا ثبت ذلك، لزم عليه أن يكون عيسى عالما بكـل معلومـات الله[1]، ويكـون الله تعـالى عالما بكل معلومـات عيسى، فإنهمـا عالمـان بعلـم واحد. فإذا علم الله أنه نفسه[2] خالق المخلوقات، ينبغـي لعيسى أن يعلم أنـه نفسه[3] خالق المخلوقات كذلك، لأن علمهما واحد. وكذلك إذا علم الله أنه نفسه[4] قديما، باقيا موصوفا بصفات الكمال، ينبغي لعيسى أن يعلم أنه نفسه[5] كذلك. وإذا علـم عيسى نفسه متغوطا بائلا، ومصفوعا ومتوجا بالشوك، ومصلوبا في خشبة ومسمرة يداه ورجلاه فيها، فينبغي لله تعالى أن يعلم نفسه كذلك، تعالى الله عـن ذلـك علوا كبيرا. وهـذا كله لازم علـى هـذا المذهب السخيف الفاسد الضعيف.

إلزام آخر: اتفق النصارى القائلون بالاتحاد علـى أن عيسى لا هـوت وناسـوت، فيما[6] هو لاهوت يحيى الموتى، ويبرئ المرضى وغير ذلك، وبما هو ناسوت يجوع ويعطش، ويبـول ويتغوط، ويفـرح ويـألم، ويحـزن ويلتـذ. ثـم إنهـم[7] يعبـدون ناسـوته ويجعلونـه إلهـا، فهـم بـين أمرين: إما أن يقولوا إن جسده المتغوط البائل إله، أو هو شـطر إلـه، فإن قالوا: إن جسده إله، فكفى شناعة فهجانة[8] إله بائل متغوط مصلوب. وإن قـالوا: إنـه إلـه بمـا حـل فيـه مـن الإله، فكان ينبغي لهم أن يقولوا إنه نصف إلـه، ولا يعبـدون جسمه ولا يسـجدون لجسده، وإذا قالوا بإلهنا[9] المسيح، قالوا مكان: يا إلهنا، يا نصف إلهنـا، أو يـا ثلث إلهنا، فإنه اتحـد به أحد الأقانيم الثلاثة، والواحد من الثلاثة ثلث. وهذا كله جهالات وتواقحات منهم.

إلـزام آخـر: وذلـك أنهـم اتفقـوا علـى أن عيسـى[10] صـلب، وقتـل بـالنحر[11]، ورفـع فـوق

1- في ط: "تعالى".
2- في ط: "أنه هو نفسه".
3- في ط: "أنه هو نفسه".
4- في ط: "أنه هو نفسه".
5- في ط: "أنه هو نفسه".
6- في ط: "فبما".
7- في ط: "ثم يعبدون".
8- في ط: "وهجانة".
9- في ط: "إلهنا".
10- في ط: "المسيح".
11- في ط: "بالنخز".

الخشبة[1] بعد أن أهين، وصفع ووضع على رأسه الشوك، وسمرت يداه ورجلاه في الخشبة، وقد جاء كل هذا في إنجيلهم كما زعموا. فنقول لهم: الوقت[2] الذي أهين وصفع ورفع على الخشبة، وسمرت يداه ونحر[3]، هل كان متحدا به اللاهوت أو زال عنه؟ فإن كان متحدا به اللاهوت في تلك المواطن، فلقد أدرك لا هوته من المذلة والإهانة والنخز والموت ما أدرك ناسوته، لا سيما وقد التزمتم فيما تقدم أن أقنوم العلم حي، فيلزمكم على هذا أن تعبدوا إلها ذليلا مهانا، ينخز ويموت وكفى بهذا خزيا وفضيحة. وإن قلتم إنه فارقه، فإذا جاز أن يفارقه في [موطن جاز أن يفارقه في][4] كل موطن، وهذا مما يأبونه، ويلزم عليه إن فارقه، أن يكون جاهلا وألا يكون إلها فتعبدون ما ليس بإله.

وقد خرجنا مع هؤلاء الجهال بخالقهم المستهزئين بأديانهم إلى حد الإكثار، وفارقنا شرط الاختصار، وإنما[5] أطنبنا في هذا الفصل، وإن كان لا متمسك لصاحبه، ولا أصل لكونهم متفقين عليه ومحتجين به ومتحومين نحوه.

ولا يظن الظان أن هذا المذهب الذي ارتكبه هؤلاء القوم في الأقانيم والاتحاد، يحتاج[6] في إبطاله إلى نظر واجتهاد، بل العقول بأوائلها تشهد بفساده، كما أن الحس يدرك بياض الجسم من سواده، وهؤلاء معاندون وللضروريات جاحدون. ومن كان حاله كذلك، إنما يتكلم معه بضرب الأمثلة بأبين المدارك، وتعديد[7] الالتزامات، وتكثير المسالك، ليتبين الإفحام ويلقى يد الاستسلام. وقد قدمنا العذر عن ذلك كله في أول الكتاب، وإلى الله أرغب في الهداية للصواب وحسن المنقلب إليه والمآب.

1- في ط: "خشبة".
2- في ط: "الوقت".
3- في ط: "ونخز".
4- ما كتب بين المعقوفتين ساقط من ط.
5- في ط: "وقد".
6- في ط: "محتاج".
7- في ط: "تعديل".

الفصل السادس

في حكاية مذهب أغشتين إذ هو زعيم القسيسين

نذكر في هذا الفصل إن شاء الله تعالى[1]، كلام هذا المذكور الواقع له في مصحف العالم الكائن، ونحكي ألفاظه من غير زيادة ولا نقصان، إلا أني اختصر من كلامه مالا تدعو ضرورة سياق الكلام إليه، من غير إخلال بلفظه ولا تقصير في معناه، وربما قدمت وأخرت. وإنما خصصته بالكلام معه في فصل مفرد لغرضين.

أحدهما: أن هذا السائل على مذهبه عول، وإياه قلد، ومن كتابه نقل، إلا أنه مع ذلك أخل بمفهوم كلامه، وخالفه في سياقه ونظامه، فربما ترك مذهبه بسوء نظره، وهو يظن أنه يمشي على أثره. وسيتبين ذلك.

والثاني: أن النصارى معولون على معرفته، ومقلدون له في قومته وقعدته، على أنه أعرف بمسالك النظر، وأجرأهم على مناهج العبر، لكن نعوذ بالله من عين عوراء وفطنة بتراء.

قال أغشتين: قد أجمعت الملل الثلاث[2] على أن الله تعالى قد كلم موسى تكليما، واجتمعت على أن موسى سمع صوتا يقول له: أنا ربك. فأخبرونا أتؤمنون بأن الصوت الذي سمعه موسى هو ذات الرب، وأن الرب في ذاته مسموع، أم تقولون: إن الرب أسمع موسى صوتا على ما شاء[3] من رفع وخفض، وغلظة ورقة، وأنه ابتدأ الصوت متى شاء، وقطعه متى شاء، وأنهى إلى موسى من إرادته ما شاء؟

1- في ط: "إن شاء الله تعالى في هذا الفصل".

2- في ط: "اجمعت الملة"، قول أغشتين هذا "اجمعت الملل الثلاث"، يدل على أنه غير القديس أغسطين (354-430)م كما ذهب إلى ذلك حجازي السقا في تحقيقه للكتاب، لأن القديس أغسطين عاش قبل الإسلام ولا يجوز أن يذكر الإسلام، اللهم إن كان يقصد ملة غير ملة الإسلام كالديانة المانوية التي كانت منتشرة على عهده، بل هو نفسه كان مانويا قبل أن يتحول إلى المسيحية. ولقد أكد لي أنه غير القديس أغسطين الدكتور فان كونينزفلد في لقاء لي معه أثناء زيارته لمؤسسة دار الحديث الحسنية أيام 2010/11/30-2010/12/10، مستدلا على رأيه بكون القديس أغسطين لا توجد من بين مؤلفاته ما يذكره القرطبي هنا مثل "مصحف العالم الكائن"، ونرجو في الطبعة القادمة أن نحقق من يكون أغشتين هذا الذي يذكره القرطبي.

3- في ط: "يشاء".

فإن قالوا: إن الصوت نفسه هو الرب، وأن الرب مدرَك بالسمع، فقد خرجوا عن مذهبهم في نفي التشبيه. وإن قالوا إن الصوت من فعل الله، وأن الله خلق الصوت على ما وافقه، وأظهر فيه من إرادته ما شاء، وأن الصوت قد كان له مبتدأ ومنتهى، وأن الله الخالق له لا مبتدأ له ولا منتهى. قيل لهم: فقد ثبت أن الصوت الذي سمعه موسى[1] كان مخلوقا، فكيف جاز لموسى أن يقول سمعت الله؟ فإن قالوا مقام الصوت من الله، مقام صوت الإنسان من الإنسان، وأنا نسمع صوت إنسان فنقول: سمعنا فلانا. وكذلك وجب على موسى لما سمع صوت الله[2]، أن يقول سمعت الله. قيل لهم فقد أقررتم أن الصوت من فعل الله، كما أن صوت الإنسان من فعل الإنسان، ولستم تقدرون أن تقولوا إذا سمعتم صوت رجل: سمعنا [ذات المريد لذلك][3] الصوت الذي ابتداه وخاطب به، ولكنكم تقولون سمعنا صوت فلان، وسمعنا فلانا إذ سمعتم فعله[4]، وكذلك من سمع صوت الله، وجب أن يقول: سمعنا الله. لإن الله خلق الصوت، وجعله حجابا لإرادته التي أظهرها فيه، فقد ثبت أن الناس لا يسمعون الرب، إلا بصوت مخلوق على ما يشبهه تعارفهم، يكون حجابا فيما بينهم وبينه[5].

والواجب عليهم أن يخاطبوا الصوت باسم الذي الصوت له، كما أن الصوت[6] إنما خاطبهم عن الله. ومثل ذلك يلزمهم في كل ما يشبه التحديد مما وقع في كتب الملل الثلاثة من التشبيه بالعالم، ووصف نفسه بالعين والوجه والفم، ولا يمكن جحده، فقد رضي أن ينسب إلى نفسه مثل كلامهم، وأن يخاطبهم في مثل لغتهم، فقد ثبت أنه أتخذ التشبيه حجابا بينه وبين خلقه.

ثم قال بعد ذلك كلاما معناه: كما جاز أن يتخذ صوتا، ويجعله حجابا لإرادته حتى أظهرها فيه، كذلك يجوز أن يكون قادرا على اتخاذ أي صورة شاء، وأن يظهر لعباده في أي حلية وافقه[7]، وتلك الصورة ملك له يبدلها كيف شاء، لأنا إن قلنا إنه لا يقدر أن يسمع عباده صوتا، ولا أن يظهر لهم بصورة، فقد أزلنا عنه القدرة على كل شيء.

1- كلمة "موسى" ساقطة في ط.
2- اسم الجلالة "الله" ساقطة في خ/م.
3- في ط: "صوت المريد كذلك".
4- في ط: "صوته".
5- في ط: "بينه وبينهم".
6- في خ/م: "السوط"، وهو تصحيف.
7- في ط: "وافقته".

ثم قال بعد ذلك: فعلمنا أن الحجاب مخلوق، وعلمنا أن الله خالق كل شيء، ووجب علينا إنزاله من الإكرام، بحيث أنزله الله المحتجب به. لأنا[1] متى لم ننزل كل شيء على ما أنزله عليه، فقد عصينا. لأنا لا نجد بدا من أن نكرم الملائكة، مالا نكرم الشياطين، ونكرم الصالحين مالا نكرم الفجار. وهكذا، فلا بد أن يكون شيء أعز من شيء، وشيء أقرب إلى الله من شيء، حتى يكاد شيء في العز أن يتصل بخالقه، ويكون أعز الأشياء. ويكاد شيء أيضا أن يكون في الهوان، بحيث لا يكون شيء تحته.

والواجب على العارف بالله، أن ينزل كل شيء بحيث أنزله الله، ويسميه بما سماه الله، فإن أقر بأن الله خاطب بصوت مسموع، أو ظهر في صورة مرئية، فقد أقر بأن الله خص ذلك الصوت وتلك الصورة، بما لم يخص به شيئا من المخلوقات، وأن الواجب على من سمع ذلك الصوت، أن يقول سمعت صوت الله، ومن رأى تلك الصورة، أن[2] يقول رأيت صورة الله، ولهذا وجب على موسى إذ سمع صوت القائل: أنا ربك، أن يجاويه باسم رب[3]، ويقول بأنه ربه، ووجب على آدم إذ قال: يا آدم، أن يستجيب فيقول: ما ترى[4] يا رب. وكذلك في مخاطبته لجميع الأنبياء، لأن الصوت لم يقل: أنا صوت الله، وأنا أخاطب عن الله، وإنما الله خاطب به فقال: أنا الله. فالواجب أن نخاطب بمثل ما خاطب به.

ومثل ذلك يجب في الصورة، ومن ظهر له الله في صورته، كما ظهر لإشعياء ولدانيال[5]، فقد وجب عليه أن يسجد للصورة، وأن يخاطبها باسم الله، لأن علمه بأن الله خص تلك الصورة بالاتحاد[6] لها، والاحتجاب بها، ضام له إلى عبادته فيها، لأنه قد رضي أن يرى فيها ويعبد بها.

وقد علمنا أن الله خلق[7] الصوت الذي أسمعه لموسى، كما علمنا أن الله خلق جميع الأصوات، ولكن وجب علينا الإقرار لذلك الصوت بالربوبية، ما لم يجب لغيره، لعلمنا أن

1- في ط: "لأنه".
2- كلمة "أن" ساقطة في ط.
3- في ط: "الرب".
4- في ط: "هأنذا".
5- في خ/م: "ولدايقال" وهو خطأ.
6- في ط: "بالاتخاذ".
7- في ط: "خالق".

الله ولى المخاطبة بذلك، وكذلك يجب في الصورة أن يخصها[1] من الإكرام، بما خصها الله به.

ومن قال لا يجب أن يخاطب الصورة باسم الله، ولا أن يجاوب الصوت باسم الله، فقد قال: إنه لا يجوز أن يتخذ الله صورة، ولا أن يسمع صوتا، وإذا وجب إكرام الحجاب، بإكرام المحتجب به، فلم[2] يبق علينا من الكلام شيء إلا في الحجاب الذي اتخذه منا، وهو المسيح، والاستشهاد بالتوراة والإنجيل في أمره، إلا أنا نقدم القول في ذلك بالقياس، لئلا نستشهد بالكتاب إلا فيما كان داخلا تحت الإمكان.

ثم قال: هذا وإن لم يوجبه القياس إيجاب الاضطرار، فإنه يجوزه تجويز الإمكان، لأن القياس الذي فضل به الإنسان على جميع خلقه، وخاطبهم بمثل لغتهم وتشبه بهم في مخاطبتهم، وخلق كل شيء لهم ومن أجلهم، وأوجب لهم البقاء معه في رضوانه، وألا يكون دونهم أبدا، وأنه ظهر لهم بحجاب مخلوق، فتشبه لهم بنعت محدد، فغير ممتنع فيه، ولا بعيد أن يكون حجابه فيما بينه وبينهم منهم[3] ومما يشبههم، ونزوله إلى مخاطبتهم في مثل لغتهم، هو[4] نزوله إلى الظهور لهم في مثل صورتهم، لأن اتخاذ الصورة مثل اتخاذ الصوت.

ثم قال: شواهده الواضحة كثيرة، من ذلك قول يرميا[5] النبي حيث يقول مناجيا الله: "يا رجاء إسرائيل ويا[6] مخلصه من الغم، لم ستكون في المستقبل كالغريب في الأرض، أو كالمسافر يعدل إلى المبيت؟ لم ستكون في المستقبل كرجل صالح لا يقوى أن يخلص"[7]. وقول إشعياء النبي حيث يقول: "إن العذراء ستحمل وتلد ولدا، ويدعى ولدها عجيبا مدبرا إلها قويا، والدا مقبل الدهر العالم يكثر ملكه ولا يكون لسلطانه انقطاعا ولا آخر"[8]، وقوله أيضا: "من ذا يقبل خبرنا؟ أمن ذا ظهر له ذراع الرب؟ ثم وصف أنه ظهر

1- في ط: "يحصها".
2- في ط: "لم".
3- في ط: "بينه ويلغهم منه".
4- في ط: "وهو".
5- في ط: "إرمياء".
6- في ط: "يا مخلصه".
7- إرميا14: 8-9.
8- إشعيا7: 14.

ضعيفا محتقرا وأنه هدى بنفسه إلى القتل طوعا ووصف خبره[1] المسيح ظاهرا كما كان"[2]، وقول يعقوب[3] لبنيه حيث يقول: "لا ينقضي الملك من سبط يهوذا، ولا يزال منهم أمير حتى يأتي الذي هو مرسل، وهو يكون رجاء الأجناس"[4]. وكذلك[5]: لا ينقطع الملك منهم حتى يأتي المسيح.

هذا ملخص كلامه وزبدته في عدة أبواب من كتابه المتقدم الذكر، من غير أن أخرج عن لفظه إلا ألفاظا يسيرة يتصل بها الكلام ولا تغير المعنى.

وها نحن بعون الله نجاوبه محاورة[6] على طريق البحث والمناظرة.

وأما قوله: "اجتمعت الثلاث ملل على أن موسى سمع صوتا يقول: أنا ربك"، فهذا قول كذب، ينبئ عن غفلة أو جهل؛ وذلك أن الذي اتفقت الملل عليه، إنما هو أن الله كلم موسى، وأن الله تعالى متكلم، وأما أنه متكلم بصوت، أو سمع موسى صوتا من الله، فهذا شيء اختلفت فيه الملل وتباينت فيه النحل، وأكثر أهل الملة الحنيفية يأبى ذلك، ويخطئ من صار إلى ذلك، أعني من صار إلى أن يكون الباري تعالى متكلما بصوت، وأن موسى عليه السلام لم يكلمه الله بصوت، وإنما كلمه بكلامه الذي هو وصفه الذي ليس بصوت ولا حرف على ما تقرر بيانه فيما تقدم. فهذا الرجل الحاكي هذا القول، إما أن يكون علم اختلاف الملل فيما ذكر فيه إجماعها، أو لم يعلم. فإن كان علم، فقد كذب وإذا عرف من أحد من الناس الكذب فينبغي ألا يلتفت إليه ولا يعول عليه.

فينبغي لكم ألا تعولوا على شيء من نقله، لإمكان أن يكون كذب فيه كما كذب في هذا. وإن كان ذلك القول منه عن جهل فهذا كثير في حقه من جهتين:

أحدهما: أنه أقدم على الإخبار عما لم يتحقق من غير بصيرة، وليس هذا فعل العلماء ولا الأكياس الفضلاء[7]، وكفى بالمرء كذبا وإثما أن يحدث بما لم يعلم صحته.

1- في ط: "خبر".
2- إشعيا53: 1-12.
3- في ط: "يعقول".
4- تكوين49: 10.
5- في ط: "وتترجم كذلك باختصار".
6- في ط: "مجاوزة".
7- في ط: "ولا الأكياس من الفضلاء".

والجهة الثانية: أنه جهل أمرا معلوما على القطع، صار إليه وعمل على مقتضاه أمم لا يحصون كثرة منذ مضى السنين، ولا يحمل من[1] تعاطى نصرة المذهب[2] والكلام مع أربابها أن يجهل مثل هذا، وإذا جهل هذا، فهو بما هو أخفى من هذا أجهل، فهو بين أمرين: إما أن يكذب متعمدا، فلا يثقون بقوله. أو يجهل أمرا جليا يدرك بأدنى بحث وأيسر أمر، فلا ينبغي لكم أن تقلدوه في نظره وعمله[3].

وإنما ذكرت هذا، لتعلموا أن عمدة النصارى على هذا الرجل في مذاهبهم، بقوله يحكون، وبه يحتجون، وله يقلدون، وعليه يعولون. فهو وهم، كرجل أعمى ادعى أنه بصير، فاستقاده عمى، فقاد بهم[4] فسقط في حفرة فسقطوا لسقوطه. وأشد الناس[5] عذابا يوم القيامة، رجل قتل نبيا أو قتله نبي، وإمام ضلالة. وإنما كان كذلك لأن عليه وزرها ووزر من عمل بها، فطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه.

وأما قوله: "فإن قالوا إن الصوت نفسه هو الرب، وأن الرب مدرك بالسمع، فقد خرجوا عن مذهبهم في نفي التشبيه". فهذا نص من كلام هذا الرجل، أن الصدى ليس بالرب.

وقد قال السائل الذي جاويناه قبل هذا إنه أقر له بالربوبية، وظاهر قوله مناقض لقول إمامه. ثم نقول لهما: قد اتفقتما على أن الصوت مخلوق، وأن الله تعالى ليس بمخلوق، فهذا الصوت المخلوق، إما أن يكون ربا غير الله، أو ليس برب[6]. فإن كان ربا غير الله، فيلزمكم أن تعبدوه بعبادة خاصة غير عبادة الله، بل هو أولى بالعبادة من ناسوت المسيح إذ يتغوط، ويبول، ويصلب على قولكم إلى غير ذلك مما عددناه. وذلك الصوت[7] لا يليق به شيء من ذلك. وذلك كله جهل، وقد ألزمناهم على ذلك مناقضات لا محيص عنها فيما تقدم. وإن كان هذا الصدى ليس برب، فيلزمكم على قولكم، أن يكون موسى خاطب بالربوبية من ليس برب، وذلك لا يليق به. وهذا على قوله أن المخاطب هو الصدى

1- في ط: "محمل بمن".
2- في ط: "المذاهب".
3- في ط: "عمله ونظره".
4- في ط: "فقادهم".
5- في ط: "وأشد عذابا".
6- في ط: "رب".
7- في ط: "وذلك أن الصوت".

لازم ضرورة. ثم ما أعجب أمر هؤلاء القوم، ينفون تشبيه الله تعالى بخلقه، ويجعلون بقيه[1] قاعدة يرجعون إليها بزعمهم، ثم يلتزمون من التشبيه في حق الله تعالى، ما لم يقل به من المشبهة أحد؛ وذلك أنهم قالوا: إن الله تعالى متكلم بصوت هو من قبيل أصواتنا، وهو مخلوق مقطع بالحروف، وهو مع ذلك يخاطب[2] بالربوبية، وهذا هو التشبيه الذي فروا منه وزيادة عليه.

ولقد أوغل في التشبيه كبيرهم أغشتين، وإن كان عن أصل التشبيه من المعرضين، وذلك أنه جوز عقله بزعمه، أن يتخذ الباري صورة بجلها[3]، ويظهر فيها، ويسجد لها، ومن رأى تلك الصورة يقول[4] رأيت صورة الله، فإنه قد رأى الله. ولا تشبيه أعظم منها، بل المشبهة أحسن حالا منه، وذلك أنهم -أعنى المشبهة- بنوا أمرهم على ظواهر الشرائع، فأثبتوا ما أثبتت الشرائع، وما قالت الأنبياء، وما جاء في كتب الله مصدقين لها غير منحرفين عن ظواهرها، ثم عزلوا عقولهم فلم ينظروا بها، فبقوا على جمود التقليد، وثبتوا على صميم الاعتقاد والتوحيد، ومع ذلك فإنهم يعظمون الله، ويقولون بأن لا إله إلا الله.

ومما صرح فيه بالتزام التشبيه قوله: صوت الله من فعل الله، كما أن صوت الإنسان من فعل الإنسان، ولا معنى للتشبيه الذي نفى إلا هذا، فهذا تناقض ظاهر، فإنه تارة نفى التشبيه، وتارة أثبته. ثم قوله يصرح بأن حقيقة المتكلم من فعل الكلام، وهو خطأ. بل حقيقة المتكلم من قام به الكلام، والدليل على ذلك، أن حقيقة المتكلم تفهم بكمالها، مع فرض الغفلة والذهول عن كونه فاعلا للكلام، ولو كانت حقيقة المتكلم من فعل الكلام، لما فهمت حقيقة المتكلم حتى يفهم كونه فاعلا للكلام، على ما يعرف في موضعه. ولو كانت حقيقة المتكلم من فعل الكلام، لكان الباري تعالى متكلما بالكلام الذي يقوم بنا، فإنه فاعل كلامنا وخالقه على ما يعرف في موضعه وذلك محال.

ولتعلم أيها الناظر في هذا الكتاب، أن كل ما ذكره هذا القس في هذا الفصل، إنما هو مبنى على أنه تعالى متكلم بحرف وصوت، وقد أبطلنا ذلك فيما تقدم، حيث قلنا كلام

1- في ط: "نفسه".
2- في ط: "مخاطب".
3- في ط: "يجهلها".
4- في ط: "ويقول".

الباري تبارك وتعالى ليس بصوت ولا حرف، وإنما هو وصف له قائم به، ليس بحرف ولا صوت كما نبهنا عليه.

وإذا بطل[1] ذلك بطل كل ما انتحله في هذا الفصل من الهذيان. وإنما كلامنا معه بعد ذلك على طريقة المناظرة الجارية بيننا، وذلك أن أرباب النظر، ربما يسلمون ما هو معلوم الفساد، ليتبين تناقض الخصم وتحكمه للعباد، وكذلك نفعل نحن بهذا الرجل بحول الله فنقول له:

لأي شيء قلت إن الله اتخذ الصوت حجابا لإظهار إرادته، ولبست بلفظ الحجاب؟ ولو قلت إن الله جعل الصوت دليلا على ما أراد، لارتفع التلبس[2] ولزال الأوهام[3] الذي أوهمت، فإنك أوهمت بلفظ الحجاب أن الإرادة احتجبت به، واتحدت معه، حتى ظهرت بواسطته، فجعجعت بلفظ[4] الحجاب والظهور وأوهمت، وأنت ما حصلت على فائدة ولا وجدت.

ومما يتبين أن هذا الذي ذكره إنما هو جعجعة لفظية ليس وراءها معنى، أنا نبدل[5] لفظ الحجاب بالدليل، ولا يبقى[6] مما توهمه شيء، فإننا يمكننا أن نقول: إن الصوت الذي خلقه الله تعالى، وجعله دليلا على إرادته على قوله، إنما هو بمثابة أن لو خلق خطوطا في حجر، يستدل بها المستدل على إرادته إذا قرأها، فلا يتمكن لعاقل أن يقول: إن الإرادة انحجبت بخطوط ذلك الحجر ولا اتحدت به، فإن الإرادة لا تقوم بجماد وهذا بين بنفسه.

وكذلك لو كتبنا لفظ النار في ورقة، لما تخيل عاقل، بل غافل، أن ذات النار حلت في الورقة، إذ لو حلت النار في الورقة لاحترقت، وكذلك الصوت المقطع حروفا، إنما هو دليل على ما في النفس من غير أن يحل ما في النفس ولا أن يتحد به، وإذا فهم هذا ارتفع كل ما توهمه هذا المخدوع بالضرورة.

ثم نقول له: نسلم جدلا ما ذكرته من لفظ الحجاب والظهور، لكن لم قلت أنه إذا صح أن تظهر إرادته بحجاب الصوت، جاز أن تظهر ذاته بحجاب الصورة؟ وما الدليل على ذلك وأي جامع بينهما؟

1- في ط: "بكل".
2- في ط: "التلبيس".
3- في ط: "الإبهام".
4- في ط: "فجعجعت أنت بلفظ".
5- في ط: "نبطل".
6- في ط: "نبقى".

فإن قال: الدليل على ذلك أن الله تعالى قادر على ذلك، كما هو قادر على حجاب صوته، فإنه إن لم يكن قادرا على إظهار ذاته بصورة، فيكون عاجزا. والعجز عليه محال، فهذا هو الدليل. وأما الجامع فإن الصوت مظهر للإرادة والصورة مظهرة للذات.

فيقال له: أما استدلالك بأن الله قادر على كل شيء، فاستدلال فاسد. فإن الأشياء التي يقدر الباري تعالى عليها إنما هي الممكنات لا المستحيلات، وهذا الذي ذكرت من ظهور الله في صورة مستحيل، لا يكون مقدورا[1]، فإن المستحيل لا يوصف الباري تعالى بالقدرة عليه ولا بالعجز عنه، لاستحالة شرط تعلق القدرة. وهذا إنما يعرفه من يعرف حقيقة[2] الواجب والممكن والمستحيل.

ثم إنا نقلب عليهم دليلهم، ونقول: هل يقدر الله تعالى أن يظهر نفسه من غير صورة أم لا؟ فإن قالوا يقدر، قلنا لهم فلا[3] يحتاج إلى الصورة التي فرضتم، وإن قالوا لا يقدر، قلنا لهم فيلزمه العجز. وبالذي ينفصلون عن هذا به بعينه ننفصل نحن عما ألزمونا.

وقد بينا فيما تقدم أن اتخاذ الباري سبحانه[4] صورة ليظهر فيها مستحيل، حيث أبطلنا الحلول والاتحاد وما في معناه.

ونزيد الآن هنا نكته وهي: إنا نقول هذه الصورة التي يظهر فيها، لابد أن تكون متحيزة محدودة، والظاهر فيها إما أن يكون داخلا فيها أو خارجا عنها[5]، أولا خارجا ولا داخلا. فإن كان داخلا فيها، كان محدودا محاطا به وهذا هو التشبيه.

فإنه يلزم منه أن يكون جسما وهو باطل على الله تعالى ومحال، وإن كان خارجا عنها، لزم تحديده أيضا، لأنه لا يكون خارج محدود متحيز إلا محدود متحيز[6]، فيلزم أن يكون بجهة من الصورة ،وإذا كان بجهة كان جسما وهذا تشبيه.

وأيضا فإذا كان بجهة من الصورة التي ظهر فيها، كان مفارقا لها. وإذا كان مفارقا لها، لم يظهر فيها. وإن ظهر فإنما يظهر بنفسه لا بالصورة، وإذا كان لا داخلا فيها، ولا

1- في ط: "لا يكون به مقدورا".
2- في ط: "حقيقة حقيقة الواجب".
3- في ط: "لا".
4- في ط: "سبحانه وتعالى".
5- في ط: "منها".
6- في ط: "لا يكون خارج لا محدود متحيز".

خارجا عنها، استحال عليه أن يظهر بها أو فيها، لأن ما ليس بمتحيز، ولا داخل ولا خارج، لا يظهر في جسم متحيز، لأنه من حيث كان ليس بداخل فيها، فقد فارقها وإذا فارقها لم يكن فيها، وإذا لم يكن فيها لم يظهر فيها.

ولو جاز أن يظهر في كل ما ليس بداخل فيه، ولا خارج عنه، لجاز أن يظهر في كل موجود، وإذا جاز ذلك، فلعله قد اتخذ الأنبياء كلهم حجابا يظهر فيهم، وهذا مما يأبونه وهو محال عندهم.

وأيضا فإن الله تعالى عندهم لا يُرى بانفراد من غير صورة، ولا يظهر دونها، فكذلك يلزمهم أن يبقى على حاله لا يظهر وإن أوجد[1] صورة، إذ ليس بداخل فيها ولا بخارج عنها[2].

فإن الصورة لا تكسبه أمرا أوجب له ظهورا لم[3] يكن له. وهذا بين الاستحالة إذ يلزم على ذلك تغيره عند العاقل المنصف.

نكتة أخرى:

وهي أنا نقول: هل يجوز أن يُرى الباري تعالى ويظهر من غير صورة أم لا يجوز؟ فإن جاز ذلك، فلم حتمتم اتخاذ الصورة عليه، وقلتم أنه لا يظهر ولا يُرى إلا بصورة. وإن قلتم لا يُرى ولا يظهر إلا باتخاذ صورة، فإذا وقع بصر الناظر، فأما أن يقع على تلك الصورة أو على الله تعالى أوعليهما[4].

فإن قلتم وقع البصر على الصورة لا عليه، فالمرئي الظاهر[5] إذن هي الصورة المخلوقة لا الخالق، وإن وقع البصر على الخالق وحده لا على الصورة، فينبغي ألا[6] ترى الصورة، فإن الصورة ليست هي الخالق تعالى، والرائي لم ير إلا الصورة وحدها[7]، فإذن لم ير الخالق. وإن وقع البصر عليهما، لزم عليه أن يرى الرائي شيئين ويظهر له أمران[8].

1- في ط: "وإذا وجد".
2- في ط: "ولا خارج عنها".
3- في ط: طهورا إلا لم".
4- في ط: "على الله وعليهما".
5- في ط: "فالمرئي إذن".
6- في ط: "الصورة فهو المرئى ولا ترى الصورة".
7- في ط: "لم ير إلا الصوت".
8- في ط: "يرى الرائي شيئين الخالق والصورة".

وهو إنما رأى شيئا واحدا بالضرورة وهو الصورة، لقول من يقول إنه ظهر في الصورة أو بالصورة[1].

وأيضا، فلو وقع بصر من رأى عيسى عليه السلام على ناسوته ولاهوته، لم يحتاجوا[2] أن يستدلوا على إلهيته[3] بإحياء الموتى وغير ذلك، ولَمّا كان يحتاج هو أن يدل على لاهوت نفسه بشيء من المعجزات وخوارق العادات، إذا كان يدرك منه بالحس والعيان ذلك. والمعلوم بالعيان لا يطلب تحصيل علمه بالدليل والبرهان.

فحصل من هذا أن الصورة المقدرة لا يظهر فيها الباري تعالى، وإن ظهرت هي فإن الرائي إنما يراها وحدها وهي الظاهرة له، وأما الباري سبحانه وتعالى فهو بعد إيجاد هذه الصورة على ما كان عليه قبل إيجادها لم تتبدل حاله، أعنى أنه إن كان قبل إيجاده هذه الصورة قابلا لأن يظهر، فهو بعدها قابل لأن يظهر، وإن كان ممتنعا عليه أن يظهر قبلها، امتنع عليه ذلك بعدها لاستحالة التغير عليه، فإنه لو تغير لكان محدثا.

وأما ما ادعاه من الجامع، فلا نسلم أن الصوت مظهر للإرادة إلا بمعنى أنه يدل عليها، لا بمعنى الاحتجاب والظهور كما زعم. وإذا لم نسلم هذا في الصوت، فلا يصح له قياس الصورة على الصوت، ولو سلمنا قياس الصورة على الصوت من حيث الجامعُ، فبأي دليل يحمل أحدهما على الآخر، فإن وجود الجامع لا يدل على أن حكم أحدهما حكم الآخر، إذ لا يبعد في المتماثلات في بعض الصفات، اختلافها في بعض الأحكام على ما يعرفه أهله. ولو سلمنا وجود دليل الإلحاق، لكان قياس جزئي على جزئي[4]، وذلك غير مقبول في العقليات على ما يعرف في موضعه، وعلى ما يقال مع أهله. فظهر من كلام هذا الرجل عند العقلاء أنه غير متمسك بدليل عقلي. وسنبين أنه لم يستدل على صحة مذهبه بدليل نقل[5]، فإذا بطل له المعقول والمنقول، ثبت أنه بالتحكم والهوى يقول، وذلك دأب كل غبي جهول. وأما قوله: "فالواجب عليهم أن يخاطبوا الصوت باسم الذي الصوت له وكذلك الصورة يجب أن تخاطب باسم الذي هي له".

1- في ط: "إنه ظهر بالصورة".
2- في ط: "لما احتاجوا".
3- في ط: "ألوهيته".
4- في: "جزء على جزء".
5- في ط: "نقلي".

فنقول له قولك: واجب عليهم هذا الوجوب الذي ادعيته، أهو عقلي أو شرعي؟ فإن قال هو عقلي وشرعي، فلا بد من إقامة الدليل على ذلك.

فإن قال: الدليل على ذلك العقل والنقل[1]. أما النقل فهو أن العاقل إذا أقر بأن الله خاطب موسى بصوت مسموع، أو ظهر في صورة مرئية، فقد أقر[2] بأن الله خص ذلك الصوت وتلك[3] الصورة، بما لم يخص به شيئا من المخلوقات إذ تجلى هو فيها. وإذا ثبت ذلك، فالعقل يشهد بأن تلك الصورة وذلك الصوت[4] شريف، والشريف[5] لابد أن يعترف لشرفه وينزل منزلته، ولا أشرف من الله تعالى وما ظهر فيه الله تعالى، فينبغي أن يعظم بأقصى رتب التعظيم، ويعبد بأجل العبادات، فخرج من هذا أنه يجب عقلا أن تعظم الصورة لتعظيم الحال فيها، فتخاطب باسم الرب ويعترف لها بالربوبية والإلهية[6].

وأما الشرع، فهذا الذي[7] دل عليه العقل جاءت به الشرائع، ألا ترى أن موسى خاطب الصوت باسم الربوبية، وكذلك من رأى الصورة إنما يرى صورة الله، والله تعالى معظم بالشرع والعقل، [فتلك الصورة ينبغي أن تكون معظمة بالشرع والعقل][8]، ألا ترى أن الشرائع قد أمرتنا بتعظيم الملائكة وإهانة الشياطين، وليس يخفى أن العرش أعظم من السماء، وأن المشرق أعظم من المغرب، وأن الصالحين أعظم من الطالحين، وهذا كله يشهد له العقل والنقل كما سبق.

هذا إنهاء تقرير حجته، وإليها أشار في كلامه ولا مزيد في التقرير عليها.

فنقول: قولك العقل دل عليه باطل، فإن العقل لا يدل على التزام العبادات، فإن معنى العبادات التي تفعل بحكم اللزوم، إنها إن لم تفعل[9] وإلا فيعاقب الله التارك، وذلك لا يتوصل العقل إليه، إذ العبادات لا تتعين عنده إلا بتعيين معين، الذي هو الشارع الذي

1- في ط: "النقل والعقل".
2- في خ/م: "قر".
3- في خ/م: "وذلك".
4- في ط: "ذلك الصوت وتلك الصورة".
5- في ط: "والصوت".
6- في ط: "والألوهية".
7- في ط: "وأما الشرع فالذي دل".
8- عبارة مكررة في خ/م.
9- في ط: "بحكم اللزوم إنها تفعل".

ينص على ما يرضيه من العبادات، وعلى ما لا يرضيه. وأما العقل فلا يستقل بشيء من ذلك، فلعل العبادة التي يعينها العقل ويلتزمها، لعل الله تعالى لا يرضى بها، إذ يفعل الله ما يريد . ولعل ما يظنه العقل عبادة هو معصية، فإن هذا الله تعالى يفعل ما يشاء، فكما يجعل من شاء نبيا ووليا، ويجعل[1] من يشاء فاسقا وخبيثا، ويمد بأسباب ذلك ولا حجر عليه في ذلك ولا حكم، كذلك يجعل ما يشاء من الأعمال طاعة، وما يشاء معصية، [ولا حجر عليه في ذلك][2]، وإن [تقم بذلك][3] لزمك أن تجعل الله تعالى محكوما عليه مغلوبا، وذلك كله على الله تعالى محال.

وأما ما ادعيت من النقل من الأنبياء فذلك شيء لا يصح عنهم أنهم عظموا الصوت والصورة بما عظموا به الله حتى عبدوهما كما تزعمون أنتم.

وقولكم: إن موسى خاطب الصوت بالربوبية، زعم وقاح وإفك صراح، وإنما المخاطب بالربوبية المتكلم بالصوت بزعمكم[4] الذي قال عن نفسه بالصوت: أنا الله. والذي يعقله العقلاء الذين لا يلعبون بأديانهم، ولا يجترؤون على ربهم وإلههم، إن الصوت موجود يتكلم به ولا يتكلم هو عن نفسه، فإذا سمع العاقل قائلا قال بصوت مقطع: مشيت إلى بيت المقدس فرأيته مثلا، لا يشك عاقل في أن المخبر عن نفسه إنما هو الذي قام به الصوت لا الصوت، فإنه لو كان الصوت هو الذي أخبر بذلك عن نفسه لما صدق عليه ذلك، ولما صح منه الخبر لأنه لا يتأتى منه المشي ولا الرؤية.

وكذلك لو قال إنسان مخبرا عن نفسه بقوله: أكلت الخبز. وهذا بين بالضرورة، وإذا تقرر هذا، فالصوت الذي سلمناه جدلا -الذي تكلم الله به على زعمهم- لم يقل من نفسه شيئا مما ذكروه، إنما الله هو الذي قاله مخبرا عن نفسه، وأما ما قاله موسى فإنما قاله لله تعالى، فله اعترف بالربوبية، وإليه تاب وله سجد، وإياه عبد لا للصوت. وهذا معلوم على القطع والضرورة. والمخالف في ذلك جاهل متسامح أو معاند متواقح.

وقد كان تقدم من قول السائل الغبي الجاهل: أن موسى اعترف للصدى بالربوبية، وأنه الذي قال عن نفسه: أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني، وأنه هو الذي سجد له موسى،

1- في ط: "يجعل".
2- في ط: "معصية وإن لم تقل ذلك".
3- في ط: "وإن لم تقل بذلك".
4- في خ/م: "يزعمكم" وهو تصحيف.

وعن ذلك الصدى تحمل موسى الرسالة، وأنه هو الذي كلم موسى وإياه جاوب، وأنه قام عند موسى مقام خالق فسماه إلها، وربما يظن ذلك الجاهل أن هذا الذي قاله أغشتين هو الذي قاله هو، وهيهات أن بينهما ما بين الثرى والثريا .

وغاية كلام أغشتين، وإن كان فيه من المخطئين، أن يقول: قد علمنا أن الله تعالى خلق الصوت الذي أسمعه لموسى، كما علمنا أن الله خلق جميع الأصوات، ولكن وجب علينا الإقرار لذلك الصوت بالربوبية، ما لم يجب لغيره، لعلمنا أن الله تعالى ولى المخاطبة به.

هذا نص ما في كتابه على هذا المعنى.

ولا يفهم منه شيء مما انتحله ذلك السائل، وقد وكلت الناظر[1] العاقل المنصف، للوقوف على كلامهما وتفهم معانيهما، فإني قد نظمت[2] على كلامهما في هذا الكتاب وحكيته، كي يزول الارتياب ويعلم الناظر المنصف، أن السائل ليس على شيء من الصواب، وإنما نبهت هذا التنبيه حذرا من المغالطة والتمويه، فإني أخاف إن وبخ أحد أقسة النصارى هذا السائل على هذا المذهب الذي اخترعه والمحال الذي ابتدعه، أن يحتج لنفسه بأن ينسبه إلى أغشتين ويكون في نسبته من الكاذبين.

فمن أراد الإنصاف فليطرح عن نفسه التعصب والاعتساف، ويقف على كلامهما متدبرا وفيه متفكرا، ولقد كنت أتمنى أن يكون أولئك الأقسة بين يدي حتى يسمعوا مني وينظروا إلى، فليس كل ما في النفس تبرزه المكاتبة ثم ليس الخبر كالمشافهة.

وأما قوله: وإذا وجب إكرام الحجاب بإكرام المحتجب[3]، لم يبق علينا إلا النظر في الحجاب[4] الذي اتخذه منا وهو المسيح. فنقول: المفهوم من لفظ الحجاب إنما هو الساتر للشيء المانع له، فإنك تقول احتجب عني فلان إذا استتر عنك، وامتنع من لقائك والخروج إليك، ولا يصح هنا على مفهوم كلام هذا الرجل أن يكون الحجاب هو الساتر، بل هو الكاشف المظهر على قوله، وذلك أن إرادة الله وذاته، قبل اتخاذ الصوت والصورة، لم يكن شيء منهما ظاهرا، فلما اتخذهما ظهرت إرادته وذاته، هذا مفهوم مساق كلامه فتدبره.

1- في خ/م: "الناطق" وهو تصحيف.
2- في ط: "نصصت".
3- في ط: "المحتجب به".
4- في ط: "لم يبق علينا من الكلام شيء إلا في الحجاب".

وهذا يدلك على قلة التحصيل، وقصد التخليط والتجهيل، وإذا كان الناظر من قلة التحفظ، بحيث يعبر عن المظهر بالساتر فعلمه جهل ونظره قاصر.

وأما قوله: في الشواهد على اتخاذ الله المسيح حجابا، فتهويل ليس وراءه تحصيل. وذلك أنه قال: إن لم يوجبه القياس إيجاب اضطرارا، فإنه يجوزه تجويز الإمكان، ثم إنه تكلم بأكثر، وذكر القياس الفاسد الذي به كفر، ثم رجع حاصل كلامه إلى أن قال: لأن اتخاذ الصورة كاتخاذ[1] الصوت. وهذا كله قد بينا فساده فيما تقدم.

وأما ما ذكره من شواهد الأنبياء عليهم السلام على ما ادعاه من الهذيان والهذر والبهتان على المتعالي عن النقصان، فليس له في شيء من ذلك شاهد، وحاشا أنبياء الله وكتبه من مذهبه الفاسد، وغاية تلك الشواهد أن تدل على رسالة عيسى عليه السلام، وليست دلالتها قاطعة على ذلك. فتدبرها بفهمك وخذها بقياس عقلك.

وسيأتي ذكر ذلك وأشباهه في باب النبوات بعد هذا إن شاء الله[2]، وقد أتينا على ما أردنا ذكره في هذا الباب والحمد لله. على أنا أغفلنا كثيرا من ألفاظ أغشتين، يمكن البحث فيها، تركنا ذلك[3] لئلا يطول الكتاب ويخرج عن الضبط هذا الباب.

على أن هذا من كلامه هو اللب واللباب، هذا مع أن الأمل[4] إن وافق القدر أن أرد على القس أغشتين كلامه وأبطل من ذلك الكتاب قصده ومرامه.

وحسبنا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله

كمل الباب الثاني[5]، وبكماله كمل الجزء الأول، والحمد لله حق حمده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

يتلوه الثاني.

1- في ط: "مثل اتخاذ".
2- في ط: "إن شاء الله تعالى".
3- في ط: "تركناها".
4- في خ/م: "الأصل" وهو تصحيف.
5- في خ/م: "الأول" وهو سهو من الناسخ.

الباب الثالث

في النبوات وذكر كلامهم [فيها][1]

هذا الباب ينقسم قسمين:

أحدهما نحكى فيه كلام السائل ونذكر الجواب عليه.

والثاني نتكلم فيه على النبوات وعلى إثبات نبوة نبينا محمد[2].

1- الكلمة بين المعقوفتين ساقطة من ط.

2- سنكتفي بتحقيق القسم الأول من هذا الباب، والمقدمتين الواردتين في أول القسم الثاني، أما باقي القسم الثاني فقد قام بتحقيقه أحمد أيت بلعيد.

القسم الأول [وفيه فصول][1]

الفصل الأول

[احتجاج أصحاب الملل] 2

في حكاية كلامه

قال ابتداء احتجاج الثلاث ملل بعون الله:

اعلم أن أهل الملل أجمعين متكافئون[3] في إدعاء الإيمان، حاكمون[4] على كل قوم لأنفسهم بالإيمان، ولغيرهم بالكفر، قد غلبت عليهم في ذلك الغواية[5] وتأديب الصبا، ووصية الآباء والأجداد[6]، حتى صار ذلك طبعا فيهم، لازما لهم. فكلهم قد سهل عليهم انتقاص[7] غيرهم، وطاب عندهم[8] دينهم بالتهنية في دنياهم، عن ميعاد[9] آخرتهم، وصاروا في تدبير دنياهم ومعايشهم على خلاف ذلك، لأنك تجد أهل كل ملة يزعمون أن غيرهم من الملل، ألحف على كل طلب معايشهم وألطف[10] في استجلاب أرزاقهم.

وأحسب أن العلة في ذلك، رغبتهم في التكاثر من الدنيا، وهي[11] التي تدخلهم إلى التحاسد والمغايرة[12]، فيعجز كل قوم أنفسهم في طلب معاشهم، وأن الآخرة عندهم مهملة لبعدها عن حواسهم.

1- ما بين المعقوفتين ساقطة من ط.
2- العنوان الموجود بين المعقوفتين ساقطة من خ/م.
3- في خ/م: "متكافئين"، وهو تصحيف.
4- في خ/م: "حاكمين"، وهو تصحيف.
5- في خ/م: "العزاية"، وهو تصحيف.
6- في خ/م: "الأدباء"، وهو تصحيف.
7- في خ/م: "ابتغاض"، وهو تصحيف.
8- في خ/م: "عنادهم"، وهو تصحيف.
9- في ط: "معاد".
10- في خ/م: "النطف"، وهو تصحيف.
11- في خ/م: "وهي" ساقطة.
12- في ط: "المعايرة".

فلذلك، يزعم[1] أهل كل ملة أنهم أحق خيرا من غيرهم، فلذلك قل تناصفهم فيها، وإن طال عصرهم. لأن كل قوم قد قلدوا سلفهم، وطاب عندهم خبرهم في مدح دينهم، وذم غيرهم. فأسقط الرجل منهم كل حاسة، وأمات خواطره، وأذهب فهمه، بقطع كشفه عن مصالح ما يستقبله من خبره، واستعماله إياه بما هو مدبر عنه من دنياه.

ولتجدن[2] الرجل من كل ملة، يروم شراء خرقة يرقع بها ثوبه، أو شركة لنعله، فتراه يستجير ويستشير خوف السقطة والغلط.

ثم إذا صار إلى كشف دينه ومعاده، اكتفى فيه بتقليد سلفه. ثم لا يبالى [بدليل][3] من خالف ملته، وانتقص[4] كل خارج عن دينه.

فكل يقتحم المناظرة وإن لم يحسنها، ويراها فريضة وهو لا يفهمها، ولم يتخذ شيئا من العلوم والصناعات إلا الفضول، معترف فيها للفضائل، لا الجدال والمناظرة، وأن الجميع يدعون أمرا لا يقدرون على التناصف فيه، لبعد غايته [لأنهم يختلفون في الباري الذي][5]، لا يدركونه بالحواس، فيختلفون في معرفته. وإنما يتعارف الناس فيما [يُدرك بالحواس ويُتصور][6] في الأوهام، فينقمع العقل السليم في إجابة الحق إذا أدركه وانكشف[7]. فلذلك يجادل كل قوم عن دينهم، ويفضلون أنفسهم على غيرهم، ويدلك على ذلك أنك تجد الصقلبي العبد الحبشي، يقع مرقوقا بيد رجل من أحد الثلاث ملل فيرده إلى ملته، ويورد عليه أخبار سلفه، فيتقبله منه كتقبل الأطفال المعذبين فيه. وعلته في ذلك أنه يجد صدره خاليا من الأخبار المدونة في الكتاب[8]، فيتعلق بما أورد عليه من أخبار من علمه، ويتمكن ذلك في صدره حتى يصير واحدا من أهل الملة في إدعاء الفضل لها، وانتقاض[9] أهل غيرها والطعن عليهم.

1- في خ/م: "يزعمون".
2- في خ/م: "وليجدن".
3- في خ/م: "كيف".
4- في ط: "وينتقص".
5- في ط: "وهو أنهم ليختلفون في معرفة الباري تعالى لأنه".
6- في ط: "يدركونه بالحواس ويتصورونه".
7- في ط: "وانكشف له".
8- في ط: "الكتب".
9- في ط: "انتقاص".

ولو أن مجوسيا دخل بلدنا طارئا أو تاجرا، فكبرت[1] عليه مجوسيته، ووحش لوحدته على البقاء عليها، عازما على رفضها، ثم طلب الخروج إلى أفضل الثلاث الملل، المفسدة[2] عليه مجوسيته، لتحير وعمي أيتها[3] أفضل، فخرج[4] إليها [إذا وجد][5] كل قوم يدعون لأنفسهم الإيمان، ولغيرهم الكفر. ثم تجدهم متكافئين في إدعاء الآيات، لأن أهل كل دين يزعمون أن بينة دينهم على آيات قامت وبراهين ظهرت، وما تجد عند أحدهم آية، من تلك الآيات التي زعموا أنها اضطرت عقل المجوسى إلى الدخول في أديانهم.

ولكن الذي كان يضمه إليه حسن نظره، أن يتوقف حتى يسمع حجتهم، ويستعمل عقله في دعواهم، ليفهم [ما احتجاجهم من نبذ الحق][6]، فكان يجد في دعواهم: أن النصراني والمسلم مقران لليهودي بأن دينه أول، وأنبياؤه حق. ثم يقول النصراني إن كتابي جاء من بعد، فنسخ طاعة دين اليهودي. ثم يقول المسلم وكذلك جاء كتابي بعد، فنسخ طاعة دين النصراني كما نسخ اليهودي. فإذا كشف[7] المجوسي اليهودي عما ادعياه، أنكرهما وقال لم يأت بعد كتابي من الله كتاب. ثم إذا سأل النصراني عما ادعاه المسلم، أنكر أيضا وقال لم يأت [كتاب من الله بعد كتابي][8].

فوجب على النصراني أن يأتي بالبينة على اليهودي من الكتب التي أقر له بها، فإن لم يكن فيها مسيحا منتظرا، فلا حجة له عليه، ولا معلق له إليه. وإن كان فيها مسيحا منتظرا، يرجى صلاح الحال من سببه[9]، ووافقت علاماته علامات الذي قد جاء وظهر، فإذا كان فقد اختار النصراني الرسالة الأولى والثانية لنفسه، وخرج اليهودي عن رضا[10] المعبود بجحده الرسالة الثانية، ودفعه لسنته[11] فيما أعقب به في عباده من الرسالة

1- في خ/م: "فكسرت".
2- في خ/م: "المسدة".
3- في ط: "آية".
4- في ط: "فيخرج".
5- في ط: "لأنه يجد".
6- في خ/م: "فاحتجاجهم من نبر الحق".
7- في ط: "كاشف".
8- في ط: "بعد كتابي من الله كتاب".
9- في خ/م: "سببه".
10- في خ/م: "رضى".
11- في ط: "بسنته".

الثانية. ثم يحمل المسلم البينة على النصراني من الكتب التي أقر له بها، وجامعه عليها. فإن لم يكن فيها محمد منتظرا[1] فلا حجة له عليه ولا مطعن[2] له إليه. وإن كان فيها محمد منتظرا، ثم وافقت علاماته علامات الكتب، فقد أصاب المسلم ولزم النصراني الخروج عن رضا معبوده.

الجواب عن كلامه:

يا هذا أسهبت وأطنبت، وبحبة خردل ما أتيت، كثر كلامك، فكثر غلطك، وقلت فائدته فظهر قصورك وسقطك، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كانت النار أولى به، أعجبت[3] لجهلك بلحنه ولم تتفطن لتثبيجه ولحنه، فلقد استسمنت ذا ورم، ونفخت في غير ضرم.

فأول خطئك[4] قولك في ترجمتك هذا الفصل: "احتجاج الثلاث ملل"، ثم ضمنته ذكر ملة المجوس، فكان ينبغي[5] أن تقول احتجاج الأربع ملل، فإن المجوس أمة تدعي أنها أرسل إليها رسول وأنزل عليه كتاب، ثم إن مذهبهم في التثنية -وإن كان باطلا- فهو أقل شناعة، وأبعد عن جحد الضرورة، وأدخل في مسلك النظر، وإن كان فاسدا من مذهبكم، فإنهم يقولون: إن الموجودات خير وشر، ولا بد لكل واحد من موجد فموجد الخير خير، والخير لا يفعل الشر لئلا يكون شريرا، وموجد الشر شرير لا يفعل الخير، إذ لو فعل الخير لما فعل الشر، قالوا فلا بد من إلهين اثنين يفعل أحدهما الشر والآخر الخير.

وهذا كلام يشبه النظر العقلي، ويعد بحث شديد يتبين فساده، فلهم شبهة في التمسك بمذهبهم، ولو أورد المجوسي شبهته عليكم لصعب عليكم إبطالها، لكونه يلزمكم من مذهبكم التزامات لا تنفصلون عنها.

وأنا الآن أذكر طرفا من ذلك حتى يتبين عجزكم وجهلكم هنالك.

وأما[6] مذهبكم في الأقانيم فغير مقبول ولا معقول كما تقدم، وكفى به فسادا قولكم آلهة ثلاثة إله واحد، وكذلك مذهبكم في الاتحاد والحلول على ما مر، ومن العجب أنكم

1- في خ/م: "منتظر".
2- في خ/م: "معلق".
3- في ط: "أعميت".
4- في ط: "خطابك".
5- في ط: "ينبغي لك".
6- في ط: "أما مذهبكم".

تعتقدون مذهب المجوس ولا تشعرون، فإنكم تنسبون الشرور والإضلال إلى غير الله تعالى، وتعيبون علينا إذا نحن فوضنا كل الأمور إلى الله تعالى، وقلنا كل موجود في العالم فإنما هو موجود بإيجاد[1] موجد واحد وهو الله تعالى، وهذا والله هو التوحيد الحق الذي ارتضاه الله لخلقه، وكلف به أنبياءه ورسله وأنزل به كتبه.

فعين مذهبكم في هذه المسألة هو مذهب المجوس، فإنكم تنسبون الشرور كلها إلى الشيطان، وهو عدو الله وهو لا يصدر عنه إلا الشر، وليس الشر من إيجاد الرحمن عندكم فإنه لا[2] يوجد إلا الخير، فعلى مذهبكم هناك خالقان: أحدهما خالق الخير وهو الله، والآخر خالق الشر وهو الشيطان، وهذا عين المجوسية فصرحوا بها ولا تنكروها، وأجمعوا بينها وبين النصرانية وتقلدوها. ثم زعمت على مقتضى ترجمتك أنك تذكر حجاج الملل الثلاث ولم تف بشيء من ذلك، ولا ذكرت في كلامك هذا حجة للمسلمين عليكم ولا لليهود، بل ذكرت حجة النصارى الداحضة وسكت عن حجة خصومهم المسلمين الظاهرة، وهذا أثر التقليد، والجمود عليه حملك على الإعراض عن حجة خصمك، لعلك لا تسمع ما يؤدي إلى تبكيتك ولطمك، ولقد كان ينبغي لك لو كنت من النظار العارفين[3] بأديانهم أن تذكر حجج خصومك أحسن، فتبحث عنها واحدة بعد واحدة[4] حتى يتبين لك فيها الصحيح من الفاسد، ولكن مع هذا نقبل عذرك ونعلم جهلك، فإنك واحد من عوام [المسيحيين][5] الذين تشبهوا بالقسيسين وفي مثلك ينشد.

فسد الزمان فسدت غير مسود   من الشقاء تفردى بالسؤدد[6]

ولكن لا عليك، فإنما هو جني[7] يديك، فإني لأرجو أن يقف على هذا الكتاب جماعة المطارين، ويعلموا بما فيه أنك مخالف لمذاهبهم أجمعين، فيخرجوك من بين القسيسين ويلحقوك بالأريوسيين[8].

1- في ط: "إيجاد".
2- في ط: "ما".
3- في ط: "النظار والعارفين".
4- في خ/م: "واحدا بعد واحد".
5- مكان هذه الكلمة فارغ في خ/م.
6- البيت لحارثة بن بدر، ويختلف عما أورده المؤلف حيث يقول: خلت الديار فسدت غير مسود ومن الشقاء تفردي بالسؤدد.
7- في ط كما في خ/م: جنا.
8- في خ/م: "الرياسيين". وفي ط: "الرياسين". وهو تصحيف، والصحيح هو الأريوسيين، نسبة لأريوس القائل بالتوحيد الرافض للتثليث.

ثم قلت: "اعلم أن أهل الملل أجمعين متكافئون[1] في إدعاء الإيمان، حاكمون[2] على كل قوم لأنفسهم بالإيمان ولغيرهم بالكفر". فنقول أما التكافؤ في الدعوى فنعم، لكن الفصل يقع بينها[3] من جهة البينات، ووقوف العقلاء على حكاية المذاهب والديانات، فإن من الأديان ما يدرك فساده بغير نظر ولا برهان، بل بالفطرة التي خص الله بها الإنسان، وذلك[4] دين النصارى، الضلال الحيارى.

ولقد حكى أن بعض حكماء الهند -وكان من الملوك الذين يحكمون بالسياسة المدنية[5]، الذين لم يتقلدوا إتباع ملة دينية- أنه ذكرت[6] له الملل الثلاث، فقال: أما النصارى [فإن مناصبوهم][7] من أهل الملل يجاهدونهم بحكم شرعي. [فلقد أرني ذلك بحكم عقلي، وإن كنا لا نرى بحكم عقولنا قتالا، ولكن استثنى][8] هؤلاء القوم، يريد النصارى من جميع العوالم، فإنهم قصدوا مضادة العقل وناصبوه العداوة، وتحلوا ببث الاستحالات مع أنهم حادوا عن المسلك الذي انتهجه غيرهم من أهل الشرائع، وقد كان لهم فيه كفاية، ولكنهم شذوا عن جميع مناهج العالم الشرعية الصالحة، والعقلية الواضحة، واعتقدوا كل شيء مستحيل ممكنا فلم يعزب عنهم شيء، وبنوا من ذلك شرعا لا يؤدي البتة إلى صلاح نوع من أنواع العالم، إلا أنه يصيّر العاقل إذا تشرع به أخرق، والمرشد سفيها، والمحسن مسيئا، لأن من كان في أصل عقيدته التي جرى[9] نُشوؤه عليها الإساءة إلى الخالق، والنيل منه بوصفه بغير صفاته الحسنى، فاخلق به أن [يستسهل الإسناد][10] إلى مخلوق، ولذلك ما بلغنا عنهم[11] في خلقهم من الجهل، وضعف العقل والطمع والبخل، ومهانة النفس وخساسة الهمة، والغدر وقلة الحياء إلا قليلا منهم، فلو لم تجب مجاهدة هؤلاء القوم، إلا

1- في خ/م: "متكافئين".
2- في خ/م: "حاكمين".
3- في ط: "بينهما".
4- في ط: "كذلك".
5- في ط: "الدينية".
6- في ط: "دينية ذكرت له".
7- في ط: "وإن كان مناصبوهم".
8- في ط: "فقد أدت آراؤهم إلى أن لا نرى بحكم عقولنا لهم عقولا فاستثنى".
9- في خ/م: "جرا".
10- في ط: " يقصد الإساءة ".
11- في ط: "عنهم مما في".

لعموم أضرارهم [الذي لا تحصى وجوهه][1]، وكما يجب قتل الحيوان المؤذي بطبعه فكيف وثم[2] من الموجبات ما تقدم.

فهذا ما بدا لهذا الحكيم في أول نظرة من مذهبكم على أول وهلة، وليس بمخاصمكم ولا مناوئكم، ولا بمتهم بإتباع الهوى فيكم، لكن قد تبين الصبح لذي عينين بحيث لا يشك فيه أحد من الثقلين[3]، وسترى ذلك واضحا إن كنت ذا بصر وبصيرة إن شاء الله[4].

ثم قلت: "قد غلبت عليهم في ذلك الغواية[5] وتأديب الصبا، ووصية الآباء والأجداد[6]، حتى صار ذلك طبعا فيهم"، هذا الذي ذكرته لعمري حكم الرعاع الغبر، والغثاء الغثر، وأما من أمده الله بنور توفيقه، وبين له سواء طريقه، فقد تبين له الرشد من الغي، والميت من الحي. فقد أخطأت في إطلاقك هذا الحكم على جميع الملل، ولم تشعر بما لزمك من الفساد والزلل، كلا بل الذي ذكرته، وصف أهل ملتك وحيلة عصبتك، إذ هم أهل تقليد ونظرهم غير سديد، ثم قلت: "فكلهم قد سهل عليهم انتقاص غيرهم، وطاب عندهم دينهم بالتهنية في دنياهم عن معاد آخرتهم"، عدلت[7] في هذا الحكم عن العدل، فحاق عليك اللوم والعذل، بل في الملل من لا ينتقص أحدا، إلا إذا ذمه الشرع، [وإذا رأى ذا فضيلة أو محقا أحبه وشكره بالطبع والطوع، يهجر في طلب الحق][8] جميع لذاته ويزهد في جميع متملكاته، يبغي بذلك رضى[9] سيده ومرضاته، يضرب في طلب الحق الأرض ضربا فيقطعها شرقا ويقطعها غربا.

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن   وإن لقيت معدا ما فعدنان[10]

1- في ط: "التي لا تحصى وجوهها لكفى".
2- في ط: "وقد ثم".
3- في ط: "النقلين".
4- في ط: "تعالى".
5- في خ/م: "الغراية".
6- في خ/م: "الأدباء".
7- في ط: "وعدلت".
8- في ط: "وإذا رأى ذو فضيلة محقا أحبه وشكره بالطبع والطوع يهجر في طلب الحق جميع لذاته".
9- في ط: "رضا".
10- البيت الشعري لعمران بن حطان، وجاء فيه:

فاعذر أخاك ابن زنباع فان له   في الحادثات هنات ذات ألوان
يوما يمان إذا لاقيت يمن   وان لقيت معديا فعدنان
لو كنت مستغفرا يوما لذي ملك   كنت المقدم في سري وإعلاني
لكن أبت لي آيات مطهرة   عند الولاية في طه وعمران

راجع كتاب الأنساب للصحاري الجزء الأول ص: 163

فارق[1] الأهل والوطن، ولازم[2] الفقر والعطرة[3]، فإذا ظفر بالبغية [لبا وقطن][4]، أما الدنيا فلا يلتفت إليها، وأما الآخرة فهو مقبل بكليته عليها، فهو في كل حال ينشد وأحواله تشهد.

وأبغضت فيك النخل والنخل يانع ... وأعجبني من حبك الطلح والضال

وأهوى لجراك[5] السماوة[6] والغضا ... ولو أن ضيفيه وشاة وعذال[7]

فأنت لم تحكم بالسوية ولا عدلت في القضية، حيث حكمت بإعراض كل العقلاء عن الأديان، وبالتكاثر من الدنيا على كل البرية، كلا لو كان ذلك، لما بقى منا أحد إلا هالك، فراجع نفسك عن هذا الإطلاق، وتب للواحد الخلاق، واحكم على أهل ملتك بتلك الخصال والأخلاق، فإن رب العالمين يبقي علينا ببركة الفضلاء والصالحين.

ثم قلت: "وأحسب أن العلة في ذلك، رغبتهم في التكاثر من الدنيا، هي[8] التي تدخلهم إلى التحاسد والمعايرة[9]، فيعجز كل قوم أنفسهم في طلب معاشهم، وأن الآخرة عندهم مهملة".

يا هذا لقد كثر غلطك، حتى يعجز الناظر فيه عن إحصائه، وعظم سقطك حتى لا أقدر على استقصائه.

تفرقت الظباء على خراش ... فما يدري خراش ما يصيد

فتارة يتتبع عليك الكلام، وأخرى تبدل المدح بالملام، فربما تريد أن تمدح فتذم، وتظن أنك تحل ربطا وأنت تزم، وأنت في هذا الكلام قد لحنت فيه في عدة مواضع، وأردت أن

1- في ط: "يفارق".
2- في ط: "يلازم".
3- في ط: "العطن".
4- في ط: "ليا وفطن".
5- في ط: "لجوان"، وفي خ/م: "بجراك" وهو تصحيف.
6- في خ/م: "السموات" وهو تصحيف.
7- البيت الشعري فيه تصحيف وينسب لأبي العلاء المعري، ويقول فيه:
8- في ط: "وهي".
9- في خ/م: "المتغاية".

تقول شيئا، فعبرت عنه بعبارة يفهم منها بحكم وضعها خلاف ما أردت أن تقول، وذلك بين عند من تأمله من أهل العقول.

وبالجملة، فأنت في هذا الفصل أردت أن تتفصح[1] وتغرب، فإذا بك تبهم ولا تعرب، على أن كلامك في هذا الفصل قليل الجدوى، واهي الأصل. فينبغي أن نتعدى[2] أكثر كلامك [وننزه عقولنا][3] عن الأخذ في كثير من هذيانك، فإن الأخذ في الخرافات، والاشتغال بالترهات، مخل بالعقول والمروءات.

ثم قلت بعد ذكر كلام حكيت[4] به فعل السفلة الطغام المعدودين في رعاع العوام[5]، لأن كل قوم قلدوا سلفهم، وطاب عندهم خبرهم في مدح دينهم وذم غيرهم. يا هذا جهلت كل الأنام، إذ زعمت أن التقليد دأب كل الأقوام، ولو أنصفت في القضية، وعدلت بالسوية، لقلت إن الناس قسمان: قسم إيمانهم برهاني، وقسم اعتقادهم تقليدي. هكذا ظهر من أمر أهل الأديان، وأما من لم يتدين بدين فينبغي ألا يعد في الموحدين.

وبعد هذا ينبغي أن تعلم أن أمور الاعتقاد والإيمان، لم يقنع فيها قط أحد من الفضلاء بالتقليد من غير برهان، ولأجل هذا حرم الله علينا الركون إلى التقليد، وذم من عول في اعتقاده على إتباع الآباء والجدود، فقال تعالى حكاية عن المقلد،، وذاما له وموبخا له على جهله: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[6]، فهذا ذم من الله للتقليد وأهله، وقد أمر بالنظر الصحيح وحض على فعله، فقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ

1- في ط: "تتفصح".
2- في ط: "تتعدى".
3- في ط: "تنزه عقولا".
4- في ط: "حاكيت".
5- في ط: "الأعوام".
6- سورة الزخرف، الآيات: 22-24.

وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾[1]، وقال[2]: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾[3]، وقال[4]: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[6].

ومثل هذا كثير، وكفى شرفا بهذا الدين، ودليلا على صحته عند العقلاء العاقلين، أنه حرم التقليد، الذي يجر إلى الإلباس والتجهيل والتعنيد[7]، واستنهض العقول للنظر، وأوضح لها مسالك العبر، وأوجب عليها النظر الصحيح المفضي إلى العلم، ومن لم يفعل ذلك من العقلاء، فقد تعرض للعتاب[8]. وألزم ذلك كله ليتبين عن بصيرة الرشد من الغي، ويعلم من هو على الحق ممن تحكم في دينه بظلمات التقليد والرأي. وبعد هذا، فإني لا أشك في أنك لا تعرف حقيقة التقليد، ولا أقسامه، ولا أحكامه، ولا في أي محل يجوز، ولا في أي محل يحرم، ولا من الذي يُقلد، ولا من المقلد.

فإن ادعيت أنك تعرف شيئا مما هنالك، فعجل بالجواب على ذلك.

ثم قلت: -بعد ترديد وتطويل، من غير إفادة علم ولا شفاء غليل- فكل يقتحم المناظرة وإن لم يحسنها، ويراها فريضة عليه وهو لا يفهمها، ولم يتخذ شيئا من العلوم والصناعات إلا الفضول.

اعلم يا هذا أن الله[9] أنطقك بشرح حالك، فإنك عبرت عن سوء مناظرتك، ونظرت بركيك مقالك، فجهلت حتى توهمت أنك من أهل النظر، وأوهمت عند الرعاع أنك من أهل المناظرة والفطر، كلا فلقد ارتقيت مرتقا صعبا، وسلكت مسلكا وعرا، وادعيت

1- سورة يونس، آية: 101.
2- في ط: "وقال تعالى".
3- سورة الطارق، آية: 5.
4- في ط: "تعالى".
5- سورة الروم، آية: 8.
6- سورة الحج، آية: 46.
7- في ط: "التفنيد".
8- في ط: "للعقاب".
9- في ط: "تعالى".

دعوى عريضة، لتخدع بها قلبا ضعيفا ونفسا مريضة، ولا بد من سؤالك حتى يتبين حقك[1] من محالك، فأقول لك: ما حد النظر وحقيقته؟ وما أصوله؟ وكم أقسامه؟ وما أحكامه؟ وما حقيقة المناظرة؟ وما شروطها؟ وكم هي؟ وما الشيء الذي يطلب بالمناظرة؟ وما حقيقة الدليل؟ وكم أقسامه؟ وكم شروطه؟ وما وجه الدليل؟ وما المدلول؟ وكم أقسامه؟ فإن كنت تدعى المناظرة فأجبنا عن هذه الأسئلة محاورة.

ثم قلت: "وإن الجميع يدعون أمرا، لا يقدرون على التناصف فيه لبعد غايته"، لتعلم يا هذا أن حكمك على الجميع بأنهم لا يقدرون على التناصف حكم خطأ، فإن العاقل المشتغل بما يعنيه، إنما يطلب الحق ليصل إليه، ويتعرف الباطل ليجتنبه[2]، ومن كانت هذه حاله، أنصف وتناصف، وإنما يمتنع التناصف على من غلب عليه التقليد، وجمد على ما ورثه من الآباء والجدود، وهو يصمم على أنه على الحق، فيمنعه ذلك التصميم عن البحث والنظر، ثم إن تنبه لنوع نظر، كان كما قال:

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولن تلين إذا قومتها الخشب.[3]

فهذا الذي يتعذر عليه التناصف، وتبعد عليه الغاية المطلوبة، وما من نوّر الله قلبه، وأجزل من المعقولات حظه، فالتناصف مرغوبه، إذ الحق مطلوبه. وفي مثل هذا ينشد:

بعيد على الكسلان أو ذي ملالة ... وأما على المشتاق فهو قريب[4].

فإن قلت: "ما ذكرته أنت قليل وما ذكرته أنا كثير"، قلت لك:

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز ... وجار الأكثرين ذليل

تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل[5]

1- في خ/م: "حك".
2- في ط: "يعرف الباطل ليتجنبه".
3- البيت لسابق البربري ويقول فيه:
4- قال سري السقطي: خرجت إلى الحج من طريق الكوفة، فلقيت جارية حبشية تمشي، فقلت: إلى أين يا جارة. قالت إلى مكة. فقلت لها: الطريق بعيد. فقالت:
بعيد على الكسلان أو ذي ملالة ... وأما على المشتاق فهو قريب.
5- الأبيات للشاعر اليهودي السموأل بن عاديا الجاهلي قالها بعد أن ضحى بابنه في سبيل الحفاظ على وعده لامرئ القيس بأن يصون دروعه وامرأته أثناء غياب في سفره إلى بلاد الروم، وقد ذكرها الأعلم الشنتمري ت476هـ في كتابه "شرح أشعار الشعراء الستة"،كما ذكرها التبريزي ت 502هـ في شرح كتاب الحماسة لأبي تمام وذكر البيتين معكوسين ويقول فيها:
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

ثم إن وجد في جميع الخلق واحد بهذه الصفة فقولك فاسد، فإنك حكمت على الجميع بحكم قبيح شنيع، وأطلقت القول ولم تخف فيه الزلل ولا العول.

ثم قلت: "ليختلفون في معرفة الباري تعالى لأنه لا يدركونه بالحواس، وإنما يتعارف[1] الناس فيما يدركونه بالحواس"، اعلم أن هذا الذي ذكرت لا يصح أن يقال على كل العقلاء، وإنما يصح ذلك على الجهلة الأغبياء، بل نقول إن الأغبياء أهل الجهالات يختلفون في الضروريات، وقد بينا عليكم مواضع كثيرة من اعتقادكم، خالفتم فيها الضروريات وناكرتم المعقولات، وأما أهل العقول السليمة والفطر المستقيمة فلم يختلف منهم اثنان في معرفة وجود الله تعالى، وإنما تخالفوا في أي وجود وجوده، وهذا يعرف في موضعه فلست من أهله.

وأما تمثيلك بالعبد الحبشي، فتمثيل ليس وراءه تحصيل، وذلك أن العبد الحبشي إذا كان عاقلا سليم الفطرة، إذا سمع كلاما لا يقبله عقله يرده، وأما إذا كان ناقص الفطرة مختل العقل، فيقبل كل محال ولا يثبت على حال.

ثم قلت: "ولو أن مجوسيا دخل بلدنا فكسرت[2] عليه مجوسيته، ثم طلب الخروج إلى أفضل الملل[3]"، أنت توهم بهذا القول البراءة عن المجوسية، والدعاء إلى الملة النصرانية، عساك يظن بك أنك تفحم الخصوم، أو أنك حصلت من دينك على أمر معلوم، كلا بل لو ناظرك مجوسي لأفحمك، ولو وزن دينه بدينك في معيار العقل لرجحك، وقد تبين ذلك فيما تقدم.

ثم قلت: "فكان يجد المجوسي في دعواهم: أن النصراني والمسلم، مقران لليهودي بأن دينه أول وأنبياؤه حق، ثم يقول النصراني: إن كتابي جاء من بعد فنسخ طاعة دين اليهودي، ثم يقول المسلم وكذلك جاء كتابي فنسخ طاعة دين النصراني.

يا هذا البليد: أخطأت على المسلم، حيث ظننت أن المسلم يسلم لليهودي دينه الذي بيده الآن، ويعترف بأنه أول، وليس الأمر كذلك، بل الذي يقول به المسلم إن الدين الذي

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها	فليس إلى حسن الثناء سبيل
تعيرنا أنا قليل عديدنا	فقلت لها: إن الكرام قليل
وما ضرنا أن قليل وجارنا عزيز	وجار الأكثرين ذليل

1- في خ/م: "يتعارفون".
2- في ط: "فكبرت".
3- في ط: "الثلاث ملل".

جاء به موسى عليه السلام هو حق، وأنه الأول بالزمان بالإضافة إلينا وإليكم، وأما اليهود اليوم فليسوا على دين عندنا وعندكم.

فعندنا من جهتين، وعندكم من جهة واحدة، إحدى الجهتين عندنا: أنهم كفروا بمحمد نبينا، وقد كان الله تعالى أخذ عليهم العهد بالإيمان به، وبلغهم ذلك على لسان موسى عليه السلام وغيره من أنبيائهم عليهم السلام، على ما ننقله إن شاء الله[1]، وكذلك نقول في المسيح عليه السلام، إنهم كفروا به بعد أن أنكروه، وهذه هي الجهة الأخرى، فهاتان جهتان. وأنتم إنما تكفرونهم من جهة واحدة وهي كفرهم بالمسيح، فقد اتفقنا نحن وإياكم، على أن اليهود في هذا الوقت، ليسوا على دين، وليسوا بمنتسبين إلى شيء من دين موسى عليه السلام، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف جانفت[2] في لفظك، وقلت على المسلمين والنصارى، ما لا يرضون به ولا يعولون عليه؟ وهل إطلاقك هذا إلا نتيجة جهلك، ومما يدل على نقص عقلك؟

ثم إنك ادعيت أن النصارى يقولون: إن كتابهم نسخ شرع اليهود، وكيف يصح لك يا جاهل بدينه أن تقول هذا؟ وعيسى عليه السلام يقول في الإنجيل الذي بأيديكم: "لم آت لأنقض شريعة من قبلي إنما جئت لأتممها"[3].

فأما أنت هو الكاذب أو كتابك هو المحرف الباطل، وسنبين إن شاء الله تعالى ما أحدث في الإنجيل والتوراة من المناقضة والتحريف، ما يدل على أنها ليست هي التي أنزل الله.

ومن عجيب أمرك، وأدل دليل على جهلك، أنك تدعي أن كتابك نسخ شرع اليهود، وأنت بجهلك ترجع إليه في أحكامك، وهل هذا إلا تناقض ظاهر وجهل فاحش؟

ثم قلت: "فإذا كاشف المجوسي اليهودي عما ادعياه أنكرهما، وقال لم يأت بعد كتابي من الله كتاب". يا هذا لقد قولت اليهود ما لا يمكنهم قوله، ولا يسعهم جهله، فإن اليهود يعترفون بأنه قد كان بعد موسى أنبياء كثيرون، جاءوا بصحف وقرءوا على الناس كتبا كثيرة، هي بين أيديهم وأيديكم اليوم، تقرؤونها وتحكمون بها، وها أنت قد استدللت بكثير

1- في ط: "تعالى".

2- في ط: "جازفت"، ولعل جانفت هي الأصح، أي ملت، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا ﴾.

3- متى5: 17.

منها في كتابك هذا على إثبات نبوة[1] المسيح، فتلك الكتب التي نقلت منها، إما أن تكون من الله أو لا تكون، فإن كانت من الله، فقد أفحمت نفسك وأكذبتها، وصار كلامك ينقض أوله آخره، مع أن اليهود توافقك على أن تلك الكتب والصحف من الله، وعلى السنة رسل[2] الله. على هذا جمهورهم وأكثرهم. وإن كانت تلك الكتب، ليست من الله -ولا يساعدونك عليها- فكيف يسوغ لك الاحتجاج عليهم بشيء ليس من كلام الله ولا يسلمونه. فلقد مكنت من نفسك يا هذا اليهود والمسلمين، وصاروا على كذبك وخطئك من الشاهدين. فمثلك مثل: "الباحث بظلفه على حتفه، والجادع مارن أنفه بكفه"[3]. فلقد لحقت ﴿ بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾[4].

وبعد هذا، فلتعلم أن الذي ينكره[5] اليهود -لعنهم الله- من الكتب المنسوبة إلى الله تعالى، كتابك وكتابنا لا غير، وسنقيم واضح الأدلة إن شاء الله على من خالفنا.

ثم قلت: "ثم يحمل المسلم البينة على النصراني من الكتب التي أقر له بها، وجامعه عليها، فإن لم يكن فيها محمد منتظرا، فلا حجة له عليه ولا مطعن[6] له إليه، وإن كان فيها محمد منتظرا، ثم وافقت علاماته علامات الكتب، فقد أصاب المسلم، ولزم النصراني الخروج عن رضى[7] معبوده".

ظاهر كلامك أنك أنصفت، وأنت في اعتقادك عليه ما عولت، ولقد أعلم أنك إذا أتيت ذلك، عليك من كتب عدلت وغدرت، شنشنة أعرفها من أخزم، وإذا كان الغدر في النفوس

1- في ط: "بنوة".
2- في خ/م: "رسول".
3- من أمثال العرب المشهورة وأصل الشطر الأول منه أن عنزة كانت لقوم فأرادوا ذبحها فلم يجدوا شفرة، فنبشت بظلفها في الأرض فاستخرجت منها شفرة فذبحوها وقالوا: (بحثت عن حتفها بظلفها) فسارت مثلا. أما الثاني فيشير إلى قصة قصير مولى جذيمة الأبرش قصير، وكان قد أشار على سيده أن لا يأمن الزباء ملكة الجزيرة، وقد دعته إليها ليزوجها، فخالفه وقصد إليها فقتلته فقال قصير: لا يطاع لقصير أمر. فذهب مثلا.
4- سورة الكهف، آية: 103-104.
5- في ط: "تنكره".
6- في خ/م: "معلق".
7- في ط: "رضا".

الخبيثة طباعا، فالثقة بكل أحد عجز[1] وما هي أول بركتكم.

وأنا أسأل الله العظيم، رب العرش الكريم، بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، ويحق آدم وموسى، وعيسى ومحمد صلى الله عليهم، وممن بينهم من النبيين والمرسلين، وبالملائكة المقربين، وأهل طاعته أجمعين، أن يلعن من لا يرجع إلى الحق إذا تبين له، وأن يعجل عليه بنقمته في الدنيا، تكون علامة على غضب الله عليه، وعلى عذابه في الآخرة العذاب الدائم، نسأل الله العظيم، أن يفعل ذلك بعزته وكرمه، آمين آمين والصلاة على خيرته من خلقه.

ثم ينبغي لك أن تعلم أن نبوة نبينا محمد، لم تثبت لنا بطريق واحدة، بل بطرق كثيرة، فلو فرضنا أن الأنبياء صلوات الله عليهم، لم يبشروا به، لكانت نبوته ثابتة ببراهين قاطعة كثيرة، بها عرف نبوتَه العقلاءُ الذين لم يقرؤوا قط كتابا، ولا انتسبوا إلى شريعة، وسنوضح هذه الطرق إن شاء الله تعالى، ونبينها على ما لا يبقى معه ريب لعاقل بحول الله وقوته.

1- في خ/م: "عجز".

الفصل الثاني

[المسيح المنتظر][1]

في حكاية كلامه ايضا،

قال: ومن بينة النصراني على اليهودي، أن في الكتب التي أقر له بها وجامعه عليها مسيح منتظر، لا يقدرون على جحده، لأن انتظاره معروف فيهم، وظاهر عليهم، ودل على زمان مجيئه، أنهم منتظرون له منذ سبيت اليهود، وبددت إلى اليوم، فإذ قد لزم اليهود انتظاره[2] من وقت تفريقهم في الدنيا، فقد وجب للنصارى أن يقولوا أنه قد جاء، والدليل على أنه هو، أن اليهود اختلفت من سببه، فصارت فرقتين على الكفر والإيمان به، فالفرقة الكافرة هم اليهود، والفرقة المؤمنة هم النصارى، فآمنت طائفة وكفرت طائفة، والكتب أجمع مع كلامهم، يحتجون بها بعضهم على بعض، يجتمعون على ألفاظها وقراءاتها، ويختلفون في تأويلها، كفعلهم إلى هذه المدة. والذي يستدل به للفرقتين على كفر أحدهما، أن ننظر في الكتب ونستدل بها على حالة بني إسرائيل منذ كانت على الإيمان والكفر، فإنهم إن كانوا على الكفر، فإنه يلزمهم الذلة، إذ الذلة والأسرة والفرقة، علامة الكافرين، وموجودة[3] في الكتب، أن الله لم يوعد بالثواب [في الآخرة][4] لبني إسرائيل على الطاعة والإيمان، وإنما وعدهم في الدنيا، فوعدهم عند الطاعة والإيمان، بالملك والنعمة والنقمة من عدوهم، والتثمير لزرعهم وفواكههم، وأوعدهم عند الكفر والعصيان، بالتغلب عليهم، والملك والقهرة لهم من عدوهم، فلم يزالوا مؤيدين عند الطاعة والإيمان، ومستعبدين عند الكفر والعصيان.

فافهم الجواب عنه

اعلم يا هذا، [أنا لولا أنا نخاف أن ننابد][5] اليهود على كفرهم، وأن يحملهم ذلك على دوام الإصرار، وزيادة العناد، لنبهناهم على مواضع في هذه الأدلة التي ذكرت، يفسد

1- العنوان الموجود بين المعقوفتين ساقطة من خ/م.

2- في ط: "بانتظاره".

3- في ط: "موجود".

4- ما كتب بين معقوفتين ساقط من خ/م.

5- في ط: "أنه لولا أننا نخاف أن نساعد".

عليك لأجل ذلك أكثرها، ويبطل عليكم الاحتجاج بها، ولو فعلنا ذلك، لما كان مما يقدح في صحة نبوة المسيح فإنها تثبت بطرق أخر.

[وإنما كان يكون][1] ذلك دليلا على أنك لا تحسن الاستدلال، ولا تعرف طرق المناظرة والجدال، ولكن حاشى لله أن أعين اليهود، أولي اللعنة والعداوة والبغضاء والأحنة، على من التزم شرعة المسيح وركب منها المنهج الصحيح، وكيف أفعل ذلك، وقد أخبرنا الله على لسان نبيه ورسوله، بأنه كان منهم عالمون بالله، ومصدقون بما جاءهم على لسان محمد رسول الله، فقال تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[2].

[فهؤلاء هم الذين][3] عرفوا شرعة المسيح عليه السلام، وعلموا ما عهد إليه من نعت محمد خير الأنام، فبادروا لتصديقه، ولم يمكنهم العدول عن طريقه، ولولا حرمة هؤلاء الأولياء، الذين كانوا منكم، لما بقى ستر الله عليكم، لكن كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[4].

ومع هذا، فلا نخلي هذا الباب من التنبيه على نكت تدل على سوء استدلال هذا السائل خاصة بعون الله.

1- في ط: "وإنما يكون".
2- سورة المائدة، آية: 82-84.
3- في ط: "فهؤلاء الذين".
4- سورة إبراهيم، آية: 42-43.

قلت يا هذا: "والدليل على أنه هو، أن اليهود اختلفت من سببه، فصارت فرقتين على الكفر والإيمان به، فالفرقة الكافرة هم اليهود، والفرقة المؤمنة هم النصارى، فآمنت طائفة وكفرت طائفة".

هذا دليل ليس له للدلالة على مجيء المسيح من سبيل، بل هو عين المذهب الذي تدّعونه، ويبقى عليك الاستدلال عليه، وإن جاز أن يكون مثل هذا دليلا صحيحا على مجيئه، جاز أن يكون نقيضه دليلا على انتفاء مجيئه، ولا فرق بين ما قلت، وبين ما يقوله اليهودي، إذ كل واحد منكم تكلم بدعوى ولم يثبتها، ولا بد لك من إقامة دليل، فاذكره فإن كلامك الأول ليس بدليل، فإن أخذت تستدل بدليل آخر خلاف ما ذكرت، فقد اعترفت بأن كلامك الأول ليس بدليل وانقطعت، وإن رجعت تستدل بذلك تبين جهلك هنالك.

فانظر ما أحسن هذا الدليل، فلعمري ما للمستدل به من النظر العقلي[1] كثير ولا قليل.

ثم قلت: "والكتب أجمع مع كلامهم، يحتجون بها بعضهم على بعض، يجتمعون على ألفاظها وقراءاتها، ويختلفون في تأويلها كفعلهم إلى هذا المدة".

تناقضت يا مخدوع ولم تشعر، وظننت أنك تنتصر، فإذا بك تستأسر، أفعجبت[2] هنا بأنكم يحتج بعضكم[3] على بعض، ويتضمن ذلك أنكم تحتجون بالتوراة عليهم، وكيف يصح لك هذا مع أنك قد ادعيت أنها منسوخة بكتابكم، فإن قلت: "إن هذا عليهم في معرض الإلزام، قيل لك: فلا تأخذ من التوراة شيئا من الأحكام، ولا تحكم منها على شيء بحلال ولا حرام.

ثم إن كلامك هذا، يفهم منه أنهم يحتجون عليكم بكتبهم، على أن المسيح لم يجيء، وإذا اتفق أن يحتجوا عليكم بمثل هذا من كتبكم، فقد أفحموكم.

هذا كله على ظاهر كلامك، ولم ترد[4] هذا المعنى، وإنما أردت أن تقول: إن الجميع قد اتفقوا على ألفاظ الكتب، واختلفوا في تأويلها، ولم تساعدك العبارة، وهذا أكثر كلامك،

1- في خ/م: "العقل".
2- في ط: "أفصحت".
3- في خ/م: "بعضهم".
4- في ط: "ترو".

تريد أن تقول شيئا، ثم تعبر عنه بعبارة تدل على خلاف ما أردت، وسبب ذلك أنك أدخلت نفسك في شيء لم تعرفه، وتعاطيت ما لم تحسنه، فكنت بمثابة من أدخل نفسه في شفط، ثم جاء آخر فشد عليه وربط.

ثم قلت: "والذي يستدل به للفرقتين على كفر أحدهما، أن ننظر في الكتب". إلى أن قلت: "إذ الذلة والأسرة والتفرقة[1] علامة الكافرين".

وهذا الإطلاق لو علمت ما يلزمك عليه، لاستغفرت إلهك منه، لكنك جهلت فأطلقت، وحيث وجب أن تمسك أرسلت، وذلك أنه إن صح ما ذكرت، فلا ذلة ولا أسرة ولا تفرقة، أبلغ من ذلة من يصفع في قفاه، ويجعل على رأسه شوك، وفي يده قصبة، ويساق للقتل وعلى عنقه خشبة، ويصلب وتسمر يداه ورجلاه وينحر[2]، وهو يطلب ماء فيرفع إليه إناء خل، وهذا كله بزعمكم، ولا رتبة في المذلة أبلغ من هذه، فعلى قولك وسياق دليلك، يلزمك تكفير المصلوب، ويحصل لليهودي منكم الغرض المطلوب، فإن كنت عاقلا، فليقل[3] كلامك، ولا يكن عارا عليك لسانك، وقد نصحتك يا فشكل، وما أظنك تقبل.

وإنما أردت أن تقول -فلم تطاوعك العبارة يا جهول-: الدليل على مجيء المسيح المنتظر، أنه قد ثبت في كتب الأنبياء عليهم السلام أن الله قال لليهود: لا يزال ملككم قائما وخيركم دائما، ما دمتم مؤمنين حتى تكفروا، فإذا كفرتم، أزلت ملككم، وأبدلتكم منه ذلا وصغارا، وغضبا ونقمة. وعند ذلك أرسل إليكم المسيح، ولا يشك أحد في زوال ملك اليهود وانقطاعه، وفي نزول الذلة والمسكنة عليهم، فلا يشك في كفرهم، ولا يشك في مجيء المسيح وأنهم كفروا به، ولو هكذا قلت، لما لزمك شيء مما ألزمت، وهذا الدليل الذي استدللت به على اليهود، إذا سيق على الطريقة التي ذكرناها، وصح نقله عن الأنبياء بطريق القطع، هو حجة على اليهود لا مخرج لهم منها ولا محيص عنها، على أنه بقي فيه مواضع للبحث إذا انفصلت تم الدليل ووضح السبيل.

1- في ط: "الفرقة".
2- في ط: "وينخز".
3- في ط: "فثقل".

الفصل الثالث

[المسيح عيسى ابن مريم][1]

من حكاية كلامه أيضا،

قال: وأنا أثبت لك أن المسيح قد جاء من كلام الأنبياء، قال النبي هوشع بن بئيرى[2] عليه السلام هكذا بكلام عبراني: "كي يا ميم ربيم يا شابوا بأنا إسرائل أن ملخ وإن صار"[3] تفسيره[4]: "إن أياما كثيرة يقيموا بنى إسرائيل دون ملك ودون مقدم"[5]، فإذا سئل اليهودي الجاحد، إن كان لهم ملك أو مقدم، فلا يكون جوابه إلا أن يقول: ليس عندنا ملك ولا مقدم. فيقال لهم: إذ ليس عندكم ملك ولا مقدم، فاسمع ما قال يعقوب الذي كان له اثنا[6] عشر ولدا الذي منهم يوسف الصديق، رضي الله عنهم أجمعين إلى يوم الدين، قال الفاضل يعقوب بكلام عبراني: "لو يا صور شابات مى يهودا ومحو كيك [صبان غلات غاض][7] كى يا بوشيلو ولوا اقاهث عميم"[8]، وهذا تفسيره[9]: لا ينتقض قضيب[10] الملك من يهودا وراسم من بين رجليه، حتى يأتي المسيح وله تطوع الأمم.

1- العنوان الموجود بين المعقوفتين ساقطة من خ/م.

2- في خ/م: "باوي". ابن بئيري. وهو نبي من الأنبياء الصغار، تنبأ أيام الملوك عزريا ويوثام وأحاز وحزقيا ملوك يهوذا ويربعام الثاني ملك المملكة الشمالية (هو1: 1). ويظن أن فترة نبواته دامت حوالي أربعين سنة، في القرن الثامن قبل الميلاد. وقد عاصر هوشع سقوط السامرة سنة 722 ق.م. وكان ينتمي إلى مملكة الشمال، وإلى تلك المملكة (أي السامرة). تنبأ، وكان معاصرا لإشعياء الذي تنبأ لمملكة الجنوب (يهوذا) (قابل هو1: 1 مع إش1: 1). كما أن هوشع عاصر عاموس في المملكة الشمالية وميخا في المملكة الجنوبية. وسفر هوشع أول أسفار الأنبياء الصغار في ترتيب وضعها في الكتاب المقدس. وهو السفر الثامن والعشرون، في العهد القديم ويتألف من قسمين: ص1-3، ثم ص4-14. أما القسم الأول فيرجع إلى السنوات الأولى من عهد نبوءة هوشع. وهو يفسر إصحاحات القسم الثاني، التي تدور حول عدم وفاء شعب بني إسرائيل في تاريخهم الطويل (4: 1-5: 7، 6: 4-7: 16، 8: 11)، وحول ضرورة الطهارة، والاعتراف بمحبة يهوه (6: 1-3، 12: 14)) ويرمز إلى خيانة بني إسرائيل لله في الإصحاحات الثلاثة الأولى بالخيانة الزوجية.

3- سفر هوشع3: 4. כִּי יָמִים רַבִּים, יֵשְׁבוּ בְּנֵי יִשְׂרָאֵל--אֵין מֶלֶךְ וְאֵין שָׂר.

4- في خ/م: "فسره".

5- هوشع3: 4، "لأن بني إسرائيل سيقعدون أيام كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحةوبلا تمثال وبلا أفود وبلا ترافيم".

6- في ط، وخ/م: "اثني".

7- في ط: "مبين رعلاف عاد".

8- التكوين49: 10. לֹא-יָסוּר שֵׁבֶט מִיהוּדָה, וּמְחֹקֵק מִבֵּין רַגְלָיו, עַד כִּי-יָבֹא שִׁילֹה, וְלוֹ יִקְּהַת עַמִּים.

9- في خ/م: "فسره".

10- في ط سقطت كلمة "قضيب".

فيقال له[1]: إذ ليس لكم ملك ولا مقدم، فقد جاء المسيح لقول[2] يعقوب: [لا ينتقض قضيب الملك من يهودا وراسم من بين رجليه حتى يأتي المسيح فقد كمل ما قال يعقوب][3] النبي: إذ ليس لهم ملك.

وقال يرميا[4] النبي عليه السلام، في الطائفة الكافرة به بكلام عبراني هكذا: "أم يا عمود موشا وشموال لفاناى[5] أن نفشى[6] الها عم هذا شلاح معال فاناى ويا ساوها ياكى نمروا[7] أناه ناسا وامرتا [لاميم مي][8] لما باث لما باث امى لسانى[9] أمى لا راعاب لا راعاب وخلاي[10] حامتي[11] بام".[12]

اسمع كلام الله على لسان يرميا[13] النبي تفسيره[14]: "إن وقف إلى موسى وشموال لا نرضى عن هذه الأمة أرميهم من قدامى ويخرجوا، فإن قالوا أين يخرجوا فتقل لهم من الموت إلى الموت ومن الغي إلى الغي[15] ومن الجوع إلى الجوع ويكمل غضبي فيهم".[16]

1- في ط: "لهم".

2- في ط: "كقول".

3- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.

4- في ط: "إرميا".

5- في ط: "لقاني".

6- في ط: "نقسى".

7- في ط: "يمرو".

8- في ط: "لاهيم هى".

9- في ط: "تشاني".

10- في ط: "خلاقى".

11- في ط: "جماتى".

12- إرميا15: 1-2، א וַיֹּאמֶר יְהוָה, אֵלַי, אִם-יַעֲמֹד מֹשֶׁה וּשְׁמוּאֵל לְפָנַי, אֵין נַפְשִׁי אֶל-הָעָם הַזֶּה; שַׁלַּח מֵעַל-פָּנַי, וְיֵצֵאוּ. ב וְהָיָה כִּי-יֹאמְרוּ אֵלֶיךָ, אָנָה נֵצֵא; וְאָמַרְתָּ אֲלֵיהֶם כֹּה-אָמַר יְהוָה, אֲשֶׁר לַמָּוֶת לַמָּוֶת וַאֲשֶׁר לַחֶרֶב לַחֶרֶב, וַאֲשֶׁר לָרָעָב לָרָעָב, וַאֲשֶׁר לַשְּׁבִי לַשֶּׁבִי.

13- في ط: "إرميا".

14- في خ/م: "فسره".

15- في ط: "الغنى إلى الغنى".

16- إرميا15: 1-2. ثم قال الرب لي وان وقف موسى وصموئيل أمامي لا تكون نفسي نحو هذا الشعب. اطرحهم من امامي فيخرجوا ويكون إذا قالوا لك إلى أين نخرج انك تقول لهم هكذا قال الرب الذين للموت فإلى الموت والذين للسيف فإلى السيف والذين للجوع فإلى الجوع والذين للسبي فإلى السبي.

فهم في غضب الله بكفرهم بالمسيح الذي قد جاء.

ثم قال الله[1] على لسان يعقوب النبي الفاضل بلسان سرياني هكذا: "[لا يا عضا عاث شلطان مرفاث][2] يهودا وصفوا متانا بانوهي عاض على ما عاثرا[3] ياتا ماشيحا داث لاه ملخوثا ولاه اشتماعون عما[4] مايا" وهذا تفسيره[5]: "كما قاله الله على لسان نبيه يعقوب: "لا ينتقض قضيب الملك من يهودا وراسم من أنبيائه[6] حتى أن يأتي ما شيحا الذي هو المسيح الذي له ملك[7] وله تطوع الأمم".

وقال الله تعالى على لسان يرميا، النبي في انقطاع ملكهم بكلام عبراني هكذا: "فأضاع أدوناى ياحور أف كل كان[8] إن إسرائيل"، وهذا تفسيره[9]: "قطع الله بشدة غضبه جميع دولة إسرائيل" فافهم فقد جاء المسيح وانقطع ملكهم.

وقد قال الله على لسان يرميا النبي في إثبات شريعة المسيح وإيمان الحواريين قائلا بلسان عبراني: "[من ياميم بايم نوم أدوناي واحارتي لابت وابت إسرائيل يهودا بريث حاد شالو خبريت أشير نار بي أبوثام باليوم موسى أثام هي أرص نص ثم ميلت عابا ضيم]"[10] تفسيره، يقول الله: وأثبت لبيت إسرائيل ويهودا عهدا جديدا ليس كالعهد الذي قلت لآبائهم في اليوم الذي أخرجتهم من أرض مصر من بيت العبودية".

1- في ط: "تعالى".
2- في ط: ألا يا عصا عاث غلطان مد أفات".
3- في ط: "عاث ذا".
4-4- في ط: "عاما".
5- في خ/م: "فسره".
6- في ط: "ابنائه".
7- في ط: "الملك".
8- في ط: "مكان".
9- في خ/م: "فسره".
10- إرميا 31: 31-32. ورد النص في ط باختلاف طفيف في بعض الحروف والكلمات، " هنا يا ميم بايم نوم يهوه واخارتى ات بت إسرائيل وايت بت يهودا بريت حارشاه لو اخبريت اشير بريت ات ابو ثام بيوم هو تزيكى بيرم لهو عاييم مى ارس مصريم امير همه هفرو ات بريت وانبى بعلتى بم نام يهوه ".
والنص بالعبرية هو: " לא לֹא כַבְּרִית, אֲשֶׁר כָּרַתִּי אֶת-אֲבוֹתָם, בְּיוֹם הֶחֱזִיקִי בְיָדָם, לְהוֹצִיאָם מֵאֶרֶץ מִצְרָיִם: אֲשֶׁר-הֵמָּה הֵפֵרוּ אֶת-בְּרִיתִי, וְאָנֹכִי בָּעַלְתִּי בָם--נְאֻם-יְהוָה. לב כִּי זֹאת הַבְּרִית אֲשֶׁר אֶכְרֹת אֶת-בֵּית יִשְׂרָאֵל אַחֲרֵי הַיָּמִים הָהֵם, נְאֻם-יְהוָה, נָתַתִּי אֶת-תּוֹרָתִי בְּקִרְבָּם, וְעַל-לִבָּם אֶכְתֲּבֶנָּה; וְהָיִיתִי לָהֶם לֵאלֹהִים, וְהֵמָּה יִהְיוּ-לִי לְעָם. ".

فبين الله بهذا الكلام، إيمان الحواريين[1] والتابعين لهم، كما قال الله في موضع آخر على لسان إرمياء النبي بلسان عبراني، عن إيمان الحواريين قال: "اشربوا[2] بانيم شوبابيم نوم ادوناى كى انوخى با علتى باخيم وإلا كحتى اتخيم [أحاد مي عيدا وشنايم مشباحا واهاباتى][3] أتخيم سيون"[4].

تفسيره: "ارجعوا يا أولاد اللجاجة فإني [انضربت فيكم][5] وآخذكم واحدا من مدينة واثنين من عشيرة وأدخلكم إلى صهيون وكذلك آخذ الحواريين واحدا من مدينة واثنان من عشيرة"[6]، ثم قال لضيق الآية: "واناتتى[7] لا خيم روعيم كلبى" تفسيره: "ونعطيكم رعاة كقلبي"[8].

[ثم قال][9]: "وأراع أتخيم رعاه واهسكال"[10] تفسيره[11]: "ويرعوكم المعرفة[12] والفهم"[13] [وكذلك جعل من الحواريين أئمة ورعاة يعلموا الناس المعرفة والفهم][14]. ثم قال لضيق الآية في ألا يعمل بالعهد البالي: "واها ياكى ترفوا[15] افريتم بأريش بالبوميم هاهما نوم ادوناى لو يمروا [عر دارون ريث][16] ادوناى ولو يا عالا على لاب ولديز كا وابوا ولوا يفقوا

1- في خ/م: "الحواريون".
2- في ط: "شوبوا".
3- في ط: "أحاد معير وشنايم مشتبان وهاباتى".
4- إرميا3: 14، שׁוּבוּ בָנִים שׁוֹבָבִים נְאֻם-יְהוָה, כִּי אָנֹכִי בָּעַלְתִּי בָכֶם; וְלָקַחְתִּי אֶתְכֶם אֶחָד מֵעִיר, וּשְׁנַיִם מִמִּשְׁפָּחָה; וְהֵבֵאתִי אֶתְכֶם, צִיּוֹן
5- في ط: "سدت عليكم".
6- النص العربي من سفر إرميا3: 14: "ارجعوا أيها البنون العصاة يقول الرب لاني سدت عليكم فآخذكم واحد من المدينة واثنين من العشيرة واتي بكم إلى صهيون"
7- في ط: "وناتي".
8- في ط: "كقلبي".
9- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.
10- النص العبري من إرميا3: 15، " וְנָתַתִּי לָכֶם רֹעִים, כְּלִבִּי; וְרָעוּ אֶתְכֶם, דֵּעָה וְהַשְׂכֵּיל." .
11- ساقطة في ط.
12- في ط: "بالمعرفة".
13- النص العربي إرميا3: 15 " وأعطيكم رعاة حسب قلبي فيرعونكم بالمعرفة والفهم. ".
14- ما بين المعقوفتين ساقطة من خ/م.
15- في ط: "تربوا".
16- في ط: "غر دارون بريث".

ذوا ولو ياعا ساعود"[1]، تفسيره[2]: "ويكون إذا كثرتم وتنمو في الأرض في تلك الأيام يقول الله لا يقولوا[3] أبدا بتابوت عهد الله ولا يصعد على قلب ولا يذكر به ولا يعتقده ولا يعمل به أبدا"[4].

فاعلم أنه أمن الحواريين والتابعين لهم من الأمم.

ثم قال سليمان الفاضل: "لم أتعلم علما وعرفت معرفة المقدسين"[5].

فافهم أيها الإنسان ما هي معرفة المقدسين الذي لا يمكن لأحد أن يكون مقدسا إلا أن عرفها وآمن بها.

وفي[6] حقيقة الإيمان قال: "من صعد إلى السماء وهبط من قبض الأرواح في كفيه من جمع الماء في ثوب"[7]، ثم قال بكلام عبراني: "مى هاكيم كل افس أريس [مشموا أمشم][8] بنوا"[9].

فافهم فسره وكن عاقلا مدبرا ترشد.

قال سليمان: "مى هاكيم كل افس أريس [مشموا أمشم][10] بنوا"[11] تفسيره: "من أقام

1- النص العبري من سفر إرميا3: 16، "וְהָיָה כִּי תִרְבּוּ וּפְרִיתֶם בָּאָרֶץ בַּיָּמִים הָהֵמָּה, נְאֻם-יְהוָה--לֹא-יֹאמְרוּ עוֹד אֲרוֹן בְּרִית-יְהוָה, וְלֹא יַעֲלֶה עַל-לֵב; וְלֹא יִזְכְּרוּ-בוֹ וְלֹא יִפְקֹדוּ, וְלֹא יֵעָשֶׂה עוֹד".

2- في خ/م: "فسره".

3- في ط: "تقولوا".

4- النص العربي من إرميا3: 16، "ويكون إذ تكثرون وتثمرون في الأرض في تلك الأيام يقول الرب أنهم لا يقولون بعد تابوت عهد الرب ولا يخطر على بال ولا يذكرونه ولا يتعهدونه ولا يصنع بعد.".

5- سفر الأمثال30:3.

6- ساقطة من خ/م.

7- الأمثال30: 4. من صعد إلى السموات ونزل.من جمع الريح في حفنتيه.من صر المياه في ثوب، ثبت جميع أطراف الأرض.ما اسمه وما اسم ابنه إن عرفت.

8- في ط: "ماشموا وماشم".

9- النص العبري من الأمثال30: 4، ד מִי עָלָה-שָׁמַיִם וַיֵּרַד מִי אָסַף-רוּחַ בְּחָפְנָיו מִי צָרַר-מַיִם בַּשִּׂמְלָה--מִי, הֵקִים כָּל-אַפְסֵי-אָרֶץ: מַה-שְּׁמוֹ וּמַה-שֶּׁם-בְּנוֹ, כִּי תֵדָע.

10- في ط: "ماشموا وماشم".

11- النص العبري من الأمثال30: 4، ד מִי עָלָה-שָׁמַיִם וַיֵּרַד מִי אָסַף-רוּחַ בְּחָפְנָיו מִי צָרַר-מַיִם בַּשִּׂמְלָה--מִי, הֵקִים כָּל-אַפְסֵי-אָרֶץ: מַה-שְּׁמוֹ וּמַה-שֶּׁם-בְּנוֹ, כִּי תֵדָע.

جميع أقطار الأرض ما اسمه واسم ابنه" ثم قال لضيق الآية بالعبراني: "كل أمراث ألواه صروفا ماغين هو [لا حول ها حوسيم بوا][1،2]، تفسيره[3]: "جميع كلام الله ترس منير هو لجميع الواثقين[4] به"[5] فافهم.

ثم قال الله على لسان يرمبا[6] النبي بكلام عبراني: "هنا باميم بايم توم[7] أدوناى واكراتى ات بت إسرائيل وات بت يهودا بريت هارشاه زيرع آدام وزيرع مهيما"[8]، تفسيره: "هذا يوم يأتى يقول الله ونزرع في بيت إسرائيل وبيت يهوذا نسل آدمى ونسل بهيمي"[9].

فكان النسل الآدمي الحواريون المؤمنون بالمسيح عند إقباله والتابعين لهم، وكان النسل البهيمي اليهود الجاحدين[10] للمسيح، وكذلك الحواري يحيى[11] الذي اسمه جوانش قال من لم يؤمن[12] ولم يتمادى في تعليم المسيح فلا إله له فأفهم ترشد.

1- في ط: " لات سيم بو".
2- الأمثال30: 5، النص العبري: "ה כָּל-אִמְרַת אֱלוֹהַּ צְרוּפָה; מָגֵן הוּא، לַחֹסִים בּוֹ.".
3- في خ/م: "فسره".
4- في خ/م: "الوارقين".
5- الأمثال30: 5، والنص العربي: "كل كلمة من الله نقية ترس هو للمحتمين به".
6- في ط: "إرمياء".
7- في ط: "نوم".
8- النص اختصار لما ورد في النص العبري من سفر إرميا31: 31-34: "לא לֹא כַבְּרִית، אֲשֶׁר כָּרַתִּי אֶת-אֲבוֹתָם، בְּיוֹם הֶחֱזִיקִי בְיָדָם، לְהוֹצִיאָם מֵאֶרֶץ מִצְרָיִם: אֲשֶׁר-הֵמָּה הֵפֵרוּ אֶת-בְּרִיתִי، וְאָנֹכִי בָּעַלְתִּי בָם--נְאֻם-יְהוָה. לב כִּי זֹאת הַבְּרִית אֲשֶׁר אֶכְרֹת אֶת-בֵּית יִשְׂרָאֵל אַחֲרֵי הַיָּמִים הָהֵם، נְאֻם-יְהוָה، נָתַתִּי אֶת-תּוֹרָתִי בְּקִרְבָּם، וְעַל-לִבָּם אֶכְתֲּבֶנָּה; וְהָיִיתִי לָהֶם לֵאלֹהִים، וְהֵמָּה יִהְיוּ-לִי לְעָם. לג וְלֹא יְלַמְּדוּ עוֹד، אִישׁ אֶת-רֵעֵהוּ וְאִישׁ אֶת-אָחִיו לֵאמֹר، דְּעוּ אֶת-יְהוָה: כִּי-כוּלָּם יֵדְעוּ אוֹתִי לְמִקְּטַנָּם וְעַד-גְּדוֹלָם، נְאֻם-יְהוָה--כִּי אֶסְלַח לַעֲוֺנָם، וּלְחַטָּאתָם לֹא אֶזְכָּר-עוֹד. {ס} לד כֹּה אָמַר יְהוָה، נֹתֵן שֶׁמֶשׁ לְאוֹר יוֹמָם، חֻקֹּת יָרֵחַ וְכוֹכָבִים، לְאוֹר לָיְלָה; רֹגַע הַיָּם וַיֶּהֱמוּ גַלָּיו، יְהוָה צְבָאוֹת שְׁמוֹ.
9- إرميا 31: 31-34. "ها ايام تاتي يقول الرب واقطع مع بيت اسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا . 32ليس كالعهد الذي قطعته مع ابائهم يوم امسكتهم بيدهم لاخرجهم من ارض مصر حين نقضوا عهدي فرفضتهم يقول الرب 33 .بل هذا هو العهد الذي اقطعه مع بيت اسرائيل بعد تلك الايام يقول الرب.اجعل شريعتي في داخلهم واكتبها على قلوبهم واكون لهم الها وهم يكونون لي شعبا 34 . ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد اخاه قائلين اعرفوا الرب لانهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم الى كبيرهم يقول الرب.لاني اصفح عن اثمهم ولا اذكر خطيتهم بعد".
10- في خ/م: "الجاحدون".
11- في ط: "يوحنا".
12- في خ/م: "يأمن".

اعلم أني كتبت لك بالعبراني والسرياني[1] من شهادات الأنبياء عن الله من الكتب التي بأيديهم، وأن اليهود لا يقدرون على إنكار حرف منها، إذا احتج معهم بها بالعبراني والسرياني، كما نطقت به الأنبياء رضي الله عنهم في إثبات إقبال المسيح، وإيمان الحواريين[2] والتابعين لهم وفي إطراح اليهود الملاعين الجاحدين للمسيح سيدنا فافهم.

الجواب عما ذكره[3]

يا هذا المخدوع، ظننت السراب ماء، والأرض سماء، فاستسمنت ذا ورم، ونفخت في غير ضرم، اعلم يا هذا، أنه لا يقبل منك في هذا المقام، الاستدلال بالظنون والأوهام، إذ المطلوب فيه تحصيل العلم القطعي، واليقين البرهاني، فلا يحصل لك شيء من ذلك، حتى تعلم صحة ما استدللت به هنالك، ولا تعلم صحة شيء مما ادعيته، دليلا قاطعا مفيدا للعلم، إلا بعد معرفتك بأن[4] هذه الكتب التي استدللت بها، هي[5] من عند الله، وأنها بلغتك عن الله على ألسنة الصادقين، ولا تتوصل[6] إلى معرفة شيء من ذلك، إلا بعد معرفتك بالنبوات وحقيقتها، ودلائل صحتها العقلية.

ولا تتوصل إلى ذلك، حتى تعلم حدوث العالم، وأنه موجود بعد عدم، وتعلم أن له محدثا، وأن محدثه موجود، حي عالم قادر مريد، موصوف بصفات الكمال، حتى يصح منه إرسال الرسل وتأييدهم بالأدلة، وكل ذلك إنما يعرف بأدلة عقلية[7]، ولا يصح أن تعرف بأدلة سمعية، فإن السمع لا يثبت، إلا بعد ثبوت هذه الأصول، فإذا وصلت إلى هذا المحل، وسلمت من التعثر بأذيال الزلل.

وكم دونها من مهمة ومفازة ... وكم أرض جدب دونها ولصوص[8]

فحينئذ يجب عليك أن تنظر فيما ألقى الصادقون إليك، فإن كنت ممن تسمع منهم

1- في خ/م: "الرسياني".
2- في خ/م: "الحواريون".
3- في ط: "ذكر".
4- في ط: "أن".
5- في ط: "أهي".
6- في ط: "يتوصل".
7- في ط: "قطعية".
8- البيت لامرئ القيس من قصيدته:
أمن ذكر سلمى أن نأتك تنوص ... فتقصر عنها خطوة وتبوص.

كلامهم، وتشافه بنفسك خطابهم، فقد سقطت عنك معرفة طرق النقل، وشروط التحمل والحمل، ولزمتك معرفة اللغة التي يتكلم بها الصادقون، فتعرف مقاطع الكلمات، وكيفية النطق من اختلاف بسكون أو حركات، وتعرف فرق ما بين الحقيقة والمجاز، والنص والظاهر، والمجمل والمؤول[1]، والخاص والعام[2]، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ، إلى أمور كثيرة تعرف في علم الأصول، وإن كنت ممن لم يسمع[3] من الصادقين، فلا بد لك من أن تنظر في الذي بلغك ذلك الدليل على يديه، إن كان يجوز عادة عليه الغلط والسهو أو لا، فإن كان ممن يجوز عليه الغلط والسهو عادة، فلا يلتفت إلى خبره في هذا المقام، وهذا النوع هو الذي يسمى عندنا أخبار الآحاد، ولها محل تقبل فيه بعد مراعاة شروط. ويعرف كل ذلك في موضعه.

وأما مثل هذا الذي تصديت له، فلا يتوصل إليه بهذه الطرق، فإن المطلوب هنا حصول العلم، ولا يحصل العلم بقول من يجوز[4] الخطأ والسهو عليه في خبره، وإن كان مما لا يجوز عليه شيء مما ذكرناه عادة، فهو الذي يحصل العلم بقوله، وهو العدد الكثير الذين تحيل العادة عليهم الكذب، وهذا الخبر هو الذي يسمى المتواتر، والتواتر له شروط وأحكام تعرف في موضعه.

فإذا تقررت هذه المقدمة، فأنا أسألك سؤال منصف لا معنف[5]، وأقسم عليك بدينك قسم متلطف لا متعجرف، هل توفرت لديك هذه الشروط، أم هل أكثرها عندك مطرح مسقوط؟ فإن أنصفت واعترفت، علمت أنك على العلم بها ما حصلت، فينبغي لك أن تطلب حصول العلم من بابه، وأن تجتهد في تحصيل أسبابه، وإن ادعيت علم ذلك، علم أنك مغالط معاند، جائر عن الحق وحائد.

وكفى بكلامك في كتابك هذا على كذبك شاهد، ثم على قرب تفتضح إذا خرست عن جواب ما عنه سئلت، فعجل[6] بالجواب، ولا تتأن بالكتاب[7]، وإن أبيت إلا تماديا في غيك، واستمرار على جهلك وبغيك.

1- في خ/م: "المأول".
2- في ط: "والعام والخاص".
3- في خ/م: "تسمع".
4- في ط: "يتجوز".
5- في ط: "مصنف".
6- في ط: "تعجل".
7- في ط: "في الكتاب".

أريناك اختلال هذه الشروط عندكم عيانا، وأقمنا على فساد كتبك حجة وبرهانا.

وذلك أنا نقول: "إن من أعظم كتبكم التي ترجعون إليها وتعولون في أحكامكم عليها التوراة والإنجيل، وكفى بهما شرفا وشهرة أنهما عندكم كلام الملك الجليل، وأنتم تدعون أنكم تناقلتموهما جيلا بعد جيل، وأنا أبين إن شاء الله أن نقلهما إنما هو[1] بطريق الآحاد، وأن الغلط والسهو يجوز على ناقليهما [وهما منهما ببطلان المراد][2].

وأذكر[3] إن شاء الله بعض ما وقع فيهما من التناقض والتحريف، والقلب والتصحيف، وأنبه على قبيح ما تنسبونه فيهما إلى الله، من القول السفساف السخيف، وما تنتقصون به الأنبياء أولى الفضل والتشريف، بحول الله تعالى وحسن عونه.

وأبدأ بالتوراة لكونها مقدمة في الرتبة والزمان، ومعترفا بها عند أولي الأديان [وبالله المستعان][4].

1- في ط: "كان".

2- في ط: " وسآتي منهما ببطلان المراد".

3- في ط: "أذكر".

4- ساقطة في خ/م.

فصل: في بيان بعض ما طرأ في التوراة من الخلل، وأنها لم تنقل نقلا متواترا فتسلم لأجله من الخطأ والزلل.

فأول ذلك[1]:

أنها لم تترك على ما كانت في الألواح التي كتبها الله[2] لموسى، ولا على ما انتسخها لهم موسى، بل زيد فيها ولا بد ما ليس منها، ولا كان في الألواح التي كتبها الله لموسى، ويدل على ذلك أن في آخر السفر الخامس أن موسى توفي: "في أرض موآب [ودفن في الوادي في أرض مؤاب][3]، بإزاء بيت فغور، ولم[4] يعرف إنسان موضع قبره إلى اليوم، وكان قد أتى على موسى إذ توفى مائة وعشرون سنة، ولم يضعف بصره، ولم يتشيخ[5] وجهه، وبكى بنو إسرائيل على موسى ثلاثين[6] يوما في غريب[7] موآب، فلما تمت أيام حزنهم على موسى، امتلأ يوشع[8] بن نون من روح الحكمة، لأن موسى كان وضع يده على رأسه في حياته، وكان بنو إسرائيل يطيعونه ويعملون كما أمر الرب موسى."[9].

ولا يشك الواقف على هذا التاريخ وهذه الوفاة، أنها ليست مما أنزل الله على موسى ولا مما كتبها موسى عن نفسه، وإنما هي من إثبات من أراد أن يثبتها بعد وفاة موسى بزمان، ويدلك على ذلك قوله: "ولم يعرف إنسان موضع قبره إلى اليوم"[10] يريد[11] اليوم الذي كتب فيه هذا، وهذا بين عند المنصف، ومع بيانه فليس أحد من اليهود والنصارى – فيما أعلم– يقول إن التوراة زيد فيها شيء بعد موسى، ولا يفرق بين هذا الكلام وغيره،

1- في ط: "دليل".
2- في ط: "تعالى".
3- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.
4- في خ/م: "أو لم".
5- في خ/م: "يتشخ".
6- في ط: "ثلاثون".
7- في ط: "عريب".
8- في ط: "يشوع".
9- النص اختصار لما جاء في سفر التثنية34: 5-9
10- التثنية34: 6
11- في ط: "يريد به".

بل هي كلها عندهم كلام الله، وهذا جهل عظيم وخطب جسيم، فهم بين أمرين: إما أن يقولوا: إن هذا الكلام هو مما كتبه الله لموسى وأخبر به موسى، أو يقولوا إنه ليس مما أخبر الله به موسى ولم يخبر به موسى، فإن قالوا الأول كذبه مساق الكلام، فإن المفهوم منه على القطع أنه كتب بعد وفاة موسى بزمان، وإن قالوا بالقول الآخر، قيل لهم فلأي شيء خلطتم كلام الله بكلام غيره، وأجريتموها في نسق واحد وزدتم على كلام الله ولم تشعروا بذلك، بل نسبتم كل ذلك إلى أن الله أنزله.

وإذا جاز زيادة مثل هذا ولم يتحرز منه، جاز أن يكون كل حكاية فيها لا تصح[1] نسبتها إلى الله زائدة، ولاسيما الحكايات الركيكة، التي تحكى فيها عن الأنبياء التي لا يليق ذكرها بسفلة الناس، وغالب الظن، ولا يعلم الغيب إلا الله[2]، أن السفر الأول الذي هو سفر البدء والأنساب، مما زيد على كلام الله[3] ولم يشعروا بزيادته.

ومما يدل أيضا على هذا المعنى أن كثيرا مما يجيء فيها: "وكلم الرب موسى وقال له اقبض حساب بني جرشون[5.4]"، "وكلم الرب موسى وقال له كلم بني إسرائيل"[6]، ومثل هذا كثير.

وهذا يدلك أنه ليس مما قاله الرب جل ذكره لموسى، ولا مما قاله موسى لهم أعني: "لفظ وكلم الرب موسى وقال له"[7]، وما أشبهه من لفظ الحكاية عنه، وإنما هو شيء حكى عنه بعد انقراضه، وأضيف إلى كلام الله، ثم لا يعرفون من الحاكي، وإذا جاز مثل هذا، ولا يشعرون به، جاز أن يكون أكثرها مغيرا ومبدلا، وليس من كلام الله ولا من كلام موسى ولا يشعرون به، ومن وقف عليها متتبعا لهذا المعنى، قطع بأنها زيد فيها ما ليس منها.

وعند انكشاف الغبار، يتبين[8] أفرس تحتك أم حمار، ماء ولا كصدى[9] ومرعى

1- في ط: "تصح".
2- في ط: "تعالى".
3- في ط: "تعالى".
4- في خ/م: "خرشون".
5- العدد4: 21.
6- العدد15: 1-2.
7- العدد18: 25
8- في ط: "تتبين".
9- في خ/م: "تصدى".

ولا كالسعدان[1].

ولقد حفظ الله القرآن العظيم فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [2،3].

ولذلك كره علماؤنا رضي الله عنهم كتب التعاشير[4]، وأسماء السور في المصحف، وإن كانت بخط آخر ولون آخر، وقد اتفقوا -فيما أحسب- على أنه لا يجوز كتب فواتح السور -أعني[5] أسماءها- بخط المصحف وبلون مداه، لئلا يختلط به ما ليس منه، فالحمد لله الذي هدانا لهذا الدين القويم والمنهج المستقيم.

وأما بيان أنها ليست متواترة، فهو أن اليهود عن[6] بكرة أبيهم، يعرفون ولا ينكرون، أن التوراة إنما كانت طول[7] مدة ملك بني إسرائيل عند الكوهان الأكبر الهاروني وحده، وعنه تلقيت، ولا ينكر ذلك منهم ولا منكم إلا مجاهر بالباطل.

1- جاء في زهر الأكم في الأمثال والحكم. وقال أبو علي البصير يمدح عبيد الله بن خاقان وله:
يا وزراء السلطان ... أنتم وآل خاقان
كبعض ما روينا ... في سالفات الأزمان
ماء ولا كصدى ... مرعى ولا كالسعدان

2- سورة الحجر، آية: 9.

3- في خ/م: سقطت بقية الآية: " وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ".

4- هامش 3، في ط: التفاسير وهو تصحيف والصحيح التعاشير، وهي العلامة التي توضع للإشارة إلى تمام عشر آيات في القرآن يقول السرخسي في أصوله عند الحديث عن القرآن: "فعرفنا أن الطريق فيه النقل المتواتر. وإنما اعتبرنا الاثبات في دفات المصاحف لان الصحابة رضي الله عنهم إنما أثبتوا القرآن في دفات المصاحف لتحقيق النقل المتواتر فيه، ولهذا أمروا بتجريد القرآن في المصاحف وكرهوا التعاشير وأثبتوا في المصاحف ما اتفقوا عليه ثم نقل إلينا نقلا متواترا فثبت به العلم قطعا، ولما ثبت بهذا الطريق أنه كلام الله تعالى ثبت أنه حجة موجبة للعلم قطعا لعلمنا يقينا أن كلام الله لا يكون إلا حقا." أصول السرخسي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الاولى 1414 هـ- 1993 م، ج1، ص: 280، أما الغزالي فيقول في المستصفى: "وحد الكتاب ما نقل إلينا بين دفتي المصحف على الأحرف السبعة المشهورة نقلا متواترا. ونعني بالكتاب القرآن المنزل، وقيدناه بالمصحف؛ لأن الصحابة بالغوا في الاحتياط في نقله حتى كرهوا التعاشير والنقط وأمروا بالتجريد كي لا يختلط بالقرآن غيره، ونقل إلينا متواترا، فعلم أن المكتوب في المصحف المتفق عليه هو القرآن، وأن ما هو خارج عنه فليس منه"، المستصفى من علم الأصول، دراسة وتحقيق حمزة بن زهير حافظ، ج2، ص:9.

5- في ط: " يعني".

6- في ط: "على".

7- هامش6: في ط: طور، ساق ابن حزم الاستدلال نفسه وهو ينتقد صحة التوراة، "وفي نص توراتهم أنهم كانوا لا يلزمهم المجيء إلى بيت المقدس إلا ثلاث مرات في كل سنة فقط فإنما أمر بنص التوراة كما أوردنا أن يقرأه عليهم الكوهن الهاروني عند اجتماعهم فقط فثبت أنها لم تكن إلا في الهيكل فقط عند الكوهن الهاروني فقط لا عند أحد سواه" ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1 ص: 300، ومما لا شك فيه أن أبا العباس القرطبي اطلع على الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم..

وكذلك ما يحكى من قتل بخت نصر جميع بني إسرائيل، وإحراقه كتب التوراة حيث وجدت، وإتلاف ما كان بأيديهم، حتى لم يترك منهم إلا عددا يسيرا، لا يحصل بخبرهم العلم، وكان قد أجلاهم إلى بابل[1] وهدم البيت، أو لعله كان الباقي منهم عددا كثيرا، إلا أنهم لم يكونوا كلهم يحفظونها، بل كانوا عددا يسيرا لا يحصل العلم بقولهم، وكان هذا كله قبل المسيح بخمس مائة سنة[2].

وكذلك واقعة طيطش بن شبشان[3] التي كانت بعد المسيح إلى أربعين سنة، إذ فرقوا التفرقة التي هي اليوم عليها، وهذا أيضا من المعروف عند الجميع، بحيث لا ينكره إلا مكابر مجاهر، وهذه الأمور كلها مما تقدح في النقل الذي يدعونه متواترا.

ثم نقول هذه الأمور المذكورة، إن وافقوا على وقوعها فقد اعترفوا بعدم التواتر، فإن من شرط خبر التواتر، أن ينقله العدد الكثير الذي تحيل العادة عليهم التواطؤ على الكذب والغلط عن عدد مثله، هكذا ولا ينقطع.

فإن رجع الخبر إلى عدد لا تحيل العادة عليهم الكذب، لم يحصل بذلك الخبر العلم، إذ لا يكون متواترا. وإن لم يوافقوا على وقوع هذه الوقائع هكذا، لم يقدروا على جحد أصلها، وإذا اعترفوا بأصلها، لم يقدروا أن ينكروا إمكان وقوع ما يعترفون بأصله، وتجويز وقوع ذلك، كتحقيق وقوع ذلك في عدم حصول العلم بالخبر الذي يدعون أنه متواتر..

وأما بيان التحريف فيها فهو أن اليهود تعترف بأن السبعين كوهانا اجتمعوا على تبديل ثلاثة عشر حرفا من التوراة، وذلك قبل المسيح في زمان القياصرة، ومن اجترأ على تبديل حرف من كتاب الله وتحريفه فلا يوثق بالذي في يده مما يدعى أنه كتاب الله لعدم الثقة به ولقلة مبالاته بالدين.

وأيضا فلعله قد حرفه كله أو أكثره.

وكذلك يقرون ولا ينكرون أن طائفة منهم يقال لهم السامرية حرفوا التوراة تحريفا بينا كثيرا، والسامرية يدعون عليهم مثل ذلك التحريف.

وكذلك النصارى أيضا يدعون على اليهود أنهم حرفوا في التوراة التاريخ، ويزعمون أنهم نقصوا من تاريخ آدم ألف سنة ونحو المائتين.

1- في خ/م: "بابيل".
2- في ط: "مائة سنة تقريبا".
3- في ط: "يسبسان". وهو الحاكم الروماني الذي هدم الهيكل سنة 70م وقضى على ثورة اليهود.

وهذه احتمالات توجب على العاقل التوقف فلا يدعي حصول العلم بنقل التوراة مع انقداح هذه الممكنات إلا مجاهر متعسف.

فإن قيل: كيف يصح أن يقال هذا، وقد كان الأنبياء بعد موسى عليه السلام يحكمون بالتوراة، ويرجعون إليها واحدا بعد واحد إلى زمن يحيى وعيسى، ثم بعد ذلك تناقلها النصارى كما تناقلها اليهود خلفا عن سلف إلى اليوم، وإن جاز تطرق التحريف إلى ما هذا سبيله، فيلزم عليه أن يحكم الأنبياء بالباطل.

ويلزم عليه أيضا، أن يقروا على الباطل غيرهم، وهذا كله باطل على الأنبياء، ويلزم عليه أيضا أن لا يحصل العلم بخبر متواتر، ولا يوثق بكتاب يدعى أنه جاء عن نبي.

فنقول وبالله التوفيق:

إنا لم نعين لوقوع التحريف فيها زمانا، ولا عينا من حرف منها شيئا، ولا من ألحق بها شيئا، فيحتمل أن يقع التحريف فيها قبلهم أو بعدهم، وإنما أبدينا تلك الاحتمالات، ليعلم أن الذي في نفوسكم من الثقة بها، إنما هو اعتقاد جزم وليس بعلم.

ومما يدل على قبول تلك الاحتمالات، وأنها قادحة في دعوى العلم بسلامتها، أنها لم تقر على ما تلقيت من موسى، بل زيد فيها ما لم يتلق عن موسى، مثل الذي حكيناه من ذكر وفاته، وحزن بني إسرائيل، وحكاية قول كلم الله موسى، وهذا يعلم منه على القطع، أن الله لم يقله لموسى ولا موسى قاله عن نفسه، يعلم ذلك من وقف عليه، وتتبعه بضرورة مساق الكلام ولا بد.

فالذي زاد ذلك لعله الذي وقع الخلل من جهته.

وأما ما ذكرتم من حكم الأنبياء بها، فليس فيه حجة لإمكان أن تنازعوا في قولكم كانوا يحكمون بها، بل لعلهم كانوا يحكمون بما كان الله يعلمهم بما يوافق شريعة موسى ولا يخالفها.

ولو سلمنا أنهم كانوا يحكمون بها، فنقول كل شيء حكم به الأنبياء من التوراة فليس بمحرف، وأما ما لم يحكموا به منها فلعله الذي حرف، مثل الأخبار التي حكيناها ونحكيها إن شاء الله[1].

فإن قيل: فيلزم منه أن يقر الأنبياء على الخطأ ويتحدثوا بالكذب، فإنهم كانوا يتحدثون بها، قلنا ليس بكاذب من حكى شيئا يعتقد صحته، لا يتعلق به حكم الله تعالى،

1- في ط: "تعالى".

وإن كان ذلك الخبر في نفسه مخالفا لما في الوجود، فإنه إنما يحكى عن اعتقاده وهو حق، وإنما الكاذب، الذي يخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه مع العلم بذلك، وهو حد الكذب عندنا وحقيقته.

وهذا إنما يجوز في حكاية الأخبار التي لا يتعلق بها حكم، وأما ما تعلق به حكم، منها فلا يجوز ذلك، إذ الأنبياء معصومون فيما يبلغونه من الأحكام عن الله تعالى، وإنما قلنا هذا حذرا من أن ننسب إلى الله تعالى ما لا يليق بجلاله أن ينزله في كتابه، ولا أن يناجي به صفوة أحبابه من الفواحش والفجور، التي حكوها في التوراة وادعوا أنه فيها مسطور، مع أنه ليس في ذكرها فائدة بل هي بكل ضلالة عائدة.

وكذلك تنزه موسى والأنبياء بعده، صلوات الله عليهم، عن ذلك الكلام الغث الركيك، الذي لو حكى مثله عن بعض السفلة لأنف منه، واستحى منه. ولما كان ينبغي لعاقل أن يلتفت إليه[1] ويصغى إليه، ولكان يجب عليه أن يعرض عنه وينكره إذا سمعه، هذا إذا كان محكيا عن السفلة، فكيف إذا حكاه الله عن نفسه، أو عن خيرته من خلقه الذين برأهم الله عن الكبائر والنقائص التي تناقض نبوتهم، فهم أكرم الخلق عليه وأحظاهم لديه.

وأيضا، فإن الله[2] حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والغيبة والبهتان والإحن[3]، ثم يتعامل بها مع أكرم الخلق عليه في نفوسهم وذراريهم وبناتهم، وينسبها إليهم ويشيعها أبد الآبدين عليهم.

هذا مما لا يليق بجلال الله تعالى. والقائل بوقوع هذا مستهزئ مفتر على الله.

وسننقل بعض[4] ما حكوا في التوراة من هذه القبائح إثر هذا إن شاء الله تعالى.

ثم نقول لو سلمنا أنها لم تحرف في زمان الأنبياء، لأمكن أن نقول فلعله حرف بعدهم، وذلك بعد وقعة طيطش حيث أفناهم، والذين تنصروا منهم عدد يسير لا تقوم الحجة بقولهم.

وإن قلنا إنهم كانوا عددا كثيرا، فلم يكن كل واحد منهم ممن يحفظها ولا يضبطها.

1- في ط: "يلتفت ويصغى إليه".
2- في ط: "تعالى".
3- في خ/م: "الإجن". وهو تصحيف لأن الإحن هي البغضاء.
4- في ط: "عن بعض".

ثم نقول للنصارى: إن أنكرتم أن يكون شيء من التوراة حرف، فلأي شيء تقولون إن اليهود حرفوا في التوراة في نسب آدم ونقصوا منه، وإذا جاز ذلك في نسب آدم، جاز في غيره وهذا بين، وأما قولهم: يلزم أن لا نقبل خبر متواتر، ولا يوثق بكتاب نبي. فلا يلزم شيء من ذلك، فإن الخبر إذا تطرقت إليه أمثال [هذه الاحتمالات، فلا يكون متواترا إذا كان قابلا لها، وأما كتب الأنبياء، فكل كتاب تطرق إليه أمثال][1] تلك الاحتمالات فلا يوثق بنقله، ولا يعول عليه لا مكان تلك الآفات.

[و لعل أشداقكم تتحلب][2] نحو كتابنا، فيقولون: فكتابكم لا يلتفت إليه ولا يعول عليه، فنقول هيهات، إنما قلنا كل كتاب تطرق إليه شيء من تلك الاحتمالات، وكتابنا منزه عن أمثال تلك الآفات، فإن الله تعالى تولى حفظه، وأجزل من كل صيانة حظه، فصانه بنظمه الذي لا يقدر الجن والإنس على آية منه، فلا يختلط به كلام متكلم، ولا يقبل وهم متوهم، إذ ليس من جنس كلام البشر، وهو معدود الآي والسور، ثم صانه بأن يسره للحفظ والاستظهار، فيستوي في نقله الكبار والصغار، لا يختص بحفظه أحد، والوالد إذ نقص منه حرفا واحدا، أو غير حركة منه رده وأصلحها عليه الولد.

ومع هذا فحروفه وكلماته وآياته وسوره في الدواوين معددة، وأشكال كتبه حروفه فيها مقيدة، ومع هذا فنقل الأمم التي لا تحصى عن الأمم التي لا تحصى، حتى يصل ذلك إلى النبي المصطفى، مع قرب العهد والتشمير في صيانته، والجد واستعمال القانون النحوي، وتثقيف اللسان العربي فيهما، كمل الله له الصون، وحصل له بهما على فهمه أكبر العون، فلله الحمد على ما أولى والشكر له على نعمه التي لا تحصى فأين اللؤلؤ من الخزف والياقوت من الصدف.

وبعد هذا فالآن حان أن نذكر بعض ما وقع في التوراة مما تطرق إليها التهم.

ومن ذلك ما ذكروه فيها في المصحف الأول منها:

"ورأى الله أن قد كثر فساد الآدميين في الأرض فندم على خلقهم وقال سأذهب الآدمي الذي خلقت على الأرض والخشاش وطيور السماء لأني نادم على خلقتها جدا"[3].

1- ما بين معقوفتين ساقط من ط.

2- في ط: "أو لعل أشرافكم تتخلب" ويقال تحلب فوه، إذا سال لعابه، جاء في لسان العرب في مادة "حلب"، وتَحَلَّبَ فُوه: سالَ.. وفي حديث ابن عُمَر، رضي الله عنهما، قال: رأيت عمر يَتَحَلَّبُ فُوه، فقال: أشْتَهي جراداً مَقْلُوّاً أي يَتَهَيَّأُ رُضابُه للسَّيَلانِ".

3- التكوين6: 6-7.

وهذا في حق الله تعالى محال، إذ الندم إنما يلحق من لا يعلم مصير المندوم عليه ومآله، واعتقاد هذا في حق الله كفر، إذ ينبئ عن أن الله تعالى جاهل، وأنه متغير تعالى عن ذلك علوا كبيرا، ولفظ الندم هنا، نص لا يقبل التأويل فهو كذب وباطل قطعا.

ومن ذلك ما ظهر في الوجود خلافه[1]، وذلك أنهم حكوا فيها أن بني إسرائيل يسكنون تلك الأرض إلى الانقراض، ثم لم يلبثوا أن رأيناهم أخرجوا منها رأي العين.

فقد ظهر أن ذلك باطل وكذب.

ومن ذلك أيضا أنه حكى فيها أن الله تعالى كالإنسان شخص [ذو جوارح][2]، وهذا على الله بالضرورة محال، ولا للتأويل في هذا اللفظ مجال، ثم أنى هذا من قوله:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3].

ومن ذلك أيضا، أن الله تعالى حين أمر بني إسرائيل إلى التوجه إلى الشام، وعدهم أن يتوجه معهم، وأمرهم أن يعملوا قبة على صفة كذا ينزل فيها في سيره معهم.

ثم إن موسى قال له: "يا رب إن هذه الأمة القاسية رقابها لا تمضي إليك إلى الشام حتى تمضي معها كما وعدتها، فقال الله: نعم اعملوا لي القبة، فعلم موسى القبة وسماها قبة العهد، ونزل الله من عرشه وسار معهم في داخل القبة ينزل بنزولهم ويرحل برحيلهم"[4] هذا نص التوراة.

ومما يذكرونه من بقية هذا [الخبر][5] وليس في التوراة: "أنهم حين جمعوا المال لعمل هذه القبة أجروا إنفاقه[6] على يد موسى عليه السلام، فلما كمل عملها ادعوا عليه أنه قد نقصهم من المال ألف رطل وسبع مائة رطل وخمسة وسبعون رطلا، وقالوا لموسى [تشريفا له][7] أين نقص هذا المال، وإنما جرى الإنفاق[1] على يديك، فسمعوا صوتا من السماء يقول

1- في خ/م: "خلاف".
2- في خ/م: "وجوارح كشخص وجوارح".
3- سورة الشورى، آية:11.
4- ورد مضمون هذا النص في سفر الخروج25.
5- ساقطة من ط.
6- في ط: "الاتفاق".
7- في ط: "تهكما به".

لهم: إن هذا العدد دخل في رؤوس الأعمدة وفي التغشية، فحينئذ كفوا عنه" فهؤلاء لم يعرفوا الله حق معرفته، ولا قدروه حق قدره ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [2].

ومن ذلك أيضا أنهم ذكروا فيها: أن الله قال لهم أن يضربوا القرن في عسكرهم قليلا قليلا حتى يلقوا عدوهم، فحينئذ يضربونه بأشد ما يقدرون عليه، ليسمعهم الله فيؤيدهم على عدوهم، فكأنه سبحانه وتعالى لا يسمع إلا الأصوات العالية، فأين هذا من وصف الله تعالى نفسه في كتابه على لسان رسوله[3] حيث قال: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [4].

وفيها من هذا النوع كثير، لو ذهبت أنقله لطال الكتاب، ولخرجنا من مقصود الباب.

وينبغي أن نذكر الآن ما جاء فيها مما ينزه عنه الأنبياء عليهم السلام.

من ذلك ما حكوا في السفر الأول عن لوط أنه طلع من صاغار، فسكن الجبل هو وابنتاه معه، فجلس في مغار هو وابنتاه، فقالت الكبرى للصغرى: قد شاخ أبونا وليس على الأرض رجل يدخل علينا، هلمي[5] نسقى أبانا الخمر ونضطجع معه في مضطجعه، ففعلتا وحملتا منه بولدين موآب وعمون"[6].

هذا لوط من رسل الله الأكرمين، أوقعه الله في فاحشة كما يوقع الأرذلين ثم خلد ذكرها في الآخرين، وهل هذا إلا عين الإهانة، وأي نسبة بين هذا وبين النبوة والكرامة؟

وكذلك أيضا حكوا فيها: أن اسحق لما شاخ وعمى بصره دعا بعيصو[7] ابنه الأكبر ليبارك[8] عليه وليدعو له بالنبوة، فتحيل يعقوب عليه فقال له إسحق أبوه: من أنت؟ فقال

1- في ط: "الاتفاق".
2- سورة البقرة، آية: 79.
3- في ط: "لسان نبيه ورسوله".
4- سورة طه، آية: 7-8.
5- هلمي ساقطة في ط.
6- التكوين19: 30-37
7- في ط: "بعيسو".
8- في خ/م: "ليبرّك".

له: بكرك عيصو[1]، فقال له: أدن مني حتى أجسك، فدنا[2] منه وقد كان وضع على رأسه شعرا بمكيدة أمه، فقال له: الصوت صوت يعقوب، [والمجسة مجسة][3] عيصو[4]، فبارك[5] عليه ودعا له بالنبوة وبشره بها وهو على غلط فيه، ثم بعد ذلك جاء عيصو[6] وقال له: باركني[7] أيضا يا أبي، فقال له: دخل أخوك بمكر فقبل بركاتك، فقال عيصو[8] بعد بكاء وحزن: أما تركت من البركات شيئا أبركة واحدة لك يا أبتي"[9].

فما أعظم هذه الآفة[10] التي تشبه حديث خرافة.

ومن ذلك ما ذكروه فيها أيضا: أن يعقوب بينما هو يصلح خيمته ويبسطها[11]، مشى ابنه رأوبين[12] وهو أكبر أولاده فضاجع سرية أبيه بلهة[13]، ولما علم بذلك يعقوب قال لابنه رأوبين:[14] [سلكت على وجهك][15] كالماء، فلذلك لم أفضلك بالسهم الزائد حيث امتهنت فراشي"[16].

وتفسير هذا، أن سنة الميراث كانت عندهم أن يرث الولد الأكبر سهمين[17] وسائر الولد سهما واحدا، فعاقب يعقوب ابنه رأوبين[18] على فعله بسريته بأن لم يفضله بالميراث على أنه كان أكبر ولده.

1- في ط: "بعيسو".
2- في خ/م: "فدنى".
3- في ط: " ولكن اليدين يدا".
4- في ط: "عيسو".
5- في خ/م"فبرك".
6- في ط: "عيسو".
7- في خ/م: "بركني".
8- في ط: "عيسو".
9- التكوين27.
10- في ط: "الآية".
11- في خ/م: "يبيضها".
12- في خ/م: "روبيل".
13- في خ/م: "بلهاء".
14- في خ/م: "روبيل".
15- في ط: " فضل العز فائرا ".
16- تكوين49: 3-4
17- تثنية21: 17
18- في خ/م: "روبيل".

[ولذلك حكى فيها][1] أن يعقوب [قال له][2]: يا رأوبين أنت بكري وقوتي، ورأس جرأتي[3]، وعوني طائفة[4] الحمولة وطائفة[5] العز والمنعة عديت مثل الماء فلا تمكث إذ صعدت إلى مضطجع أبيك حقا لقد نجست مضطجعي وتناولته".

ومن ذلك ما ذكروه فيها أيضا: أن يهوذا بن يعقوب زنى بكنته ثامار امرأة ولديه، ولقد كانا هلكا عنها واحدا بعد واحد، فردها يهوذا إلى بيت أبيها ووعدها بتزويج ولده الثالث المسمى بشيلا[6] إذا كبر، ثم أنها قعدت[7] ليهوذا في طريق غمنه، وتسترت جهدها فظنها بغيا، فعدل إليها ودعاها إلى نفسه، فسألته أجرا فوعدها بجدي من غنّمه، فطلبت منه رهنا، فأعطاها خاتمه ومنديله وعصاه، وواقعها بزعمهم، فحملت منه. ثم إن يهوذا أرسل بالجدي ليطلب رهنه فلم توجد المرأة، فجاء بنفسه إلى أهل القرية وقال لهم: أين قحباكم المتبلطة على الطريق؟ فقالوا: ما كان منا على الطريق قحبا، ثم قيل له بعد حين إن كنتك ثامار حبلى، فقال: تحرق بالنار، فأخرجت لتحرق بالنار[8]، فقالت: إنما أنا حامل منه وهذه رهنه بيدي حين زنى بي ليفكها بجدي من غنمه، فعرف ذلك يهوذا وقال: هي أصدق مني".[9]

وفي بقية هذا الخبر خرافة، وذلك أن ثامار لما جاءها المخاض كان في بطنها توأمان فتناولت القابلة خيط عهن فربطته على يده وقالت: هذا يخرج بديا، فلما مد[10] يده خرج أخوه فقال: لقد انحزمت فيك ثلمة عظيمة[11].

وحكى فيها أيضا أن دينة[12] بنت يعقوب خرجت لبعض شأنها، فنظر إليها شخيم[13]

1- في ط: " وفي بعض التراجم".
2- في ط: "قال".
3- في ط: "حراتي".
4- في ط: "طائقة".
5- في ط: "طائقة".
6- في خ/م: "بسيلا".
7- في خ/م: "تصدقت".
8- انظر سفر اللاويين 21: 9 ففيه حكم زنا بنت الكاهن هو الحرق بالنار.
9- التكوين38
10- في خ/م: "رد".
11- قصة يهودا وثمار وردت في سفر التكوين38
12- في ط: "دنيا".
13- في خ/م: "شجيم".

بن حمورا الزناتي فعشقها واحتملها فواقعها[1] وافتضها، ثم أن شخيم[2] قال لأبيه حمورا: اخطب لي هذه الجارية لتكون لي امرأة، فبلغ ذلك يعقوب، وأنهم قد نجسوا دينة ابنته، فصمت يعقوب وأطرق حتى أتاه بنوه، فلما بلغهم ذلك اغتموا وساءهم ذلك، واشتد عليهم ذلك جدا، لأنهم ارتكبوا النجاسة في[3] إسرائيل، ثم إن بني يعقوب عاقدوا شخيم[4] وحمور أباه وقومه أنهم إذا اختتنوا أنكحوه أختهم دينة[5]، فإنهم قالوا لشخيم[6]: "لا نقدر أن نزوج أختنا من رجل له غرلة، ولكن إذا اختتنتم زوجناكم أختنا وبناتنا ونتزوج بناتكم، ففعل القوم ذلك، فلما اشتدت بهم أوجاعهم تناول شمعون ولاوي كل واحد منهما حربة، ودخلا على القرية بغتة فقتلا كل ذكر فيها.[7]

ومثل هذا كثير مما يخرج استقصاؤه إلى التطويل.

وكذلك حكوا فيها أيضا من وعيد الله لبني إسرائيل بالفاحشة والقبيح، مالا يقبله ذو عقل صحيح.

مثل ما حكوا أن موسى قال لبني إسرائيل في الوصية التي وصاهم بها حيث قال لهم: "إن كفرت بربك وحدت عن سبيله، وعبدت الآلهة الأجنبية يبليك الله بدواهي مصر، ويضرب الجزء من جسدك الذي يصدر عنه الزبل بالجدب والحكاك الذي لا دواء له، وتزوج زوجا ويضاجعها غيرك"[8].

وهذا الكلام تضمن أن الله تعالى توعد بني إسرائيل من عبد غير الله منهم، بثلاثة أنواع من الفواحش، لا ينبغي لذوي المروءات أن يتلفظوا بها، ولو أسقطوا مروءتهم فتلفظوا بها، لما كان ينبغي لهم أن يتوعدوا بها، ولا أن ينفذوا ذلك الوعيد لفحشه، ثم إنهم

1- في ط: "فواقها".
2- في خ/م: "شجيم".
3- في خ/م: "من".
4- في خ/م: "شجيم".
5- في ط: "دنيا".
6- في خ/م: "لشجيم".
7- التكوين34.
8- في ط ورد النص كالآتي: "إن كفرت بربك وحدت عن سبيله وعبدت الآلهة الأجنبية يضربك الرب بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها"

يلزمهم على هذا أحد ثلاث أمور: أحدها أن يكون هذا الكلام باطلا أو كاذبا[1] على الله تعالى عن ذلك، أو يكون بني إسرائيل كل من أشرك منهم وعبد غير الله، أن يبتلى بهذه الأدواء الثلاثة، وأن يكونوا بني زنى ولا يقدرون على أن ينكروا أنهم قد أشركوا بالله وأنهم عبدوا الأوثان بعد موسى، فيلزم من ذلك إن لم يكن ذلك الكلام محرفا، أن يكونوا كلهم بني زنى وقرنانين[2] وموصوفين بالفاحشة الكبرى.

وحكوا في سفر ملاخيم[3]: أن داوود عليه السلام اطلع من قصره فرأى امرأة من نساء المؤمنين تغتسل في دارها، فعشقها وبعث فيها فحبسها أياما حتى حبلت - تعالى الله أن يجرى ذلك على رسله- ثم ردها وكان زوجها -يسمى أوريا- غائبا في العسكر، ولما علمت المرأة بالحمل أرسلت به إلى داوود، فبعث داوود إلى يوآب[4] بن صوريا قائده على العسكر يأمره أن يبعث إليه بأوريا زوج المرأة، فجاء فصنع له طعاما وخمرا حتى سكر وأمره بالانصراف إلى أهله ليواقعها[5] فينسب الحمل إليه، ففهم الأمر أوريا وتخابث فلم يمش إلى أهله، وقال حاشى لله أن يكون الملك هنا دون أهله وأمشى أنا إلى أهلي، فلما يئس داوود منه رده إلى العسكر، وكتب إلى القائد أن يصدّر به في القتال مستقتلا له، فقتل[6] أوريا وقتل معه من المؤمنين سبعة آلاف، وفزع القائد من داوود لقتل العدد العظيم من المؤمنين، وقال للرسول إذا أنت أخبرت الملك داوود بقتل الناس ورأيته قد غضب قل له سريعا إن أوريا قتل فيهم، ففعل الرسول وسكن داوود من بعد الغضب، وسر بموت أوريا وهانت عليه من أجل موته دماء المؤمنين.

فاعتبر هذه الفواحش المنكرة، وهذه الصفات المذمومة المستقذرة، هل تليق بأولي الديانات فكيف بمعدن النبوات؟ وهل يحمد ذكرها عند ذوي المروءات، فكيف عند الحي

1- في ط: "كذبا".

2- في ط: "قرحانين"، وهو تصحيف لأن القرحان هو الذي لا يصيبه الجرب. أما القرنان من الرجال فهو نعت سوء وهو الذي لا غيرة له.

3- في ط: "صمويل الثاني" والقصة وردت بالفعل في سفر صمويل الثاني الإصحاح11، وتجدر الإشارة إلى أن هناك من يطلق على مجموع سفري صمويل وسفري الملوك سفر الملوك الأول والثاني والثالث والرابع. وملاخيم كلمة عبرية وهي جمع كلمة ملخ وتعني ملك.

4- في خ/م: "أياب".

5- في خ/م: "ليوقعها".

6- في ط: "فقفل".

الكريم إله المخلوقات؟ تبا لهم ولمصدقهم، وخسرا ولعنة[1] وجذعا وعقرا، فوالله لقد افتروا على رسل الله وكذبوا على كتب الله ﴿ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾[2].

وكتبوا في هذا المصحف: أن أمنون بن داوود عشق أخته تامار بنت داوود وتمارض، فعاده أبوه فتمنى عليه طعاما تطعمه أخته تامار[3]، فبعث بها داوود إليه فلما قربت إليه الطعام وضع يده فيها وافتضها فخرجت باكية، فلقيها أخوها الآخر شقيقها أبشالوم فأخبرته فهون عليها ثم بعد أيام وثب على أمنون فقتله من أجل ذلك[4].

وكتبوا في هذا المصحف: أن أبشالوم بن داوود نافق على أبيه وأخرجه عن قصره، ودخل على نسائه فوطئهن كلهن على أعين بني إسرائيل استبلاغا في الانتقام من أبيه[5].

ومن أفضح ما كتبوا في هذا المصحف[6] عن سليمان بن داوود: أنه ختم عمره بعبادة الأصنام والسحر وسبته[7] نساؤه دينه، كذبوا ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾[8] إذ بالأباطيل والفواحش يتقولون ويتخرصون، فلقد صدق الله العظيم ورسوله الكريم حيث قال سبحانه[9] في محكم كتابه الحكيم ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾[10]، فغضب الله عليهم وعلى من يصدقهم إلى يوم الدين ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

فهذه الحكايات الوخيمة، والأقوال غير المستقيمة، تضمنت الأخبار عن لوط بأنه زنى بابنتيه وأنهما حملتا منه من الزنى، وأن نبوة يعقوب إنما حصلت له بأن خدع إسحق

1- في ط: "براحنة".
2- سورة الأنعام، آية: 140.
3- في ط: "تامار أخته".
4- صمويل الثاني13.
5- صمويل الثاني16.
6- الملوك الأول11.
7- في ط: "وسيبت".
8- سورة التوبة، آية: 30.
9- في ط: "وتعالى".
10- سورة البقرة، آية: 102.

ومكر به وإنما كانت لعيصو[1]، وأن داوود زنى بامرأة مؤمنة زوجة مؤمن، وأن داوود تحيل على زوجها حتى قتل، وقتل لقتله جماعة من المؤمنين فسر بذلك، وأن رأوبين[2] زنى بسرية أبيه يعقوب، وكذلك يهوذا زنى بكنته ثامار وولدت له من الزنى توأمين[3]، وأن ابنة يعقوب دينا[4] زنى بها شخيم[5] بن حمورا، وأن أولاد يعقوب بعد أن أمنوه وعقدوا معه، غدروا به وقتلوه وأباه وأهل القرية، وأن أمنون بن داوود زنى بأخته تامار بنت داوود، وأن أخاها أبشالوم قتله غيلة وغدرا، وأن أبشالوم زنى بنساء داوود أبيه، وأن سليمان ارتد عن نبوته وعبد الأصنام.

فإن ثبت هذا الذي ذكروه في كتبهم -وتعالى[6] الله والأنبياء عن قولهم- فهذا الشعب الذي ذكروه فيه هذه الفواحش ليس هو شعب النبي إسحق، بل هو شعب غدر [وزنا وكفر ونفاق][7]، وكيف يصح أن تكون هذه الأفعال القبيحة أفعال أهل نبوة صحيحة، بل كل ذلك ناقض[8] للنبوات، لاسيما مع دعاء إبراهيم وإسحق لذريتهما بالبر والبركات، فإن كان هذا شعبهما الذي دعوا له بالبر والبركة، فدعاؤهما غير مسموع وقولهما مردود مدفوع.

ثم هذه الحكايات الوخيمة الفاحشة، غير المستقيمة في التوراة، لها أمور أخر تعارضها بل وأدلة العقل تناقضها.

من ذلك ما حكى فيها من مدح لوط على لسان إبراهيم وشهادته له بالبر، وذلك أن الله تعالى لما أعلم إبراهيم بأنه يريد أن يهلك سدوم وعمورا -وهما مسكن قوم لوط- قال: "يا رب أتهلك الأبرار مع الفجار"[9]، يعني بالأبرار لوطا وبنتيه، فسماهم أبرارا وشهد له بذلك بين يدي الله تعالى، وكيف يصح أن يكون ابنتا لوط من الأبرار، ويوقعان أنفسهما في أن يزني بهما أبوهما نبي الله، ثم لم يعصمه الله تعالى من مثل هذه الرذيلة،

1- في ط: "عيسو".
2- في خ/م: "ابنه روبين".
3- في خ/م: "الزنا توأمان".
4- دينا ساقطة من ط.
5- في خ/م: "شجيم".
6- في ط: "تعالى".
7- في ط: نفاق وزنى وكفر".
8- في خ/م: "يناقض".
9- التكوين18: 23.

ثم إن الله شهد عنه هذه الفضيحة التي يتحدث بها على مد الدهر، مع أنه لم يسمع قط من المتشرعين من أجاز نكاح البنات، وهل هذا من ناقله وناسبه إلى الله إلا جرأة وتواقح[1] على الله.

وكذلك ما كتبوه فيها من الحكايات التي ذكرناها في ذرية إسحق، يعارضه ما حكوا فيها عن الله أنه قال لإبراهيم في غير ما موضع[2] منها: لأباركك[3] بركة تامة، ولأكثرن[4] نسلك ويتبارك بنسلك جميع الشعوب لأنك أطعتني[5،6].

وكذلك قال الله لإسحق بعد موت إبراهيم: "أنا معك أكون وأباركك لأني أعطيك ونسلك جميع هذه المتملكات ويتبارك بنسلك جميع الشعوب"[7].

وكذلك قال إسحق ليعقوب حيث مكر به يعقوب بزعمهم قاتلهم الله قال: "به يؤتيك الله من ظل السماء وخصب الأرض، تعبدك الأمم وتسجد لك الشعوب، كن رئيسا لإخوتك يسجد[8] لك بنو أمك، مباركوك مباركون ولاعنوك ملعونون"[9].

تأمل بعقلك هذه المخازي البادية، وما نسبوا في كتبهم إلى أكرم الخلق من المناكر الفاحشة[10].

فإذا أنت أمعنت النظر، واشتدت منك العبر، علمت أن هذه الحكايات بواطل، وأن ملحقها في التوراة، وناسبها إلى الله متزندق جاهل، وإنما ألحقها عدو للأديان، أراد أن يقول في صفوة الله البهتان، فحصل له مراده حيث أفسد على المتشرعين الإيمان.

ثم نقول للنصارى بعد ذلك: العجب منكم ومن جهلكم، حيث صدقتم بوقوع هذه الفواحش من الأنبياء، واعترفتم مع ذلك بنبوتهم، ثم لم تجوزوا على الحواريين وقوع

1- في خ/م: "وتوقح".
2- في ط: "موضع ما".
3- في خ/م: "لأبركنك".
4- في ط: "لأكثر".
5- في خ/م: "أصعتني".
6- التكوين22: 17-18.
7- التكوين26: 3-4.
8- في ط: "تجسد".
9- التكوين27: 28-29.
10- في ط: "الفاشية".

الغلط منهم، فيما حكوا لكم -إن صحت الحكايات عنهم- من اتحاد العلم باللحمة، فإن العقل يدل بضرورته على أن ظاهر ذلك فاسد محال، فهلا عليكم تأولتم ذلك، أو قلتم أنهم[1] يجوز عليهم الغلط، ولا يدل ذلك على نقصهم[2]، كما قلتم في الأنبياء الذين حكيت عنهم تلك الفواحش. ولو فعلتم ذلك لكان الأولى عند العقلاء.

1- في ط: "إنه".
2- في ط: "نقضهم".

فصل في بيان أن الإنجيل ليس بمتواتر وبيان بعض ما وقع فيه من الخلل.

فنقول وبالله التوفيق: إن هذا الكتاب الذي بيد النصارى اليوم الذي يسمونه بالإنجيل، ليس هو الإنجيل الذي قال الله فيه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [1].

وإنما قلنا هذا في الإنجيل دون التوراة، لأن التوراة قد ثبت عندنا وعندهم، أن الله تعالى كتبها في الألواح لموسى عليه السلام، ويدعي[2] اليهود أن موسى عليه السلام نسخ لهم التوراة من تلك الألواح، فحصل من هذا أن التوراة تلُقيت[3] بجملتها عن موسى عليه السلام، ثم أنه حدث فيها من التغيير بعده ما قدمنا ذكره.

وأما هذا الكتاب الذي يدعى النصارى أنه الإنجيل، فقد توافق هؤلاء النصارى على أنه إنما تُلقي عن اثنين من الحواريين، وهما متاؤوش[4] ويوحنا، وعن اثنين من تلاميذ الحواريين وهما ماركش ولوقا، وأن عيسى عليه السلام لم يشافههم[5] بكتاب مكتوب عن الله كما فعل موسى، ولكن لما رفع الله عيسى عليه السلام إليه، تفرق الحواريون في البلاد والأقاليم كما أمرهم عيسى، فكان منهم من كتب بعض سيرة عيسى وبعض معجزاته، وبعض أحواله حسب ما تذكر، وما يسر الله عليه فيه، فربما توارد الأربعة على شيء واحد فحدثوا به، وربما انفرد بعضهم بزيادة معنى، ولذلك[6] كثيرا ما يوجد بينهم من اختلاف مساق، وتناقض بين قولين وزيادة ونقصان، وسترى بعض ذلك إن شاء الله تعالى، فعلى هذا لا يسمى الإنجيل كتاب الله المنزل حقيقة، فإن حقيقة الكتاب المنزل بحكم العرف إنما هي[7] عبارة عن جملة من كلام الله، المبلغة على لسان رسول من رسله، يحكيها ذلك الرسول عن الله تعالى.

1- سورة آل عمران، آية: 3-4.
2- في ط: "تدعي".
3- في ط: "بلغت".
4- في خ/م: "متواش".
5- في خ/م: "يشافهم".
6- في ط: "وكذلك".
7- في ط: "هو".

وليس شيء من هذا موجودا في الإنجيل، فإن سماه مسم كتابا منزلا، ولم يرد هذا المعنى، فلا بد من أن نسأله عن المعنى الذي يريده بذلك الإطلاق، فلا شك أنه يقول: إنما سميته كتابا منزلا، لأن عيسى جاء من عند الله، وبلغنا شرع الله، وفي ذلك الكتاب وصف سيرته، وحكايات وأخبار عن الله. فكيف لا يقال عليه هو كتاب الله ومنزل من الله، فنقول له: تسمية[1] هذا كتاب الله بالمجاز أو بالحقيقة؟ فإن قال بالحقيقة فكلامه باطل، فإن حقيقة كتاب الله المنزل هو ما قدمناه، وإن قال بالمجاز، قنعنا بهذا، ثم ألزمناه عليه أن يكون كل كتاب يحكى عن نبي من أنبياء الله، وإن[2] ألفه أي مؤلف كان كتاب الله ولا فرق.

وإذا انتهينا إلى هذا فقد حصل غرضنا، وهو أن هذا الإنجيل الذي بأيديهم ليس منزلا ولا يقال عليه كتاب الله المنزل، كما يقال على التوراة والإنجيل والقرآن، وذلك ما كنا نبغي.

فقد حصل من هذا الكلام أنه ليس منزلا من الله حقيقة، وأن نقله ليس متواترا، فإنه راجع إلى الأربعة الذين ذكرناهم، والعادة تجوز عليهم الغلط والسهو والكذب، فإن قالوا هم معصومون فيما نقلوه عن عيسى عليه السلام، قلنا ما دليل عصمتهم، فإن قالوا دليل عصمتهم: أنهم كانوا أنبياء، ودليل نبوتهم ما ظهر على أيديهم من خوارق العادات وشهادة عيسى عليه السلام لهم حيث قال لهم: "كل ما سألتموه إذا حسن إيمانكم ستجابون"[3]، وقال لهم: "ستوقفون على الملوك ويسألونكم فلا تفكروا فيما تقولونه[4]، فإنكم ستهدون ذلك الوقت لما تقولونه، ولستم تنطقون أنتم لكن روح القدس ينطق على ألسنتكم"[5]، وقد جاء عن عيسى عليه السلام أنه دعا الاثني عشر حواريا، وأعطاهم من القدرة والسلطان ما يتقون به جميع الجن ويبرءون به الأسقام[6]، وكذلك قال لبطرس[7]:

1- في ط: "نسميه".
2- في ط: "فإن".
3- متى17، ومتى21
4- في ط: "تقولون".
5- متى10: 18-20، والنص يختلف لفظا عن النص الحالي: "و تساقون أمام ولاة وملوك من أجلي شهادة لهم وللأمم فمتى أسلموكم فلا تهتموا كيف أو بما تتكلمون لأنكم تعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم".
6- متى10: 1-4.
7- في خ/م: "لبيتر".

"ما عقدته أنت في الأرض فمعقود في السماء، وما حللته في الأرض فمحلول في السماء"[1]، وأما خوارق العادات فقد كانوا يحيون الموتى، ويبرءون المرضى، كما كان يفعله عيسى عليه السلام وذلك معروف من حالهم[2].

قلنا ما[3] ذكرتموه عن عيسى عليه السلام من الشهادة فلا يصح لكم الاستدلال بشيء مما ذكرتموه لوجوه.

أحدها: أنكم أسندتم ذلك إلى الإنجيل، واستدللتم على صدقهم بما جاء عنهم فيه، وما جاء عنهم فيه لا يثبت حتى تثبت عصمتهم، فلا يثبت بما ذكرتموه لا الإنجيل ولا عصمتهم.

الوجه الثاني: أنا لو سلمنا ذلك لكم، لما كان فيما ذكرتموه حجة، لأنه ليس شيء منها ينص على أنهم معصومون فيما أخبروا به على الإطلاق، وغاية ما ذكرتموه أن يدل على أنهم يعانون ويؤيدون مما يبلغون عن عيسى في بعض الأوقات، أو في بعض الأخبار والأحوال.

والوجه الثالث: أن ما ذكروه معارض بما نقلوه أيضا، وذلك أنهم نقلوا في الإنجيل أنه قال للحواريين: "يا نسل التشكيك والكفر إلى متى أكون معكم، وإلى متى أحتملكم"[4] وأما ما قال لبطرس[5] فهو أيضا معارض بما حكيتم عنه أنه قال له: "تأخر يا شيطان فإنك جاهل بمرضات الله"[6].

وأما ما ادعوه من معجزاتهم، فلم ينقل منها شيء على التواتر، وإنما هي أخبار آحاد غير صحيحة، ولو سلمنا أنها صحت، لما دلت على صدقهم في كل الأحوال وعلى أنهم أنبياء، فإن القوم لم يدعوا النبوة لأنفسهم، وإنما ادعوا التبليغ عن عيسى عليه السلام، فظهر من هذا البحث، أن الإنجيل المدعى لم ينقل تواترا، ولم يقم دليل على عصمة ناقليه، فإذن يجوز الغلط والسهو على ناقليه، فلا يحصل العلم بشيء منه، بل ولا غلبة الظن فلا يلتفت إليه، ولا يعول في الاحتجاج عليه[7].

1- متى16: 16-19.
2- لوقا19: 1-2.
3- في خ/م: "أما".
4- لوقا9: 41، ومتى17: 17.
5- في خ/م: "لبيتر".
6- متى16: 23.
7- في ط: "عليهم".

وهذا كاف في رده وبيان قبول تحريفه وعدم الثقة بمضمنه، ولكنا مع ذلك نعمد منه إلى مواضع يتبين فيها تهافت نقلته، ووقوع الغلط في نقله بحول الله تعالى.

فأول ذلك، أنهم ذكروا في أول ورقة من إنجيل يوحنا[1] حيث ذكر المسيح فقال: "ولد المسيح الذي هو بادئ الأشياء وعلتها الأولى علة جميع الأشياء وكل زمان ورأس كل نظام وأولية[2] جميع المراتب"[3]، ثم قال بعد ذلك في معرض مدحه المكلوم في لحمه المعلق في الخشبة.

كيف يجترئ عاقل أن يتحدث بمثل هذا العار، أو كيف تصح نسبة هذا التناقض البين إلى أحد من الأخيار.

وذكروا فيه أيضا أن عيسى عليه السلام قال: "أنا الباب فمن دخل علي يسلم ويجد مرعى أبدا"، ثم عرّض بمن قبله من الأنبياء فجعلهم لصوصا وسراقا فقال: "آمين آمين أقول لكم إني باب الضأن، والقادمون عليكم كانوا لصوصا وسراقا، ولا يقبل اللص إلا ليسرق شيئا ويقتل، وأنا قدمت لتحيوا وتزدادوا خيرا"[4].

وفي الإنجيل أيضا أنه قال: "إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي غير مقبولة، ولكن غيري يشهد لي"[6,5]، ثم في موضع آخر من الإنجيل أنه قال: "إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأني أعلم من حيث جئت وإلى أين أذهب"[7].

فكيف تكون شهادته حقا وباطلا، ومقبولة وغير مقبولة، وكيف يجمع بين هذين في كتاب ينسب إلى الله.

وفي الإنجيل أيضا أنه حين استشعر بوثوب يهوذا[8] عليه قال: "قد جزعت نفسي الآن، فماذا أقول يا أبتاه فسلمني في هذا الوقت"[9]، وأنه حين رفع في الخشبة صاح صياحا عظيما وقال: "آلى آلى لم عزبتاني"، وترجمته: "إلهي إلهي لم أسلمتني"[10].

1- في خ/م: "مثا".
2- في خ/م: "وأوليته".
3- النص مخالف لفظا عما ورد في بداية إنجيل يوحنا 1: 1-5، التي تقول: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله هذا كان في البدء عند الله كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه".
4- يوحنا10: 7-8.
5- في ط: "غيري يشهد".
6- يوحنا5: 31.
7- يوحنا8: 14.
8- في خ/م: "يهود".
9- متى26: 38.
10- متى27: 46، "و نحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا ايلي ايلي لما شبقتني اي الهي الهي لماذا تركتني".

ثم في أول ورقة منه إنما أسلم نفسه لتظهر قهرته[1] بسلطانه على الموت، وظفرته على جميع الآلام والمهن التي تستقبحها أوهام الآدميين".

فكيف يصيح[2] ويجزع مما تظهر به قدرته وقهرته، وهل سمع قط أسخف من هذا القول أو أظهر تناقضا منه.

ثم في موضع آخر منه أنه قال: "قبل ذلك من أحب أن يقفو أثري فليذهب نفسه"[3] فحرض على إتلاف النفوس، فكيف يجزع مما يحرض عليه قبل؟ أم كيف يكون إلها أم كيف يكون ابن الله ثم يدعوه أن يخلصه في ذلك الوقت فلم يستجب له؟

ومن أظهر دليل على وقوع الغلط فيه أن في إنجيل متاوش[4] الحواري حين ذكر نسب عيسى عليه السلام، حيث نزّل خطيب مريم أبا لعيسى فقال: "ابن يوسف بن يعقوب بن [متان بن أليعازر بن أليود بن أخيم][5,6]، وعد إلى إبراهيم الخليل تسعة وثلاثين أبا ثم في إنجيل لوقا يقول: "يوسف بن هالى[7] بن متثات[8] بن لاوى[9] بن ملكي بن ينا[10,11] وعد إلى إبراهيم نيفا وخمسين أبا.

فيا ليت شعري، كيف يجوز مثل هذا على الله؟ أو كيف ينقل هذا في كتاب معلوم عن الله؟ وقد أراد بعض أساقفتهم أن يرقع هذا الخرق المتسع، بأن قال أحد النسبين طبيعي نسب التوليد، والآخر نسب شرعي نسب الولاء والكفالة، والتناقض باق عليه بعد اختراع هذا الهذيان.

ثم انظر هذه الشناعة التي ارتكبوها، حيث نسبوا عيسى عليه السلام إلى رجل زعموا أنه خطب أمه مريم، وأي نسبة تثبت بينهما، بأن أراد أن يتزوج إنسان أمه، ثم إنهم يبلغون نسب يوسف إلى آدم ثم يقولون إلى الله.

1- في ط: "قدرته".
2- في خ/م: "يصح".
3- متى10.
4- في ط: "متاؤوش".
5- في خ/م: " متان بن عزرا بن أليوث ابن أجيم ".
6- متى1: 14-16.
7- في خ/م: "آلي".
8- في خ/م: "متان".
9- في خ/م: "لاي".
10- في خ/م: "متتان".
11- لوقا3: 23-38.

فهلا عليهم يستغنون عن ذكر نسب من لا ينتسب له[1] عيسى، ويقولون في عيسى ما يقولون في آدم لولا الجهل والتحكم.

وفي الإنجيل عنه: أنه كان يوما قد نهاهم عن التجارة في بيت المقدس، وأن اليهود قالت له حينئذ: "أي علامة تظهر لنا، قال تهدمون هذا البيت وأبنيه لكم في ثلاثة أيام، فقالت اليهود بيت بنى في ستة[2] وأربعين سنة تبنيه[3] أنت في ثلاثة أيام"[4].

ثم في موضع آخر منه: أنه لما ظفرت به اليهود -بظنكم- وحُمل إلى بلاط قيصر واسترعيت[5] عليه بينة، أن شاهدي زور جاءا إليه وقالا: سمعنا هذا يقول أنا قادر على بنيان البيت في ثلاثة[6].

وهذه شهادة موافقة لما قال عيسى لليهود، فهذا الشاهد قال عليه الحق [على ما][7] يقتضيه كلامه، ومن شهد بما سمع كيف يقال عليه شاهد الزور؟ أو كيف يسميه الله شاهد زور؟ ومن أعجب الأشياء أن اليهود لا تعرف شيئا من هذا، ولا سمعت أن أسلافها جرى بينهم وبين عيسى هذا المجلس ولا سوى ذلك مما تصفون من خرافات كتبكم.

وفي الإنجيل أيضا للوقا أن عيسى قال لرجلين من تلاميذه: "اذهبا إلى الحصن الذي يقابلكما، فإذا دخلتماه فستجدان فلوا مربوطا لم يركبه أحد، فحلاه واقبلا به إلي"[8]، وفي الإنجيل لمتاوش[9] يصف هذا الخبر بعينه ويذكر أنها كانت حمارة[10]. فحسبك بهذا خللا وتناقضا.

وفي الإنجيل أيضا للوقا[11] يخبر عن المرأة التي صبت الطيب على رجلي المسيح، وشق ذلك على التلاميذ وقالوا لها: هلا تصدقت به. وفي الإنجيل لمتاوش[12] أنها إنما صبت الطيب على رأس المسيح، فما أبعد اليقين، عن خبر فيه مثل هذا الاختلاف المبين.

1- في ط: "في".
2- في خ/م: "خمسة".
3- في خ/م: "يبنيه".
4- يوحنا2: 19-20.
5- في ط: "استوعيت".
6- متى26: 61.
7- في ط: "لما".
8- لوقا19: 30.
9- في ط: "لمتاؤوش".
10- متى21: 1-2.
11- لوقا7: 46.
12- في ط: "لمتاؤوش". متى26: 7.

وفي الإنجيل أيضا أن "أم ابني[1] زبدى جاءت إلى عيسى ومعها ابناها، فقال: ما تريدين؟ فقالت: أريد أن تجلس ولدي[2] أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك إذا جلست في ملكك، فقال: تجهلين السؤال، أيصبران[3] على الكأس التي أشرب بها؟ فقالا نصبر، فقال: ستشربان بكأسي وليس إلى تجليسكما عن يميني ولا عن شمالي إلا لمن وهب ذلك"[4].

فقد أخبر هنا أنه لا يقدر على تجليسهما عن يمينه ولا عن شماله.

وفي أول ورقة منه[5] أنه بادئ الأشياء وعلتها وعلة كل زمان، فكيف يصح أن يكون بادئ الأشياء كلها وعلتها، ولا يقدر أن يجلسهما عن يمينه ولا عن شماله[6]، ثم يتبرأ عن ذلك بقوله: إلا لمن وهب ذلك لي. ولا مزيد في التناقض والفساد على هذا.

وفي الإنجيل أيضا أنه قال: "لا تحسبوا أني قدمت لأصلح بين أهل الأرض، لم آت لصلاحهم، لكن لألقى المحاربة بينهم، إنما قدمت لأفرق بين المرء وابنه، والمرأة وابنتها[7] حتى يصيروا[8] أعداء المرء أهل بيته"[9].

وفيه أيضا عنه: "إنما قدمت لتحيوا وتزدادوا خيرا وأصلح بين الناس"[10]، وأنه قال: "من لطم خدك اليمنى فانصب اليسرى"[11]. ولا مزيد في التناقض والفساد على هذا.

وفي الإنجيل أيضا أنه قال: "لم آت لأنقض شريعة من قبلي إنما جئت لأتمم"[12] وكلاما من معناه. ثم فيه بعد أحرف قليلة كلام آخر ينقض فيه شريعة من قبله، وذلك أنه قال:

1- في خ/م: "ابن".
2- في ط: "ولداي".
3- في خ/م: "آتصبران".
4- متى21: 20-23.
5- يوحنا1: 1-3.
6- في ط: "يساره".
7- في خ/م: "ابنها".
8- في خ/م: "يصيرا".
9- متى10: 34-36.
10- متى20: 28.
11- متى5: 39.
12- متى5: 17.

"إنما علمتم أنه قيل للقدماء[1] لا تقتلوا، و[2]من قتل فقد استوجب [القتل. وإنما أقول: كل من سخط على أخيه فقد استوجب العقوبة، ومن قذف أخاه فقد استوجب] النفي من الجماعة"[3]، ثم قال بعد ذلك: "أما علمتم أنه قيل للقدماء من فارق امرأته فليكتب لها كتاب طلاق، وأنا أقول لكم: من فارق امرأته منكم فقد جعل لها سبيلا إلى الزنى، ومن زوج مطلقة فهو فاسق"[4]، ثم قال: "أما بلغكم أنه قيل للقدماء العين بالعين، والسن بالسن. وأنا أقول لكم: لا تكافئوا أحدا بسيئة، ولكن من لطم خدك اليمنى فانصب له اليسرى، ومن أراد مغالبتك وانتزاعك قميصك فزده أيضا رداءك"[5].

كيف يصح أن يقول: لم آت لأنقض شريعة من قبلي، ثم ينقضها حكما حكما، ثم قوله جئت متمما لا يصح أيضا، فإن شريعة موسى كانت تامة كاملة، والتام لا يتمم والكامل لا يكمل فهذا تناقض وفساد.

وعيسى عليه السلام منزه مبرأ عن كل تناقض وفساد، وليس هذا ولا شيء منه من قبله بل هو منزه عن ذلك كله.

وفي الإنجيل أيضا لمتاوش[6] أن المسيح قال لبطرس[7]: "طوبى لك يا شمعون بن الحمامة، وأنا أقول: إنك الحجر، وعلى هذا الحجر أبتنى بيتي، فكل ما حللته على الأرض يكون محلولا في السماء، وما عقدته على الأرض يكون معقودا في السماء"[8]، ثم بعد أحرف يسيرة قال بعينه: "اذهب يا شيطان ولا تعارض فإنك جاهل بكوني"[9].

فكيف يكون شيطان جاهل يطيعه صاحب السماء وهذا غاية التناقض.

1- في خ/م: "للغرماء".
2- الواو ساقطة في خ/م.
3- متى5 :21-22.
4- متى5 :32.
5- متى5: 39-40
6- في ط: "متاؤوش".
7- في خ/م: "لبيتر".
8- متى16 :18-19.
9- متى16 :23.

وفي الإنجيل أيضا لمتاوش[1] أن عيسى قال: "لم تلد النساء مثل يحيى"[2]، ثم في إنجيل يوحنا[3]، أن يحيى بعثت إليه اليهود من يكشف لهم عن أمره[4] فسألوه: "من هو؟ أهو المسيح؟ قال: لا. قالوا أتراك إلياس؟ قال: لا. قالوا: أنت نبي؟ قال: لا. قالوا: أخبرنا من أنت؟ قال: أنا صوت مناد في المفاز"[5].

فنفى عن نفسه كونه نبيا، ولا يجوز لنبي أن ينكر نبوته، فإنه يكون كاذبا. والنبي صادق[6] لا يكذب.

فيلزمهم أحد أمرين: إما أن يكون يحيى ليس بنبي وهو باطل، أو يكن إنجيلهم محرفا[7] وهو حق.

ولو تتبع ما فيه من هذا القبيل، لاحتاج ذلك إلى التكثير والتطويل، وبموضع واحد من هذه المواضع يحصل أن كتابهم قابل للتحريف والتغيير، فكيف بالتزيد والتكثير؟

فقد حصل من هذا البحث الصحيح:

أن التوراة والإنجيل لا تحصل الثقة بهما، فلا يصح الاستدلال بهما لكونهما غير متواترين وقابلين للتغيير.

وقد دللنا على بعض ما وقع فيهما من ذلك، وإذا جاز مثل ذلك في هذين الكتابين مع كونهما أشهر ما عندهم، وأعظم عمدهم ومستند ديانتهم، فما ظنك بغير ذينك من سائر كتبهم التي يستدلون بها، مما ليس مشهورا مثلهما ولا منسويا إلى الله نسبتهما.

فعلى هذا، هما أولى بعدم التواتر ويقبول التحريف فيهما[8]، فإذا ادعوا تواتر شيء من ذلك، فلينظر هل كملت فيه شروط التواتر أم لا؟ فإن كملت قبلنا وآمنا، وإن لم تكمل توقفنا وطالبناهم بالطريق الموصل إلى العلم.

1- في ط: "متاؤوش".
2- متى11: 11.
3- يوحنا
4- في ط: "يكشف لهم أمره".
5- يوحنا 1: 19-23.
6- في ط: "الصادق".
7- في خ/م: "محرف".
8- في خ/م: "عنهما".

فإذا ثبتت هذه المقدمة، قلنا بعدها للمستدل على إثبات نبوة عيسى [بالأدلة المتقدمة، لا تظن أننا نرد نبوة عيسى أو][1] أنا نشك فيها -حاشى لله- بل نحن أحق وأولى بعيسى ابن مريم منكم، فإنكم قلتم فيه ما لا ينبغي له، ونسبتموه إلى ما يتبرأ هو منه، بل أنتم لعمري الله[2]، أبعد منه وأبغض إليه ممن أنكر نبوته وكفر به، فإن من أنكر نبوته وكفر به، لم يشرك بالله كما فعلتم أنتم، حيث جعلتموه إلها آخر، ولم يعرض بعيسى عليه السلام للموقف المخجل الذي يسأله الله فيه عن غلوكم[3] فيه وعبادتكم له، حيث يقول الله له: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[4]، فيقول خجلا فزعا متبرأ من قبيح ما نسبتموه إليه: ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾[5].

وأما نحن فإنما نقول فيه ما قاله الله على لسان رسوله المصطفى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾[6]، وما قاله الله أيضا فيه على لسان إشعياء حيث بشر به وأخبر بقدومه: "هذا غلامي المصطفى وحبيبي الذي ارتضت به نفسي"[7]. وما قاله هو عن نفسه حين تكلم في مهده: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[8].

فنحن نعرفه حق معرفته، ونؤمن بنبوته وشريعته، ونحيل عليه الإلهية إذ ليست من

1- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.
2- في ط: "والله".
3- في خ/م: "علوكم".
4- سورة المائدة، آية: 116.
5- سورة المائدة، آية: 116.
6- سورة المائدة، آية:75.
7- إشعيا42: 1.
8- سورة مريم، آية: 30-31.

صـــفته، ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [1].

ثم إنا نعرف ما ذكرناه من وصفه بأدلة كثيرة قاطعة، وبراهين صادعة[2]، تخضع لها رقاب الجاحدين، وتستضئ بنورها بصائر المبصرين.

وإذا كان كذلك، فما استدللت به أنت على نبوة عيسى من كلام النبيين -إن صح فهو- زيادة في أنواع الأدلة لا في نفس اليقين، فلذلك لا نباحثك فيها، ولا نبالي بك أتجهلها أم تدريها، على أنا لو ناقشناك في تلك الأدلة لأظهرنا لك فيها الفساد والعلة، ولكن ما لا يخالف غرضنا لا يقصيه[3] فيما بالنا نطول أنفاسنا فيه.

1- سورة آل عمران، آية: 79.
2- في ط: "صادقة".
3- في ط: "يقتضيه".

الفصل الرابع

[هاجر أم إسماعيل الذبيح][1]

من حكاية كلامه أيضا

قال: "وأنت أيها الإنسان تجدوا في كتابكم في آل عمران:﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [2].

فأنت مقر بالتوراة والإنجيل؛ فاثبتوا دينكم من التوراة، كما أثبتنا نحن ديننا من كتب الأنبياء، واعلم أنه لا نقبل لكم من كتبكم شيئا، فإن قلت من كتابك شيئا؛ قلت لك كما قال رسولك: "البينة لمن ادعى واليمين على من أنكر"[3]، فوجب عليك أن تثبت دينك من التوراة والإنجيل التي أنت مقر بهم وأنت مدعي أن كتابكم من الله؛ فأثبتوه من التوراة بالعبراني ومن الإنجيل بالعجمي كما أنتم مقرون.

وقولكم: "وما محمد إلا رسول الله قد خلت من قبله الرسل"[4]، فإني أطلبك من الكتب التي جاءت به الرسل كما قلتم؛ فاتي[5] بما ادعيت وإلا يميني؛ لأني أنكر لك، ولا نقبل لك من النبوات والروايات المرويات عن مسلم في كتابه الذي قال: حدثنا سفيان عن الزهري عن قتادة عن عائشة قالت: "جاءت امرأة رفاعة إلى الرسول فقالت له: كنت لرفاعة فطلقني فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير، فتبسم الرسول ضاحكا وقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة، لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عبد الرحمن بن الزبير عسيلتك"، وفي رواية أخرى عن عائشة قالت: "طلق رجل امرأة ثلاثة فتزوجها رجل، ثم طلقها قبل أن

1- : العنوان الموجود بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

2- سورة آل عمران، آية: 3-4.

3- الحديث ورد عند البيهقي في سننه، "أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان أنبأ أحمد بن عبيد الصفار ثنا جعفر بن محمد الفريابي ثنا الحسن بن سهل ثنا عبد الله بن إدريس ثنا بن جريج وعثمان بن الأسود عن بن أبي مليكة قل كنت قاضيا لابن الزبير على الطائف فذكر قصة المرأتين قال فكتبت إلى بن عباس فكتب بن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم ولكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر".

4- سورة آل عمران، آية: 144.

5- في ط: "فائت".

يدخل بها، وأراد زوجها الأول أن يتزوجها، فسأل الرسول عن ذلك، قال: "لا حتى يذوق الآخر من عسيلتها ما ذاق الأول"[1].

فافهم؛ فمثل هذه النبوات لا نقبلها منكم؛ لأن المسيح يقول: "لا ينبغي لرجل طلاق زوجته إلا أن تزني، وإن زنت فلا يحل له مراجعتها، ومن طلق امرأته فقد جعل لها سبيلا إلى الزنى، أعنى من طلقها دون سبب، ومن زوج مطلقة فهو فاسق بها"[2].

وأنتم تقولوا: لا يحل لزوجها مراجعتها إلا أن تزني، بدل أن تنهو عن الزنى[3] تأمروا بالزنى[4] وهو عندكم فريضة التياس.

وأنا أريد قطع ذنب التيس؛ وأن نجعله في ذقنه ليلوح لسته لمعرة صرصر الشمال وحمّارة قيظ هجير الجنوب.

وهذا جواب كلامك انتصافا منك كما يقول قرآنك: "ومن انتصف من بعد ظلمه فلا جناح عليه"[5]، فافهم.

ثم قلت في شعرك: أراد النصارى ينصرون محالهم..

فانصر أنت محالك لأنك قلت بالسفه والطعن في ديننا، وقلت الكذب على مسيحنا، كيف قلت ما لم تعلم وكيف تجرأت أن تتكلم، واعلم أنك إن أرسلت بعد هذا بالشتم فإني

1- الحديثان وردا عند مسلم في صحيحه في كتاب النكاح باب لاَ تَحِلُ الْمُطَلَّقَةُ ثَلاَثًا لِمُطَلِّقِهَا حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ وَيَطَأَهَا ثُمَّ يُفَارِقَهَا، بالألفاظ التالية:

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَمْرٌو النَّاقِدُ، - وَاللَّفْظُ لِعَمْرٍو - قَالاَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ جَاءَتِ امْرَأَةُ رِفَاعَةَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ فَطَلَّقَنِي فَبَتَّ طَلاَقِي فَتَزَوَّجْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزَّبِيرِ وَإِنَّ مَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ " أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ لاَ حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ "

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ طَلَّقَ رَجُلٌ امْرَأَتَهُ ثَلاَثًا فَتَزَوَّجَهَا رَجُلٌ ثُمَّ طَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا فَأَرَادَ زَوْجُهَا الأَوَّلُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ " لاَ حَتَّى يَذُوقَ الآخِرُ مِنْ عُسَيْلَتِهَا مَا ذَاقَ الأَوَّلُ "

2- متى5 :32.

3- في خ/م: ""الربا".

4- في خ/م: ""الربا".

5- هذا الكلام ليس قرآنا، وكأني به يقصد قول الله تعالى في سورة الشورى، آية: 41 (وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ).

أبعث إلى كل بلد كتابا بنص شريعتكم، وبكل ما نعرف فيها من الأقاويل التي لا تقدرون على إنكارها.

فافهم لأنك قلت في المسيح: [أنه][1] غثاء وأوطار، وأنك سببت الحاكم عليك وعلى جميع الأمم يوم القيامة، لكن سوف تلقاه حاكما ليس يطلب عليك بينة، فإن أرسلت بعد هذا بالشتم، فإني أعرفك بشجرتك ما هي؟ حتى تعلم من أنتظ وأعلم أني لم أرد في الأول شتم أحد، لكن لما بعث إلي أول كتاب بالسفه والسب، رددت له الجواب بأمه هاجر، ولم نقل فيها عشر ما قال الله فيها في التوراة[2]، فاسمع قول الله عنها وعن ابنها: "رأت سارة[3] ابن هاجر المصرية[4] الذي ولدت لإبراهيم وهو يلعب، فقالت لإبراهيم: ارم هذه الأمة وابنها أن[5] ليس يرث هذه الأمة وابنها مع ابني إسحق، فصعب على إبراهيم ما قالت له عن ابنه، فقال الله لإبراهيم: لا يصعب عليك بكلام سارة[6] عن الصبي وعن أمتك وجميع ما تقول لك سارة[7]، اسمع من قولها، فقال إبراهيم: هذا كلام الله إلي قائلا لا يرثك هذا"[8].

إن الذي يخرج من صلبك هو يرثك.

ثم قال الله لإبراهيم: "بإسحق يتسمى نسلك"[9].

فافهم ترشد، واعلم كيف قطع الله ورث إسماعيل وأمه في قوله: "لا يرثك هذا"، ثم قال [عن إسحق الذي يخرج من صلبك وكيف قال الله][10] لإبراهيم بإسحق يتسمى نسلك، ولم يقل بإسماعيل يتسمى نسلك، فأخذ إبراهيم خبزا وجرة ماء، وجعل على أكتاف الأمة وجعل إسماعيل على عنقها بالليل؛ وأخرجها بولدها عن العمران، فتناسلت[1]

1- في ط سقطت كلمة "أنه".
2- في ط: "وعن ابنها".
3- في خ/م: "صارت".
4- في خ/م: "المصري".
5- في ط: "إذ".
6- في خ/م: "صارت".
7- في خ/م: "صارت".
8- تكوين21: 13.
9- التكوين21: 13.
10- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

فتناسلت[1] منه الأمة الذي قال فيها قرآنكم ﴿ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾[2] .

فافهم؛ والسلام على من اتبع الهدى؛ وآمن بشريعة المسيح حقيقة الإيمان ورحمة الله وبركاته كمل كلامه.

الجواب عما ذكر [في هذا الفصل][3].

اعلم -يا هذا المخدوع؛ المصروف عن المعارف الممنوع؛ الشاهد عليه جهله بأنه ليس بتابع ولا متبوع- أنّا نؤمن بالله وكتبه ولا نفرق بين أحد من رسله، فنؤمن بالتوراة والإنجيل اللذين أنزلهما على رسوليه الملك الجليل، ولكن قبل أن يعتريهما التغيير والتبديل؛ وقد نبهنا على أن الكتاب الذي بأيديكم المسمى بالإنجيل عندكم لا يقال عليه منزل بالحقيقة؛ كما تقدم من تلك الطريقة، ثم إنا نسلم جدلا صحة ما تدعونه من تلك الكتب[4]؛ ونبين صحة نبوة نبينا منها عن كثب.

فأما قولك: واعلم أنا لا نقبل من كتبكم شيئا؛ فليس ذلك بأول عنادكم؛ فكم لكم منها؛ وكم "شنشنة أعرفها في أخزم"[5].

لكنكم لستم عند العقلاء أهلا لقبول حق؛ ولا لرد باطل؛ فليس ردكم بأولى من قبولكم هذا[6]، فعل الرعاع الغثر الغثاء الغبر يقبلون بغير دليل؛ ويردون بغير حجة ولا سبيل.

وإلا فما الدليل الذي أوجب عندكم إلا تقبلوا نبوة نبينا محمد مع وضوح معجزاته وعدالة بيناته؛ على ما نبينه إن شاء الله[7].

فظهر من هذا أن ردكم لديننا ليس بدليل؛ وإنما هو لأجل إتباع قول كل جهول دخيل؛ يحكم على عقله هواه[8] ويطيح معه حيثما رماه، ولأجل ذلك صار دينكم ضحكة العقلاء؛ مشتملا على كل مقالة شنعاء، ومن كان هذا منهج سبيله فرده لغير معنى بمثابة قبوله.

1- في خ/م: "فتنسلت".
2- سورة التوبة، آية: 97.
3- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.
4- في ط: "النبوة".
5- هذه القولة قريبة من الشطر الثاني من بيت شعري لأبي أخزم الطائي جد حاتم الطائي يقول فيه:
إن بني زملوني بالدم...شنشنة نعرفها من أخزم.
6- في ط: "وهكذا".
7- في ط: "تعالى".
8- في خ/ م: "هواد".

ولقد كان ينبغي لك؛ لو كنت على سنن النظار؛ أهل البحث عن الحق والاعتبار؛ أن تحكى ديننا، وتستدل بزعمك على فساده كما قد فعلنا نحن بدينكم، إذ بيّنا تناقضه وعدم سداده؛ على أنه قد تبين الصبح لذي عينين ووضحت الشمس لسليم الحاستين.

ما ضر شمس الضحى في الجو مشرقة... ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

ثم قلت متواقحا في قولك؛ مستهزئا برسول ربك:(فإن قلت من كتابك شيئا قلت لك كما قال رسولك "البينة على من ادعى واليمين على من أنكر")، أما قولك: "رسولك" فنعم هو رسول إلينا وإليك؛ فآمنا وكفرت؛ وصدقنا وكذبت ﴿ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾ [1]، فنحن نقول رضينا بالله ربا وبمحمد رسول الله رسولا وبالإسلام دينا، وأما أنت فإن مت مصرا على تكذيبك فليدخلنك الله النار؛ وليدخلنك في دار البوار، فلا تنتفع بشفاعة ملك مقرب ولا بنبي مختار، وأما طلبك البينة على صدقه فكفاك شهادة الأنبياء العارفين بحقه؛ المخبر عنه بلزوم تصديقه وصدقه، وسنبين ذلك بأبلغ بيان وأوضحه بأوضح برهان.

وعلى سبيل الاستعجال يكفيك بينة عدلة[2] ما وقع في صحف النبي دانيال؛ حيث وصف الكذابين وقال: "لا تمتد دعوتهم ولا يتم قربانهم وأقسم الرب بساعده أن لا يظهر الباطل ولا تقوم لمدع كاذب دعوة أكثر من ثلاثين سنة".

وهذا دين محمد رسولنا؛ قائم منذ ستمائة سنة ونيف؛ فكيف ترى هذه البينة المصححة؛ أمعدلة عندك أم مجرحة.

وكذلك في صحف النبي حبقوق؛ وهو الشاهد المعظم الموثوق؛ قال: "جاء الله من التين[3]؛ وتقدس من جبال فاران؛ وامتلأت الأرض من تحميد أحمد وتقديسه وملك الأرض بهيبته" وقال أيضا: "تضئ له الأرض؛ وستنزع في قسيك إغراقا؛ وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتوا[4]".

فهذا النبي الصادق المصدق قد أفصح بنعته؛ وصرح باسم بلده وشهد بصدقه، ومن

1- سورة الشعراء، آية: 227.
2- في ط: "عدله".
3- في ط: "التيمن".
4- في ط: سقطت "ارتوا".

كان الأنبياء شهوده فقد استحق مكذبه عذاب النار وخلوده، فلعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من تبين له الحق ثم صار عنه من المعرضين.

وسنعقد في النبوات فصلا مفردا؛ ونأتي فيه بالعجائب حتى يتبين فيه تواقح كل طاعن عائب.

وأما قولك: "وأنت تدعي أن كتابكم من الله". فإن كنت تنكر ذلك فادع عصابتك البلغاء من نصارى نجران؛ المتكلمين بلغة القرآن ليعارضوه[1] بسورة من مثله، فإن فعلوا ذلك دحضت حجته وانقطع عظيم قوله، لكنهم لما سمعوا منه القرآن؛ تحققوا على القطع أنه ليس يقدر عليه أحد من الإنس والجان؛ وعلموا أنه كلام الملك الديان، فآمنوا وصدقوا لما عرفوا؛ وحققوا فحصلوا على فضل الملتين؛ وآتاهم الله أجرهم مرتين.

وأما قولك: " فأثبتوه من التوراة بالعبراني ومن الإنجيل بالعجمي" فلتعلم أنا لولا كره منا أن نتكلم برطانة العجم؛ لكان ذلك علينا أيسر شيء يلتزم، ولكنا -إن شاء الله تعالى- نذكر كلام الأنبياء من كتبكم كما قد ترجمها المترجمون من أهل ملتكم؛ مثل يرونم[2] وحفص[3] ابن البر وغيرهما من المترجمين الذين تثقون بقولهم وتعولون على نقلهم، ولست أفعل مثل ما أنت فعلت؛ ولا أصنع شيئا مما صنعت؛ حيث نقلت كلام الأنبياء بالعبراني والعجمي، ثم إنك شرعت في ترجمته وفي تفسيره من غير أن تنسب التفسير إلى أحد المترجمين العالمين بالمعاني وباللغات ومواقع الألفاظ، وأما أنت فلست بموثوق بنقلك ولا مصدق في قولك لجهلك بالشروط التي يحتاج إليها المترجمون، وإذا ادعيت أنك لست جاهلا فما حد الترجمة وحقيقتها وما شروطها وكم أقسامها؟ وما المحل الذي تجوز فيه من الذي لا تجوز؟ وبهذا السؤال يظهر جهلك وتبلدك وحصرك وتوددك.

ثم قلت: " فائت بما ادعيت وإلا يميني لأني أنكر" ها أنا قد أقمت البينات العدول الذين ليس لقائل في عدالتهم ما يقول، ولقد أعلم مع ذلك أنك تبادر باليمين؛ وتباهت المسلمين؛ إذ قد تقولت بالكذب والزور على رب العالمين، ثم ذكرت على جهة الاستهزاء والتنقيص والازدراء والتخريص[4] حديث امرأة رفاعة لتقبح بذلك ديننا؛ وتنسب إليه

1- في ط: "ليعارض".
2- في خ/م: "يروغ".
3- في خ/م: "جعص".
4- في خ/م: "التحريص".

شناعة؛ وأنت مع ذلك لم تعرف معناه ولا فهمت فحواه.

ثم قلت -بعد أن أخللت بمساقه ولم تقمه على ساقه- فمثل هذه النبوات لا نقبلها منكم لأن المسيح يقول: "لا ينبغي لرجل طلاق زوجته إلا أن تزني"، فلتعلم أن هذا كلام جاهل بأحكام الأنبياء؛ ظان أن أحكام الشرع صفات لأعيان الأشياء؛ ثم يستمد[1] من إنكار الناسخ والمنسوخ وكلام كل جاهل مردود مفسوخ.

فنقول لهذا المنكر الجاهل -الذي ليس بمتشرع ولا عاقل- منعك طلاق الرجل زوجته ورده إياها بعد طلاقها لا يخلو إما أن يكون منعا من جهة العقل؛ أو من جهة الشرع، فإذا ادعيت أنه [ممنوع][2] من جهة العقل كانت دعواك باطلة بالضرورة؛ فإن صور هذه المسائل ووجودها معلوم بالضرورة، فإذا بطل أن يكون امتناعها من جهة العقل فيجوز أن توجد، وإذا جاز أن توجد فكيف ينبغي لمن ينتسب إلى العقل أن ينكر نبوة من قامت الأدلة القاطعة على صدقه من حيث[3] حكم بشيء يصح في العقل أن يوجد.

ثم من العجب العجاب؛ الذي يستعظمه أولو الألباب؛ أنكم التزمتم في شرعكم بما يشهد العقل الأول بفساده، مثل قولكم في الأقانيم أنها آلهة ثلاثة إله واحد، وقلتم في الاتحاد والحلول ما يعلم فساده بضرورة العقل[4]، ثم لم ينفركم ذلك عن إتباع شرعكم؛ بل يقول من يميز استحالة ذلك القول منكم هذا مما ليس يدرك بالعقول؛ بل يتبع فيه الكتاب المنقول، ثم بعد التزام هذه المحالات والمدافعة عنها بالترهات والخرافات تنكرون علينا فعل شيء تجوزه العقول؛ ولم نصر[5] إليه إلا بعد ثبوت الشرع المنقول؛ الذي دل على صحته البرهان المعقول، فأنتم من الجهل والزلل كما جرى من كلام النبوة مجرى المثل: "يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عينه"[6] وإنما كان ذلك كله للمعنى الذي نبه الشاعر عليه هنالك.

1- في ط: "تستمد".
2- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.
3- في ط: "حيث إنه".
4- في ط: "العقول".
5- في ط: "تصر".
6- متى7: 3.

عيون الرضا عن كل عيب كليلة... ولكن عين السخط تبدي المساويا[1]

فلو وفقتم لطريق الإنصاف لتركتم طريق التعصب والاعتساف، ولو كنتم تطلبون الحق بدليله لأوشك أن يرشدكم إلى سبيله، ولكن من حرم التوفيق استدبر الطريق ونكل عن التحقيق.

وإن ادعيت أن ذلك ممنوع من جهة الشرع، فنقول لك: إما أن يكون ممنوعا من جهة الشرائع كلها أو من بعضها، فإن قلت: إنه ممنوع من جهة الشرائع كلها، كان ذلك باطلا إذ الشرائع في ذلك مختلفة، فإن المعلوم من شرع التوراة في ذلك خلاف شرعكم؛ وكفى دليلا على أن التوراة تخالفكم في ذلك أو الكلام الذي حكيته عن المسيح أنه قال: "أما علمتم أنه قيل للقدماء من طلق امرأته فليكتب لها كتاب طلاق؛ وأنا أقول من طلق امرأته فقد جعل لها سبيلا إلى الزنى" فهذا تصريح بين ما أنكرته علينا وتنقصت به شرعنا، وكما جاز أن يخالف عيسى عليه السلام بعض أحكام التوراة؛ ولا يدل ذلك على كذبه ولا على فساد شرعه؛ كذلك يجوز أن يخالف شرعنا شرع عيسى وموسى في بعض الأحكام ولا يدل ذلك على فساده، إذ كل واحد منهم إنما يبلغ حكم الله وليس مخترعا حكما من قبله، ثم قد تختلف الأحكام والأوضاع بحسب ما يريده الله تعالى وبحسب ما يعلمه من اختلاف الأحوال والمصالح.

والأصل في ذلك أن الله تعالى لا حجر عليه في أفعاله؛ ولا راد لشيء من أحكامه؛ فيحل لعباده ما شاء ويحرم عليهم ما شاء ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[2]، وهذا بين بنفسه لا يجهله إلا من كان عديم حسه.

ثم قلت:" وأنتم تقولون لا يحل لزوجها مراجعتها إلا أن تزني؛ بدل أن تنهوا عن الزنى تأمروا بالزنا" اسكت فض الله فاك فما أكذبك وما أجفاك؛ تتقول علينا بما لا نقول؛ وتتصرف في شرائع الأنبياء تصرف متواقح جهول؛ كما فعل أشياعكم من قبل.

اسمع يا لكع؛ على أنك لا تحسن أن تسمع؛ اعلم أن هذا الذي ظننته بجهلك زنا ليس بزنا؛ لأن الزنا حقيقته إيلاج فرج في فرج محرم شرعا مشتهى طبعا، وهذه الحقيقة

1- البيت منسوب للإمام الشافعي ومنشور في ديوانه، والبعض ينفي نسبته إليه وينسبه إلى عبد الله بن معاوية، وبعضهم ينسبه إلى لأبي السود الدؤلي، ونسبه الحافظ بن حجر إلى المغيرة بن حبناء في شرحه لحديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن.

2- سورة الأنبياء، آية: 23.

معدومة في الذي توهمت أنه زنا، فإن قلت إن كانت هذه الحقيقة معدومة عندكم فليست معدومة عندنا فإن هذا الإيلاج محرم عندنا فهو زنا؛ قلنا لك إن كان قد ثبت تحريم ذلك عندكم فقد ثبت تحليله عندنا؛ فإن الله تعالى يحل لعبيده ما شاء[1] ويحرم[2] عليهم ما شاء[3].

وهذا كما أحل الله لموسى من الطلاق ما حرمه على عيسى، ثم كيف يمكن لعاقل أن ينكر مثل ذلك وقد ثبت أنه أحلت في بعض الشرائع فروج وحرمت في شرع آخر، فقد ثبت أن البطن الأول من أولاد آدم أحلت لهم نكاح الأخوات؛ ثم حرمت على من بعدهم من الشرائع، وقد جاء في التوراة أن يعقوب نكح أختين راحيل وليئة[4] وجمع بينهما وحرمهما على غيره والجمع بينهما في النكاح محرم عندكم، وقد فعل الله ذلك في أحكام أخر على ما يعرف من أحوال الشرائع واختلافها في بعض الأحكام، وإنما يتحقق هذا المعنى على اليقين من يعلم أن حقيقة الحكم الشرعي هي خطاب الشرع المتعلق بأفعال المكلفين على جهة الاقتضاء أو التخيير، فعلى هذا لا معنى للحكم إلا قول الشارع افعلوا أو لا تفعلوا أو إن شئتم فافعلوا وإن شئتم فاتركوا على ما يعرف في موضعه.

ثم هذا الذي عبته علينا؛ أيها الجهول؛ له معنى صحيح في العقول؛ جار على منهاج المصالح المعقول، وذلك أن الله تعالى إنما شرع الطلاق ليتخلص الرجل من نكد المرأة وأسوها رفقا بنا ورحمة منه علينا، فقد تكون غلا قملا تضر بالرجل ضررا حفيا[5] لا يمكن أن يطلع عليه أحد فلا تجبر على إزالته لكونه لا يتحقق من جهتها فجعل للرجل أنه متى شاء أن يتخلص منها ومن ضررها فعل.

وأيضا فلكون النساء في الغالب ناقصات عقل؛ فلو علمت أن الرجل لم يجعل له سبيل إلى مفارقتها لما كانت تحترمه ولبادرت[6] إلى ضرره، فأراد الشارع أن يجعل للرجل سببا يحترم لأجله وهو الطلاق، فإن المرأة إذا علمت أنها إن بالغت في ضرر زوجها طلقها امتنعت من ضرره في الأكثر.

1- في ط: "يشاء".
2- في خ/م: "يجمع".
3- في ط: "يشاء".
4- في خ/م: "ليا".
5- في ط: "حقبا".
6- في ط: "بادرت".

فإن عورضنا وقيل لنا فيلزم على ذلك أن تطلق المرأة نفسها متى شاءت؛ فإن الرجل قد يضر بها ضررا لا يطلع عليه أحد، فإن راعيتم وجود الضرر وتوقعه في حق الزوج فلم لم تراعوه في حق الزوجة كذلك، فنقول: إنما لم نراعه في حق المرأة؛ لأنا لو جعلنا للمرأة أن تطلق نفسها متى شاءت لما استقرت امرأة عند زوجها في غالب الأمر، لأنهن ناقصات عقل فلا يؤمن عليهن غلبة شهواتهن على عقولهن.

وإن فتح هذا الباب طرأ منه من الضرر ما لا ينسد؛ ولا يتدارك فسد هذا الباب في حق النساء لهذه الحكمة، وفتح في حق الرجال ليزول عن أعناقهم غل الضرر والنقمة والله أعلم.

وأما ما عبته[1] أيضا من أن المطلقة ثلاثا لا تحل إلا بعد زوج، فذلك أيضا له معنى معقول مناسب؛ وذلك أن الطلاق وإن كان الله قد أباحه لنا فهو من قبيل المكروه من غير سبب من حيث التقاطع والتدابر المنهي عنهما، ولأجل هذا قال نبينا عليه السلام:" أبغض الحلال إلى الله الطلاق" فأطلق عليه لفظ البغض مشعرا بالكراهة؛ وأطلق لفظ الحلال مشعرا بجوازه فحصل لنا من مفهومه أنه يجوز على كراهة.

فإذا تقرر أنه مكروه من الوجه الذي ذكرناه؛ فينبغي ألا يفعل، ثم إن فعل ولا بد منه فلا يكثر منه؛ ثم إن كثر منه [فلا][2] يزاد على المرتين، فإن تعداها[3] عوقب بأنه لا تحل له إلا بعد زوج، فكانت الحكمة في ذلك أن الزوج إذا علم أنه إذا أكثر من هذا المكروه -الذي هو الطلاق- عوقب بتفويت زوجته عليه وتملكها غيره؛ امتنع من تكثير المكروه الذي هو الطلاق، ثم لا يظن الجاهل بنا أننا نجبر الزوج الثاني على طلاقها حتى يرجع إليها الأول حاشى لله، وإنما الزوج الثاني يملك منها ما يملكه الأول فإن شاء طلقها وإن شاء أمسكها .

ثم إن طلقها اعتدت منه؛ وجاز للأول أن يتزوجها تزويجا مستأنفا إن شاء، ولا يجوز عندنا أن يتزوجها الثاني ليحللها للزوج الأول؛ فإن فعل كان نكاحه فاسدا؛ وهو الذي نسميه المحلل؛ وهو الذي قال فيه النبي:" لعن الله المحلل والمحلل له"، فإن سماه مسم تيسا فعلى جهة الذم لفعله.

1- في ط: "عابه".
2- ساقطة من خ/م.
3- في ط: "تعداهما".

فإذا تقرر هذا المعنى الذي لا يمنعه العقل؛ ولا تنافيه مكارم الأخلاق؛ بل هو على منهاجها؛ وعلى سنتها؛ فكيف ينبغي لعاقل منصف غير متواقح ولا متعسف أن يتقول علينا أنا نقول: لا يحل لزوجها مراجعتها إلا أن تزني، ولو كنت يا هذا من أهل العقل الذين تبرؤوا عن السفه والجهل لما كنت تشبه نكاحا على وفق شريعة صحيحة بحسب دلالة أدلتها القاطعة، مع أن هذا النكاح وقع بولي ومهر وشهود وإعلان بنكاح الزنا الذي ليس فيه ولي ولا مهر ولا شهود ولا إعلان، وإنما يقع الزنا مخالفا للشرائع عريا عن الشهود والولي مستورا فهذا تشبيه يدل على عناد وتمويه.

ثم قلت: "بدل أن تنهوا عن الزنا تأمروا به؛ وهو عندكم فريضة التياس" هذا التشنيع باطل؛ وقول غبي جاهل؛ وتهويل ليس وراءه حاصل؛ وقول الزور والأباطيل قصد به قائله استزلال العوام؛ وليكره لهم دين الإسلام: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [1] ولقد صدق الله عبده وأنجز وعده ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [2].

اعلم -يا هذا المفترى الكذاب والمشنع المرتاب- أن العقلاء لا يرضون بما فعلت؛ ولا يأتون بمثل ما به أتيت، وذلك أنك جهلت شرعنا؛ وكذبت عليه؛ وعميت عليك مقاصده؛ فنسبت الزور والفحش إليه، وإنما كان ينبغي لك؛ لو كنت على سنن العقلاء أهل السياسة الفضلاء؛ أن تبحث عن أدلة صحة هذه الشريعة؛ وعن صدق الذي جاء به، فإن كانت أدلتها صحيحة وجب عليك أن تقبلها جملة؛ ولا ترد منها شيئا[3]؛ وتكون واحدا ممن التزمها؛ وإن لم تظهر لك صحة أدلتها، فناظر أهلها في تلك الأدلة؛ ولا تتعداها إلى غيرها؛ وباحثهم فيها مشافهة فإن المخبر ليس كالمعاين، فلو لم يقدروا على أن يحتجوا لدينهم؛ ولا أن يقيموا دليلا على صحة شرعهم وجب عليك رد تلك الشريعة من أولها؛ وهذا دأب الموفقين لا الكذابين المشنعين.

ثم قلت:" وأنا أريد قطع ذنب التيس وأن نجعله في ذقنه ليلوح استه لمعرة صرصر الشمال وحمارة قيظ هجير الجنوب" .

1- سورة الصف، آية: 8.
2- سورة التوبة، آية: 111.
3- في ط: "شيء".

يا هذا التيس وأي ذنب ساتر للتيس، أتظن أنك تتفصح وتستعير؛ وأنت لا في العير ولا في النفير، وكيف تظن السلامة من الحمق والبؤس بمن يجهل كيفية أذناب التيوس؛ أم كيف يبالي بتفصحه وجعاجعه، وهل هو في ذلك إلا بمنزلة من جهل عدد أصابعه، ولولا أن شرعنا منع من السباب ولا يليق ذلك بأولى المروءات والآداب لأقذعتك سبا[1] ولأوجعتك عتبا ومع هذا.

نجا بك لومك منجى الذباب حمته مقاديره أن ينالا

لا أسبنكم فلستم بسبي إن سبي من الرجال الكريم

ثم قلت:" وهذا جواب كلامك انتصافا منك كما يقول قرآنك ومن أنتصف من بعد ظلمه فلا جناح عليه".

يا هذا؛ شأنك يحار فيه النحرير؛ وجهلك يتعجب منه[2] الصغير والكبير، كيف لا وكلامك هذا يشهد عليك بجهلك بإنجيلك؛ وبمخالفتك حكمه وشرع رسولك، كيف يحل لك في شرعك أن تنتصف ممن ظلمك وتشتم من شتمك؛ وإنجيلك يقول لك: "لا تكافئوا أحدا بسيئة ولكم؛ من لطم خدك اليمنى فانصب له اليسرى، ومن أراد مغالبتك وانتزاعك قميصك فزده أيضا رداءك"[3] فهذا إنجيلك يشهد عليك بأنك لست على شرعه؛ بل رددت حكمه وعملت على رفضه[4].

وإذا كان شأنك هذا مع كتابك؛ فكيف يرتجي فلاحك من ليس من أحبابك، ثم العجب العجاب تركت كتابك والعمل به؛ ثم أخذت تعمل بكتاب لا تصدق بأصله، فهذا يعلم من حالك أنك لست تريد أن تتبع الحق؛ ولا أن تبحث عنه؛ ولكنك اتبعت هواك فأضلك وأطعت الشيطان فأزلك، ثم من أدل دليل على جهلك ومغالطتك أنك أوهمت أنك تعرف القرآن؛ وأنك تحتج علينا به؛ ثم ذكرت ما ليس بقرآن حيث قلت:" ومن انتصف من بعد ظلمه فلا جناح عليه" وهذا ليس بقرآن وإن كان يشهد لمعناه[5] القرآن.

1- في خ/م: "سببا".
2- في ط: "منك".
3- متى5: 1.
4- في خ/م: "رفعه".
5- في ط: "بمعناه".

وليس القرآن عندنا بمجرد معناه فقط، بل بلفظه المخصوص ومعناه وأسلوبه الذي أعجز الأولين والآخرين، فعلى هذا المعنى أن تترجم بلسان آخر أو عبر عن معناه بغير لفظه وأسلوبه خرج عن كونه قرآنا فأفهم وما أدراك تحسن.

ثم قلت: "فانصر أنت محالك لأنك قلت بالسفه والطعن في ديننا وقلت[1] الكذب على مسيحنا".

انظر هذا الكلام الفصيح الجهالة على قائله تلوح فلقد عدم هذا الكلام الانتظام والارتباط فوجب له لأجل ذلك الإلغاء والإسقاط.

وأما ما ذكرت من تسفيه دينك والطعن عليه فذلك واجب على العقلاء، إذ قد تبين بدليل العقل الذي لا يشك فيه أنكم قد تمذهبتم[2] بكل مقالة شنعاء وقد بينا ذلك فيما تقدم.

ثم إن الطعن على دينكم ليس طعنا على دين المسيح، فإنكم لم تتدينوا بدينه؛ ولا عرفتم حقيقة يقينه؛ بل تخرصتم عليه بالأباطيل؛ وقبلتم عليه قول كل متواقح جاهل، فما لكم وللانتساب للمسيح وهو مبرأ عن كل قبيح؛ بل هو ساخط عليكم وبراء إلى الله منكم، وقد بينا ذلك فيما تقدم؛ وسيأتي إن شاء الله تعالى بمزيد يبطل قولكم فيه ويهدم.

وأما ما نسبت إلينا من الكذب على المسيح والسب له فذلك والله شيء لا نفعله؛ ولا يرضى بذلك متدين ولا عاقل، وكيف يجوز هذا علينا ونحن نكفر من سبه أو سب أمه عليهما الصلاة والسلام، وهذا عندنا أصل من أصول عقائدنا، وذلك أن الله تعالى أخذ علينا من الميثاق أن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل ولا نفرق بين أحد منهم، وهو عندنا من أكرم الرسل؛ فكيف نسبه أو نكذب عليه وفي فعل ذلك خروج عن دين الإسلام؛ وتمسك بفعل الجهال الطغام، بل أنتم الذين كذبتم عليه ونسبتم ما تحيله العقول إليه؛ وهو يتبرأ من ذلك ويتنصل مما افتريتم عليه هنالك، ثم أضفتم[3] مع ذلك من العيب والتنقيص على الله تعالى ما يعلم على الضرورة والقطع أنه محال؛ فنحن وإياك على المثل السائر "رمتني بدائها وانسلت".

1- في خ/م: "قلة".
2- في خ/م: "تذهبتم".
3- في خ/م: "أفضتم".

ثم قلت: "واعلم أنك إن أرسلت بعد هذا بالشتم؛ فإني أبعث إلى كل بلد كتابا بنص شريعتكم؛ وبكل ما نعرف من الأقاويل التي لا تقدرون على إنكارها".

لولا أن السب منهي عنه على الإطلاق؛ وليس من مكارم الأخلاق؛ لأكثرت من سبك ولأوغلت في لومك وعتبك، ولو كان ذلك لما كذبت ولا افتريت؛ وإنما كنت أفعل ذلك لأظهر بذلك باطل تمويهك ومغالطة تهويلك؛ ومن أين لك أن تعرف ديننا وأي طريق يوصلك إليه؛ وبأي لسان تتمكن منه وبأي فهم[1] تتوصل إلى معناه.

ها أنت لا تعرف دينك الذي نشأت عليه؛ فكيف بك أن تعرف ما لم تفهم منه حرفا؛ ولا سمعته على وجهه، اللهم إلا أن تقولت بما ليس لك به علم كما قد فعلت في فريضة التياس فلا يعدم أحمق مخرق ما يقول.

وأما إن ذكر شريعتنا من يعرفها، فالعقول السليمة تقبلها بنفس ما تسمعها لشدة ارتباطها وحسن نظامها؛ وليست كشريعة من يعتقد إلها آخر مع الله ويعتقد في الله ما يستحيل عليه وينسب إلى الأنبياء ما يتبرؤون منه ويتحكمون[2] بأهواء جهالهم في دين الله. وسنعقد بأثر[3] هذا -إن شاء الله- بابا نبين فيه جملا من أحكامهم، وفيها يتبين أنكم لا تستندون فيها إلى مستند؛ وأنكم اخترعتم فيها من الجهالات ما لم يقل به أحد.

ثم قلت لأنك قلت في المسيح عثا[4] وأوطار وأنك سببت الحاكم عليك وعلى جميع الأمم يوم القيامة لكن سوف تلقاه حاكما ليس يطلب عليك بينة.

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم[5].

لتعلم يا هذا؛ أني وقفت على الكتاب الذي جاوبك بعض أصحابنا، وتأملت هذا الموضع الذي لم تفهمه فعلمت أن الخطأ من قبل فهمك لا من قبل الكاتب، وذلك أن لفظ ما كتب به إليك في هذا الموضع: "شجرتنا نبوية فروعها قرشية ثمرتها هاشمية شجرتك غثاء وأوضار ﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[6] هذا نصه:

1- في خ/م: "مبهم".
2- في ط: "يحكمون".
3- في ط: "أثر".
4- في ط: "غث".
5- البيت لأبي الطيب المتنبي.
6- سورة إبراهيم، آية: 26.

"وكان ينبغي لك أن تتفهمه[1] لو كنت منصفا، فإن هذا الكلام إنما جرى مجرى المثل، وإنما أراد بقوله[2] بشجرتنا نبوية أن أصل اعتقادنا أن محمدا نبي ورسول ليس بإله واعتقادكم أنتم أن عيسى اله وليس بنبي وهذا قول باطل واعتقاد فاسد، ولذلك عبر عن أصل هذا الاعتقاد بالشجرة، ثم قال إنها غثاء وأوضار فالمسبوب المذموم إنما هو اعتقادكم في عيسى لا عيسى حاشى وكلا، فهكذا ينبغي أن تفهم الكلام ولا تبادر لأجل الجهل بالملام، فالملوم على كل حال هو الجاهل الذي ليس يفهم ولا عاقل وحين وقفت على كلامك هذا هممت أن لا أكاتبك لكونك قليل الإنصاف كثير الجهل والانحراف.

ولقد أعرف أنك إذا وقفت على كتابي هذا لا تفهمه، ومع ذلك فتبادر إلى رده مكابرة ومجاهرة؛ وتتناوله بالرد والتقبيح[3] وبكل قول ليس بصحيح، وقد حكمت بيني العقلاء المتدينين الفضلاء الذين يعترفون بالحق حيث كان؛ ولا يعرجون في قبوله على إنسان.

وأما قولك: "الحاكم عليك وعلى كل[4] الأمم"، فقول ليس بصحيح ولا أمم؛ وإنما الحاكم على كل الأمم وكل المخلوقات الذي أوجدها بعد أن لم تكن ثم يعدمها كأن لم تكن ثم يعيدها كأنها ما برحت ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾[5] الآية.

وأما قولك: "ستلقاه حاكما ليس يطلب بينة[6]"، فقد نسبتموه إلى الجور؛ فإنه إذا لم تقم بينة على المحكوم عليه عندنا وعندكم ونفذ الحاكم الحكم نسب إلى الجور، فإذا قامت البينة زال عنه توهم الجور وظهر معيار العدل، وعند سماع هذا يتحقق معنى المثل المعروف عدو عاقل خير من صديق جاهل، فإن العدو العاقل يذعه[7] عنك عقله والصديق الجاهل يريد نفعك فيضرك، وأنت بجهلك أردت أن تعظم المسيح فنقصته وأن تمدحه فذممته فعل السفيه الأحمق الجاهل.

1- في ط: "تفهمه".
2- في ط سقطت "بقوله".
3- في ط: "القبيح".
4- في ط: "جميع".
5- سورة المائدة، آية: 17.
6- في ط: "يطلب عليك ببينة".
7- في خ/م: "يزعمك".

وأنا أقول: ستلقونه بين يدي الله[1] فإن اعترفتم بقولكم فيه جوزيتم على ذلك بجزاء سترونه عيانا، وإن أنكرتم قولكم فيه يقول الله لجوارحكم أنطقي فتشهد عليكم بأقوالكم[2] وأفعالكم، فهكذا يظهر العدل ويعلم كل مكلف أنه محاسب بما عمل من خير أو شر ومجزى عليه.

ومما يدل على أن الله تعالى إنما يأخذ بالبينات يوم القيامة؛ أنه قد ثبت على لسان من دلت المعجزة على صدقه أن الله وكل بنا كراما كاتبين يكتبون ما نفعل؛ فهم الشهود العدول الذي ليس لطاعن عليهم ما يقول؛ وستقدم فتعلم.

ثم العجب من جرأتك أنك سببت خليل ربك حيث قلت: "رشح الجلد المدبوغ في قصرية هاجر" هذا لإبراهيم ذم صريح صدر من جاهل وقح[3]، هنا يرد عليك قولك؛ كيف قلت ما لا تعلم؛ وكيف تجرمت في خليل الرحمن أن تتكلم؛ وستلقاه يناضل عنه الله.

ثم من ركيك هذه[4] الاستعارة أن الذي ذممت به إسماعيل يلزم منه ذم إسحق، والذي ذممت به هاجر يلزم منه ذم سارة[5]، فإن الجلد الذي رشح في قصرية هاجر هو الذي رشح في قصرية سارة، وأصل النطفة التي كان منها إسماعيل هو بعينه الذي كانت منه نطفة إسحق، وهذا كله ذم لإبراهيم ولعن، فقد حاق بك وبمن قال بقولك لعنة الله التي قال فيها لإبراهيم في التوراة: "وألعن لاعنيك"[6]، ثم أعجب من ذلك كله اعتذارك عن قبيح ما أتيت حيث قلت: "لما بعث إلى أولا كتاب بالسفه والسب[7] رددت له الجواب بأمه هاجر".

فكأنك قلت لما سببتني أنت أسب أنا هاجر التي إذا سبت تعدى سبها[8] إلى سيدها إبراهيم، ثم إنك صرحت بسب إبراهيم فلزمك على ذلك سب إسحق وأمه سارة، فأنت في هذه الفعلة بمنزلة من سبه رجل في وجهه فأخذ المسبوب ينكل الساب بأن يسب أبا نفسه أعني نفس المسبوب، وهذا ما لا يرضى به عاقل ولا متدين جاهل.

1- في ط: "تعالى".
2- في خ/م: "أقوالهم".
3- في ط: "وقبيح".
4- في ط: سقطت "هذه".
5- في خ/م: "صارت".
6- التكوين12: 3.
7- في خ/م: "العبث".
8- في خ/م: "سببها".

ثم قلت بعد ذلك ممهدا[1] لغدرك القبيح ما قلت هنالك ولم تقل فيها عشر ما قال الله عنها[2] في التوراة وعن ابنها، وهذا القول منك يوهم أن الله تعالى ذمها وابنها في التوراة؛ وهذا على الله وعلى كتابه كذب صراح وكفر براح، ثم ذكرت بعض قصه هاجر مع إبراهيم؛ ولم تسقها بكمالها لئلا تفتضح ويظهر[3] كذبك وخزيك.

وها أنا أذكر قصة هاجر مع سارة كما حكاها كتاب التوراة؛ حتى يتبين للواقف على هذا الكتاب أن الله تعالى أثنى على هاجر وابنها؛ ومدحها وما ذمها؛ بل أخبر بنبوتها أو صديقتها؛ ونبوة ابنها إسماعيل بحول الله.

قال في التوراة: "إن سارة امرأة إبراهيم لم تكن تلد له؛ وكانت له أمة مصرية اسمها[4] هاجر، فقالت سارة لإبراهيم: إن الرب قد حرمني الولد فادخل على أمتي؛ وابن بها لعلي أرزق[5] بولد منها، فسمع إبراهيم قول سارة فأطاعها[6]، فانطلقت سارة امرأة إبراهيم بهاجر أمتها المصرية، وذلك بعدما سكن إبراهيم أرض كنعان عشر سنين، فأدخلتها على إبراهيم زوجها؛ فدخل إبراهيم على هاجر، فحبلت، فلما رأت أنها قد حبلت استسفهت وزرت بسيدها وهانت في عينها، فقالت سارة: يا إبراهيم أنت صاحب ظلامتي، أنا وضعت أمتي في حضنك فلما حملت هنت عليها؛ يحكم الرب بيني وبينك، فقال إبراهيم لسارة امرأته: هذه أمتك مسلمة[7] في يديك فاصنعي فيها ما أحببت، وحسن في عينيك وسرك ووافقك. فأهانتها سارة سيدتها فهربت منها، فلقيها ملاك الرب على عين ماء في البرية في طريق جرار فقال لها: يا هاجر أمة سارة من أين لك أقبلت وأين تريدين؟ فقالت: أنا هاربة من سارة سيدتي، فقال لها ملك[8] الرب: انطلقي إلى سيدتك وتعبدي لها، ثم قال لها ملك[9] الرب عن قول الرب: أنا مكثر زرعك ومنميه حتى لا يحصوا من

1- في ط: "عهدا".

2- في ط: سقطت "عنها".

3- في ط: "تظهر".

4- في ط: "يقال اسمها".

5- في خ/م: "انغزا".

6- في ط: "وأطاعها".

7- في ط: سقطت "مسلمة".

8- في ط: ""ملاك".

9- في ط: ""ملاك".

كثرتهم، ثم قال لك الرب: إنك حبلى وستلدين ابنا وتدعين اسمه إسماعيل، لأن الرب قد عرف ذلتك وخضوعك، ويكون ابنك هذا وحشيا من الناس يده على كل ويد كل به، وسيحل على جميع حدود إخوته، فدعت اسم الرب الذي كلمها، فقالت: أنت الله ذو الوحي والرؤيا"[1]. هذا ذكر الله لهاجر وابنها في السفر الأول من[2] التوراة في الإصحاح الثالث عشر[3] منها[4].

وقال[5]: "أبصرت سارة ابن هاجر المصرية المولود لإبراهيم يستهزئ، فقالت لإبراهيم: أخرج هذه الأمة وابنها لأن هذا[6] لا يرث مع ابني إسحق. فشق هذا الأمر على إبراهيم لمكان ابنه فقال الله لإبراهيم: [لا يشقن عليك حال][7] الصبي وأمتك أطع[8] سارة في جميع ما تقول لك لأن نسلك إنما يذكر بإسحق، وابن الأمة أجعله أبا لشعب كثير لأنه ذريتك. فغدا إبراهيم باكرا فأخذ خبزا وإداوة[9] فأعطاه[10] هاجر، وحملها الصبي والطعام [فأرسلها وانطلقت][11]، وتاهت في برية بير شبع ونفد الماء من الأداوة[12]، فألقت الصبي تحت شجرة من شجر الشيح[13] وانطلقت، فجلست قبالته تباعدت عنه كرمية سهم لأنها قالت: لا أعاين موت الصبي فجلست إزاه ورفعت صوتها وبكت، فسمع الرب صوت الصبي فدعا ملاك الرب من السماء هاجر وقال لها: مالك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الرب قد سمع صوت الصبي حيث هو، قومي فاحملي الصبي وشدي به يديك لأني أجعله رئيسا لشعب عظيم، فأجلى الله عن بصرها فرأت بير ماء فانطلقت فملأت الإداوة

1- التكوين16: 1-
2- في ط: "في".
3- في ط: "السادس".
4- في ط أضيفت "وذكرها أيضا في الإصحاح الحادي والعشرين".
5- في ط: "وقالت التوراة".
6- في ط: أضيفت "ابن الأمة".
7- في ط: "لا تشقن لحال".
8- في خ/م: "اطلع".
9- في خ/م: "إدواة".
10- في ط: "فأعطاها".
11- في ط: "وأرسلها فانطلقت".
12- في خ/م: "الإدواة".
13- في خ/م: "الشيخ".

وسقت[1] الغلام فكان الله مع الغلام فشب الغلام وسكن برية فاران".

فأخبرنا - يا أيها الكاذب على كتاب الله المفترى على رسل الله- من أين استجزت سب الأنبياء والكذب على الله ذي الآلاء؟ أفي إنجيلك قرأته؟ أم عن الحواريين بلغته؟ حاشا وكلا بل بتواقحك اختلقته[2]، ثم من أعظم مباهتتك وأفحش جرأتك ومغالطتك أنك أوهمت بقولك ولم تقل فيها- تعني في هاجر- عشر ما قال الله فيها في التوراة وفي ابنها تشعر بأن الله ذمها وابنها في التوراة في عدة مواضع.

وهذه التوراة قد تلوتها عليك وأنهيتها إليك، فإذا بالتوراة تخبر بأن هاجر نبية أو صديقة مباركة؛ أوحى الله إليها وكلمها وبشرها بنبوة ولدها إسماعيل، بل قد مدح الله إسماعيل وأخبر عنه بما لم يخبر به عن إسحق حيث قال فيه:" يده على كل ويد كل به وسيحل على جميع حدود إخوته".

وهذا الكلام يبشر بل يفصح ويخبر بنبوة نبينا محمد، فإن إسماعيل لم يقل الله تعالى فيه يده على كل يد[3] وسيحل على جميع حدود إخوته إلا لأجل حفيده محمد، فإن الله تعالى قد بعثه بدعوة جميع الخلق إلى الله بني إسرائيل ومن دونهم ومن فوقهم، فكل من بلغته دعوته وجب عليه الدخول في دينه.

ثم إن الله تعالى قد أظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، وهذا كله وفاء بوعد الله تعالى لنبيه إبراهيم حيث قال له[4] في التوراة:" وقد استجبت لك في إسماعيل وباركته[5] وكثرته وأنميته جدا جدا؛ يولد له اثني عشر عظيما؛ وأجعله رئيسا عظيما لشعب[6] عظيم".

فانظر أيها العاقل كيف قال الله في إسماعيل "يده على كل ويد كل به وسيحل على جميع حدود إخوته" ولم يقل مثل[7] هذا في إسحق، وإنما قال فيه "يكون رئيسا على شعوب كثيرة وملوك الشعوب من نسله"، وبين الكلامين فرق ظاهر عند العاقل الفهم المنصف،

1- في ط: "واسقت".
2- في خ/م: "اختدقته".
3- في ط: أضيفت "ويد كل به".
4- في ط: "قال في التوراة"".
5- في خ/م: "وبركته".
6- في ط: "بشعب".
7- في خ/م: "مثل" مكررة.

وكذلك قال في إسماعيل: "باركته[1] وكثرته وأنميته جدا جدا" ولم يقل مثل هذا القول في إسحق، وإن كان قد قال فيه أباركه[2] وأثبت عهدي له؛ وهذا الذي وعد الله به إسحق وعد به إسماعيل؛ وزاد زيادة عظيمة يعرفها من مساق كلام التوراة من كان عارفا بمجاري كلام الله[3] فيها؛ وكان مع ذلك عاقلا منصفا.

وسننبه على سر تحت قوله جدا جدا[4] في القسم الثاني من هذا الباب.

فأما هاجر فقد جاء في التوراة في حقها ما لم يجئ في حق سارة، وذلك أن ملاك الرب كلمها عن الله وأبلغها أمره مرتين أو أكثر فهي[5] نبية أو صديقة، وفي أي موضع من التوراة جاء أن سارة نبية وأن الله أرسل إليها ملكا ليبلغها أمره ونهيه كما فعل بهاجر؟

ولا شك أن من آتاه الله النبوة هو أفضل ممن لم يؤته إياها، ولا يظن الجاهل أن هذا الكلام غض من منصب سارة رضي الله عنها بل هي صديقة مباركة، وكل له مقام معلوم والحق أحق أن يتبع.

ثم الذي يفضى منه العجب أنكم تعتقدون النبوة لمريم عليها السلام، وليس لنبوتها في التوراة ولا في الإنجيل ذكر يدل على نبوتها ولا في كتب الأنبياء المتقدمين على زمان المسيح، ثم تنكرون نبوة هاجر وتذمونها مع أنه قد جاءت نبوتها ومدحها في التوراة صريحا، وهذا كله مما يدل على جهلكم وقلة توفيقكم وأنكم تتحكمون في الشرائع الإلهية بأوهامكم.

وأما قولك: "فاعلم[6] كيف قطع الله ورث إسماعيل وأمه في قوله لا يرثك هذا"، اسكت يا جهول فلست تعرف ما تقول، فما كان أجمل بك أن لو سترت عارك ولم تبد عوارك، كيف تتحكم بما لا تعرف ولا تفهم، ها أنت قد حرفت لفظ التوراة وغيرته وليس كما ذكرته "كدأبك[7] من أم الحويرث قبلها".

1- في خ/م: "بركته".
2- في خ/م: "أبركه".
3- في ط: "تعالى".
4- في خ/م: سقطت "جدا" الثانية.
5- في ط: "فإذن هي".
6- في ط: "واعلم".
7- في ط: "كذبتك"، وفي خ/م: "عرقيك" والصحيح "كدأبك"، فالقول لامرئ القيس في معلقته قفا نبك، حيث يقول:

كدأبكَ من أمِّ الحويرث قبلها وجارتها أمُّ الرباب بمأسل

وإنما لفظ التوراة: أن سارة قالت لإبراهيم أخرج هذه الأمة وابنها لأن هذا ابن الأمة لا يرث مع ابني إسحق، فشق هذا الأمر على إبراهيم لمكان ابنه، فأين هذا من النص الذي ذكرت، فيظهر لي أنك له اختلقت.

وهذا الذي ذكره الله في التوراة بزعمكم إنما هو حكاية عن قول سارة وليس حكاية عن الله، لو[1] سلمنا أنه حكاية عن الله لما كان فيه دليل على ما زعمت وهو أن الله تعالى لم يجعل النبوة في نسل إسماعيل وأن الله قطعها عنه، بل مفهومه وظاهره أن الذي منعه الله لإسماعيل إنما هو ميراثه[2] في إبراهيم وهو حظه في ماله وأعطاه إسحق؛ وهذا السر عجيب[3] يعز من يتنبه لأمثاله، ولو كنت له محلا وأهلا لذكرناه لك فلسنا ممن يعلق الدر في أعناق الخنازير[4]، وكذلك في كون إسماعيل مخلوقا من نطفة إبراهيم في رحم هاجر مع كونها أمة وقد كان الله تعالى قادرا على أن يخلقه في رحم حرة.

وكذلك لأي معنى أخرجت هاجر على تلك الحال حتى استقرت هاجر مع إسماعيل بمكة، وهذه كلها أسرار معلومة عند من نور الله بصيرته وحسن سريرته وأصلح عقيدته ونيته، فإن كنت تريد أن تظفر بأمثال هذه الأسرار فعجل إلى الله الفرار ولا تلهينك الدعة[5] والقرار، وإلا فأنت أسوأ حالا من الثور والحمار ومع ذلك فأجل الله آت وكل ما هو آت قريب ﴿ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾ [6].

وأما قولك حاكيا عن الله أنه قال لإبراهيم: "بإسحق يتسمى نسلك" ولم يقل بإسماعيل يتسمى فلم يقل في التوراة: "يتسمى" وإنما قال: "يذكر"[7] ثم قطعت الكلام هنا[8] وسكت عما بعده، ولو ذكرته لتبين أنك مبطل في كلامك، وذلك أنه ذكر بعد هذا الكلام "وابن الأمة فإني أجعله أبا لشعب كثير لأنه ذريتك" وقد تقدم ما قال الله فيه وأنه مفضل

1- في ط: "ولو".
2- في ط: "ميراث".
3- في ط: "نجيب".
4- تشبيه مقتبس من مثل ورد في إنجيل متى7: 6 على لسان المسيح.
5- في خ/م: "الرعة".
6- سورة الشعراء، آية: 227.
7- التكوين21: 12-13.
8- في ط: "عنا".

على إسحق وإن كانت أمه أمة، وإنما قال الله لإبراهيم لأن نسلك إنا يذكر بإسحق بقرب زمان الأنبياء المنتسبين إليه ولكثرة عددهم والله أعلم.

ثم لو سلمنا أنه جاء في التوراة يتسمى كما ذكرت؛ لكان معنى ذلك أن الله يسمى ذرية إسحق باسم ابنه يعقوب الذي سماه الله إسرائيل؛ ثم غلب عرف الاستعمال على ذرية إسحق فقيل عليهم بنو إسرائيل، وغاية ما في هذا إعلام الله تعالى بأنهم يسمون باسمه أو باسم ولده وهذا أمر قريب وخطب يسير، وإنما كان يكون لك في هذا متمسك لغرضك الفاسد لو قال النبوة في ولد إسحق وليست في ولد إسماعيل، ولم يقل هكذا وإنما قال ما قد أسمعتك والذي به أخبرتك.

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي[1]

وأما قولك:

فتنسلت منه الأمة الذي قال فيها قرآنكم: ﴿ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾[2].

يا هذا؛ قد أعييت من جهلك[3]؛ وسخفت في قولك؛ حيث تركت ما قالته التوراة في نسله وعظيم حرمته وطوله؛ وذكرت ما يدل على جهلك وكثرة تواقحك وقلة فضلك، ولأي شيء لم تذكر في نسله ما قال الله فيه في كتاب التوراة حيث قال فيه وفي نسله: "باركته[4] وكثرته وأنميته جدا جدا يولد له اثني عشرة عظيما، وأجعله رئيسا عظيما لشعب عظيم." فأنت يا جاهل قد صغرت ما عظم الله؛ وذممت ما مدح الله فحاق عليك لذلك غضب الله، فبادر لإنقاذ نفسك قبل حلول رمسك وندمك على ما فرط لك في أمسك، فها أنا قد نصحتك ورسولنا يقول لك قد أبلغتك.

1- في خ/م: "أنادي". البيت اشتهر به الشاعر الفارس عمرو بن معدي كرب بن ربيعة الزبيدي، الذي عاش بين 525ـ642 م، وأورده الشاعر في قصيدة له يقول فيها:

ألا غدرت بنو أعلى قديما وأنعم إنها ودق المزاد
ومن يشرب بماء العبل يغدر على ما كان من حمى وراد
وكنتم أعبدا أولاد غيل بني آمرن على الفساد
لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو نار نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد

2- سورة التوبة، آية: 97.
3- في ط: "أغييت في".
4- في خ/م: "بركته".

ثم الذين قال فيهم قرآننا: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرًا وَنِفَاقًا ﴾ [1] إنما أراد بهم قوما معينين وطائفة مخصوصين من أعراب البادية أهل جفاء وغلظة ردوا الحق بعد ظهوره وعاندوه حين وضوحه كما فعل أشياعكم من قبل.

ثم لا تظن أن قول الله تعالى الأعراب أشد كفرا ونفاقا أنه أراد منكم لأنكم أشد الناس كفرا وأعظم العقلاء عنادا، وقد بينا ذلك فيما تقدم، وإنما أراد الله بهذا[2] المعنى وهو أعلم أن أعراب البادية أشد كفرا ممن كفر من عرب الحاضرة، فلا تدخلون أنتم معهم تحت أفعل إلا كما يقال العسل أحلى من الخل.

ثم إن جاز ذم شعب أو قبيلة -لأن بعضهم كفر أو فسق- فأشد الناس كفرا ونفاقا بنو إسرائيل لكونهم عبدوا العجل والأصنام على ما هو المعروف من أحوالهم، فالكافرون من أجدادكم على الحقيقة أشد الكافرين كفرا وأسوأهم طريقة.

وأما قولك: والسلام على من اتبع الهدى وآمن بشريعة المسيح حقيقة الإيمان، نحن والحمد لله أهل الهداية والهدى المؤمنين بشريعة المسيح المصطفى المحققون أنكم لستم على شيء منها بل على الضلالة والردى، وقد بينا ذلك فيما تقدم بالبراهين القاطعة.

وبعد هذا نعقبها بالدلالات الصادعة بحول الله وقوته، وقد نجز ما أردنا تتبعه على هذا السائل الجاهل بدينه الغافل، ولو ذكرنا كل ما فيه من الفساد لخرج الكلام عن الضبط.

وبعد الفراغ منه نتكلم على ما وعدنا به من الكلام في النبوات، ونذكر ما فيها من المباحثات بعون الله وتوفيقه.

1- سورة التوبة، آية: 97.

2- في ط: "لهذا".

القسم الثاني

في النبوات وإثبات نبوة محمد

[عليه من ربنا أفضل الصلوات وفيه مقدمتان وفصول][1]

المقدمة الأولى

غرض هذه المقدمة أن نبين فيها معنى النبوة والرسالة والمعجزة وشروطها ووجه دلالتها، فنقول لفظ النبوة والرسالة والمعجزة وشروطها ووجه دلالتها؛ فنقول لفظ النبي والنبوة وما تصرف منه راجع إلى النبأ وهو الخبر؛ تقول نبأت وأنبأت بمعنى أخبرت وخبرت وهذا مع همز[2] لفظ نبئ بيّن.

وكذلك هو مع تسهيله على أصح الأقوال؛ فإنه قد يكون أصل شيء من الألفاظ الهمز ثم يخفف الاسم منه كما قالوا خابية وهو من خبأت؛ هذا أصح ما قيل في اشتقاق هذا اللفظ؛ فإذا تقرر هذا فنبئ على أصل الوضع وزنه فعيل وفعيل تأتي[3] في الكلام بمعنيين: أحدهما فعيل بمعنى فاعل كما قيل رحيم بمعنى راحم وسميع بمعنى سامع، والثاني فعيل بمعنى مفعول كما قيل رجيم بمعنى مرجوم وخضيب بمعنى مخضوب[4]؛ فعلى هذا يصح في نبي أن يكون بمعنى مخبِر[5] وبمعنى مخبَر[6].

فعلى أصل الاشتقاق ووضع العرب كل من أخبر بشيء أو أخبر بشيء فهو نبي.

وعلى المتعارف بين المتشرعين إنما يطلقون اسم النبي على من كان مخبرا عن الله؛ فإما أن يكلمه الله مشافهة وإما بواسطة ملك[7].

1- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.
2- في ط: سقطت كلمة "همز".
3- في ط: "ياتي".
4- في ط: "خصيب بمعنى مخصوب".
5- وردت بالتشكيل في خ/م.
6- وردت بالتشكيل في خ/م.
7- في ط: "ملاك".

وهذا هو عرف المتشرعين في النبوة وإلى هذا يرجع معناها، فالنبي عند عقلاء أهل الشرائع إنما هو حيوان ناطق مائت كامل في نوعه؛ مخبر عن الله تعالى بحكم إما[1] مشافهة وإما بواسطة ملك أو ما تنزل منزلته.

فقولنا: "حيوان ناطق"؛ أردنا به أن[2] إنسانا باق على أصل إنسانيته؛ لا يمتاز عن غيره من نوع الإنسان بوصف حقيقي [وإن امتاز][3]؛ بأوصاف عرضية عن غيره كالعلوم الخاصة بهم وصفات الكمال التي خصهم الله بها؛ فذلك لا يخرجه عن كونه إنسانا، ولأجل هذا المعنى كانت الرسل تقول لقومها: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وكذلك قال الصادق المصدق[4]: ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [5] فجعل الفصل بينه وبين نوعه ما خص به من الوحي.

وقولنا: "مائت"؛ تنبيه مآله[6] لئلا يغلوا في بعضهم جاهلون؛ كما فعلت النصارى فينسبونهم إلى ما لا يليق بمن يموت.

وقولنا: "كامل"؛ أعني بذلك أن الأنبياء مجبولون على أتم صفات نوع الإنسان؛ وذلك معلوم من أوصافهم وإن كانوا متفاوتين في ذلك.

وقولنا: "مخبر عن الله"؛ هذا القيد هو خاصته التي تفصله عن غيره من نوعه؛ فإن لم يكن كذلك لم يقل عليه أنه نبي.

وقولنا: "إما مشافهة وإما بواسطة ملك[7]"؛ يحرز ممن يبلغه خبر الله تعالى على السنة رسله؛ فإنه ليس بنبي ولا يقال عليه بحكم العرف إنه نبي، ولو جاز ذلك لجاز أن يقال نبي على كل متشرع سمع من رسوله خبرا عن الله؛ وهذا لم يقله أحد.

وقولنا: "أو ما تنزل منزلته"؛ نريد به أن الأنبياء قد يتلقون الوحي على وجوه منها أن يكلمه الله مشافهة، ومنها أن يرسل إليه ملكا يخبره عن الله، ومنها أنه يلقى إليه الوحي

1- في ط: "أو".
2- في خ/م: "أنه" والصحيح أن، وإلا رفع كلمة "إنسان" بعد أنه.
3- تكررت في خ/م.
4- في ط: "المصدوق".
5- سورة الكهف، آية: 110.
6- في ط: "تنبيه على مآله".
7- في ط: "ملاك".

في النوم، ومنها أن الله[1] يقذف في روعه ويلهمه إلهاما حتى لا يشك أن الأمر كذلك ويقطع به.

فإذا تقرر أن حقيقة النبوة ما ذكرناه؛ وأن فضله الخاص به هو ما تحصل له من الأخبار عن الله، فذلك الخبر أن أمر النبي بتبليغه لغيره فذلك النبي هو الذي يقال عليه رسول، والرسالة هو الكلام المبلغ عن الله؛ فلأجل هذا يصح أن يقال كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا.

إذ الرسالة نبوة وزيادة، وهذا بين بنفسه، فإذا تقرر ذلك فهذا البشر[2] الذي يدعي أن الله أرسله إلينا لا بد أن يكون صادقا؛ وذلك لا نعرفه بغير دليل فلا بد من دليل.

والدليل المتحدى به هو المعجزات، ولا بد من النظر في حقيقتها وفي شروطها وفي وجه دلالتها.

فأما المعجزة: فلفظ مأخوذ من الإعجاز؛ وذلك أنك تقول عجز فلان عن كذا عجزا إذا لم يقدر عليه ولم يقم به، وأعجزته إعجازا إذا جعلته يعجز؛ وتقول أعجزني الشيء إذا فاتك ولم تقدر عليه.

وكلها راجعة إلى أن العاجز عن الشيء هو الذي لا يتمكن من الشيء ولا يقدر عليه، ثم في تسمية هذه الأدلة التي تدل على صدق الأنبياء معجزات تجوز، وذلك أن المعجز على التحقيق إنما هو خالق العجز؛ وهذه الأسباب التي يقع العجز عندها تسمى معجزة بالتوسع؛ وذلك من تسمية الشيء باسم غيره إذا جاوره[3] أو كان منه بسبب.

هذا شرح لفظ المعجزة.

فأما حقيقتها فهو أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة.

إنما قلنا: "أمر" ولم نقل "فعل" ليشتمل بذلك على الفعل الخارق للعادة والمنع من الفعل المعتاد، فلو قال "نبي" آيتي أنه لا يقدر أحد أن يتكلم اليوم فكان ذلك لكان ذلك دليلا على صدقه؛ ويكون ذلك معجزة له مع أنه ليس إتيانا بفعل عربي؛ وإنما هو منع من

1- في ط: "تعالى".
2- في ط: "البشري".
3- في ط: "جاوزه".

فعل معتاد، وإنما قلنا: "مقرون بالتحدي" لئلا يتخذ الكاذب معجزة من تقدمه حجة لنفسه؛ ولتتميز عن الكرامة وما في معناها، وإنما قلنا: [مقرونا بالتحدي لئلا يتخذ الكاذب معجزة من تقدمه حجة لنفسه ولتتميز عن الكرامة وما في معناه، وإنما قلنا:][1] مع عدم المعارضة لتتميز عن السحر والشعوذة.

وإذا حققت النظر فيما ذكرناه في حد المعجزة علمت شروطها، لكن ينبغي لك أن تعرف أن المعجزة لا تكون دليلا إلا في حق من علم وجود الباري تعالى؛ وأنه قادر عالم مريد موصوف بصفات الكمال حتى يتأتى منه الإرسال والتصديق والتكليف، وإذا لم يعرف الناظر هذه الأمور بأدلة عقليه لم يعرف المعجزة ولم يفده[2] العلم بالتصديق للنبي.

وأما وجه دلالتها:

فهو أن المشاهد للمعجزة المتحدى بها إذا علمها وعلم شروطها علم على الضرورة أن الله تعالى قصد بذلك المعجز تصديق المدعي، ويتبين هذا بمثال؛ وذلك أنه لو فرضنا ملكا عظيما اجتمع له أهل مملكته في مجلسه؛ وأهل المملكة مصغون لما يأمرهم به ذلك الملك؛ فقام رجل بين يديه[3] وقال: إني رسول هذا الملك إليكم؛ وقد أمرني أن أبلغكم أمره ونهيه وأنا صادق في قولي هذا، ثم يقول: يا أيها الملك إن كنت صادقا فيما أقوله عنك فخالف عادتك، وقم عن سريرك قياما تخالف به المعتاد من فعلك، فإذا فعل الملك ذلك عند تحدي المدعي؛ فإن أهل المجلس يضطرون إلى العلم بأن الملك قصد ذلك الفعل تصديقه ولا يعتريهم في ذلك ريب ولا توقف، فتنزلت إذا[4] تلك الأفعال بتلك الشروط منزلة قوله صدقت أنا أرسلتك؛ وهذا بين بنفسه عند كل موفق منصف معلوم على القطع.

فإذا تقرر ذلك؛ فمهما ادعى شخص الرسالة واستدل عليها بمثل ما ذكرناه؛ كان محقا في دعواه صادقا في قوله، لا يجوز لعاقل أن يتخلف عن متابعته سواء ادعى عموم رسالته أو خصوصها، ورسولنا محمد قد ادعى عموم رسالته؛ واستدل على صدقه بالمعجزات على الشروط التي ذكرناها، فهو صادق ولا يجوز لعاقل بلغه أمره أن يتخلف عن متابعته وتصديقه.

1- ما كتب بين المعقوفتين ساقط في ط.
2- في خ/م: "تفرده".
3- في ط: "من بين يديه".
4- في ط: "إذن".

وسنذكر إن شاء الله بعض ما أمكن ذكره من معجزاته، فإنه قد أيد بمعجزات كثيرة؛ حتى إذا جمعت وتتبعت علم منها أن الله تعالى قد جمع له أكثر معجزات الأنبياء قبله؛ وخصه بمعجزات لم يشاركه فيها غيره منهم، وستقف إن شاء الله على أكثر ذلك.

فهذه المقدمة الأولى.

وأما المقدمة الثانية[1]: فالغرض منها أن نبين[2] فيها أن عيسى عليه السلام ظهرت المعجزات على يديه؛ وتحدى بها الخلق ليؤمنوا أنه رسول الله لا ليؤمنوا بأنه إله، وأن النصارى غير عالمين بمعجزات عيسى عليه السلام إذ لم تتواتر[3] عندهم، فنقول وبالله التوفيق:

إن النصارى غايتهم أن يسندوا معجزات عيسى عليه السلام لما في أيديهم من الإنجيل، وهو لم يتواتر نقله ولا أمن التحريف والغلط عليه[4] على ما تقرر قبل، وإذا كان هذا فكل ما في أيديهم من الأخبار عنه في الإنجيل لا يفيد[5] العلم القطعي؛ وغاية ذلك أن يفيد[6] غلبة ظن، والظن في الاعتقاد بمنزلة الشك بل هو شك؛ فإذا[7] هم من معجزات عيسى في شك وهم لا يشعرون بذلك الإفك.

ومما يدل على أنهم من كتابهم وشرعهم على غير علم؛ ما استفاض في كتب التواريخ[8] عندنا وعندهم، وذلك أن عيسى عليه السلام لما بعثه الله[9] دعا بني إسرائيل للإيمان فأجابه من شاء الله منهم، فلما رفعه الله تعالى استحلى الناس كلامه بعد ذلك حتى بلغ عدلاء[10] بني إسرائيل سبع مائة رجل، فكانوا يجاهدون في بني إسرائيل ويدعون إلى

1- في ط:ورد العنوان التالي: "المقدمة الثانية".
2- في ط: "تتبين".
3- في ط: "تتوافر".
4- في ط: "فيه".
5- في ط: "تفيد".
6- في ط: "تفيد".
7- في ط: "إذن".
8- لا شك أن المؤلف يقصد بالإضافة إلى سفر الأعمال رسائل بولس وبعض الرسائل الأبوكريفا من العهد الجديد التي لم تعد مقبولة اليوم من طرف الكنيسة.
9- في ط: "تعالى".
10- في ط: "عدد".

الإيمان، فقام بولش اليهودي -وكان هو الملك في بني إسرائيل- فحشد عليهم الأجناد؛ وخرج عليه؛ وقاتلهم فهزمهم؛ وأخرجهم من بلاد الشام حتى انتهى فلُهم[1] إلى الدروب فأعجزوه، فقال بولش الملك لجنوده: إن كلام هؤلاء لمستحلى، وقد قدموا على عدوكم، وسيرجعونهم في ملتهم، فيكثرون علينا فيخروجون إلينا ويخرجوننا من بلاد الشام، ولكني أرى لكم رأيا، قالوا: وما هو؟ قال: تعاهدوني على كل شيء كان خيرا أو شرا، ففعلوا، فترك ملكه ثم لبس لباسهم، وخرج إليهم ليضلهم، حتى انتهى إلى عسكرهم؛ فأخذوه وقالوا: الحمد لله الذي أخزاك أمكنا منك. فقال لهم: أجمعوا رؤوسكم فإنه لم يبلغ مني حمقي أن آتيكم وإلا ومعي برهان، فأبلغوه رؤوسهم. فقالوا: مالك؟ فقال: إني لقيني المسيح منصرفي عنكم فأخذ سمعي وبصري وعقلي؛ فلم أسمع ولم أبصر ولم أعقل؛ ثم كشف عني؛ فأعطيت الله عهدا أن أدخل في أمركم؛ فأتيت لأقيم فيكم وأعلمكم التوراة وأحكامها، فصدقوه؛ فأمرهم أن يبنوا له بيتا ويفرشونه[2] رمادا ليعبد الله فيه بزعمه ويعلمهم التوراة.

ففعلوا وعلمهم ما شاء الله ثم أغلق الباب دونهم[3]، فأطافوا به وقالوا: نخشى أن يكون رأى شيئا يكرهه ثم فتحه بعد يوم، فقالوا: أرأيت شيئا تكرهه؟ قال[4]: لا ولكني رأيت رأيا وأعرضه عليكم فإن كان صوابا فخذوه؛ وإن كان خطأ فردوني عنه. قالوا: هات. قال: هل رأيتم سارحة تسرح إلا من عند ربها وتخرج إلا من حيث تؤمر به؟ قالوا: لا، قال: فإني رأيت الصبح والليل والشمس والقمر والبروج إنما تجيء من ها هنا، وما أوجب ذلك إلا وهو أحق الوجوه أن يصل إليه، قالوا: صدقت[5]، فردهم عن قبلتهم.

ثم أغلق الباب بعد ذلك بيومين، ففزعوا أشد من الأول؛ وأطافوا به ففتحه، فقالوا: أرأيت شيئا تكرهه؟ قال: لا ولكني رأيت رأيا، قالوا: هات، قال: ألستم تزعمون أن الرجل إذا أهدى إلى الرجل الهدية وأكرمه بالكرامة فردها شق ذلك عليه، وأن الله تعالى سخر لكم ما في الأرض وجعل ما في السماء لكم كرامة؛ فالله أحق أن لا ترد عليه كرامته.

1- هكذا وردت بالتشكيل في خ/م، والفلّ القوم المنهزمون.
2- في ط: "ويفرشوه".
3- في ط: "دونه".
4- في خ/م: "قالوا".
5- في خ/م: سقطت كلمة "صدقت".

فما بال بعض الأشياء حلال وبعضها حرام؛ ما بين البقة إلى الفيل حلال، قالوا: صدقت.

ثم أغلق بعد ذلك ثلاثا؛ ففزعوا أشد[1] من الثانية؛ فلما فتح لهم قال لهم: إني رأيت رأيا، قالوا: هات، قال: ليخرج[2] كل من في البيت إلا يعقوب ونسطور وملكون والمؤمن[3].

ففعلوا، فقال: هل علمتم أحدا من الإنس خلق من الطين خلقا فصار[4] نفسا؟ قالوا: لا، قال: فهل علمتم أن أحدا من الإنس أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى؟ قالوا: لا، قال: هل علمتم أن أحدا من الإنس ينبئ الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم؟ قالوا: لا، قال: فإني أزعم أن الله تعالى تجلى لنا ثم احتجب. فقال: بعضهم صدقت، وقال: بعضهم لا؛ ولكنه ثلاثة والد وولد وروح القدس، وقال: بعضهم الله وولده، وقال بعضهم هو الله تجسم لنا.

فافترقوا على أربع فرق؛ فأما يعقوب فأخذ بقول بولش إن الله هو المسيح وأنه كان ثم تجسم؛ وبه أخذت شيعته وهم اليعقوبية، وأما نسطور فقال المسيح ابن الله على جهة الرحمة؛ وبه أخذت شيعته وهم النسطورية، إلا أن شيعته لم تعتقد أنه سمي ابنا على جهة الرحمة بل على ما تقدم، وأما ملكون فقال إن الله ثلاثة[5] أقانيم، فقام المؤمن وقال لهم: عليكم لعنة الله؛ والله ما حاول هذا إلا إفسادكم؛ ونحن أصحاب المسيح قبله؛ وقد رأينا عيسى وسمعنا منه؛ ونقلنا عنه؛ والله ما حاول هذا إلا ضلالتكم وفسادكم.

فقال بولش للذين اتبعوه: قوموا بنا نقاتل هذا المؤمن ونقتله هو وأصحابه؛ وإلا أفسد عليكم دينكم. فخرج المؤمن إلى قومه؛ وقال لهم[6]: أليس تعلمون أن المسيح عبد الله ورسوله؛ وكذا قال لكم، قالوا: بلى، قال: فإن هذا الملعون قد أضل هؤلاء القوم فركبوا في أثرهم.

فقاتلوهم فهزم المؤمن وأصحابه وكان أقلهم تبعا، فخرج مع قومه إلى الشام فأسرتهم

1- في ط: "أمثل".
2- في ط: "لنخرج".
3- هذه القصة واردة في كتاب: الفاصل بين الحق والباطل، مطبعة الموسوعات مصر الطبعة الثالثة، 1321هـ، ص:57-58.
4- في ط: "خلقا فجعله فصار".
5- في ط وردت الإضافة التالية: " وبه أخذت شيعته وهم الملكية الذين قالوا إن الله ثلاثة" بين كلمة "ثلاثة" وكلمة "أقانيم".
6- في ط: سقطت "لهم".

اليهود، فأخبروهم الخبر؛ وقالوا: إنما خرجنا إليكم لنؤمن في بلادكم؛ ومالنا في الدنيا من حاجة إنما نلزم الكهوف والصوامع؛ ونسيح في الأرض فخلوا عنهم.

ثم إن قوما من أولئك الذين كفروا فعلوا مثل ما فعل قوم المؤمن، اتخذوا الصوامع وساحوا وأظهروا البدعة؛ فهو قول الله تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [1] يعني: التوحيد، اختلفوا فيه إلا فرقة المؤمن وفيهم نزلت: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ ﴾ [2] بالجهة وظهور محمد، وكان هرب المؤمنين منهم إلى جزيرة العرب، فأدرك النبي منهم ثلاثون راهبا، فآمنوا به وصدقوه وتوفاهم الله على الإسلام.

كان هذا -والله أعلم- بعد المسيح بأربعين سنة أو نحوها، ثم لم يزل أمر المؤمن وأصحابه خفيا، وغيرهم من الفرق يختلفون[3] ويتهارجون، ولم تستقر[4] لهم قدم إلى مدة قسطنطين قيصر الملك ابن هيلاني[5]؛ وذلك بعد رفع المسيح بمائتين وثلاثة وثلاثين سنة.

وذلك أنه كثر عدوه وكاد ملكه يذهب باختلاف رعاياه عليه وضعفهم وكسلهم عن نصرته، فرام حملهم على شريعة ينظم بها سلكهم ويؤلف بها متفرقهم، فاستشار من لديه من أهل النظر؛ فوقع اختيارهم على أن يتعبد القوم بطلب دم ليكون ذلك أقوى لارتباطهم معه وأوكد لجدهم في نصره، فوجدوا اليهود يزعمون أن في بعض تواريخهم خبرا عن رجل منهم وفيهم[6] همّ أن ينسخ حكم التوراة؛ وينفرد بالتأويل فيها، فعمدوا إليه -وهو في نفر ممن اتبعه- وظفروا بواحد منهم، وشهد لديهم رجل واحد أنه ذلك المطلوب؛ فصلبوه؛ وما عندهم تحقيق لكونه ذلك المطلوب بعينه إلا فقدهم إياه من حينئذ.

فعند ذلك عمد قسطنطين إلى من ينسب إلى دين المسيح؛ فوجدهم قد اختلفت آراؤهم ومزجت أديانهم، فاستخرج ما بقى من رسم الشريعة المنسوبة للمسيح؛ وجمع

1- سورة الحديد، آية: 27.
2- سورة الصف، آية 14.
3- في ط: "مختلفون".
4- في ط: "يستقر".
5- في ط: "هيلانة".
6- في ط سقطت كلمة: "وفيهم".

عليها وزراءه، فأثبت ما شاء منها وتحكم فيها باختياره حسب ما رآه موافقا له بالصلوبية لتعبد قومه بطلب دم والقول بترك الختان لأنه شأن قومه؛ ثم أكد ذلك وشده بمنامة اختلقها؛ وادعى أنه أوحي إليه فيها.

وذلك أول شيء أظهره من هذا الأمر بجمع[1] أنصاره ورعاياه من الروم؛ وذلك على رأس سبع سنين من مدة ملكه، وقال لهم إنه كان يرى في منامه آتيا أتاه؛ فقال: له بهذا الرشم[2] تغلب؛ وعرض عليه هيئة صليب[3] فأعظمت ذلك العامة؛ وانفعلت لما سمعت منه، ثم بعث إلى امرأة في ذلك الزمان يقال لها "الإلانه"[4] كاهنة، وكانت ذات جأش وقوة، فشهدت له أنها رأت مثل ما رأى؛ فقوى تصديق العامة لذلك.

وفي هذا كله لا يعلمون لذلك الرشم[5] تأويلا، ولا كان قسطنطين كشف لهم شيئا من أمره؛ فخرج بهم إلى عدوه؛ ووعظ قومه؛ وهول عليهم أمر الرشم[6]، فحصل له كل ما أراده من جد القوم واجتهادهم معه، فلما عادوا إلى أوطانهم بعد الظفر بعدوهم سألوه عن تأويل ذلك الرشم[7] وألحوا عليه فيه، فقال لهم: قد أوحي إلي في نومي أنه كأن الله تبارك وتعالى هبط من السماء إلى الأرض؛ فصلبته اليهود فهالهم ذلك كثيرا مع ما حصل عندهم لهم[8] من تصديقه؛ وعظم عليهم الخطب فيه؛ فانقادوا إلى قسطنطين انقيادا حسنا؛ وصح[9] منهم ما أراده؛ وشرع لهم هذه الشرائع التي بأيديهم اليوم أو أكثرها.

وقد ظهر لجماعة من أهل العلم بأحوال الأمم وبنوازل الأزمان أن هذا الشخص - الذي تعظمه النصارى وتصفه بالإلهية- لم يكن لهم[10] وجود في العالم، ولكن قسطنطين ابتدع ذلك كله؛ واتفق مع نفر من اليهود من أحبارهم على أن [بدل لهم ما شاؤوا من متاع

1- في ط: "فجمع".
2- في ط: "الرسم".
3-3- في ط: "الصليب".
4- في ط: "الأنه".
5- في ط: "الرسم".
6- في ط: "الرسم".
7- في ط: "الرسم".
8- في ط سقطت كلمة "لهم".
9- في ط: "وصح له منهم".
10- في ط: "له".

الدنيا][1]، ويشهدون له عند قومه بأن ذلك الشخص كان عند اليهود فصلبته، ففعلوا وكتبوا من أخباره شيئا، فتلقت ذلك النصارى وقبلوه ودانوا به، ولعله أكثر الإنجيل الذي بأيديهم اليوم.

ولتعلم أن هذه الأخبار -التي ذكرناها- لا يمكنهم إنكار جملتها، وإن أنكروا بعض تفاصيلها؛ لكون هذه القصص معروفة على الجملة عندهم؛ فإنهم لا يقدرون على جحد محاربة بولش اليهودي، وإجلاؤهم من الشام، ودخول بولش في دينهم، وكذلك ملك قسطنطين مما لا ينكرون إشهاره لكتبهم، ثم لو قدرنا أن هذه الوقائع لم تعلم صحتها ولا كذبها فشرعهم قابل لأمثالها، فإن معظم معتمدهم في أمور دياناتهم إنما هو الإنجيل، ونقله غير متواتر؛ لاسيما والأحداث عندهم في أكثر الأحيان بمنامات يدعونها؛ يجعلونها أصولا يعملون[2] عليها ويمحافل يجتمعون فيها، فيتحكمون بآرائهم ولا يستندون لشيء من كتبهم ولا لشيء من كلام أنبيائهم، وإن شئت أن ترى هذا عيانا فانظر كتب اجتماعاتهم ومحافلهم؛ فإنهم ينحشدون لمواضع مخصوصة في أحيان مخصوصة؛ ويخترعون فيها أحكاما وأمورا لا مستند لها[3] ولا أصل إلا بالتحريم على المآكل والتحكم في العامة بفارغ الأقاويل، وسنبين ذلك إذا ذكرنا جملا من أحكامهم؛ وإذا كان هذا مبنى شريعتهم فكيف يوثق بشيء من ترهاتهم؟

فإذا تقرر ذلك؛ فلتعلم أن اتخاذهم المسيح إلها إنما سببه ما سبق ذكره، ولا يقدرون على أن ينسبوا شيئا من ذلك إلى عيسى عليه السلام؛ بل قد نقلوا عنه في إنجيلهم ما يدل دلالة قاطعة من حيث اللفظ على أنه إنما ادعى النبوة؛ وعليها استدل بمعجزاته وفي دعواه النبوة كذبته اليهود.

ونحن الآن نسرد بعض ما وقع في إنجيلهم من دعواه الرسالة بحول الله سبحانه.

من ذلك ما جاء في الإنجيل عنه أنه قال حين خرج من السامرية ولحق بجلجال: "أنه لم يكرم أحدا من الأنبياء في وطنه"[4].

1- في ط: "يبذل لهم من متاع الدنيا ما شاؤا".
2- في ط: "يعولون".
3- في ط: "لهم".
4- يوحنا 4: 44.

وفي إنجيل لوقا: "أنه لم يقبل أحد من الأنبياء في وطنه فكيف تقبلونني"[1]، وهذا نص لا يقبل التأويل في أنه إنما ادعى النبوة المعلومة.

وفي إنجيل ماركش أن رجلا أقبل إلى المسيح وقال له: "أيها المعلم الصالح أي خير أعمل لأنال الحياة الدائمة؟ فقال له المسيح: لم قلت لي صالحا إنما الصالح الله وحده، وقد عرفت الشروط وذلك ألا تسرق ولا تزني ولا تشهد بالزور ولا تخون وأكرم أباك وأمك"[2].

وفي إنجيل يوحنا أن اليهود لما أرادت التقبض[3] عليه؛ وعلم بذلك رفع بصره إلى السماء وقال: "قد دنا الوقت يا إلهي فشرفني لديك؛ واجعل لي سبيلا إلى أن أملك كل ما[4] ملكتني الحياة الباقية، وإنما الحياة الباقية أن يؤمنوا بك إلها واحدا وبالمسيح الذي بعثت؛ فقد عظمتك على أهل الأرض واحتملت ما أمرتني به فشرفني لديك"[5].

وفي إنجيل متى أنه قال لتلاميذه: "لا تنسبوا أباكم على الأرض؛ فإن أباكم الذي في السماء وحده ولا تدعوا معلمين؛ فإن معلمكم المسيح وحده"[6].

فقوله: "لا تنسبوا أباكم على الأرض"، أي: لا تقولوا أنه على الأرض؛ ولكنه في السماء؛ ثم أنزل نفسه حيث أنزله الله تعالى فقال: "ولا تدعوا معلمين؛ فإن معلمكم المسيح وحده" فها هو قد سمى نفسه معلما في الأرض؛ وشهد أن إلهكم[7] في السماء واحد؛ ونهاهم أن ينسبوه للإلهية[8].

وفي إنجيل لوقا؛ أنه حين أحيا الميت بباب مدينة "ثايم"[9] حين أشفق لأمه لشدة حزنها عليه؛ قالوا: "إن هذا النبي لعظيم وإن الله قد تفقد أمته"[10] ولم يقولوا إن هذا إله عظيم.

1- لوقا4: 24.
2- مرقس10: 17-19.
3- في ط: "القبض".
4- في ط: "من".
5- يوحنا17: 1-5.
6- متى29: 9-10.
7- في ط: "إلههم".
8- في ط: "لإلهية".
9- في ط: "نايين" وهو الاسم المذكور في إنجيل لوقا7: 11.
10- لوقا7: 16.

وفي إنجيل يوحنا أن عيسى قال لليهود: "ليس أقدر أفعل[1] من ذاتي شيئا لكني أحكم بما أسمع؛ لأني لست أنفذ إرادتي بل إرادة الذي بعثني"[2].

وفي إنجيله أيضا أنه: "أعلن صوته في البيت وقال لليهود: قد عرفتموني وموضعي[3]؛ فلم آت من ذاتي؛ ولكن بعثني الحق؛ وأنتم تجهلونه؛ فإن قلت إني أجهله كنت كاذبا مثلكم؛ وأنا أعلم أني منه وهو بعثني"[4].

فانظر كيف أخبر عن نفسه؛ أنه معلوم عند اليهود؛ وأخبر عن الله أن اليهود لا تعرفه، وقال إنه لم يأت من ذاته؛ ولكن الله بعثه؛ وهكذا كانت دعوة من قبله من الأنبياء عليهم السلام؛ وحاشاهم أن ينتسبوا إلى ما ينفرد به ذو الجلال والإكرام.

وفي الإنجيل أيضا أنه قال لليهود -بعد خطاب[5] طويل مذكور في الإنجيل حين قالوا له إنما أبونا إبراهيم- فقال: "إن كنتم بني إبراهيم فاقفوا أثره؛ ولا تريدوا قتلي على أني رجل وديت[6] إليكم الحق الذي سمعه من الله، غير أنكم تقفون أثر آبائكم، قالوا: لسنا أولاد زنا، إنما نحن أبناء الله، فقال: لو كان الله أباكم لحفظتموني؛ لأني رسول منه خرجت مقبلا ولم أقبل من ذاتي؛ ولكن هو[7] بعثني لكنكم لا تقبلون وصيتي؛ وتعجزون عن سماع كلامي؛ إنما أنتم أبناء الشيطان وتريدون إتمام شهواته"[8] إلى كلام كثير.

وفيه أيضا: "أنه كان يمشي يوما فأحاطت به اليهود؛ وقالوا: إلى متى تخفي أمرك إن كنت المسيح المنتظر؛ فأعلمنا بذلك"[9].

ولم تقل له: إن كنت إلها لأنه لم تعلم من دعواه ذلك؛ ولا اختلاف عند اليهود أن الذي ينتظرونه إنما هو إنسان نبي؛ ليس بإنسان إله كما تزعمون.

1- في ط: "لست أقدر أن أفعل".
2- يوحنا5: 30.
3- في ط: "موضعي".
4- يوحنا8: 42.
5- في خ/م: "خطب".
6- في ط: "أديت".
7- في ط: "وهو".
8- يوحنا8: 39-41.
9- يوحنا10: 24.

وفي الإنجيل أيضا عنه: "أن اليهود أرادوا التقبض[1] عليه؛ فبعثوا لذلك الأعوان؛ وأن رجعوا إلى قوادهم؛ فقالوا لهم: لم لم تأخذوه؟ قالوا: ما سمعنا آدميا أنصف منه، فقالت اليهود: وأنتم أيضا مخدوعون؛ أترون أنه آمن به أحد من القواد أو من رؤساء أهل الكتاب؟ إنما آمن به من الجماعة من يجهل الكتاب، فقال لهم نقوذومش[2]: أترون أن كتابكم يحكم على أحد قبل أن يسمع منه؟ فقالوا له: اكشف الكتب ترى أنه لا يجيء من جلجال نبي[4،3].

فما قالت اليهود ذلك إلا وقد أنزل لهم نفسه منزلة نبي فقط ولو علمت من دعواه الإلهية لقالته[5] يومئذ.

ومثل هذا كثير في إنجيلهم لو ذهبت أذكره لطال أمره.

وقد تقدم من كلام يشعيا[6] أن الله[7] قال في المسيح: "هذا غلامي المصطفى وحبيبي الذي ارتضت به نفسي"[8].

ومن كلام عاموص[9] النبي أن الله قال على لسانه: "ثلاثة ذنوب أقبل لبني إسرائيل والرابعة لا أقبلها[10] بيعهم الرجل الصالح".

ولم يقل بيعهم إياي ولا قال بيعهم إلها متساويا معي، فهذا المبيع لا يخلو أما أن يكون هو المسيح كما تزعمون؛ فقولوا فيه كما قال الله أنه رجل صالح؛ ولا تقولوا إنه إله معبود، وأما أن يكون المبيع غيره فهو الذي شبه لليهود فابتاعوه وصلبوه؛ ويلزمكم إنكار صلوبية المسيح وهو كفر عندكم، وقد كررنا هذا المعنى في هذا الكتاب مرارا؛ لكون النصارى على اختلاف فرقهم يعتقدون له الإلهية على اختلاف في كيفية ذلك كما تقدم.

1- في ط: "القبض".
2- في ط: " نيقوديموس ".
3- في ط: "لا يجيء نبي من جلجال".
4- يوحنا7: 45-52.
5- في ط: "لقاتلته".
6- في ط: "إشعيا".
7- في ط: "تعالى".
8- إشعيا42: 1.
9- في ط: "عاموس".
10- في ط: "أقيلها".

وحتى لقد ذهبت طائفة منهم إلى مقالة لم يسمع قط في أكناف العالم وأطرافه من اجترأ على التفوه بها؛ ونحن نستغفر الله قبل حكايتها؛ ونتبرأ إلى الله من مذاهبهم الفاسدة ومن القائل بها؛ وذلك أني وقفت على رسالة بعض الأقسة كان بطليطلة نسبه من القوط قال فيها هبط الله بذاته من السماء والتحم ببطن مريم.

ثم قال: "فهو[1] الإله التام والإنسان التام؛ ومن تمام رحمته على الناس أنه رضي بهرق دمه عليهم في خشبة الصليب، فمكن اليهود أعداءه من نفسه ليتم سخطه عليهم؛ فأخذوه وصلبوه؛ وغار دمه في إصبعه لأنه لو وقع منه شيء في الأرض ليبست إلا شي وقع فيها فنبت[2] في موضعه النوار؛ لأنه لم يمكن في الحكمة الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصي آدم الذي ظلمه واستهان بقدره، فلم يرد الله الانتقام منه لاعتلاء منزلة السيد وسقوط منزلة العبد، أراد أن ينتصف من الإنسان الذي هو إله مثله؛ فانتصف من خطيئة آدم بصلب عيسى المسيح الذي هو إله مساو معه.

فانظر تواقح هذا القائل؛ واستخفافه بحق الله تعالى؛ وجهله وتناقضه وحمقه، فوالله لو حكي مثل هذا القول السخيف عن مجنون أو موسوس لما كان يعذر بقوله؛ ولبودر بضربه وقتله حتى لا يجترئ على مثله، ونحن نربأ بأكثر المجانين والموسوسين أن يتقولوا بهذا المذهب الغث الهجين؛ أو ينتحلوا ركاكة هذا الدين السقيم؛ إلا أن يكون مستغرقا في الوسوسة والجنون؛ فالحمق أنواع والجنون فنون.

وعند الوقوف على هذه المذاهب القبيحة والأوهام؛ يتبين فضل دين الإسلام ويتحقق معنى قول النبي عليه السلام: "إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم حتى ينفذه فيهم".

وفي مثل هذا يضرب[3] المثل: "إذا جاء الجبن[4] صم الأذن وعمى العين" والحمد لله الذي أعاذنا من هذه الرذائل؛ وتفضل علينا بدين الحنفية[5] الذي خص بكل الفضائل التي يقبلها بفطرته الأولى كل عاقل؛ ويستحسنها كل ذكي فاضل.

1- في ط: "وهو".
2- في ط: "فيبست".
3- في ط: "الضرب".
4- في ط: "البين".
5- في ط: "الحنيفية".

فقد تحصل من هاتين المقدمتين معنى النبوة وبيان شروطها، وأن عيسى عليه السلام نبي ورسول؛ إذ قد كملت فيه شروط الرسالة وأنه ليس باله، وأن النصارى ليسوا عالمين بشيء من أحوال المسيح ولا من معجزاته على اليقين والتفصيل.

وغايتهم أن يعلموا أمورا جملية لكثرة تكرار هذا المعنى عليهم.

ثم تلك الأخبار -التي يتحدثون بها عن المسيح وتتكرر عليهم- لو كلفوا أن يسندوا شيئا منها لغير الإنجيل -مما[1] ينقل متواترا- لما استطاعوا شيئا من ذلك ولا وجدوا إليه سبيلا.

ومما يؤيد هذا المعنى ويوضحه أن اليهود كانوا رهطه وكفلته وعندهم نشأ؛ وهم يخالفونكم في كثير مما تنسبون إليه ولا يوافقونكم على نقلها.

ومن ذلك أن اليهود تزعم[2] أنهم حين أخذوه حبسوه في السجن أربعين يوما، وقالوا ما كان ينبغي لنا أن نحبسه أكثر من ثلاثة أيام؛ إلا أنه كان يعضده أحد قواد الروم لأنه كان يداخله بصناعة الطب.

وفي إنجيلكم أنه أخذ صبح يوم الجمعة وصلب في الساعة التاسعة من اليوم بعينه[3].

وكذلك تزعم اليهود كلهم أنه لم يظهر له معجزة؛ ولا بدت لهم منه آية؛ غير أنه طار يوما؛ وقد هموا بأخذه فطار على أثره أحد منهم؛ فعلاه في طيرانه وتوله؛ فسقط إلى الأرض بزعمهم.

ومواضع كثيرة من إنجيلكم تدل على ما قالته اليهود من أنه لم يأت بآية.

فمن ذلك: "أن اليهود قالت له: ما آيتك التي ترينا ونؤمن بك؟ وأنت تعلم أن آباءنا قد أكلوا المن والسلوى في المفاز؟ فقال: إن كان أطعمكم موسى خبزا بالمفاز؛ فأنا أطعمكم خبزا سماويا يريد نعيم الآخرة"[4]، فلو عرفت اليهود له معجزة لما قالت ذلك؛ ثم لم يجبهم على قولهم بمعجزة ولا آية.

1- في ط: "كما".
2- في خ/م: "توزع".
3- مرقس15.
4- يوحنا6: 30-32.

وفي إنجيلكم: "أن اليهود جاءوا يسألونه آية فقذفهم وقال: إن القبيلة الفاجرة الخبيثة تطلب آية ولا تعطى ذلك"[1].

وفيه أيضا: أنهم كانوا يقولون له وهو على الخشبة بظنكم "إن كنت المسيح فأنزل نفسك نؤمن بك"[2]؛ يطلبون منه بذلك آية فلم يفعل.

ومثل هذا كثير فيه.

ثم إن اليهود عندهم من الاختلاف في أمره ما يدل على عدم يقينهم بشيء من أخباره، فمنهم من يقول: إنه كان رجلا منهم يعرفون أباه وأمه؛ وينسبونه لزانية[3] وحاشى لله كذبوا، ويسمون أباه للزانية البنديرا الرومي؛ وأمه مريم[4] الماشطة كذبوا لعنهم الله، ويزعمون أن زوجها يوسف ابن يهودا[5] وجد البنديرا عنها على فراشها؛ وتشعر بذلك فهجرها وأنكر ابنها، ومنهم من [يتبرأ عن هذا القول][6]؛ وينكره ويقول: إنما أبوه يوسف بن يهوذا الذي كان زوجا لمريم.

[وإنجيلكم[7] أول من نبه على هذا المعنى وأشار إليه، ومكن اليهود من هذه الفرية والكذب حيث نسبه ليوسف ثم ستره بأن قال خطيب مريم، ولقد كان مؤلف الإنجيل في غنى عن هذه النسبة؛ فإن فيها من الشناعة أن نسب المسيح لغير أبيه؛ ومكن اليهود من الافتراء على أمه وقول الفحش فيه][8].

ثم إن اليهود لعنهم الله أطلقت[9] على إطلاق الزنى[10] عليه ثم اختلفوا في سببه[11]، فمنهم من قال ما تقدم؛ ومنهم من ذكر سببا[12] آخر؛ وهو أنهم زعموا أنه كان يوما مع

1- متى12: 38-39.
2- لوقا23: 35.
3- في خ/م: "لزنية".
4- في ط: "مرم".
5- في ط سقطت "ابن يهودا".
6- في ط ما كتب بين معقوفتين جاء مكانه: "يقول إنه لم يتولد من غير أب".
7- المقصود إنجيل متى الإصحاح الأول حيث ذكر نسب المسيح.
8- ما كتب بين المعقوفتين سقط من ط.
9- في ط: "أطبقت".
10- في ط: "الذم".
11- في ط: "سبه".
12- في ط: "سبا".

معلمه يهشوع[1] بن برخيا وسائر التلاميذ في سفر فنزلوا موضعا، وجاءت امرأة من أهله وجعلت تبالغ في كرامتهم، فقال يهوشع[2]: ما أحسن هذه المرأة؛ يريد فعلها؛ فقال عيسى بزعمهم لعنهم الله: لولا عمش في عينيها، فصاح يهشوع[3] وقال له: ما ممزاج[4]، ترجمته يا زنيم أتزني بالنظر؛ وغضب عليه غضبا شديدا[5]، وعاد إلى بيت المقدس وحرم باسمه؛ ولعنه في أربع مائة قرن، فقالوا حينئذ[6] لحق بزعمهم ببعض قواد الروم وداخله بصناعة الطب؛ فقوى لذلك بزعمهم على اليهود -وهم يومئذ في ذمة قيصر تباريوش-، وجعل يخالف حكم التوراة؛ ويستدرك عليها؛ ويعرض عن بعضها إلى أن كان من أمره ما كان.

ومنهم من يقول: إن ذلك إنما أطلق عليه لأنه كان يوما يلاعب الصبيان في صغره بالكرة؛ فوقعت له بين جماعة من مشايخ اليهود؛ فضعف الصبيان عن استخراجها من بينهم حياء من المشايخ؛ فقوى عيسى وتخطى رقابهم وأخذها، فقالوا له: ما نظنك إلا زنيما، فأمضيت عليه هذه الشتيمة.

وكذلك يختلف في صنعة أبيه؛ الذي تقولون أنتم فيه خطيب أمه؛ فمنهم من يقول: يوسف النجار؛ وبعضهم يقول: إنما هو الحداد، وكذلك تختلفون أنتم في اسم أبيه؛ فبعضكم يقول يوسف بن يعقوب؛ وبعضكم يقول يوسف بن ألى[7]، وكذلك اختلفتم أنتم في آبائه وفي عددهم؛ فمنكم من يقلل ومنكم من يكثر على ما تقدم، فهذا الاختلاف الكثير والاضطراب البين الشهير يدل على أنكم واليهود في شك منه، وأنه لم يثبت عندكم خبر متواتر عنه وإنما هي ظنون كاذبة وأوهام راتبة، وسنبين مداخل الشك والأوهام عليهم في قولهم بصلوبيته؛ ونبين أن اليهود والنصارى في قولهم بصلبه كاذبون وأنهم ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [8] فلولا أن من الله [بفضله علينا][9] وعليكم معاشر النصارى؛ بل[10]

1- في ط: "يهوشع".
2- في ط: "يهوشع".
3- في ط: "يهوشع".
4- في ط: "ممزار".
5- في خ/م: "شيدا".
6- في ط: "قالو فحينئذ".
7- في ط: "هالي".
8- سورة التوبة، آية: 45.
9- في ط: "علينا بفضله علينا".
10- في ط: "بأن".

بعث إلى الجميع سيد المرسلين لبقي الجميع من أمر عيسى حيارى.

فنزه الله المسيح وأمه على لسان نبيه مما قالته اليهود فيهما من الأقوال الوخيمة؛ ونسبوه لهما[1] من الهجاء والشتيمة، وكما شهد ببراءة المسيح وأمه مما نسبته اليهود إليهما؛ كذلك شهد ببراءتهما مما نسبتموهما أنتم إليه وتقولتموه عليهما.

وذلك أن منكم طائفة يقولون إن مريم إله؛ وقد أطبقتم على أن المسيح إله وابن الإله، ونبينا عليه السلام يقول مخبرا عن الله سبحانه[2] ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾[3] فإذا سمع القائل قوله فيهما علم بعقله أن ذلك القول هو الحق، وإن كان ممن طالع الزبور علم أن دعاء داوود مستجاب ومقالة[4] صدق، وذلك أن في الزبور أن الله تعالى قال لداوود سيولد لك ولد أدعى له أبا ويدعى لي ابنا فقال: اللهم ابعث جاعل السنة كي يعلم الناس أنه بشر.

فاعتبر قول داوود حين أفزعه ذلك وراعه؛ كيف دعا إلى الله أن يبعث جاعل السنة الذي يعلم الناس أن ذلك الولد المدعو إنما هو بشر.

وكذلك قال المسيح على ما حكاه إنجيلكم اللهم ابعث البارقليط ليعلم الناس أن ابن الإنسان بشر.

والبارقليط بالرومية هو محمد بالعربية.

فلما ضللتم وتفوهتم بذلك؛ وراغمتم أدلة العقول وكلام الأنبياء المنقول؛ بعث الله جاعل السنة وكاشف الغمة محمدا؛ فأعلم الناس أنه بشر ليس بإله ولا ابن إله؛ فقال مبلغا عن الله ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟

1- في ط: "لها".
2- في ط: "وتعالى".
3- سورة المائدة، آية: 75.
4- في ط: "مقاله".

إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [1] وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [2].

ونذكر الآن هنا خبر النجاشي ليكون منهجة للعاقل ومردعة للجاهل.

وذلك أن الله تعالى لما بعث محمدا، اتبعه جماعة ممن نور الله قلبه وشرح للإسلام صدره؛ وذلك في أول الأمر؛ فآمنوا به والتزموا شرعه وأحكامه، فكان كفار قريش والمخالفون لهم في أديانهم يؤذونهم ويعذبونهم؛ يرومون بذلك ردهم عن دينهم كما قد فعل بأتباع الأنبياء قبلهم، فلما اشتد عليهم الأمر شكوا ذلك لرسول الله؛ فأمرهم أن يهاجروا إلى أرض الحبشة؛ ووعدهم بأن يجعل الله من أمرهم فرجا؛ وأخبرهم أن بها ملكا عظيما لا يظلم عنده أحد، ففعلوا فقدموا على النجاشي؛ واسمه أصحمة؛ وكان على صميم دين النصرانية.

فلما قدموا عليه استقر بهم المنزل ووجدوه خير منزل، فأقاموا هنالك دينهم؛ واغتبط النجاشي بصحبتهم وهم بجواره، فلما رأى كفار قريش أن قد وجدوا بأرض النجاشي أمنا ودعة وجهوا اثنين منهم؛ وأصحبوهما هدايا جليلة إلى النجاشي وأقسته وطلبوا منه ومن أساقفته أن يسلمهم لهما.

فلما قدما أرض النجاشي دفعا لأقسته هداياهم؛ وطلبا منهم أن يعينوهما على ردهم معهما وإسلامهم لقومهما، ثم دفعا للنجاشي هديته؛ وقالا له: أيها الملك قد ضوا إلى بلدك منا غلمان سفهاء؛ فارقوا[3] دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلم بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهم، فغضب النجاشي ثم قال: لا والله لا أسلمهم إليهما أبدا، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي لا أسلمهم حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم.

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله فجاءوا؛ وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله؛ فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل[4].

1- سورة التوبة، آية: 30-31.

2- سورة مريم، آية: 92-93.

3- في خ/م: "فرقوا".

4- في ط: "الملل كافة".

فكلمه جعفر بن أبي طالب فقال: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام؛ ونأكل الميتة؛ ونأتي الفواحش؛ ونقطع الأرحام؛ ونسيء الجوار؛ ويأكل القوي الضعيف؛ فكنا على هذا حتى بعث الله إلينا رسولا نعرفه ونعرف نسبه وأمانته وصدقه وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده؛ ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث؛ وأداء الأمانة؛ وصلة الرحم؛ وحسن الجوار؛ والكف عن المحارم والدماء؛ ونهانا عن الفواحش؛ وأكل مال اليتيم؛ وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا؛ وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

وعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به عن الله، فعدى[1] علينا قومنا فعذبونا[2]؛ وفتنونا عن ديننا ليردونا[3] إلى عبادة الأوثان؛ وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث؛ فلما قهرونا وظلمونا خرجنا إلى بلادك؛ واخترناك على من سواك؛ ورغبنا في جوارك؛ ورجونا ألا نظلم عندك.

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال: اقرأه.

فقرأ عليه جعفر صدرا من "كهيعص" فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضوا لحاهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.

انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا أكاد.

فلما خرجا[4] من عنده وقد يئسا من مرادهما، قال أحدهما وهو عمرو بن العاص: لآتينه عنهم غدا بما يهلكهم لأجله، ثم غدا عليه من الغد، فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما، فأرسل إليهم ليسألهم، قالوا: ولم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم؟ قالوا: نقول والله ما قال الله وما جاء به نبينا كائنا في ذلك ما كان.

1- في خ/م: "فعدا".
2- في ط: "وعذبونا".
3- في خ/م: "ليردنا".
4- في خ/م: "خرجنا".

فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قال فضرب النجاشي بيده إلى الأرض؛ فأخذ منها عودا ثم قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود. فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال؛ فقال: وإن نخرتم والله؛ فاذهبوا[1] فأنتم شيوم؛ ترجتمه آمنون.

فهذا قول أهل العلم من قبلكم العارفين بشريعتكم؛ وما عدا ذلك فشجرته غثاء وأوضار ﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[2].

وسيأتي إن شاء الله تعالى قول هرقل إثر هذا الباب إن شاء الله تعالى.

1- في ط: "اذهبوا".

2- سورة إبراهيم، آية: 26.

الباب الرابع

في بيان أن النصارى متحكمون في أديانهم وأنهم لا مستند لهم في أحكامهم إلا محض أغراضهم وأهوائهم

هذا الباب يشتمل على صدر وفنين:

الصدر، وفيه فصلان.

والفن الثاني [فيه فصلان][1]

1- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

الفصل الأول

[ليست النصارى على شيء][1]

اعلم أيها العاقل -وفقك الله- أن النصارى أضعف الناس عقولا، وأقلهم فطنة وتحصيلا، فهم لذلك يعتقدون في الله المحالات، وينكرون الضروريات، ويستندون في أحكامهم إلى الخرافات، فتارة يسندون قضاياهم إلى منامة رأوها، أو خارقة[2] سمعوها وما وعوها، وأخرى يتحكم[3] فيهم متقسس جاهل، بمحض الجهل والهوى والأباطل، من غير أن يستدل على جواز شيء مما يريد أن يفعل من الأفاعيل، لا بتوراة ولا بإنجيل، بل قد يعرض عن نصوص الكتابين ويتأولهما تأويل منسلخ عن الملتين[4]، وربما تنزل بهم عظام النوازل، فيجتمعون لها في المحافل، فيتحكمون بأهوائهم ويقولون فيها بآرائهم، فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[5].

ونحن نبين ذلك ونستدل عليه -إن شاء الله تعالى- على طريقة الإنصاف من غير اعتساف. فأما كونهم يعتقدون في الله المحالات وينكرون الضروريات، فقد بيناه فيما تقدم، فمن أراد أن يعرف ذلك فليعد نظرا هنالك.

وأما كونهم يستندون في أحكامهم إلى الترهات والمنامات، فيدل عليه ما حكيناه فيما تقدم من خبر بولش، فإنه احتال عليهم حتى صرفهم عن دين المسيح، وقولهم من المذاهب والآراء كل قبيح، فصرفهم عن قبلتهم، وأحل لهم ما حرم عليهم، وفرق جماعتهم، وشتت كلمتهم، فتم له كل مكر على كل غبي غمر[6]، وقد قدمت حديثه في باب النبوات على الوفاء، وكذلك خبر قسطنطين ابن هيلاني[7]، فإنه لما رأى ملكه يختل ونظامه لا يستقيم

1- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.
2- في ط: "خرافة".
3- في ط: "تحكم".
4- في ط: "الملين".
5- سورة الأنعام، آية: 140
6- في خ/م: " عمر ".
7- في ط: "هيلانة".

ولا يتحصل، باختلاف رعيته عليه، وقلة انقيادهم إليه، جمع وزراؤه وشاورهم فاجتمع رأيهم أن يتعبد القوم بطلب دم، وأن يشرع لهم شريعة ينسبها للمسيح، فكتب لهم ما بأيديهم من الإنجيل أو أكثره، وتعبدهم بالصلوبية، وشرع لهم ترك الختان، وغير ذلك من الأحكام التي وافقته وجاءت على اختياره، وأكد ذلك بمنامة رآها، ذكر فيها أمر الصليب، فتم له مراده فيهم، وخبره معروف عندهم وعند غيرهم، وقد قدمت بعضه في باب النبوات أيضا.

وأما كونهم يحكمون بآرائهم وأهوائهم، فيدل على ذلك ما أودعوا[1] كتب محافلهم، وما عليه الآن معظم عملهم، ومن طالع تلك الكتب، قضى من جهلهم وجرأتهم على الله كل عجب، فإن قالوا: إنما نحكم بالمصالح، وهي عندنا أصل راجح. قلنا لهم: إن كانت المصالح عندكم أصلا تعولون عليه، وتسندون أحكامكم إليه، فمن الذي أصلها لكم، فإن كنتم أصلتموها لأنفسكم، فقد تحكمتم في الأصل والفرع. ثم يلزمكم من هذا القول، الاستغناء عن الشرائع، وأن ما شرع الله من الأحكام في التوراة، عبث لا معنى له ولا فائدة، إذا في النظر في المصالح غنى عنها.

وإن كان الأنبياء شرعوا لكم أصل المصالح، فلا بد من الاستدلال على ذلك من كلامهم، وإذا لم تستدلوا على ذلك، فدعواكم باطلة وحجتكم داحضة.

ثم نقول لهم: هب أن الأنبياء شرعوا لكم أصل المصالح، فهل شرعوا العمل بالمصالح كيف ما كانت المصلحة مطلقا، أو عينوا لكم نوعا من المصالح؟ فإن كانوا قد عينوا، فينبغي لكم ألا تتعدوا ما عين لكم الأنبياء، فما بالكم تسترسلون استرسال من يحكم بهواه، ولا يخاف الله ولا يخشاه.

وإن كانوا أطلقوا لكم القول بالمصالح، وقالوا لكم: مهما ظهرت لكم مصلحة كائنة ما كانت، فاعملوا بمقتضاها. فكان يلزم على هذا، إسقاط كثير من أحكام التوراة بالمصالح والرأي، كما فعل بولش حيث قال لهم: هل رأيتم سارحة تسرح من عند ربها، ولا تخرج إلا من حيث تؤمر به، قال فإني رأيت الصبح والليل والشمس والقمر والبروج إنما تجيء من ها هنا -يعني الشرق- وما أوجب ذلك إلا وهو أحق الوجوه أن يصلى إليه. قالوا له صدقت.

1- في ط: "أودعوه".

فردهم عن استقبال بيت المقدس إلى استقبال جهة الشرق بهذا[1] الهذيان. ثم قال لهم بعد زمان: رأيت رأيا، قالوا: هات. قال لهم: ألستم تزعمون أن الرجل إذا أهدى إلى الرجل هدية وأكرمه بالكرامة فردها، شق ذلك عليه؟ وأن الله سخر لكم ما في الأرض، وجعل ما في السماء لكم كرامة، فالله أحق ألا ترد عليه كرامته، فما بال بعض الأشياء حلال، وبعضها حرام، ما بين البقة إلى الفيل حلال. قالوا: صدقت.

وهذا محض الجرأة[2] على الله، والإفتراء على شرائع الله، ولم يصر قط أحد من المتشرعين إلى مثله. ويلزم عليه أن يكون كل من أراد أن يشرع شرعا شرعه، فيكون العقلاء كلهم شارعين، ويستغنى عن رسل رب العالمين، وهذا غاية الكفر والضلال، وهو لازم على مذهب أولئك الجهال، فقد ظهر من هذا الفصل، أنهم لا يستندون إلى شيء وأنهم ليسوا على شيء[3].

1- في ط: "لهذا".

2- في ط: "الجراءة".

3- في ط: زيد قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ .

الفصل الثاني

[خروج النصارى على تعاليم التوراة والإنجيل][1]

أريد أن أبين في هذا الفصل، أنهم يخالفون كتبهم ولا يعملون بمقتضاها، بل يتركون العمل بها ابتداء ويقولون: تأولناها.

وذلك أن الله تعالى، حرم في التوراة أكل الميتة، والدم والخنزير، والنطيحة والموقوذة، والمنخنقة والقردة، والشحوم التي لا تختلط باللحم، والأرانب والأسد، والدب واللب، والفرس والحمار والبغل[2]، وكل دابة ليست مشقوقة الحافر، ومن الطير البازي والعقاب، وكل طير يبغي بالمخالب، ومن حيوان الماء كل[3] حوت ليس له سفانق[4].

ومنع حرث الثور مع الحمار، وحمل الخيل على الحمير، والحمير على الخيل[5]، وطبخ الجدي في لبن أمه، وأخذ الطير في أعشاشها بفراخها، وأكل الجزارة المتلصقة رئتها، وأكل الخبز المختمر في الفصوح، ولا تقرب قربان إلا بخبز فطير، ومنع شحوم البقر، وشحم الشاة، ومنع قربان الحمام واليمام.

فهذه المذكورات كلها محرمة بنصوص التوراة التي لا تقبل التأويل، إذ قد عملت أنبياء بني إسرائيل على مقتضاها، ولم يغيروا شيئا منها.

وكذلك عيسى عليه السلام لم يغيرها عن مقتضياتها، ولا نسخها. بل أقرها بالعمل، وأمر بمقتضاها.

وإن ادعوا نسخ شيء منها، طالبناهم بدليل النسخ، ولا يجدون سبيلا إلى ذلك ومع ذلك. فتركوا العمل بما أمر الله به، وارتكبوا ما نهى الله عنه.

1- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

2- في ط: "والبغل والحمار".

3- في ط: "المآكل".

4- في ط: وردت بعد سفانق عبارة: "هذا وجدناه في كتبهم التي نقلنا منها، سفانق، وهو تصحيف منهم، وإنما هو سفاسق، وهي الطرائق عند العرب، ومنه قيل سفاسق السيف، وهي طرائقه وفرنده. ذكره أبو عبيد في الغريب المصنف".

5- في خ/م: "الحرماك".

ولقد وقفت على بعض كتبهم في الفقه، فذكر هذه المحرمات مؤلفة، ثم تأولها بزعمه، وأنا الآن أذكر ماذكر في ذلك الكتاب، ليقضي العاقل من تواقحهم وجهلهم العجب العجاب، ويعلم أنهم مفترون، ويكذبون على رب الأرباب.

قال ذلك الجاهل بعد ذكر المحرمات: فهذه أمثلة ضربت في التوراة التي هي أم الإنجيل، وأول الكتب كلها. ففسر المسيح سيدنا في الإنجيل حيث قال: "لم آت لنقض الكتاب بل لتمامه" فتمام الكتاب التأويل.

فأما [منعه][1] الميتة في التوراة، فإنما يعنى[2] بذلك: ألا تميتوا الأحياء، ولا تغموا الحق في الشهادة، ولا ترفعوا الطعام، وتمنعوه السائل والجائع. فأما الميتة والمنخنقة، فما في أكلها غبطة لذي عقل، فمن شاء أكل ومن شاء ترك. وأما الدم، فيعنى به: ألا يقتل أحد بريئا، وتهرق[3] دمه. وعنى بالخنزير: الزنا والكفر بالله، إذ المعروف من الخنزير الإلتطاخ في المضايق[4]، فنهانا عن فعله، وأما أكله فما فيه منفعة ولا مضرة، فمن شاء أكله، ومن شاء تركه. وعنى بالنطيحة: ألا يتناطح ملك جبار وفقير مسكين. وعنى بالموقوذة: ألا تزدري بمن هو تحت ظلم غيرك. وعنى بالمنخنقة: ألا تخنق أحدا إذا كان لك قبله حق فتضغطه[5]. وعنى بالقردة: ألا تحاكي[6] أحدا فتفعل كفعلها. وعنى بالدب واللب: ألا تأكل مع غيرك بالهجم والغارة. وعنى بالأرانب: ألا تفعلوا فعل الأرانب فتكونوا كقوم لوط، فإن الأرانب الذكور يأتي بعضها بعضا لكثرة شهوتها.

وعنى بالبازي، والشدانق، والعقابي وكل طير يبغى بمخلبه، ألا تقتل[7] أحدا ولا تهريق[8] دم أحد ولا تغلب[9] أحدا على متاعه، ولا تحسد جارا، فتفعل كفعلها. وعنى بالدابة التي ليست مشقوقة الحافر، الكفرة الذين يعبدون الأوثان، ويسبحون لها أيام حياتهم، ولا يقسمون أيامهم مشاطرة.

1- في ط سقطت: "منعه".
2- في ط: "نعني".
3- في ط: "يهريق".
4- في ط: "المطائق".
5- في ط: "فتضايقه".
6- في خ/م: "تحكي".
7- في ط: "يقتل".
8- في ط: "يهريق".
9- في ط: "يغلب".

وعنى بالحوت الذي ليس له سفانق: الإنسان المذنب الذي يتلون في دينه وعبادته. وعنى بحرث الثور مع الحمار: الإنسان الكافر. وعنى بحمل الخيل على الحمير، والحمر[1] على الخيل: ألا يتزوج الكافر مؤمنة، ولا المؤمن كافرة.

وعنى بالجدي في لبن أمه: ألا تأخذ مال اليتيم ظلما، وعنى بالملتصقة الرئة: الإنسان الحسود الحقود؛ الذي يوسوس الشر في صدره طول حياته، وعنى بالخبز المختمر: ألا ينفخنا الشيطان ويهيج فينا الكبرياء، وعنى بالفطير: أن تكون أنفسنا ضامرة بلا انتفاخ.

وعنى بالحمام واليمام[2] المؤمنين الذين جعلوا أنفسهم لله قربانا.

قال:" فهذا هو المراد بتحريم هذه الأشياء، وأما تلك المذكورات بأعيانها فمن شاء أكلها ومن شاء تركها.

هذا مذهب النصارى أجمعين، ولا يأباه أحد منهم إلا الأقلين. فينبغي لنا أن نوبخ هؤلاء الجاهلين، ونعرض عليهم من الإلزامات المفحمة[3] ما كانوا عنه معرضين، ونقول لهم: ما الذي حملكم على أن حرفتم كتاب الله؟ وغيرتم شرع الله؟ فأحللتم ما حرم عليكم من غير دليل، وصرتم إلى تأويل لم تضمكم إليه ضرورة عقل ولا معارضة قول رسول، فيا للعجب، ما أثقب أذهانكم، وأصح أفهامكم، إذ قد فهمتم من كتاب رب العالمين ما لم يفهمه أحد من النبيين، بل قد زاد فهمكم على فهم موسى بن عمران وعيسى عليهما السلام؛ إذ كانا قد عملا على تحريم ما فهمتم أنتم تحليله من الأحكام.

وعلى ذلك عملت بنو إسرائيل مدة مديدة من الأعوام إلى زمان بولش المفسد لدين المسيح، الذي جاءكم بمكر خالص، وكفر صريح، فتلقيتم منه هذيانه، ولم تعرفوا شأنه، فحرفتم كتاب الله، وانحرفتم عن الدين القويم، دين المسيح، حين حرف الدين الذي لم تروا منه أثرا ولا سمعتم له خبرا.

ثم نقول: يا معشر المحرفين لكتاب الله، أخبرونا هل كان موسى بن عمران وعيسى ابن مريم، ومن بينهما من أنبياء بني إسرائيل، علموا من هذه الأحكام ما علمتم أنتم أم لا؟ فإن كانوا قد علموا فما بالهم نصوا على خلاف ذلك، وحكموا بتحريم تلك الأشياء،

1- في ط: "الحمير".
2- في خ/م: "اليمام والحمام".
3- في خ/م: "المعجمة.

فلم يرو قط عن واحد منهم: أنه أكل خنزيرا ولا ميتة ولا دما ولا شيئا مما ذكر تحريمه، وأنتم تقولون هذا، وتساعدون عليه، فكيف يمتنعون من أكل ما يحل لهم، ثم يصرحون بتحريمه، فعلى هذا يلزمكم أنهم كذبوا على الله، ولبسوا في أحكام الله، إذا كانوا علموا تحليل تلك الأشياء ثم صرحوا بتحريمها والنهي عنها، وإن لم يعلموا شيئا مما علمتموه أنتم، فمن أين علمتموه أنتم؟ أشافهتكم[1] بذلك الملائكة؟ أم أرسل إليكم بذلك رسل أخر؟ أخلق[2] لكم بذلك علم ضروري؟ وكل ذلك لا تقدرون على ادعائه، فلم يبق إلا أنكم جاهلون بشرع الله، محرفون كتاب الله، متواقحون على الله، كاذبون عليه، ومتهاونون برسله، وستقفون بين يديه ويسألكم عما افتريتم عليه، فتحيط بكم النيران، وتجركم على وجوهكم إليها ملائكة غلاظ شداد لا يطيقهم إنسان ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[3].

فتنادون إذ ذاك: يا أسقفنا بولش انظرنا، فما منا إلا متحرق[4] عاطش، فيقال لكم: هو في أسفل سافلين، فتصيروا إليه أجمعين، فإذا اجتمعتم معه، لعن بعضكم بعضا وجحد بعضكم بعضا، ﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾[5].

ثم نقول لهم: إن جاز أن نتأول ألفاظ الشارع، وكلماته من غير ضرورة داعية إلى ذلك، وندفع النصوص بالتحكم، بطلت الكتب كلها والألسنة، ولم يقدر واحد أن يفهم منها شيئا، إذ كل لفظ يتكلم به متكلم يمكن صرفه عن بابه، وعن موضوعه الأصلي ونصابه.

وإذا أمكن ذلك، لم تقدروا على أن تثبتوا نبوة عيسى على اليهود بما قدمتم، فإن نص[6] ما عندكم من كلام الأنبياء على نبوته قول يعقوب: "لا ينقطع قضيب الملك من نسل يهوذا حتى يأتي المسيح"[7] فيسوغ لليهودي أن يقول: إنما عنى بالملك: دينهم الذي ورثوه عن كتابهم وأنبيائهم، ولم يعن الملك الذي هو الإمارة والولاية، وقد يسمى الدين الملك.

1- في خ/م: أشفهتكم.
2- في ط: "أم خلق".
3- سورة الزمر، الآية: 60.
4- في ط: "متخرق".
5- سورة العنكبوت، الآية: 25.
6- في ط: "من نص".
7- سفر التكوين49: 10.

وقد جاء في التوراة حيث قال الله تعالى لإبراهيم: "الملوك من صلبك يخرجون"[1] وإنما أراد بذلك الأنبياء وأهل الدين، ولم يرد بذلك الأمراء فقط.

وعلى هذا التأويل يحاجكم[2] اليهود، ويقولون لكم هذا ديننا باق لم ينقطع، فإنا نقيم التوراة وأحكامها، فلم يأت بعد المسيح، وهذا التأويل في هذا الموضع أسوغ مما تأولتم أنتم به[3] أحكام التوراة.

فإن أنكرتم هذا التأويل، أنكروا تأويلكم وخطؤوكم[4]، وشهدوا عليكم أنكم غيرتم كتاب الله وحرفتموه، هذا ما جنى عليكم تأويلكم، إذ قد شككتم في مسيحكم، ففي مثلكم يضرب المثل: "يداك أوكتا وفوك نفخ"

ولو شئنا[5] لأبدينا لكم من التأويلات، وأريناكم من المناقضات، أكثر من هذا لفعلنا، ولكن منعنا من ذلك ما قدمنا، ولا يصح أن يقول قائل منهم: إن تحريم هذه المحرمات كلها، التي تثبت في التوراة، نسخ بقول عيسى في الإنجيل: "ليس ينجس المرء ما يدخل فاه، وإنما ينجسه ما يخرج من فيه"[6] لأنا نقول: قول عيسى هذا إذا سلم مفهومه، نفى التنجيس[7] لا نفى التحريم، إذ هما حكمان متغايران مختلفان، فإن الحكم بتحريم هذه المذكورات إنما يرجع إلى منع أكلها، ثم يجوز أن تتناول بالأخذ والإعطاء وأنواع من التصرفات، كما نقول في الحمار الأهلي والبغل، فإنه يحرم علينا أكله، ويحل لنا تصريفه في أنواع من المنافع غير الأكل، والحكم بالتنجيس إنما يرجع لمنع التناول مطلقا أعني يمتنع فيه الأكل والتصرف.

هذا إذا كان ذلك النجس محكوما بنجاسته مطلقا، فإن حكم بنجاسته في حال دون حال، كان ذلك، وصح أن يقال عليه أيضا: نجس، مثال ذلك: أن تحكم[8] الشرائع بأن العذرة يحرم علينا أن نصلي بها، فلا يجوز أن نصلي بها، ولا نحملها في تلك الحال،

1- سفر التكوين17: 6.
2- في ط: "تحاجكم".
3- في ط: "به أنتم".
4- في خ/م: "خطوكم".
5- في خ/م: "شيئا".
6- مرقس7: 15.
7- في خ/م: "التجنيس".
8- في ط: "محكم".

ويجوز لنا أن نتناولها ونحملها في غير حال الصلاة، فقد بان الفرق ما بين الحكم بالتنجيس والحكم بالتحريم، ثم لو سلمنا أنهما اسمان للتحريم، لما كان لتأويلكم السخيف معنى لطيف، فلأي معنى تأولتم وقلتم ما لا يصلح حمل اللفظ عليه؟ ولم لم تقولوا إنه منسوخ. فهذا خطأ آخر وجهل لا يبوء به إلا من كان مثلكم، فإنه جمع بين التأويل والنسخ، وهما متناقضان.

فإن معنى التأويل: أن اللفظ المؤول معمول به على وجه، ومعنى النسخ: أن المنسوخ مرفوع الحكم على كل وجه غير معمول به أصلا.

فقد ظهر من الفصلين السابقين: أن هؤلاء القوم متحكمون بأهوائهم في دين الله، تاركون للعمل بكتاب الله وسنن رسل الله: ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [1] ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [2].

وقد نجز غرضنا من الصدر فلنشرع في الفن الأول الموعود.

1- سورة الكهف، آية: 104.

2- سورة البقرة، آية: 79.

الفن الأول

شعائر الدين النصراني وطقوسه[1]

غرضنا من هذا الفن: أن نجمع مسائل من قواعد أديانهم، ونبين فسادها، وأنهم ليسوا على شيء فيها، بل تركوا فيها نصوص التوراة والإنجيل، وعملوا بخلافها من غير حجة ولا دليل، ولقد كان لنا فيما قدمنا كفاية، أوصلتنا من فضيحتهم وخزيهم إلى أقصى غاية، لكنا أردنا أن نبين خطأهم وضلالهم في أكثر قواعد دينهم، حتى يتضح للناظر أنهم في جميع أحوالهم وأعمالهم مبطلون، وأنهم من كل وجه مضلون.

فنقول: اعلم أنه لو تصفح جميع ما انتحلوه من أديانهم، لوجد مبنيا على مثل[2] ما تقدم من هذيانهم، لكنا نقتصر من ذلك على مسائل نباحثهم فيها، ونبين ضلالهم وتلاعبهم بدينهم[3]، فإذا فرغنا من هذا الغرض، ذكرنا في الفن الثاني جملة من أحكام شريعتنا، ونقتصر من ذلك على ما عابوه علينا منها.

وإنما فعلنا ذلك، لأن هذا السائل الذي حركنا إلى تأليف هذا الكتاب هددنا، بأن قال في كتابه: "إني أبعث إلى كل بلد كتابا بنص شريعتكم، وبكل ما نعرف فيها من الأقاويل التي لا تقدرون على إنكارها" فلو بصر الله هذا الجاهل المغلط بعيوبه، لكان سترها وكتمانها أعظم مطلوبه، لكن جهل فقال: وحيث وجب أن يسجد بال.

فنقول: يا هذا ألنا يقعقع بالشنان؟ آلآخذ[4] بالحنيفية دين إبراهيم[5] يدان. كلا والله، فليس مع الشمس سراج، ولا شجر المرخ من الساج، وها نحن نبتدئ بالمسائل تترى إن شاء الله تعالى[6].

1- في ط: ساقطة.
2- في ط: "ما مثل".
3- في ط: "في دينهم".
4- في خ/م:"الأحد".
5- في ط: "دين إبراهيم" ساقطة.
6-في خ/م :"تعالى" ساقطة.

مسألة في المعمودية

أطبقت النصارى على اختلاف فرقهم على القول بالمعمودية، وصفتها عندهم:

أن الذي يريد أن يدخل في دينهم؛ أو التائب منهم، يتقدم[1] الأقسة إليه[2] فيمنعونه من اللحم والخمر أياما، ثم يعلمونه اعتقادهم وإيمانهم، فإذا تعلم ذلك اجتمع له القسيسون، فتكلم بعقيدة إيمانهم أمامهم، ثم يغطسونه في ماء يغمروه، وقد اختلفوا هل يغطسونه مرة واحدة أو مرتين أو ثلاثا، فإذا هو خرج من ذلك الماء دعا له الأسقف بالبركة، ووضع يده على رأسه.

هكذا كانت صفة معموديتهم قديما في "الأندلس". وأما اليوم، فلعلهم قد غيروا بعض أحكامها، وربما اختلفوا في بعض تلك الأحوال، وهي عندهم عبادة مؤكدة، وقاعدة ممهدة، ومن لم يقبلها عندهم فهو كافر، وليس له من ذنوبه غافر.

وقد كتب الأسقف "ليون" إلى أساقفة "صقلية" رسالة ذكر لهم فيها أمر المعمودية وفضيلتها، فقال: "المعمودية[3]: هي إماتة الذنوب وقتلها، وتأويل الغطسات الثلاث: مكث المسيح في قبره ثلاثة أيام، والخروج عن الماء هو الخروج عن القبر[4]".

ومنهم من تأول في هذه الغطسات الثلاث: أنه التثليث الذي يعتقدون.

وهذا التعميد لم يجد[5] له في التوراة ذكر، ولم[6] يشرع الله قط لموسى، لكن كتب النصارى في الإنجيل: "أن يحيى عمد عيسى بوادي الأردن، فخرج منه روح القدس كالحمامة على الماء" وزعمت النصارى أيضا أن عيسى قال للحواريين: "إذا مررتم بالأجناس فعمدوهم على اسم الأب والابن والروح القدس"[7] وزعموا أن "بيطر" عمد ثلاثة آلاف رجل في يوم "نيقشتان"[8].

1- في ط: "تتقدم".
2- في ط: "منه".
3- في خ/م: "العمودية".
4- في خ/م: "الغير".
5- في ط: "يجر".
6- في خ/م: "لا".
7- متى 28: 19.
8- في خ/م: " بنيقشتان".

وهذه المسألة عندهم ظاهرة المستند، قوية المعتمد، فإنهم قد أسندوا نقلها إلى الأنبياء والحواريين كما تقدم، ولكنا مع ذلك نطالبهم فيها مطالبات تؤذن بأنهم يرجعون إلى الترهات، فنقول: سلمنا لكم جدلا ما ذكرتم من استناد المعمودية إلى ما ذكرتم، لكن لم قلتم: كما فعلها يحيى والحواريون نفعلها[1] نحن اليوم. ولعل الله تعالى خص يحيى والحواريين بعمل المعمودية، ولم يشرعها لغيرهم، فإن ادعوا أن الله شرعها لهم كما شرعها للحواريين، طالبناهم بالنص من كتبهم الذي به يجب على من دون الحواريين التعميد، ولا يجدون شيئا من ذلك أبدا.

ثم نقول لعل الحواريين ويحيى[إنما عمدوا الناس، لأن ماءهم كان مقدسا، ودعاءهم متقبلا، لكون يحيى نبيا والحواريون][2] كذلك عندكم، وأما أنتم فلستم أنبياء، وليس ماؤكم مقدسا، فلستم مثلهم، فكان ينبغي لكم ألا تعمدوا أحدا، لكنكم وضعتم لأنفسكم شرعا بالتوهم، وزدتم فيه أمورا بالتحكم، ثم نقول: سلمنا جدلا أن المعمودية شرع لكم، فمن أين زدتم فيها العدد؟ ووضع اليد على الرأس والنفخ في الوجه؟ كما فعله بعض من مضى منكم، ولم تكفرون من لا يستعملها، ولم ينزل بشيء من ذلك سلطان، ولا حكم بذلك إنجيل ولا فرقان، لولا محض التلاعب بالأديان، والتحكم في دين الله والخذلان.

ثم نقول: هذا الماء الذي تعمدون فيه أهو مقدس أو غير مقدس؟ فإن كان مقدسا، فمن قدسه؟ فإن قلتم: إن الله قدسه، فمن أين علمتم ذلك؟ ثم إن قلتم ذلك عورضتم بنقيضه، وقيل لكم بل نجسه الله، وإن قلتم: نحن قدسناه، قلنا: فمن أنتم حتى شيئا؟ وهل يصلح أن يقدس من ليس بمقدس؟ أو يطهر من ليس بمطهر؟ بل أنتم مذنبون، تتزايد ذنوبكم في كل وقت وحين، فكيف تقدسون غيركم وأنتم لا تقدسون أنفسكم؟ "فليت الفحل يهضم نفسه"[3].

فحصل من هذا: أن ماءكم الذي تعمدون فيه غير مقدس، ولذا كان كذلك، فلأي شئ[4] تشترطون في المعمودية أن تكون بالماء؟ وهلا عمدتم في البول فإنه ليس بنجاسة عندكم؟ ولا فرق بينه وبين الماء إذ كل واحد منهما ليس بمقدس.

1- في خ/م: "نفعله".
2- ما المعقوفتين ساقط في خ/م.
3- في خ/م: "الفحل".
4- في ط: "شرط".

ثم نقول: زعم النصارى أجمعهم، وكتبوا في كتبهم: أن يحيى عمد عيسى المسيح بوادي الأردن.

فنقول لهم: هل كان عيسى عليه السلام قبل أن يعمده يحيى مقدسا أم لم يكن؟ فإن قلتم: أنه كان مقدسا، فلا فائدة لفعل يحيى، ولأي شيء لم ينزل عليه روح القدس قبل التعميد، وأنتم تقولون: أنه لما عمده نزل عليه الروح القدس مثل حمامة بيضاء. وإن كان غير مقدس، فكيف يكون من ليس بمقدس إلها أو ابن إله؟ وأنتم تزعمون بجهلكم على اختلاف أقوالكم: أنه اتحد بناسوته اللاهوت وهو في بطن أمه، وكيف يتحد اللاهوت بمن ليس بمقدس؟ وهل هذا كله منكم إلا هذيان وضرب من الخذلان تمجه القلوب والآذان؟

مسألة في غفران الأساقفة والقسيسين ذنوب المذنبين واختراعهم الكفارة للعاصين

اعلم، أن هؤلاء القوم وضعوا لأنفسهم قوانين، توافقوا عليها، وارتبطوا لها، من غير أن يشهد بصحة تلك القوانين شاهد من توراة ولا من إنجيل، فمن خالفها عندهم سموه خارجيا تارة، وكافرا أخرى، والخروج عن تلك القوانين هو الذنب عندهم، ثم تلك الذنوب منقسمة إلى ما لا يغفرونه، وإلى ما يغفرونه، فإذا غفروا ذنب واحد منهم أدخلوه الكنيسة وقبلوا قربانه، وإذا لم يغفروا له أبعدوه عن كنائسهم، وطردوه، وهولوا عليه، ولم يقبلوا برهانه، ولا بد للذنب المغفور من كفارة، وتلك الكفارة بحسب ما يظهر لأقستهم ويرونه موافقا لغرضهم، فتارة يوجبون عليه خدمة الكنيسة، وتارة لا يدخلها بل يقف عندها متذللا، وربما يبقى على ذلك أعواما عديدة، وتارة يوجبون عليه مالا، فإما[1] لملكهم وإما لهم ولكنائسهم.

ولا بد من بيان ذلك بالأمثلة على ما وجدنا في كتبهم، ولنذكر من كل مسألة مثالا، لئلا يطول الكتاب، وإنما ننقل[2] ألفاظهم من كتبهم، لئلا يتقول متقول علينا بالباطل، أو يظن بنا الجهل بمذهبهم، أو ينسبونا إلى الكذب في شيء مما حكيناه عنهم.

مثال القسم الأول: العابثون بالصبيان.

"العابثون بالصبيان لا يغفرون لهم بوجه، ولا يعطونهم قربانا أبدا، ولا عند وفاتهم، على هذا أجمع أساقفة "طليطلة" في ولاية "الفية[3] الملك"، وقالوا: دعتنا هذه الفاحشة

1- في ط: "فإما".
2- في ط: "أنقل".
3-في ط: "ايفة".

المنتنة أن نحكم[1] بأجمعنا: أن كل من أتى هذه الفاحشة أن يفعل به [وتركب منه][2]، فإن كان راكب هذه الفاحشة أسقفا فليعزل، ويبعد إبعادا شديدا دائما، وإن كان من غيرهم، فلينكل به نكالا شديدا، ويضرب الفاعل والمفعول مائة سوط، وينفيان النفي الدائم، ولا يعطيهم أحد من الأقسة توبة، ومن أعطاها لهم وتقبل قربانهم عزل، وأبعد، ولم يعط هو أيضا توبة، وأغرموه خمسة أرطال ذهبا للملك."

هذا قانونهم الأول القديم، ولا أدري ما أحدثوه الآن، إذ الأحداث عنهم في كل زمان.

ومثال الثاني: نكاح القرابات.

وذلك أن نكاحهن حرام بنص التوراة، زعموا: " فإن نكح رجل قريبته إلى سبع بطون، فإن أصر على ذلك، فلا يغفر له، ولا يعطى قربانا، وإن مات. وإن أقلع عنها حرم القربان خمسة عشر سنة" وكلفوه[3] أعدادا من الصلوات ومن العبادات وربما زادوا عليه خمسا فكملوا له عشرين سنة وربما بلغه بعضهم خمسا وعشرين وذلك بحسب ستة عندهم فإذا كان بعد ذلك قبلوا توبته وأعطوه القربان وأما المرأة فقد أبوا أن يعطوها القربان إلا عند وفاتها.

وأما الذي يأتي البهيمة:

فإن كان له زوجة لم يعط القربان إلا بعد ثلاثين سنة، وإن لم تكن له زوجة فبعد خمس وعشرين سنة.

ومثال ما يغرمون فيه الأموال:

من تزوج من غير بركة "القسيس" فإنه يغرم للملك مائة دينار، ويضرب الزوجان مائة سوط، مائة سوط.

وقد حكموا على قاتل عبده:

بحرمان القربان سنتين، وعلى قاتل العمد عبده[4]، بحرمان القربان، ويخضوعه عند الكنيسة إلى آخر وفاته.

1- في ط: "يحكم".
2- في ط عوض الجملة بين المعقوفتين بـ: "عقاب".
3- في ط: "وكلفوا".
4- في ط: "غير عبد".

وأما قاتل الخطأ:

فقانونهم الأول: يقضى بأن يحرم القربان سبع سنين، والقانون الثاني: يقضى بأن يحرم خمس سنين.

وعلى الجملة:

فهذياناتهم، وتحكماتهم أكثر من أن تحصى، ومن اطلع على كتب فقههم، رأى فيها غرائب وعجائب، ومقصودنا التمثيل، وقد حصل والحمد لله. فنقول:

من وقف على هذه المواضع وأمثالها لم يشك في أن القوم يصنعون أحكاما، ويخترعونها، ويلتزمونها، ولسنا ننكر: أن الشرائع لو جاءت بمثل هذا الكفارات والتحكمات لقبلناها والتزمناها.

وإنما ننكر عليهم: أن يجعلوا أنفسهم شارعين، وينزلوا أنفسهم منزلة رب العالمين، فإنه إنما ينبغي الحكم والتحكم له، إذ له أن يفعل ما يريد، ويحكم ما يشاء في العبيد، وأما الأنبياء فلا يحكمون من عند أنفسهم، وإنما يبلغون أحكام الله. ثم أعجب من ذلك كله[1] جرأتهم على الله، واستهزاؤهم بكتاب الله، فإن هذه الذنوب التي قدمت ذكرها، قد شرع الله أحكامها في التوراة نصوصا، وبين حدودها، فجعل في أكثر تلك المواضع: القتل، ولم يحكم فيها بشيء مما اخترعوه. وليس في إنجيلهم أيضا من هذه الأحكام شيء، وعند هذا تبين: أنهم خالفوا كتب الله، وتركوا سنة رسل الله، وتحكموا في ذلك بأهوائهم، وتركوا سنن أنبيائهم فحقت عليهم لعنة الله أبد الآبدين، وغضبه إلى يوم الدين.

فإن قالوا: تلك الأحكام التي في التوراة منسوخة بكتابنا، وعلى لسان مسيحنا، قلنا لهم: ﴿ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [2]، بل نقول: إن عيسى عليه السلام جاء متمما لأحكام التوراة، ولم يجيء مغيرا لأحكامها، ولا ناقضا لها. وكذلك نقلتم في إنجيلكم أن عيسى قال: "إنما جئت متمما ولم آت لأنقض شريعة من قبلي"[3].

وهذا خلاف ما تدعونه من النسخ، بل يقتضى هذا بحكم ظاهره أنه لا ينسخ شريعة من قبله، وإنما يوضحها، ويحيى ما أميت منها، ثم لا يبعد أن يكون قد نسخ بعض أحكام

1- في ط: "كله" ساقطة.

2- سورة البقرة، الآية 111.

3- متى5: 17.

التوراة، وغاية ما يوجد له من النسخ قوله: [قد علمتم إنه "قيل للقدماء][1]: من فارق امرأته، فليكتب لها كتاب طلاق. وأنا أقول: من فارق امرأته منكم، فقد جعل لها سبيلا إلى الزنا، ومن تزوج[2] مطلقة فهو فاسق."[3].

ثم قال أما[4]: "بلغكم أنه قيل: العين بالعين والسن بالسن، وأنا أقول لكم: لا تكافئوا أحدا بسيئة، ولكن من لطم خدك الأيمن فأعطه الآخر، ومن أراد نزع قميصك فزده ردائك"[5].

فمثل هذا يمكن أن يقال فيه: إنه نسخ، وإذا بحث عن كتابكم كما يجب لم يوجد فيه نص[6] من هذا على النسخ. فمن ادعى منكم أن شيئا مما ذكر في التوراة تحريمه منسوخ، فليأت بناسخ يشبه هذا القول. فإن لم تأتوا بشيء من ذلك، دل على أنكم متحكمون هنالك.

مطالبة

وهي أنا نقول لهم:

لأي معنى حرمتم من نكح قريبته خمسا وعشرين سنة من[7] القربان؟ وحرمتموه من نكح بهيمة ثلاثين سنة، ولو عكستم ذلك كان أشبه، فإن نكاح الآدمية القريبة أشنع[8] من حيث أنها محرمة من نكاح بهيمة لا احترام لها، وكذلك نعكس عليهم كل ما ذكروه، حتى يتبين فساد قولهم.

ونقول لهم أيضا: لأي معنى لم تجعلوا مكان الثلاثين: ثمانية وعشرين، أو اثنين وثلاثين؟ ولأي معنى خصصتم هذا العدد دون غيره، وعند هذا يتبين بطلان تحكمهم، وفساد رأيهم. وكذلك نقول: لأي معنى شرعتم في العابث مائة سوط؟ ولم تشرعوه فيمن نكح قريبته[9]؟ مع أن التوراة قد أمرت بقتل كل واحد منهما، فكان ينبغي أن تسووا في

1- في ط: "عوضت الجملة بين المعقوفتين بـ: "وقيل".
2- في خ/م: "زوج".
3- إنجيل متى5: 31-32.
4- في ط، سقطت: "أما".
5- إنجيل متى5: 38-40.
6- في خ/م: "أنص".
7- في خ/م سقطت "من".
8- في خ/م: "أسنع".
9- في خ/م: قريبة"

الحكم بينهما، فأما أن تضربوا كل واحد منهما مائة سوط أو لا تضربوهما، فظهر من هذا أنكم تركتم حكم التوراة، ثم لم تعدلوا فيما تحكمتم به، ثم من أعظم تواقحكم أنكم سهلتم الفواحش على أنفسكم، وصعبتموها على غيركم، فحكمتم على الأسقف الذي يعبث بأن يبعد فقط، وعلى غيرهم بأن يبعدوا وينكلوا ويجلدوا إذا فعلوا تلك الفاحشة، ولو عكستم ذلك لكان أشبه، فإن التغليط على الأقسة مناسب لحالهم، فإن المعاصي تقبح في حقهم أكثر مما تقبح في حق غيرهم، فإن من كلام النبوة أن من أشد الناس عذابا عالم لم ينفعه الله بعلمه، ومن كلام الحكماء حسنات الأبرار سيئات المقربين، ثم هذا المعنى معلوم من عادة الملوك، فإنهم يعاقبون وزراءهم والوقافين على رؤوسهم، ويؤاخذونهم على أمور لا يحسن منهم أن يؤاخذوا بها سائس الدواب، بل لكل مقام مقال، ولكل عمل رجال، وكيف لا تقبح المعاصي في حق الأقسة والأساقفة وهم قد نزلوا أنفسهم منزلة الأنبياء؟ حيث شرعوا الشرائع، وتحكموا بوضعها، بل تنزلوا منزلة المكلف الغافر الذي له الخلق والأمر.

فإنهم قد قالوا للعوام: إن غفراننا لكم غفران الله، وحرماننا لكم: حرمان الله، فإذا أعطينا نحن القربان فقد قبله الله، وإذا لم نعطه لم يقبله الله، وإذا غفرنا نحن الذنب فقد غفره الله، فإن غركم الشيطان، وقد فعل، بأن تقولوا إن لنا لأجل القسيسية منزلة وحظوة، فاتركوا العمل بشريعتكم لأجل ما لكم عند الله من الفضل، ولا تحرموا على أنفسكم شيئا من الفواحش، وقد سمعنا هذا النوع عن بعض "أقسة أرغون" فعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين، ثم نقول لهم: يا معشر الأساقفة الجاهلين والقسيسين المتحكمين من أنتم حتى تكونوا شارعين؟ أأنتم عقاب رب العالمين؟ أحصلتم على رضاه أجمعين؟ بل ينبغي أن تتحققوا أنكم في العذاب خالدون[1]، حيث كفرتم برسالة سيد المرسلين مع ما دلت عليها من الشواهد والبراهين، فلقد صدق الله وهو أصدق القائلين حيث قال، مخبرا عن الأخبار والقسيسين: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2].

1- في خ/م: "خالدين".
2- سورة المائدة، الآية: 18.

مسألة في الصلوبية وقولهم فيها.

لا خلاف عند النصارى: أن إنكار صلب المسيح كفر، ومن شك فيه[1] فهو كافر، وأنا الآن أذكر كلامهم في "الصلوبية" وفي معناها عندهم.

قالوا: "الكلمة هو الله، وهو مخلوق من طريق الجسم، وخالق من طريق النفس، وهو خلق جسمه، وهو خلق أمه، وأمه كانت من قبله بالناسوت، وهو كان من قبلها باللاهوت، وهو الإله التام، وهو الإنسان التام، ومن تمام رحمته على الناس: أنه رضي بهرق دمه عنهم في خشبة الصلب، فمكن اليهود أعداءه من نفسه، ليتم سخطه عليهم، فأخذوه وصلبوه، وغار دمه في إصبعه، لأنه لو وقع شيء من دمه على الأرض ليبست، إلا شيء وقع فيها فنبت في موضعه النوار.

لأنه لما لم يمكن في الحكمة الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصي آدم، الذي ظلمه واستهان بحقه، فلم يرد الله الانتقام منه لاعتلاء منزلة السيد، وسقوطه منزل العبد. أراد أن ينتصف من الإنسان الذي هو إله مثله، فانتصف من خطيئة آدم بصلب عيسى المسيح، الذي هو إله متساو معه. فصلب ابن الله الذي هو الله في الساعة التاسعة من يوم الجمعة."

هذا نص كلامهم من غير زيادة ولا نقصان.

وقال "بليون الجاثليق" في رسالته لـ"ليون الملك" كبول:" أسرتنا، لا يمكن أن تحل، إلا بأن يطلع إنسان من جنسنا وطبيعتنا، من لا تضبطه معصية الذنب على ضد آدم، ومن بدمه الطاهر يمحو[2] أزلات الدين[3] المهلك، الذي كان حتمه الله، وقضى به منذ البدء، فتم ذلك الفعل عند انقضاء الزمان المحدود، وذلك ليتم الوعد الموعود.

مفهوم هذا الكلام: أن ذنب آدم كان في رقاب بنيه إلى أن قتل عيسى، وانتقم منه لأجل آدم، وحينئذ عفا عن آدم وبنيه، ولهذه الحكمة كانت صلوبية المسيح عندهم. يا معشر العقلاء انظروا بعين الاعتبار جهل هؤلاء الأغمار، وجرأتهم على العزيز الجبار، وقولهم بالشتيمة في الأنبياء الأخيار، فلقد ارتكبوا من المحالات، وقالوا من الأكاذيب والترهات ما

1- في خ/م: "فيها".
2- في ط: "تمحو".
3- في ط: "الريق".

لم يقله أحد من المخلوقات، ثم لم يكتفوا بهذه العظائم، حتى أضافوا لله ولأنبيائه أعظم النقائص والشتائم، فلله سر في أبعاد بعض العباد: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [1].

فهؤلاء كما قال الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [2].

واعلم، أنا لو تتبعنا تناقض هذا الكلام، وأوردنا الإلزامات عليه، لكتبنا في هذه المسألة وحدها سفرا، على أن العقلاء يعلمون فساد هذا المذهب بالضرورة، عند مجرد الوقوف عليه، ولذلك لم يصر إلى نحو هذا المذهب السخيف، والقول القبيح أحد من الأمم، لا من العرب ولا من العجم، لا في الحديث ولا في القدم، وإنما صار إليه هؤلاء النصارى الجهال، لكونهم ليسوا من العقال، بل حظهم من العقل حظ المجانين والأطفال، فكلامهم أشبه شيء بكلام الموسوسين والمختلطين المبرسمين.

ولقد كان يقتضى ما يعلم من حالهم، الكف عن مناظرتهم[3] وجدالهم، لكن سكوت النبيه ربما كان داعية لتطاول السفيه، وقد تقدم هذا الاعتذار عن هذا في أول الكتاب، ولكن مع هذا لا بد للمجانين من العزائم[4]، وتعليق الأجراس والتمائم[5]، فلنورد عليهم من الإلزامات ما يبطل تلك الترهات، ويبين تلك الأكذوبات، فنقول:

وقد ذكرنا فيما تقدم: أن أمر الصلوبية إنما شرعها لهم "قسطنطين بن هيلانة" الملك. وهو الذي سنها[6] وكتبها لهم في الإنجيل، ليوغر صدور عامته، ورعيته على اليهود، وأنه احتال عليهم بالرؤية التي اخترعها، فتم له مراده منهم، ولم يكن عنده من أمر عيسى إلا خبر جملي.

ثم اختلق لهم في شأنه أمورا تفصيلية هي محال في نفسها، لكنها مهولة على العامة الرعاع، كقولهم في الالتحام، وفي أن[7] لاهوت المسيح: لم يتركه ألم الصلب والإهانة، وإنما أدرك ذلك لحمته، وكإطلاق لفظ الطبيعتين على لاهوته وناسوته، إلى ما عندهم من الهذيانات التي هي محال بالضروريات.

1- سورة غافر، الآية: 33.
2- سورة البقرة، الآية: 18.
3- في خ/م: "مناظرهم".
4- في خ/م: " الغمائم".
5- في ط: "النمائم".
6- في ط: "سنها".
7- "أن" ساقطة في ط.

وقد قدمنا في ذلك ما يغني عن إعادته.

واعلم، أن النصارى يدعون: أن اليهود قتلت المسيح عيسى يقينا، وأن اليهود يدعون أنهم قتلوا رجلا ادعى نسخ التوراة، بعد أن ادعى النبوة، ولم يقم عليها شاهدا.

ونحن ندعي: أن عيسى ابن مريم عليه السلام لم يقتله اليهود ولا غيرهم، بل رفعه الله إليه من غير قتل ولا موت، ونحن نبين أن الفريقين في شك منه، وغير عالمين بشيء مما يدعونه في صلبه، فنقول:

إن مستند النصارى في قولهم بالصلب: إنما هو الإنجيل. وقد بينا فيما تقدم: أنه قابل للتحريف والتبديل، وقد أرينا فيه التناقض والتحريف عيانا، وأوضحنا على ذلك برهانا مع ما قدمنا من أن نقله ليس نقلا متواترا يفيد العلم. وهذا يكفي مع أنهم ليسوا عالمين بشيء مما يتضمنه، ولو سلمنا أنه متواتر يحصل بنقله العلم، لقلنا أن الأخبار التي فيه التي تتضمن الصلب لا تنص نصية قاطعة للشك على أن المصلوب هو المسيح بعينه، بل هي محتملة لأن يكون[1] المصلوب غيره، ولم تتفطن النصارى بغباوتهم لوجوه الاحتمال، ونحن نسرد نصوصهم في أناجيلهم، ونبين ذلك، ووجه الاحتمالات فيها، إن شاء الله مستعينين به ومتوكلين عليه.

قال "متاؤوش"[2] في إنجيله:

"وقف على المسيح يهوذا، أحد الإثنى عشر، ومعه جماعة برماح وعصي، وكان معهم قواد القسيسين وأكابر بني إسرائيل، وكان يهوذا قد قال لأولئك الأعوان من قبطته من الجماعة: فهو المراد فاحبسوه، وفي ذلك الوقت دنا يهوذا إلى ياشوا[3]، وقال السلام: عليك يا معلم، فقال له ياشوا: يا صديق لم أقبلت هنا، فعند ذلك تعلقت الجماعة به وحبسته"[4].

زاد "ماركش": "أنه لما قبضوا عليه، تخلى عنه التلاميذ وهربوا، فاتبعه شاب عريانا[5]، وهو ملتف في ردائه، فقبضوا عليه، فأسلم لهم الرداء، ونجا عريانا."[6]

1- "يكون" ساقطة في ط.
2- في خ/م: " متاوس".
3- في خ/م: "يوشا".
4- إنجيل متى26: 47-50.
5- في خ/م: "عريان".
6- مرقس14: 51.

زاد لوقا: "أن بلاط[1] لما أخبر أنه جلجالي، وعلم أنه من طاعة هيرودس بعثه إليه."[2]

زاد في إنجيل "يحيى"[3]: "أن ياشوا تقدم لجماعة وقال لهم: من تريدون؟ فقالوا له: ياشوا الناذري. فقال لهم ياشوا: أنا هو، وكان يهوذا المدل عليه معهم واقفا، فلما قال لهم: أنا هو، قهقروا إلى خلف فتساقطوا في الأرض، ثم دنا منهم، وقال لهم: من تريدون؟ فقالوا له: ياشوا الناذري. فقال لهم: من تريدون؟ فقالوا له: ياشوا الناذري. فقال لهم ياشوا: قد قلت لكم إني أنا هو، فإن كنتم إنما تريدونني أنا، فأطلقوا سبيل هؤلاء."[4]

وذكر متى:

"أن يهوذا الدال عليه، لما أبصر ما فعل به، ندم ورد الثلاثين درهما على قواد[5] القسيسين، وقال: أخطأت إذ سلمت[6] دما صالحا. فقالوا له: ما علينا، أنت ترى. فألقى الدارهم في البيت، وتوجه إلى موضع خنق فيه نفسه."[7]

هذه نصوص أناجيلهم، ومستند اعتقاداتهم، ليس شيء منها يدل دلالة قاطعة على أن المصلوب هو المسيح بعينه، بل إذا اعتبر العاقل تلك الحكايات المذكورات، ولفق متفرقها[8]، وحقق النظر فيها، تفطن لموضع الأشكال، وتنبه لمثار الشك فيها والاحتمال.

ونحن نبين ذلك بعون الله، فنقول: ما سردناه[9] من أناجيلهم فيه احتمالات.

منها: أن يهوذا كذب لليهود في قوله: "هو ذا"[10] فإن اليهود كانت لا تعرفه، ولم تأخذه إلا بشهادته: أنه هو، ألا ترى أن يهوذا عرفهم إياه بالعلامة.

وكذلك يدل على ذلك سؤالهم عنه، وكذلك سؤال "بلاط" عن بلده، حين أخبر أنه من جلجال، يدل على أنه كان لا يعرفه.

1- وهو "بيلاطس".
2- لوقا23: 7.
3- في ط: "يوحنا".
4- يوحنا18: 4-8.
5- في خ/م: "مواد".
6- في خ/م: "تللت".
7- متى27: 4-5.
8- في ط: " متلفقها".
9- في ط: "سودناه".
10- في خ/م: "هو معوذا".

فهذا كله يدل على أنهم كانوا لا يعرفونه، وإنما عولوا في تعيينه لهم على يهوذا، فإذا ثبت ذلك، فيحتمل أن يكون يهوذا إنما أشار إلى غيره، لأنه كان ندم على بيعه، كما تقدم نصه في كتبكم.

ويدل على أنه تاب من ذلك، وندم عليه، وحسنت توبته، قول عيسى له فيما زعمتم، حين سلم عليه: "يا صديق لم أقبلت؟" ولو كان مصرا على الدل عليه، وعلى ما كان هم به، لما كان يحل لعيسى أن يقول له: "يا صديق" فإنه كان يكون كافرا، ولا يمكن أن يقول للكافر: "يا صديق" فإنه كذب، لأن الكافر عدو، فيلزم هنا أحد ثلاثة أمور:

أما أن يكون يهوذا تاب في ذلك الوقت وندم على ما فرط منه، فعفا عنه، وتوبته لا تصح في تلك الحال، أعني حال الدلالة عليه، إلا بأن يعدل عنه، ولا يدل عليه، وكذلك فعل، والله أعلم.

أو يكون عيسى كاذبا فيما قال، له حيث أخبر أنه صديق. وعيسى عليه السلام منزه عن الكذب.

أو يكون كتابكم باطلا ومحرفا.

فاختاروا من هذه الثلاث واحدة، وأي شيء التزمتم منها فهي مبطلة لقولكم وفاسدة.

ويدل على حسن توبته وصدقها، أنه رمى بالدراهم، واعترف بالخطية، وقتل نفسه، وهذا يدل على غاية الصدق في الندم.

ومقصود هذا الكلام: أن يهوذا ندم، ولا بد على ما فرط منه، فيحتمل أن يكون دل على غيره من أصحابه، وأن ذلك الغير رضي بأن يقتل مكان المسيح، فتعرض بنفسه لليهود، فأخذوه، ورفع عيسى مكانه إلى السماء، كما رفع "أخنوخ" النبي وهو "إدريس عليه السلام" وهذا كما تقولون أنتم: أنه لما صلب وحيي، اجتمع بأصحابه بجلجال، ثم رفع إلى السماء.[1].

فقد توافقنا على الرفع، وأنتم تقولون أنه بعد الصلب والصفع والإهانة، ونحن نجله ونكرمه عن ذلك، ونقول: أنه رفع من غير صلب وإهانة، بل صانه الله من أن يظفر به عدوا، وأكرمه حتى أحله مكانا عليا، ولو كنتم عقلاء لجحدتم أمر الصلوبية، ولم تعترفوا بها، ولقبلتم قولنا فيها، ولو فعلتم ذلك، لكان أليق بكم، وأستر لجهلكم، فإنكم تريدون أن تجمعوا بين نقيضين، حيث حكمتم عليه بأمرين محالين إلهية وصلوبية.

1- آخر إنجيل لوقا

ومنها: أن يحتمل أن يكون المسيح في الجماعة الذين أطلق الأعوان سبيلهم، وكان المتكلم معهم غيره، ممن يريد أن يبيع نفسه من الله ويقي المسيح بها[1]، فقال ذلك المتكلم: أنا المسيح فحبسوه، وخلوا سبيل غيره، فانفلت المسيح في جملتهم، ويقوى هذا الاحتمال أن يهوذا كان واقفا ناحية، ولم ينبه عليه، لكونه كان نادما لما قد تبين، وبعد ذلك رفع.

ومنها: أن أولئك الأعوان أخذوا عليه رشوة فأطلقوه، وعلى هذا يدل حديث رداء الشاب، حيث قال ماركش:" إن الشاب أسلم إليهم الرداء لما تقبضوا عليه"، وإذا جاز أن يأخذ "يهوذا الأشكريوث"[2]، وهو حواريه، على قتله ثلاثين درهما، جاز أن يأخذ الأعوان على إطلاقه رداء.

ومنها: أنه لا يبعد أن يكون الله تعالى رفع المسيح إلى السماء، وصور لهم شيطانا أو غيره، بصورة تشبه صورته، فاعتقدوا أنه هو فصلبوه، وإلى هذا يشير سكوته، حيث سألوه فسكت ولم يجاوبهم، وفي الوقت الذي تكلم لهم نزلت تلك الصورة نفسها منزلته، وهذا كله ممكن لا يدفعه عقل، فإن الله على كل شيء قدير، ولا يدفعه أيضا نقل.

فإن كل ما نقلتموه ليس نصا قاطعا، ولا نقل نقلا متواترا، فحصل من هذا أنكم غير عالمين بصلبه، ولا موقنين بقتله.

وأما اليهود فليسوا أيضا عالمين بشيء من ذلك، إذ لا يصدقون كتابكم، وليس عندهم نقل متواتر بذلك، على التفصيل، وغايتهم: أن يعتقدوا على الجملة: أن رجلا كان فيما مضى غير بعض أحكام التوراة، فشهد عليه بذلك، فقتل. وكتابكم يدل على أنهم إنما قتلوا رجلا شهد لهم فيه "يهوذا الأشكريوث" أنه: المسيح، الذي ادعى أنه "ابن الله" فحصل من هذا: أن اليهود في شك منه، وأنكم أنتم على غير علم به، وهكذا قال كتاب الله الناطق على لسان رسوله الصادق: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[3].

1- في ط:" به".

2- هو يهودا الأسخريوطي.

3- سورة النساء، الآية: 157-158.

وحين بينا أنهم في شك من الصلوبية، ينبغي أن نتتبع بالنقض كلامهم المتقدم، فنقول:

أما قولهم:" من رحمته على الناس أنه رضي بهرق دمه عنهم في خشية الصلب" فتواقح لا يفوه به من له من الحياء أقل نصيب، يا عجبا كيف يجترئ أن ينطق بهذه القبائح عاقل؟ أم كيف يرضى لنفسه بمثل هذه المخازي فاضل؟ وهلا كان يرحم عباده بأن يغفر لأبيهم، ولا يحتاج إلى هذا كله؟ أو ليس كان يكون غفران الذنب أهون عليه ابتداء، وأليق بالحكمة والرحمة والرأفة من أن يعاقب من لم يجن[1]؟ ثم ذلك المعاقب الذي لم يجن[2] الذنب ابنه، بل وهو عندكم نفسه باعتبار ما حل فيه منه، فلم يرض من عقوبة الذنب الذي جناه آدم، حتى عاقب نفسه أو ابنه، فأنتم في هذا القول الوقاح والإفك الصراح، بمنزلة رجل أخطأ عليه عبده، فبقي بعد مدة غاضبا عليه وعلى غيره من عبيده، ناويا[3] على معاقبتهم، حتى ولد لنفسه ولد فعمد إليه فقتله، بذنب العبد الذي كان أذنب، ثم لم يقنع بذلك حتى ضرب نفسه، ولامها وأهانها على ما صنع عبده، مع أنه قد كان متمكنا من أن يغفر لعبده، ولا يفعل هذا بولده ولا بنفسه، فأي تشف يحصل له مما فعل، بل يحصل[4] له كل ألم ونقص وخلل، مثل[5] السفيه الأحمق الجاهل، بل يزيده ذلك في كربته، ويدعو إلى دوام حزنه وحسرته.

ويلزمكم على ذلك: أن يكون الله تعالى لم يتب على آدم عليه السلام، إلا بعد أن صلب المسيح. وبذلك تكذيب كتب الأنبياء فإنها تقتضي: أن آدم بكى على خطيته، ودعا الله تعالى حتى تاب عليه واجتباه، ويلزمكم أيضا عليه: أن يكون نوح وإبراهيم وموسى وما بينهم من النبيين عصاة بذنب آدم حتى صلب عيسى، وحينئذ غفر لهم.

وقد صرح بعض "أقستكم" لعنه الله:" أن آدم وجميع ولده إلى زمان عيسى كانوا كلهم ثاوين في الجحيم بخطيئة أبيهم، حتى فداهم عيسى بهرق دمه في الخشبة، فلما صلب نزل جهنم[6]، وأخرج منها جميعهم إلا يهوذا الأشكريوث.

1- في خ/م: "يجر".
2- في خ/م: "يجز".
3- في خ/م: "بانيا".
4- في خ/م: "تحصل".
5- في خ/م: فعل".
6- في خ/م: "الحينه".

فانظر هل يستجرئ مجنون موسوس على أن يقول أن نوحا وإبراهيم الخليل وموسى الكليم ومن بينهم من النبيين مثل يعقوب وإسحق وغيرهما من الأبناء صلوات الله عليهم أجمعين كلهم في نار الجحيم والعذاب الأليم وفي السخط العظيم حتى صلب الإله نفسه وابنه فانظر، هل سب قط[1] الأنبياء بأقبح من هذه الشتائم؟ أو هل تجرأ أحد قط[2] أن يتقول[3] على الله، وعلى رسله مثل هذه العظائم؟ فسبحان الحليم الذي يمهلكم، والكريم الذي يرزقكم، ولكن إنما يعجل من يخاف الفوت، أو يجزع من الموت. ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[4].

ثم يلزمكم عليه أيضا نسبة الله تعالى[5] إلى الجور، وإلى أنه يأخذ بالذنب غير فاعله، ويعاقب على الزور غير قائله، وهذا الإلزام[6] يهون عليكم، إذ ليس للإله قدر عندكم، إذ قد صرحتم بأن آدم ظلمه، وأنه لا يمكنه[7] أن ينتقم ممن ظلمه واستهان بقدره.

فيا ليت شعري، لأي شيء لم يمكنه أن ينتقم من عبده العاجز عن ذلك؟ أم لأنه لا يقدر على عقاب أحد ممن هنالك؟ أم لحكمة[8] أنه يعاقب غير الجاني؟ أم لحكمة قتل ولده في جناية عبده؟

قاتلكم الله، ما أسخف عقولكم، وما أرك فروعكم وأصولكم، ثم أعجب من ذلك أنهم يقولون: "الكلمة هي الله، والله هو المسيح" ثم يقولون: "إنه لم يمكنه أن ينتقم من عبده العاصي الذي ظلمه، وإنما انتقم من إله مثله"

فانظر إلى هذا التناقض الشنيع، كيف يعتقدونه تارة: أنه هو، فيلزم عليه أنه هو المنتقم والمنتقم منه والمعاقب والمعاقب، وتارة يعتقدون: أن الإهانة والصلب لم يحل بلاهوته، بل حل بناسوته، وناسوته ليس بإله، فيلزم على هذا القول الآخر: أنه لم ينتقم من إله مثله، وكيف ما كان، فالتناقض لهم لازم والمحال.

1- "قط" ساقطة في ط.
2- في خ/م: "قط أحد".
3- في ط: "يقول".
4- سورة الزمر: الآية 60.
5- "تعالى" ساقطة في ط.
6- "الإلزام" ساقطة في ط.
7- في ط: "يمكن".
8- في ط: "بحكمة".

وهكذا يفعل الله بالجهال أهل الضلال، ثم انظر سخف جرأتهم على الكذب، وقولهم بالمحال من غير سبب، حيث قال:" فأخذوه وصلبوه فغار دمه في أصبعه"، وهذا لم يرد منه شيء في كتبهم، بل هو من كذبهم واختراعهم.

ولو كان هذا حقا، لكان أولى بالنقل من نقلهم: جعل الصليب على عنقه، وأنه رفع إليه: إناء خل ليشربه، وكتب على خشبته بالرومية والعبرانية والعجمية:" هذا ملك اليهود"[1] فهذا ولابد كذب وتواقح، فإن كابروا في ذلك على عادتهم، قلنا لهم: فأتوا بالإنجيل فاتلوه إن كنتم صادقين.

ثم انظر، كيف تناقض ذلك المتكلم على الفور في قوله:" لأنه لو وقع شيء من دمه على الأرض ليبست"، ثم إنه أثر ذلك قال:" إلا شيء وقع فيها نبت منه النوار"، فكيف يصح في عقل مجنون، فأحرى في عقل عاقل أن يتكلم بمثل هذا الهذيان، أو يستحل أن يتحرك له بذلك لسان، فإنه كذب فاسد متناقض، فلعمري لو أن شيطانا يتقول على ألسنتهم، وهو يريد الإضحاك بهم، ما بلغ منهم بأكثر مما بلغوا من أنفسهم بهذا القول السفساف، الذي اتفق العقلاء على فساده واستحالته من غير خلاف.

ولقد أحسن بعض عقلاء الشعراء في إفحام هؤلاء الأغبياء فقال:

عجبي للمسيح بين النصارى	وإلى أي والد نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا	أنهم بعد قتله صلبوه
فإذا كان ما تقولون حقا	وصحيحا فأين كان أبوه
حين حل[2] ابنه رهين الأعادى	أتراهم قد رضوه أم أغضبوه
فلئن كان راضيا بأذاهم[3]	فاحمدوهم لأنهم عذبوه
وإذا كان ساخطا[4] فاتركوه	واعبدوهم[5] لأنهم غلبوه

فقد جعلتم أنفسكم ضحكة العقلاء، حيث ارتكبتم كل قبيحة شنعاء، وما بالنا نطول الكلام مع من تبين عارهم ومحالهم للخاص والعام، فقدر هؤلاء القوم عند العقلاء، أحقر من قلامة في قمامة، وأخس من بقة في حقه، ولولا أن هذيانهم ومحالهم طبق الوجود، لما

1- مرقس15: 26.
2- في خ/م: "خل".
3- في خ/م: "باداهم".
4- في خ/م: "شاخطا".
5- في خ/م: "اعبدهم".

كان ينبغي أن يتكلم معهم من العقلاء موجود، فإن الكلام معهم مخل بالعقول، محوج لحكاية القبائح والفضول.

وقد قدمت في صدر الكتاب، ما يمهد العذر، ويزيل العتاب، وأنا استغفر الله العظيم[1]، الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأسأله التوبة من حكاية قبائحهم، وأسأله جزيل الأجر في إبداء فضائحهم.

مسألة في تركهم الختان

لا خلاف بينهم أن عيسى عليه السلام كان مختونا، وأن الختان من أحكام التوراة وثابت فيها، وإن أنكر ذلك متواقح جاهل، ذكرنا له نص التوراة.

قال في التوراة: "إذ حبلت امرأة وولدت ذكرا تكون نجسة سبعة أيام كما تكون أيام حيضتها، وفي اليوم الثامن يختن الصبي وتكون[2] نجسة تجلس مكانها ثلاثة وثلاثين يوما"[3]، وهذا نص لا إشكال فيه. ثم إن النصارى بتحكمهم واستهانتهم بالشرائع، تركوا العمل بذلك من غير أصل يعتمدون عليه، ولانسخ يثبت عندهم له، ومن ادعى منهم شيئا من ذلك، طالبناه بنص من الإنجيل، وليس لذلك من سبيل، غير التحكم بالقال والقيل.

وقد وجدت في كتبهم الفقهية، أنهم قالوا في تأويل حكم الختان، قولا أتوا فيه على التوراة بالباطل والبهتان، قالوا إنما عنى بالختان، نقاوة القلوب وصفاء النية وذهاب[4] الغلوفة، كالذي يقول الكتاب عن اليهود، إن رقابهم قاسية وقلوبهم غلف، ولذلك علمنا أن الله استقذر غلوفة القلب، وليس غلوفة اللحم، فما على الإنسان أن يختن لحمه، إذ لا منفعة له في ذلك. فمن شاء اختتن ومن شاء ترك، والأحسن أن تترك الأجساد تامة، غير ناقصة كما بها خلقنا الله تعالى.

هذا نص كلامهم في كتبهم. فانظر أيها العاقل إن كنت منصفا، ما الذي ارتكبوه من العظائم ،ونسبوه إلى الله ورسله من الشتائم.

فأولها: أنهم كذبوا على الله، حيث قالوا إنما أراد الله بهذه الحكم، إزالة غلوفية

1- "العظيم" ساقطة في خ/م.

2- في ط: "تكون".

3- اللاويين12: 1-4.

4- في خ/م: "ذباب".

القلوب، ولو كان ذلك حقا لبينه موسى للناس، ولما جاءهم بالختان ولما فعله، ولما فعل بيحيى وعيسى، وسائر الأنبياء الذين حكموا بالتوراة، ولم يزالوا يختتنون ويأمرون بالختان إلى زمان المسيح. ثم إن المسيح لم ينه عنه، ولا أمر بتركه. فهذا على الله ورسله كذب صراح وقول وقاح.

وثانيها: أنهم سفهوا أحكام الله ورسل الله، حيث قالوا: لا منفعة في ذلك. مع أن الله قد حكم به وشرعه، وبلغ ذلك أنبياؤه ورسله، وعلموه الناس. فكيف يجوز على الله وعلى أنبيائه، أن يتعبدوا الناس، بحكم لا فائدة له لا في الدنيا ولا في الآخرة، فهذا غاية الافتراء على الله وعلى رسله. ثم يلزمهم على ذلك، أن يكونوا عابثين في أفعالهم، وأن وجود[1] الشرائع وعدمها، بمثابة واحدة. وكذلك إرسال الرسل، وإنزال الكتب. ولا كفر أعظم من هذا.

ثم إنا نبدي فوائد الختان، حتى يظهر كذبهم وجهلهم، وتواقحهم لكل إنسان، ونقول في الختان فوائد كثيرة منها:

أولا: أنها عبادة في بدن الإنسان، إذا فعلها أثيب، وإن تركها عوقب، على القول بوجوبه. ولا فائدة أعظم من هذا.

وثانيا: أنه لا تتأتى[2] مع وجود الغلفة، مبالغة في النظافة، ومع زوالها يتأتى ذلك.

وثالثا: أنه ألذ في الجماع، وأسرع لمجئ شهوة الوقاع، ومع وجودها يكون أبعد للشهوة، وقد تكون الغرلة إذا طالت، مكسلة عن الإنزال.

ورابعا: أن خروج الماء الدافق من غير غلفة، وانزعاجه أشد. فإن الغلفة إذا طالت، ربما نقصت من انزعاجه وفترته. وإذا كان كذلك، وخرج الماء فاترا، قد لا يقع في المحل الذي تنعقد[3] فيه النطفة، فلا ينعقد الولد، ويكون هذا كالعزل. ومقصود الشرع في الغالب تكثير النسل.

فهذه أربع فوائد محققة، لا يتصور إنكارها. وقد لا يبعد أن يقصد الشرع جميعها، أو بعضها. فإذا[4] قد تبين أن النصارى كذبوا على الله وجهلوا شرع الله.

وثالثها: أنهم تركوا حكم الله بالتوهم، بل بالهوى والتحكم. وتأولوا من غير حاجة

1- في خ/م: "وجد".
2- في ط: "يتأتى".
3- في ط: "ينعقد".
4- في ط: "إذن".

للتأويل، ورفعوا النص والتنزيل، فهم أهل التحريف والتبديل. ثم العجب من كذبهم وظهور تناقضهم، حيث حكوا عن عيسى أنه قال: "لم آت لأنقض شريعة من قبلي وإنما أتيت لأتممها". فإن كان هذا القول حقا عندهم، فلأي شيء نقضوا شريعة من قبله حرفا حرفا، وإن كان كذبا فكفاك بذلك فسادا وخلفا.

ورابعها أنهم لما نقضوا حكم الله، فضلوا تحكمهم[1] وأهوائهم على شرع رسول الله، حيث قال والأحسن أن تترك الأجسام تامة، غير ناقصة. وهذه مبالغة في تسفيه موسى والنبيين، وفي تسفيه المسيح، فإنهم قد تركوا الأحسن، وفعلوا الأسوأ والأفسد، فاعتبر أحوالهم فما أعجبها، وجهالاتهم فما أغربها. مذمومون[2] وهم يتوهمون أنهم يمدحون، ويخالفون[3] ويظنون أنهم يتبعون[4]. ثم مع ظهور عوراتهم لكل عاقل، يتعرضون للشريعة الصحيحة، بكل جهل وباطل، ويموهون بخرافات وترهات لا يلتفت إليها عاقل. يظنون أن دين الإسلام، كدينهم المستند إلى الترهات والأوهام، التي لا يقبلها سليم الفطرة من العوام، وسنبين أصول دين الإسلام، ومستنداتهم في أحكامهم بحول الله، في الفن الثاني من هذا الباب، إن شاء الله تعالى.

مسأله في صيامهم[5]

قال حفص بن البر منهم، في بعض كتبه وقد سأله سائل عن صيامهم فقال: أول من صام الأربعين يوما موسى ابن عمران، وبعد ذلك صامها إلياس النبي، الذي رفعه الله في عصر بني إسرائيل، ثم بعد ذلك صامها المسيح. وأما العلماء فأكملوا ثلاثة وأربعين يوما، وإنما هي عشر أيام السنة، كما قال بولش الحواري في بعض رسائله، كما تؤدون العشرات من أموالكم، فأدوا العشرات من أبدانكم، فهذا هو الصيام المفروض.

اعلم يا هذا، أن هذا القس الذي هو[6] حفص هو من أكيسهم وأفصحهم، على أنه ليس في القوم رجل رشيد، ولا ذو عقل سديد، وإنما كان كذلك، لأنه قد ضربت عليه الجزية، ولزمه الصغار والذلة، إذ كان قد نشأ في ذمة المسلمين، وتعلم من علومهم ما فاق به

1- في ط: "بحكمهم".
2- في خ/م: يذمومون.
3- في ط: "مخالفون".
4- في ط: "متبعون".
5- في خ/م: "صياتهم".
6- "هو" ساقطة في خ/م.

النصارى أجمعين، ومع ذلك فإذا أخذ يتكلم في علوم النصارى وأحكامهم، تلجلج لسانه وقصر بيانه، لأنه ينزل على آرائهم الفاسدة وتحكماتهم الباردة.

وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر.

[يبين[1] لك[2] هذا]، أن كلامه في هذا الفصل فاسد، واحتجاجه بارد[3]، وذلك أنه ادعى أن صوم الثلاثة والأربعين واجب، وحين أخذ يستدل على وجوبها استدل على وجوب الأربعين، ثم أخبر أن علماءهم زادوا من عند أقستهم[4] ثلاثة أيام.

فنقول له[5] وهذه الثلاثة الأيام التي ادعيتم وجوبها، هل علم موسى وعيسى، ومن بينهما من الأنبياء، أنها من فرض الصيام، أو لم يعلموا؟ فإن كانوا قد علموا، فلأي معنى لم يبلغوا، ولم يبينوا؟ ويلزم تعصية[6] الأنبياء من وجهين: من حيث إنهم لم يصوموا ما هو فرض الله، ومن حيث لم يبلغوا الشرع. وذلك محال عليهم. وإن كانوا لم يعلموا وجوب هذه الأيام الثلاثة، فمن أين علم الجهال أمثالكم وجوبها، والأحكام إنما تستند إلى أقوال الأنبياء وكتبهم.

فإن قالوا: أوجبها بولش الحواري. قلنا: ذلك هو الذي أفسد عليكم أديانكم، وأعمى بصائركم وأذهانكم. ذلك هو الذي غيّر دين المسيح الصحيح، الذي لم تسمعوا له بخبر، ولا وقفتم منه على أثر، على ما تقدم. هو الذي صرفكم عن القبلة، وحلل لكم كل محرم كان في الملة. ولذلك كثرت أحكامه عندكم، وتداولتموها بينكم.

ويدلك على ذلك، أنك إذا سمعت له قولا في حكم، فتكاد لا يجده[7] إلا مغيرا للأحكام المتقدمة، مخالفا لها. فتارة يزيد، وأخرى ينقص، وأخرى يرفع. يعرف هذا من وقف على كتبهم، وعلى ما ينقلون عنه. ثم لو سلمنا أنه لم يفعل شيئا من ذلك، لما كان ينبغي لكم أن تأخذوا بقوله، وتتركوا فعل موسى وعيسى وإلياس وقولهم.

وهل فعل ذلك إلا جهل، لا ينبغي أن يصار إليه، ولا يلتزمه أحد حكما عليه. فإن

1- في ط: ما ورد بين المعقوفتين جاء مكانه: نبين لك يا هذا.
2- "يا" ساقطة في خ/م.
3- في خ/م "سارد".
4- في ط: "أنفسهم".
5- في ط: "لهم".
6- في ط: "معصية".
7- في ط: "تجده".

المبلغين عن الله، المبينين لشرع[1] الله، إنما هم موسى، وعيسى، ومن تنزل منزلتهم، وباتفاق منكم أن بولش ليس منزلا منزلة موسى، ولا منزلة عيسى، وغايته إذا سلم مما ذكر عنه في كتاب[2] التواريخ، أن يكون حواريا، لم تكثر صحبته لعيسى. بل صحبه أياما قلائل بدعواه، وليست صحبته له كصحبة متاؤوش[3]، ولا يحيى[4]، ولا أحد من الأحد عشر حواريا.

لو[5] سلمنا أنه صحبه صحبتهم، فعله[6] ارتد بعد رفع عيسى كما فعله الأشكريوث بزعمكم. ثم لو سلمنا أنه لم يرتد، فمن أين يلزم إتباع حكمه؟ ولا سيما إذا غير الأحكام المتقدمة، وحكم بخلافها. وليس بنبي ولا رسول. فإن قلتم إنه نبي، فقد قدمنا ما يكذب قولكم، ويرد عليكم زعمكم، فقد تبين من هذا، أن حفص بن البر على جلالة قدره عندهم، قبل ما كان ينبغي له أن يرد، ورد ما كان ينبغي له أن يقبل. فإنه رد فعل موسى وعيسى وإلياس، وقبل قول عامة الناس، فهو وهم من الأخسرين أعمالا ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[7].

ولو تتبعنا أحكام صيامهم لأظهرنا فيها كثيرا من هذيانهم، فلنأخذ من كل باب مسألة واحدة بحول الله وحسن عونه.

مسألة في أعيادهم المصانة

قال حفص: أما بعد، فإن الذي أردت علمه من الأعياد السبعة التي أمر القانون بصيانتها، فهي معروفة. فأول يوم منها: إذ بشر جبريل الملك مريم بإيلاد المسيح. واليوم الثاني: إذ ولد المسيح. والثالث: إذ ختن إلى ثمانية أيام. والرابع: إذ ظهر للهجين[8]. وأهدوا إليه ذهبا، ولوبانا ومرا، وهو يوم النجم. والخامس: يوم الفصح، إذ قام عن القبر.

1- في ط: "شرع".
2- في ط: "كتب".
3- في خ/م: "متا".
4- في ط: "يوحنا".
5- في ط: "ثم لو".
6- في ط: "فلعله".
7- سورة الكهف، آية: 104.
8- وهم المجوس.

والسادس: إذ تخطفته السحابة، ورقى إلى السماء بمحضر الحواريين. والسابع: إذا نزل روح القدس على الحواريين، وتكلموا بجميع الألسن.

وأما غيرها من الأيام التي استشهد فيها الشهداء، ويصونها الناس، ويتصدقون فيها على المساكين والضعفاء، فواجب على كل ذي عقل، أن يصونها إما في مدينة وإما في قرية.

فنقول له ولهم: هذه الأيام المصانة عندكم، هل[1] صيانتها واجب عندكم بالشرع، أو ليس واجبا بالشرع؟ فإن قالوا: ليس بواجب بالشرع، قلنا لهم: فلأي معنى تعملونها، وتلتزمون صيانتها؟ حتى أن من كان في قرية، أو في موطن، لا ينبغي له أن يرتحل عنه، حتى يتمها. فقد التزمتم ما ليس بلازم، وأوجبتم ما ليس بواجب. فإن قالوا: هي واجبة بالشرع. قلنا لهم: بأي شرع وجبت؟ بشرع موسى أو شرع عيسى؟ فإن قالوا بشرع موسى كذبوا، وقلنا لهم: ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2]، ولا شك في أنهم لا يجدون شيئا منها في التوراة، ولا في الإنجيل. وغايتهم أن يقولوا: ما قال عالمهم حفص: هذه أيام شريعة، لأنها اتفق فيها أمور شريفة من أحوال المسيح.

فنقول لهم: هب أنه اتفق ما تقولون. فمن أخبركم من الأنبياء، أنه إذا اتفق أمر من تلك الأمور، فافعلوا كذا، واصنعوا ذلك[3] اليوم عيدا؟ أو[4] في أي كتاب من كتبكم وجدتموه؟ ولا شك في أنهم لا يجدون شيئا مما ادعوه؟ فلم يبق لهم إلا محض التحكم. ثم يلزمهم على مساق هذا، أن يبحثوا عن أيام عيسى، وعن عددها، ويتخذوا تلك الأيام أعيادا، فإن أيامه كلها ومحاضره كانت شريفة، إذ كانت أيامه لا تخلو عن كرامة يكرمه الله بها، وعن بركة من بركاته، وعن معجزة من معجزاته. فلأي معنى خصصتم تلك الأيام؟ لولا محض الهوى[5] والتحكم الباطل، ثم نقول لهم: هل كان عيسى يعلم فضيلة هذه[6] الأيام أو لا يعلم؟ فإن كان يعلمها، فلأي معنى لم يفعل فيها ما تفعلون. أو لأي معنى، لم يبين شرعه فيها، لو كان له فيها شرع؟ وإن لم يعلم فضيلتها، فكيف لم يعلم هو ما علمتم أنتم؟ ثم كيف يجهل شيئا علمتموه أنتم، وهو عندكم قد اتحد به علم الله؟

1- في خ/م: "هي".
2- سورة آل عمران، آية: 93.
3- في خ/م: "تلك".
4- في ط: "و".
5- في خ/م: "الهدى".
6- في ط: "تلك".

فحصل من هذا، أنها ليست فاضلة، ولا لله فيها حكم، إذ لو كانت فاضلة لله، فيها حكم لعلمها، ولو علمها لبينها. فلما لم يعلم ولم يبين، عُلم أنه ليس لله فيها شيء مما اخترعتموه. لكنكم تحكمتم باختراع ما جهلتم، وشرعتم ما لم يشرع لكم نبيكم. فإن قالوا: هذه أيام اتخذناها لفعل الخير، نتصدق فيها على مساكيننا، ونطعم فيها جياعنا. وهذه أفعال خير، وبهذه جاءت الشرائع كلها.

قلنا لهم: لا ننكر أن الشرائع جاءت بإعانة المساكين، [لكن لم خصصتم لها أياما بالتحكم، ثم أوجبتم صيانة تلك الأيام؟ أو لأي شيء، لم تقولوا أنه ينبغي إطعام المساكين][1] أبدا، وسد خلاتهم متى ظهرت؟ ولم تحتاجوا إلى وضع أحكام بالتوهم، ولو كنتم موفقين، لسلكتم مسلك أتباع المسيح، تفعلون ما فعل، وتتركون ما ترك. ولو فعلتم ذلك لكان موافقا لتعظيمه.

ولو فرضنا عبدين أمرهما سيدهما بالإقتداء به، وباتباع سنته، فأخذ الواحد منهما يقفو أثر سيده في أفعاله، فلا يزيد فيها ولا ينقص منها، بل هو مواظب عليها غير خارج عنها، ولا زائد فيها، وهو مع ذلك معتقد لتعظيمه، محب له. وأخذ الآخر يزيد تارة في حكم، وينقص تارة من حكم، وهو مع ذلك معظم لسيده. فلو فرضنا أن السيد قال للأول: ما صنعت فيما أمرتك؟ فقال: له لم أزد على ما رأيتك تفعل، ولا نقصت لأني خفتك، وأيضا فإني أحبك وأعظمك، فأحببتك وأحببت فعلك الذي رأيتك تفعله، فلا شك أن العقلاء يستحسنون هذا الفعل، ويرون أن هذا العبد، في أعلى درجات العقل، والطاعة لسيده والمحبة له والتعظيم. وإن مثل هذا ينبغي للسيد أن يعتقه ويثيبه.

وأما الثاني: فإذا قال له سيده: ما فعلت فيما أمرتك؟ فيقول: فعلت ما رأيتك تفعل، وما أمرتني به، إلا أني زدت أفعالا لم تأمرني بها، ونقصت أيضا، فإني تركت أفعالا رأيتك تفعلها. فيقول له: لأي شيء زدت ما لم آمرك به، ونقصت مما رأيتني فعلت؟ فلا يصح له أن يقول: لأني عظمتك وأحببتك، فإن هذا لا يناسب تعظيمه، ولا محبته. بل يناسب بغضه وإهانته. فلا شك أن العقلاء، يحكمون أن مثل هذا العبد، لم يطع سيده في جميع ما أمره به، وأنه كاذب في تعظيمه ومحبته، وأنه مستوجب لنكال سيده.

1- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

وهذا المثال الأخير، هو مثالكم مع المسيح. فإنكم تدعون تعظيمه، وتخالفونه في أفعاله، وتزيدون عليه في أحكامه. فأنتم مستحقون لتوبيخه، وعقاب مرسله، وستجمعكم مع من شرع لكم هذه الأحكام نار حامية تسمى الهاوية.

مسألة في قربانهم

قال حفص: "اعلم أن الذي أردت معرفته من خبر القربان وشرحه.

أن الأنبياء وبني إسرائيل، كانوا يقربون القربان على ما تحكيه التوراة: العجول والجزر والخرفان. فأما ملكي[1] صادق، فإنه أول من قرب القربان من الخبز والخمر[2]، وكان قسيس الله في البدء، وإليه أدى[3] إبراهيم العشرات المفروضة[4]. وقد حكى داوود النبي في الزبور، خبر ملكي[5] صادق، إذ بشر بالمسيح سيدنا، وأنزله منزلته وأحله محله، وجعله قسا في[6] الأبد. فقال الرب: "أقسم يمينا، ليس[7] يقدم[8]، أنت أبدا قسيس[9] في خطة القسيسين، على رتبة ملكي[10] صادق"[11]. فأما الحواريون وأتباعهم، فإنهم فرضوا هذا القربان، الذي يقدسه الأساقفة والقساوس على المذبح، من الخمر والخبز على ما تقدم من فعل ملكي[12] صادق. وكما قال المسيح في الإنجيل: "من أكل لحمي وشرب دمي، كان في وكنت فيه وأنا[13] الخبز النازل من السماء فمن أكلني يحيا بي"[14].

انظر ما أعجب حال هؤلاء في تركهم شرعية التوراة، في قربانهم[15] وعدولهم عنها إلى

1- في خ/م: "ملك".
2- في خ/م: "الخبر".
3- في خ/م: "ودى".
4- سفر التكوين14: 18-20.
5- في خ/م: "ملك".
6- في ط: "إلى".
7- في ط: "وليس".
8- في ط: "يندم".
9- في ط: "قسيس لي".
10- في خ/م: "ملك".
11- المزمور110: 4.
12- في خ/م: "ملك".
13- في ط: "أما".
14- يوحنا6: 56.
15- في ط: "القربان".

ما هو ضرب من الهذيان؛ وذلك أن الله[1] افترض القربان في التوراة بالعجول والجزر والخرفان، كما ذكر. وعملت بذلك بنو إسرائيل من غير تغيير ولا تبديل، إلى مدة هؤلاء المغيرين لأحكام التوراة، فغيروا وبدلوا وعدلوا إلى الخبز والخمر، من غير أن ينسخ لهم عيسى شيئا من ذلك، ولا بدله بغيره. لكنهم يكرهون العمل بأحكام التوراة، فيعدلون عنها إلى العمل بأهوائهم، مع أنهم متعبدون بأحكامها، إذ الأحكام في الإنجيل قليلة جدا. ولم يتركوا لآرائهم حتى يتحكموا بأهوائهم، ثم إنهم يتحكمون بآرائهم، فإن اتفق لهم شيء يتمسكون به كان ذلك مؤكدا لأغراضهم. وإن لم يتفق لهم ذلك، استغنوا عنه وحكموا بأغراضهم. ويبين هذا أنهم استغلوا[2] العجول والجزر والخرفان، لارتفاع أثمانها، لأنه[3] لا يوجد فيها ما يوجد في الخمر من اللذة والطرب الداعين إلى شربها.

ولذلك عدلوا للخمر مع خفة مؤنتها، وقلة ثمنها، فإنهم أشد الناس بُخلا. فإن قيل لهم: بأي شيء عدلتم عن قربان التوراة؟ قالوا: لأن ملكي[4] صادق أول من قرب الخمر والخبز، ولأن المسيح قال: من أكل لحمي وشرب دمي، كان في وأنا فيه". ولأن الحواريين فرضوا هذا القربان.

هذا غاية ما يحتجون به، ولا بد من تتبع ذلك وبيان تحكمهم وباطلهم فنقول:

أما قولكم بفعل ملكي[5] صادق فباطل من أوجه:

أحدها: أنه لم يكن نبيا، فإن ادعيتم أنه نبي، فلا بد من الدليل على ذلك، فعليكم إثباته. ولو سلم ذلك، لتبقى عليكم أن تثبتوا أن شرعه، شرع لكم. ولو سلم أن شرعه شرع لكم، لكان ينبغي لكم[6] أن تعلموا أن التوراة قد نسخت ذلك الشرع، إذ قد استقر أن موسى عمل بخلافه، وكذلك الأنبياء بعده. ولو كان ذلك الحكم باقيا صحيحا، لما كان ينبغي لموسى أن يعدل عنه، ولما جاءكم بغيره. فترككم التوراة، التي أنتم مخاطبون بأحكامها وشرعها، إلى مالم تخاطبوا به، ولا شرع لكم، استهانة بشرع التوراة وأحكامها،

1- في ط: "الله تعالى".
2- في ط: "استثقلوا".
3- في ط: "وأنه".
4- في خ/م: "ملك".
5- في خ/م: "ملك".
6- في ط: "لكم" ساقطة.

بل استخفاف بالذي أنزلها، وبالذي أنزلت عليه. فقد بطل استدلالكم بفعل ملكي[1] صادق من أوجه.

وأما استدلالكم بقول عيسى، فهذيان لا يلتفت إليه، لأنه إنما أراد: من عمل بعملي، أو تعلم من علمي، أحببته وأحبني. وما ذكره مثل محسوس، قصد به التنبيه على معنى معقول، ودليل ذلك من قوله[2]: "أنا الخبز النازل من السماء"، إنما أراد أنه بمنزلة الخبز الذي يغتذي به، لأنه قد جاء بغذاء الأرواح وبخبزها، وهذا استعارة حسنة مستعملة. وكثيرا ما يقال في الكلام: العلم والمعاني الشريفة خبز الأرواح، كما أن الطعام المعروف خبز الأشباح.

ولكلامه عليه السلام محامل[3] آخر، وتأويلات جارية غير ما ذكرتم، يجوزها العقل، ولا يبعدها استعمال اللفظ. لا يخرج شيء منها إلى الهذيان، الذي صرتم إليه، الذي أفضى بكم لجهلكم، [إلى ترك حكم الله والعمل بمقتضاه][4]. ولولا التطويل لذكرنا منها وجوها،، وبهذا اللفظ وما يشبهه ضللتم حيث قلتم بالاتحاد، ولم تفهموا منه المراد، فكابرتم العقول وحرفتم المنقول، وحملتم من الشناعة والقباحة، مالا يرضى به عليم ولا جهول، وقد ذكرنا إبطال ذلك فيما تقدم.

وأما استدلالهم بفعل الحواريين، فذلك من فن الكذب عليهم أجمعين، ولو سلمنا أنه صحيح وصدق، لما كان في فعلهم حجة. مع[5] إن كتاب الله[6] يخالف فعلهم، بل الحجة كتاب الله، ولا يرتفع شيء من ذلك، إلا إذا بين عيسى عليه السلام أنه منسوخ، ويبلغكم ذلك عنه بنص، قاطع على شروط النسخ على ما هو معروف عند أهله. بل قد أوردوا في إنجيلهم، أن عيسى قال للمبروص الذي شفاه الله[7]: "امض وأعرض نفسك على القسيسين، واهد قربانك الذي أمر به موسى في عهده"[8].

1- في خ/م: "ملك".
2- في ط: "قوله" مكررة.
3- في ط: "عامل".
4- في ط: "إلى ترك حكم وترك العمل بمقتضاه".
5- في ط: "بل".
6- في ط: "الله تعالى".
7- في ط: "الله" ساقطة.
8- متى8: 4.

وهذا نصٌ، على أن القربان عند عيسى، إنما هو الذي حكم به موسى، وهو العجول والجزور[1] والخرفان، لا كما شرعتم أنتم من الهذيان.

فقد حصل من هذا أنكم خالفتم عيسى، وقلتم عليه البهتان. وأما استدلالهم بفعل القسيسين، فأولئك المغيرون للدين، والمحرفون لكتاب رب العالمين.

كدينك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل[2]

فقد ظهر من هذا، أنهم تركوا قربان التوراة لغير شيء. وأنهم على غير شيء، فعليهم لعنة كل ميت وحي.

مسألة في تقديسهم دورهم وبيوتهم بالملح

قال حفص: "أما الملح الذي نقدس به الدور والبيوت. وأردت فهم ذلك، فإنا وجدنا في سير إلياس النبي، الذي رفعه الله، أن تلميذه اليسع، مكث بمدينة أريحا زمانا، فقال له أهلها: إن عندنا عينا جارية، تنفجر منها مياه كثيرة مرة، لا نفع فيها، فأمر أن يؤتى إليه بإناء حديد[3]، فأدخل فيه الملح، وقدس به ماء العين[4]. فمن هذا السبب، صرنا نقدس الدور والبيوت بالملح المقدس، بعد مايتلو عليه القساوس آيات من النبوة.

فنقول لهم: يا هؤلاء المتلاعبون بأديانهم، المستمرون على هذيانهم، كيف جعلتم مثل هذا دليلا، على ثبوت حكم عليكم؟ وليس فيه دليل من وجوه كثيرة، لكنا نقتصر من ذلك، على نكتة كافية. وهي أن اليسع، لم يفعل ذلك على جهة بيان أنه حكم،، وإنما فعل ذلك على جهة إظهار الكرامة والمعجزة. فإن ذلك الماء عذُب وطاب، فظهرت كرامته ومعجزاته. كما ظهرت على عيسى، حين مس المبروص وبرأ. وكذلك مس الأعميين فأبصرا، إلى غير ذلك. وقد حكيتم في بعض أناجيلكم، أن أعمى سأل من عيسى أن يرد عليه بصره، فأخذ قطعة من طين، فجعلها في عينه فأبصر. وهذا بمثابة ما فعل اليسع، فكان ينبغي لكم، أن تقدسوا دوركم بالتراب والطين. كما فعل عيسى، وهو أولى بكم. إذ هو مفضل عندكم على اليسع وغيره بزعمكم.

1- في ط: "الجزر".

2- البيت من معلقة امرئ القيس: "قفا نبك من ذكري حبيب".

3- في ط: "جديد".

4- الملوكالثاني2: 19 وما يليها.

ومع ذلك فتركتم الإقتداء به، واقتديتم بمن هو دونه. وذلك عكس ما كان ينبغي لكم. وهذا نتيجة جهلكم، ومن سوء فعلكم.

مسألة في تصليبهم على وجوههم في صلاتهم

قال حفص: إنما نصلب على وجوهنا، لأنا وجدنا في كتب علمائنا السالفين، أنه لما أراد ملك قسطنطينية، أن يغزو بعض أعدائه، تراءى له في السماء صورة صليب من لهب، وملك من الملائكة يخاطبه ويقول له: إن كنت تريد غلبة أعدائك، فاجعل هذه الصورة علامة تكون قدامك، فإنك غالب ظافر بها على جميع أعدائك، فآمن وفعل كما قال له الملك، وهو الذي بحث وكشف عن صليب المسيح حتى وجده مدفونا، وعمل من المسامير التي كانت فيه لجاما لفرسه، وزين جبينه بصليب من ذهب، فلم يزل من حينئذ أهل ملة المسيح، يستعملون هذه العلامة، لأنها علامة السبق والظفر.

هذا الذي ذكره حفص هنا، يصدق ما حكيناه عن قسطنطين فيما تقدم. فإن كذبنا منهم أحد[1] فيما ذكرناه عنه فليكذب أسقفه حفصا.

على أن ما ذكرناه مشهور عند أهل التاريخ، الذين اعتنوا بنقل أخبار الأزمان الماضية والقرون السالفة.

وبعد هذا نقول لمن استدل على أن التصليب[2] مشروع لهم، من أين عرفت صدق قسطنطين فيما حكاه وقاله؟ ولعله كذب، وأراد به بذلك إصلاح رعيته وحالته، وإيغار صدور العامة على من خالفه، وذلك داخل في باب السياسات التي[3] يسلكها من لم يتقيد بالشرعيات. وكثيرا ما يشاهد من الملوك مثلها.

ثم لو سلمنا أنه صدق في رؤياه، فمن أين علم أن الذي كلمه ملك، فلعله شيطان قصد إضلالكم. وكذلك كان، حتى تعتقدوا الصلوبية، التي هي أعظم كل بلية، وتحمل على العصبية. ثم لو سلمنا أنه ملك، فلأي معنى جعلتم ذلك التصليب في صلاتكم، وزدتم على ما علمكم عيسى؟

ولقد كان ينبغي لكم، أن تفعلوا في الصلاة مثل فعله، ولا تزيدوا على ذلك. ثم يلزمكم على ذلك، أن يقال لكم: لا يخلو ذلك التصليب، أن يكون حكما من أحكام الصلاة أو لا

1- في ط: "أحد منهم".
2- في ط: "الصليب".
3- في خ/م وكذا في ط: "إلى" وهو تصحيف لأن المعنى لا يستقيم.

يكون، فإن كان حكما، ولم تنقلوه عن عيسى ولا أنه علمه لكم، فقد نسبتم[1] عيسى إلى أنه كتم حكم الله، ولم يبلغه. وهذا محال على عيسى، وعلى كل رسول أرسله الله إلى أمة. وإن قلتم: أنه ليس بحكم، فلم تفعلون في الصلاة ما ليس بحكم شرعي. وإن قلتم: شرعه لنا أئمتنا وأساقفتنا، قلنا لكم: ومن جعل لأئمتكم أن يتحكموا في شرع الله، ويفتروا على الله، وهم مذنبون عاصون، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا عطاء ولا منعا؟

ثم نقول لهم: هذه الصلاة التي يصلب فيها على الوجه، أفضل أم الصلاة التي لا يصلب فيها؟ فإن قالوا الصلاة التي يصلب فيها، فيلزمهم[2] على هذا أن تكون صلاتهم أفضل من صلاة المسيح، وكفى هذا شناعة وحماقة. وإن كانت الصلاة التي لا يصلب فيها، هي الأفضل. فينبغي ألا تفعلوا مالا فضيلة فيه. وهذا كله، يبين أن هؤلاء القوم، لا يعولون على الأنبياء في أحكامهم، ولا يرجعون إلى قوانينهم، بل يعولون على أغراضهم وشهواتهم.

فلقد تمكن الشيطان منهم، فأضلهم حتى استدرجهم عن الشرائع وأزلهم.

فهذه المسائل التي ذكرناها، هي من معظم قواعدهم وأصولهم. وإذا كان عملهم في هذه القواعد، مثل ما رأيت. فناهيك بفروعهم، ولنقتصر على ما ذكرنا، إذ فيه تنبيه على ما لم نذكر، ثم إن أحوجونا إلى مزيد، تتبعنا كبار كتبهم، بأن ننقضها حرفا حرفا، ونبين فسادها لفظا لفظا.

بقيت علينا مسألة واحدة، وهي بيان اعتقاداتهم في الدار الآخرة، وعذابها ونعيمها، وبها اختتام هذا الفن، إن شاء الله[3].

مسألة في قولهم في النعيم والعذاب الأخراوين

قال صاحب كتاب المسائل: لسنا ننتظر في المكافأة الإلهية، شيئا من الأرضيات الفانيات، كالذي ينتظره شيعة "ملسيان"، ولا تزويج العرائس كالذي يشتهيه "جرنش" و"مركش"، ولا ما ينتسب إلى المأكول والمشروب، كالذي يسوغه "بابيه" وجماعة، ولا ننتظر[4] أن يكون ملك المسيح في الأرض ألف سنة بعد القيامة، ليمتلك الصالحون معه

1- في خ/م: "سبتم".
2- في ط: "فيلزمكم".
3- في ط: "الله تعالى".
4- في خ/م: "ينتظر".

متنعمين كتعليم "قابوش"، الذي خيل بقيامتين: الأولى للصالحين، والثانية للكافرين، فقال إن ما بين هاتين القيامتين، [تمسك الأحباس][1] الجاهلة بالله، في زوايا الأرض في أجسامهم، ثم يحملهم الشيطان، بعد تملك الصالحين في الأرض ألف سنة، على محاربة الصالحين المتملكين، فيدفعهم الله عنهم، بأمطار النيران محاربا عنهم، فيموتون هكذا مع سائرهم الذين ماتوا في الكفر، ثم يحيون في لحم غير متغير للعذابات[2] الدائمة.

قد بين هذا المتكلم الحاكي، خبط النصارى واختلاف فرقها في هذه المسألة، بما أغنى عن البحث عن كثير من فرقهم، على أن فرقهم لا تنحصر، واختلافهم لا ينضبط، فإن اختلافهم كاختلاف المجانين إذا اجتمعوا، فكل واحد منهم يتكلم بما لا يعقل، وما لا حجة له عليه ولا معول.

لكن مذهب جماهيرهم ومعظمهم، ومن ينتسب إلى التدين منهم، أن الخلق لابد أن يجتمعوا في القيامة، وأن عيسى يحاسبهم[3]، فينعم ويعذب، لكن ليس عذابا بنيران وسلاسل وأغلال، وغير ذلك مما نعتقده نحن، وليس نعيما أيضا بمأكول ومشروب والتذاذ بنكاح.

ويشبه -والله أعلم- مذهبهم في هذه المسألة، مذهب الفلاسفة. حيث ينكرون العذاب المحسوس والنعيم، ويصرفون ذلك إلى الالتذاذ الروحاني، لكنهم لا يصرحون به، كما تصرح به الفلاسفة، إذ لا يقدرون على تبيين أغراضهم لقصورهم. ونحن نتكلم هنا مع من ينكر ذلك من المتشرعين، فإنهم قد اجتمعوا على إعادتنا كما كنا أول مرة، إذ قد اجتمعت على ذلك الشرائع كلها من غير اختلاف بينها فيه.

فنقول لمنكر ذلك: لا يخلو أن ما تنكره ،إما من جهة العقل، أو من جهة الشرع. فإن قال: من جهة العقل، قلنا له: كذبت وأخطأت، فإن العقل لا يدل على استحالة ذلك، بل يدل على جوازه، إذ ليس في ذلك، إلا أن الذي خلقنا أول مرة ،ومكننا أن نتنعم نعيما محسوسا، ونتألم ألما محسوسا، قادر على أن يعيدنا بعد أن يفنينا كما بدأنا.

فإن الإعادة إنما هي خلق ثان، ومن قدر على الخلق الأول، قدر على الخلق الثاني. وهذا معلوم بنفسه، فهو إذن فعل ممكن في نفسه، ليس من قبيل الممتنع. والله تعالى قادر

1- في خ/م: "تنسك الأجناس".
2- في خ/م: "العذابات".
3- في ط: "محاسبهم".

على كل ممكن، فيجب وصفه بالقدرة على ذلك، فإن قالوا: إن كان في الجنة، أكل، وشراب، ونكاح، ولباس، فيلزم عليه أن يكون في الجنة غائط، وبول، وولادة، وتمزيق الثياب وتخريقها.

وكل ذلك محال أن يكون في الجنة. قلنا: هذا جهل، ولا يلزم شيء مما ذكرتم فيها، بل نقول: هناك أكل وشرب، وليس هنالك غائط ولا بول، وهذا غير منكر. إذ لا يلزم في كل طعام أن يكون له فضلة، ولو سلمنا أن تكون له فضلة، لما لزم أن يكون فضلة مستقذرة، بل قد تكون فضلات كثيرة، طيبا يتطيب به، وشرابا يشرب، مثل المسك، فإنه دم حيوان أو رجيعه، أو العسل فإنه فضل حيوان معروف، وليس شيء من ذلك مستقذرا، بل هو مستطاب مستلذ، ولا يبعد أن تكون فضلات الجنة هكذا، بل هو هكذا.

وقد جاءنا على لسان الصادق، أن أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون، إنما هو عرق يجرى من أجسادهم مثل المسك.

وأما الحمل فلا يلزم شيء منه، إذ قد نجد من النساء العواقر، وهن اللواتي لا يلدن، فكذلك نساء أهل الجنة لا يلدن ولا يحضن.

وأما اللباس فلا يتمزق ولا يفنى، وفي لباس بني إسرائيل في المفاز، دليل على بطلان ما تخيل[1] هذا السائل، فالذي يبقى الثياب إلى مدة، قادر على أن يبقيها أبد الآبدين.

وهذه أمور لا ينكرها إلا كل غبي جاهل، ليس له معقول حاصل، فإذا دل العقل على جوازه، فينبغي أن يستدل على وقوع ذلك ووجوده، بكلام الصادقين صلوات الله عليهم أجمعين، فنقول لمنكر ذلك شرعا:

لا يصح لك أن تستدل على إنكارك بشيء من كلام الأنبياء، إذ لا تجده. بل سنريك نصوص كلامهم على إثباته.

منها أن من المعلوم، أن آدم عليه السلام، كان يأكل في الجنة ويشرب وينكح، فإن قالوا الجنة التي كان فيها آدم قبل هبوطه إلى الأرض، إنما كانت في الأرض، وهي جنة عدن، التي قال فيها في التوراة: "وغرس الله فردوسا بعدن من قبل وأسكنه آدم"[2].

وإنما كانت تلك بستانا من بساتين الدنيا، قلنا ليس في التوراة نص قاطع، يدل على

1- في ط: "يخيل".
2- التكوين2: 15.

أن الجنة التي يرجع الناس إليها يوم الجزاء، ليست هي التي أسكن الله فيها آدم. بل التوراة محتملة لذلك وأما كتابنا فيدل على أنها هي.

ثم لو سلمنا أنها ليست هي، لحصل لنا من ذلك، دليل جواز الأكل والشرب، والنكاح في الجنة، فإنه كما جاز أن آدم، أكل وشرب فيها، كذلك يجوز أن يأكل ويشرب، وينكح في الجنة التي يرجعون إليها، وهذا بين بنفسه عند المنصف[1].

ومنها: أن في الإنجيل: "أن المسيح قال لتلاميذه ليلة أكل معهم الفصح، وقد سقاهم كأسا من الخمر، وقال لهم: إني لا أشربها معكم أبدا، حتى تشربوها معي في الملكوت، عن يمين الله"[2]. وهذا نص لا يحتمل التأويل، إلا مع ضعف. وفيه أيضا في قصة العازر، الذي كان مطروحا على باب الغني، والكلاب تلحس جراح قروحه، وأن ذلك الغني، نظر إليه في الجنة متكئا على حجر إبراهيم الخليل، فناداه الغني وهو في النار، يا أبي إبراهيم: ابعث العازر إلي بشيء من ماء، أبل به لساني"[3]، وهذا نص آخر أبين من الأول.

وفيه أيضا أنه قال لليهود: "يا ثعابين بني الأفاعي كيف لكم والنجاة من عذاب النار"[4].

وفيه أيضا أن الجماعة قالت للمسيح بكفر ناحوم[5]: "متى جئت إلى هنا يا معلم؟ فقال لهم: آمين آمين أقول لكم: [لا أواكلنكم الخبز لما رأيتم من عجائب][6]، فارغبوا في طعام لا يفنى في الجنة الدائمة"[7].

وفيه أيضا، أنه قال لتلاميذه في وصية وصاهم بها: "لتطعمن ولتشربن في مائدتي في ملك الله"[8].

وفيه أيضا، أنه قال لليهود: "إن كان موسى أطعمكم خبزا في المفاز، فأنا أطعمكم خبزا سماويا"[9]، يريد الجنة.

1- في خ/م: "المصنف".
2- متى26: 29.
3- لوقا16.
4- لوقا3: 7.
5- في خ/م: "قفر ثاوم".
6- في ط استبدل ما كتب بين معقوفتين بـ: "تطلبونني ليس لأنكم رأيتم عجائب بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم".
7- يوحنا6.
8- لوقا22: 30.
9- يوحنا6.

وقال إشعياء: "يا معشر العطاش، توجهوا إلى الماء الورد، ومن لا فضة له[1]، فليذهب ويأكل[2] ويشرب، ويأخذ من الخبز واللبن بغير فضة ولا ثمن"[3].

وهذا كثير في كتب الأنبياء، بلا شك ولا امتراء. فإن قالوا: فلأي معنى لم يصرح موسى في التوراة بذلك، وبأخبار القيامة؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، وعلى سبيل التنبيه تحتمل وجوها.

أحدها: لعتو بني إسرائيل وتمردهم ولكلال أفهامهم.

ثانيها: لبعد زمان ذلك.

ثالثها: ليعجل لهم جزاء أعمالهم، فإنما كانوا يهددون ويخوفون بالعقوبات العاجلة، ويوعدون باللذات العاجلة، من الملك وتكثير الرزق وخصب البلاد إلى غير ذلك.

رابعها: لأنه قد كان سبق في علم الله تعالى، أنه يرسل رسولا في آخر الزمان، ليس بعده نبي ولا رسول، يبين أمور الآخرة بيانا شافيا، وهو محمد رسول الله، وذلك لقرب القيامة من زمانه، وليحصل لنبينا من فضيلة العلم والأعلام، ما لم يحصل لأحد غيره ولتختص أمته بعلم ليس لأحد غيرها. وهذا الوجه هو أقرب الوجوه والله أعلم.

ويدل على ذلك قوله في التوراة، حين بشر بنبينا عليه السلام، وذكر كثيرا من علاماته، ومعه كتاب ناري، وقد تقدم ذكر ذلك، والدليل عليه أيضا، أنك لا تجد عند أمة من الأمم، من أخبار القيامة [وأخبار الجنة والنار والصراط والميزان والحوض وغير ذلك في][4] أمور الآخرة ما عندهم. فالحمد لله، الذي جعل لنا كل الفضائل، وخصنا بمحمد خير نبي وفاضل.

فقد ظهر من هذا النظر أن ما انتحلوه من إنكار النعيم، والعذاب المحسوسين، باطل بشهادة العقول، وبنصوص كلام الأنبياء المنقول.

وقد فرغنا في الفن الأول والحمد لله كثيرا.

1- في خ/م: فمن له فضة.

2- في ط: وليأكل.

3- إشعيا55: 1.

4- ما بين المعقوفين ساقط من ط.

الفن الثاني

محاسن دين الإسلام[1]

تمهيد[2]

الغرض من هذا الفن، أن نبين فيه عقيدة الإسلام، وجملا من أصول أحكامه، ومواضع من فروع دينه، أنكرتها النصارى عليه، وإنما فعلنا ذلك لغرضين:

أحدهما: أن السائل الذي حركنا لهذا الكتاب هددنا، وزعم أنه إن سب وشتم، كتب كتابا بنص شريعتنا، ووجهه للبلاد، حتى يقف الناس عليها. فأردت أن أتولى ذكر شريعتنا، لئلا يتعاطى ذكرها ونقلها جهول، لا يحسن ما ينقل، ولا ما يقول، كي يقف العقلاء عليها، وينظروا فيها، على أن شرعنا ليس بالخفي. بل قد طبق الأرض شرقا وغربا، وقرع من العقلاء سمعا وقلبا، فلم يسمع بمن مجه وطرحه غير معاند، كبثه شرعنا وفضحه، فإنه جار على المنهاج المعقول، المستحسن عند أرباب العقول.

وسأبين ذلك إن شاء الله تعالى، على أني لم أتعرض لهذه السائل، ولا لأحد من ملتهم بالسب، أكثر من تبيين جهلهم، وركاكة هذيانهم وقولهم، وربما أغاظوا في بعض الأقوال، لما ارتكبوا فيها من القبيح والمحال، فأطلقت عليهم اللعنة، حسب ما تقتضيه البغضاء والأحنة، وتعويلا على ما في التوراة، من لعنتهم وركاكة شرعتهم.

فإن في التوراة: "ملعون، ملعون، من تعلق[3] بالصليب" يريد بذلك من اعتقد الصليب، وادعاه وعظمه[4]. وهذا نص بلعنتهم، وموجب لبغضهم. وهذا ما نعلمه مع ديننا وواضح سبيلنا.

والغرض الثاني: أنه لا يبعد أن يقف على هذا الكتاب، نصراني أو يهودي، لم يسمع قط من ديننا تفصيلا ولا تصريحا، بل إنما سمع له سبا وتقبيحا، فأردت أن أسرده على الجملة، ليتبين حسنه، لمن كان ذكي العقل، صحيح الفطرة. فلعل ذلك يكون سبب هداه، وجلاء عماه، ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[5].

1- العنوان ساقط من خ/م.

2- العنوان ساقط من خ/م.

3- في ط: "يعلق".

4- في خ/م: "عظمهم".

5- سورة هود، آية: 88.

وفي هذا الفن فصلان:

[الفصل الأول: اعلم أن شريعة المسلمين مشتملة على اعتقاد بالقلوب وعمل بالجوارح ولذلك نقسم هذا الفن إلى فصلين نذكر في أحدهما قواعد الاعتقاد وفي الثاني مسائل من الأعمال فنقول][1]:

1- ما بين المعقوفتين استبدل في المطبوع بالعبارة التالية: " وانقسم هذا الفن إلى فصلين لأن شريعة الإسلام مشتملة على اعتقاد بالقلوب وعمل بالجوارح فالفصلين نذكر في أحدهما قواعد الاعتقاد وفي الثاني ندافع عن الاعتقاد وعن التشريع فنقول".

الفصل الأول

اعتقاد المسلمين[1]

أما اعتقاد المسلمين فهو: أن كل موجود سوى الله تعالى، فهو محدث مخلوق مخترع، على معنى أنه لم يكن موجودا، ثم صار موجودا. وأن له محدثا موجودا قديما، لا يشبه شيئا من الموجودات الحادثة. بل يتعالى عن شبهها من كل وجه، فليس بجسم، ولا يحل في الأجسام، ولا جوهر، ولا يحل في الجواهر، ولا عرض، ولا تحله الأعراض، وأنه إله واحد لا شريك له في فعله، ولا نظير له في ذاته وطوله، لا تتبغي[2] له الصاحبة ولا الولد، ولم يكن له من خلقه كفؤا أحد، وأنه عالم قادر مريد حي، موصوف بصفات الكمال، من السمع والبصر والكلام، وغير ذلك مما يكون كمالا في حقه، وأنه منزه عن صفات النقص والقصور، وأنه يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه بما يشاء، لا يفتقر إلى شيء، وإليه يفتقر كل شيء، وبيده ملك كل جماد، وحي لا يجب عليه لمخلوق حق، وتجب حقوقه على الخلق، لا تتوجه[3] عليه متى؟ ولا أين؟ ولا لم؟ ولا كيف؟ فلا يقال: متى وجد؟ ولا أين وجد؟ ولا كيف هو؟ ولا لم فعل؟ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾

وأن إرسال الرسل، من أفعاله الجائزة. وأنه قد أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وكلف الخلق، وشرع لهم شرائع على ألسنة رسله، وأن رسله صادقون في قولهم، ومؤيدون بالمعجزات من عند ربهم، وأنهم عبيد الله ورسله، وأنهم بشر مثلنا، إلا أن الله تعالى فضلهم، بأن جعلهم واسطة بينه وبين خلقه، وأطلعهم على ما شاء من غيبه، وأنهم بلغوا عن[4] الله ما أمروا بتبليغه، وأنهم كلهم صادقون مصدقون، لا نفرق بين أحد منهم، وأن محمدا بن عبد الله بن عبد المطلب، العربي القرشي الهاشمي، رسول من الله إلى الناس كافة، بشيرا ونذيرا. وأن الله[5] أيده بالمعجزات على صدقه، كما فعل بالرسل من قبله.

1- العنوان ساقط من خ/م.
2- في ط: "ينبغي".
3- في ط: "يتوجه".
4- في خ/م: "من".
5- في ط: "الله تعالى".

وأن شرعه وإجابته لازمان لكل من بلغته دعوته، حيث كان من أقطار الأرض وجهاتها[1]، وعلى أي دين كان من أديانها، لا يقبل ممن كفر به، يوم القيامة، ما هو عليه من دين، بل يكون مخلدا في العذاب أبد الآبدين، كما أن المؤمن به، وبكل ما جاء به، مخلد في الجنة أبد الآبدين.

وأن شرعه ناسخ لكل الشرائع المتقدمة، على الجملة. وهادم ما قبله من الأحكام السالفة، وأن كل ما جاء به عن الله حق، من عذاب القبر[2] والحشر، والنشر بعد الموت، والصراط والميزان، والحوض والمحاسبة، وشفاعة محمد لأهل الموقف[3]، ولأهل الكبائر من أمته خاصة.

والجنة ونعيمها، والنار وعذابها، وأنهما محسوسان ليسا معنويين، وأن خلود أهل الجنة سرمد، [وعذاب أهل النار الكافرين سرمد][4]، ولا انقطاع لواحد منهما، إلى غير ذلك مما هو مفصل في الشريعة، مما يعرفه أهله ولا يسعهم جهله.

فهذه[5] قواعد اعتقادهم[6] مجردة عن أدلتها، ومقتضبة من شواهدها، إذ ما منها قاعدة، إلا ويعضدها برهان عقلي، لا يشك فيه عاقل، ودليل سمعي، لا ينكره فاضل، ومن أراد تعرف ذلك طلبه من مواضعه. وأما مستندات أحكامهم: فهي كتاب الله وسنة رسول الله، لا يعدلون لمحة عنها، ولا يخرجون لحظة منها، إلا أن وجوه استدلالاتهم، لا يحيط بها متطفل عليها، لكثرتها ولتفاوت[7] درجاتها.

فإن كتاب الله تعالى، وسنة رسوله، لا يستدل بها[8] من لا يعرف منظوم اللفظ ومفهومه، وفحواه ومعقوله، ويعرف من المنظوم: النص والظاهر، والمؤول والمجمل[9]، والعموم والخصوص، والاستثناء، والمطلق والمقيد، ويعرف من المفهوم: أقسامه وأحكامه[10]، وكذلك من الفحوى والمعقول على ما هو معروف في علم الأصول، الذي هو علم خاص

1- في خ/م: "جهاته".
2- في ط: "العذاب".
3- في ط: "الموقف عامة".
4- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.
5- في ط: "وهذه".
6- في ط: "اعتقاد أهل الإسلام".
7- في ط: "نقاوة".
8- في ط: "بهما".
9- في ط: "المحمل".
10- في ط: "أحكامه وأقسامه".

بأمة محمد ﷺ[1]، بل هو من كرامات أهل الإسلام، إذ ليس في ملة من الملل المتقدمة، من التحقيق ما عندهم. ولا اجتمع لأحد قبلهم من العلوم، مثل الذي اجتمع لهم.

ذلك بأنهم آخر الأمم، وكتابهم آخر الكتب وأفضلها، ورسولهم آخر الرسل وأفضلهم، ولسانهم أحكم الألسنة وأفصحها، على ما[2] يعرفه من تصفح شريعتهم، وعرف لغتهم، ونظر إليها بعين الإنصاف، وترك طريق التعصب والاعتساف. فالحمد لله على ما أولاه، ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[3].

ومما يبين للعاقل حسن شريعة الإسلام، وجمال طريقتهم[4]، أنها مبنية على مراعاة مصالح الدنيا والآخرة، وإتمام مكارم الأخلاق الحسنة.

أما بيان مصالح الآخرة: فهو أن هذا الشرع يبين وجوهها، ولم يغفل شيئا منها، بل فسرها وأوضحها غاية الوضوح، لئلا يُجهل شيء منها، فوعد بنعيمها، وتوعد بعذابها، بخلاف الشرائع المتقدمة، فإنها إنما كانت تتوعد على المخالفة بعقاب دنيوي[5]، كما فعل بنوا إسرائيل غير مرة، وتوعد بثواب دنيوي[6]، ولم يبين لهم شيء مما بين لنا، على ما يقتضيه نسق التوراة، إذ ليس فيها ذكر جنة ولا نار، إلا تنبيهات قليلة[7]. وكذلك الإنجيل[8]، ليس فيه شيء من ذلك إلا ما ذكرناه.

1- في ط: "ﷺ".
2- في خ/م: "من".
3- سورة الأعراف، آية: 43. في ط: ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ .
4- في ط: "طريقتها".
5- في خ/م: "دنياوي".
6- في خ/م: "دنياوي".
7- لم ترد في الأسفار الخمسة إشارات عن الجزاء في الآخرة، ولعل هذا ما جعل الصدوقيين الذين لا يؤمنون إلا بهذه الأسفار الخمسة ينكرون البعث، وقد جاء في الإنجيل حوار لهم مع المسيح حول القيامة (متى22: 23-33)، ولم تتبلور عقيدة الإيمان باليوم الآخر إلا بعد السبي البابلي أيضا، إذ وجد اليهود في هذه العقيدة تعويضا ومواساة للمصائب التي حلت بهم، فلما خابت الوعود الدنيوية التي كانوا يحلمون بها بصفتهم شعب الله المختار، بدأ التطلع إلى جزاء أخروي، حيث يفوز شعب الله المختار بكل النعم ويعاقب في هذا اليوم كل أعدائهم وقد جاءت إشارة عابرة إلى البعث في سفر إشعيا26: 19، كما نص سفر دانيال12: 62 وسفر دانيال13 على البعث، وسفر أيوب19: 25-27، ومزمور49: 15، ومزمور139: 17-18.
8- ورد ذكر جهنم في الترجمات العربية للعهد الجديد ثلاث عشرة مرة، في متى5: 22، متى5: 29، متى5: 30، متى10: 28، متى18: 9، متى23: 15، متى23: 33، مرقس9: 43، مرقس9: 45، مرقس9: 47، لوقا12: 5، رسالة يعقوب3: 6، بطرس الثانية2: 4.

ومع ذلك فإنه تعبدَنا بعبادات محضة ذوات أفعال[1] وأركان، كالصلاة والحج وغير ذلك. وكل ركن من أركانها، فالمقصود به تعظيم الله تعالى، وخضوع له بالظاهر والباطن، حتى تؤدي كل جارحة من الجوارح، حظها من تعظيم الله تعالى، مع ما ينضاف إلى ذلك من المعاني الشريفة، والأدعية الرفيعة الفصيحة، التي يعرف معانيها أهلُها، حسب ما فسروه في كتبهم، وليس كما تقولون أنتم في صلاتكم: "يا أبانا الذي في السماء"[2].

فإن ظاهر هذا مستبشع في العرف، محال في العقل. أما استبشاعه في العرف، فإنه يقبح بالعبد أن يخاطب سيده بلفظ الأبوة. هذا مع أن معنى الأبوة جائز في حقوقنا، فكيف لا يقبح إطلاقه في حق من لا تجوز الأبوة في حقه؟ فإطلاق مثل هذه اللفظ في حق الله تعالى، ينبغي ألا يجوز ولا يطلق، وأما إحالته في العقل، فإن ظاهر قولكم: "في السماء" يفهم منه أن السماء محيطة[3] به. وإن جاز ذلك، جاز أن يكون جسما، وأنتم تأبون ذلك، وهو محال في حقه تعالى[4].

وكذلك قولكم في بقية هذا الدعاء: "وعجل لنا خبزنا الدائم، واغفر لنا كما يغفر بعضنا لبعض". فإنه لفظ مستثقل مستقبح، ومعناه مستغث مسترك، ولولا خوف التطويل، لأبدينا[5] ما يحتمل ذلك من قبيح التأويل.

فإن قلتم هكذا علمنا عيسى في الإنجيل، فقال لنا: "إذا صليتم فقولوا.." قلنا: لا نسلم أن هذا مما علمه عيسى، ولا مما جاء به، بل هو اختراع من لا يحسن ما يقول، وليس له إلى المعارف وصول.

وقد تقدم أن كتابكم قابل للتحريف والتصحيف، فهذا الذي ذكرنا ينبه على المصالح الأخروية، وأما المصالح الدنيوية، فقد بينا أن مقصود شرعنا حفظ الأديان، والنفوس، والأموال، والأنساب، والأعراض، والعقول، ولأجل ذلك شرع القتل، والديات، والعقوبات، وحرم السرقة، والخيانة، وجميع وجوه[6] أكل المال بالباطل، وحرم الزنا وفعل اللوطي، وغير ذلك من الفواحش.

1- في ط: "فعال".
2- متى6: 9-13.
3- في ط: "محيط".
4- في ط: "تبارك وتعالى".
5- في خ/م: "لبدينا".
6- في خ/م: "وجود".

وكذلك حرم الغيبة والنميمة، والقذف والبهتان، والزور، وجميع أصناف الكذب، والغش والخداع[1]، والمكر إلى غير ذلك من أنواع المفاسد.

ولأجل ذلك[2] حرم الخمر، فإنها تذهب العقل الذي هو مناط التكليف، وبه يعرف الباري تبارك وتعالى، والسكر آفة تناقضه وتضاده. فهذه الأمور كلها محفوظة بالحدود، والزواجر المشاكلة للعقوبات الثابتة عن النبي، إما بالكتاب وإما بالسنة. وليس شيء منها موضوعا بالتشهي، والتحكم كما فعلتم أنتم.

وقد بينا ذلك [بل هي مستندة][3] للشارع، ولا نعدل عنه طرفة عين، بل نقف عند ما أمرنا[4]، وننتهي عما نهانا، ويعرف ذلك على التفصيل أهله، ومن وقف عليه من العقلاء المنصفين.

وأما مكارم الأخلاق التي تضمنها شرعنا، فلا تخفى على متأمل. وذلك أن شرعنا أمرنا بها ظاهرا وباطنا، ونهانا عن رذائلها وسفسافها. فمن المكارم الظاهرة: النظافة والطهارة، والتنزه عن الأقذار والأوساخ، فمن النظافة، تطهير الثياب والأبدان، فإنها ينبغي أن تنزه عن الأقذار، مثل البول والغائط، والمنى والمذى، والدم والقيح، وما شاكل ذلك.

ومن النظافة أيضا، التطيب وتحسين الهيئة، فالطيب لا يخفى على عاقل استعماله، وكذلك تحسين الهيئة[5]. ومن تحسين الهيئة قص الشارب، وإعفاء اللحية، فقص الشارب لتتأتى النظافة في الأكل، إذ لا تتأتى مع طوله، إذ يدخل الشعر في الفم، وينغص[6] الأكل ويقذره.

هذا مع ما يلحق الشارب من قذارة المخاط، إذ كان الشارب كثيرا[7]، ومع ذلك فلا يحلق عندنا كله، ويمحق رسمه، فإن ذلك مثلة وتشويه، وكذلك اللحى، إذا حلقت فينبغي أن توفر توفيرا، لا يخل بمروءة الإنسان، ولا يخرج عن عادة الناس، وخير الأمور أوساطها.

1- في خ/م: "الخدايع".
2- في ط: "ذلك أيضا".
3- في ط: "بمستنده".
4- في ط: "أمر".
5- في خ/م: "النية".
6- في خ/م: "ينقص".
7- في ط: "كبيرا".

وأما حلق اللحية فتشويه ومثلة[1]، لا ينبغي لعاقل أن يفعلها بنفسه.

والعجب من جهل النصارى بالشرائع، وبما يستحسنه ذووا المروءات، فإنهم يحلقون لحاهم[2]، ويشوهون أنفسهم[3]، ويوفرون غلوفتهم التي ينبغي أن تزال، لما في إزالتها من الفوائد على ما ذكرنا، ومن النظافة المأمور بها، تقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، وغسل البراجم والمغابن بالماء، وهذا كله من شرعنا مبالغة في النظافة، ومحافظة على مكارم الأخلاق، وعلى عادة ذوي العقول والمروءات.

وأما التنزه عن الأقذار، فإنه حرم علينا الخبائث، من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والأنجاس كلها، على ما تقتضيه عادة العقلاء وذوي[4] المروءات، وأمرنا بأكل الطيبات، واستعمال المستحسنات ونهانا عن السرف والتبذير.

ولأجل هذا، نهانا عن استعمال أواني الذهب والفضة، وعن لباس الحرير للذكور، وذلك لما فيه من التبذير والسرف.

وأيضا، فإن فيه ترفُّهاً، يناسب ترفُّه أهل الجنة ويشبهه، ولا ينبغي أن يفعل ذلك. ولأجل ذلك قال نبينا عليه السلام: "من شرب في آنية الذهب والفضة، لم يشرب بها في الآخرة، ومن لبس الحرير في الدنيا، لم يلبسه في الآخرة"[5].

وهذا كله لأن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، ولأجل ذلك قال الحكماء: "الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها"[6]. فهذه نبذة من النظافة الطاهرة، وأحكامها كثيرة، تعرف في مواضعها.

وأما النظافة الباطنة[7]، فترجع إلى التخلي عن مذموم الأخلاق، والتحلي بمحامدها[8] ومستحسنها، وهي كثيرة فلنذكر الأخلاق المذمومة، التي يتنظف منها، وبعدها نذكر الأخلاق المحمودة، التي ينبغي الاتصاف بها.

أما الأخلاق المذمومة فكثيرة، لكن أمهاتها ما نذكره، وهي: الغضب والحسد، والبخل

1- في خ/م: "مثله".
2- في خ/م: "لحاءهم".
3- في خ/م: "بأنفسهم".
4- "ذوي" ساقطة في ط.
5- ورد في صحيح مسلم حديث له معنى قريب من الحديث المذكور كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء: " وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ، ح وَحَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، كِلاَهُمَا عَنِ الشَّيْبَانِيِّ، عَنْ أَشْعَثَ بْنِ أَبِي الشَّعْثَاءِ، بِهَذَا الإِسْنَادِ . مِثْلَ حَدِيثِ زُهَيْرٍ وَقَالَ إِبْرَارِ الْقَسَمِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَزَادَ فِي الْحَدِيثِ وَعَنِ الشُّرْبِ فِي الْفِضَّةِ فَإِنَّهُ مَنْ شَرِبَ فِيهَا فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْ فِيهَا فِي الآخِرَةِ . ".
6- في ط: "تتعمروها".
7- في ط: "الباطنية".
8- في خ/م: "بمجاهدها".

ومهانة النفس، ودناءتها والرعونة، وحب الجاه وحب الدنيا، الذي منه كل خطيئة، والكبر والعجب والرياء، إلى غير ذلك من الأخلاق المذمومة، التي من اتصف بها كان منجس الباطن، بمثابة من كان منجس[1] الظاهر فعليه تنظيفه، إلا أن نظافة النجاسة الظاهرة بالماء، ونظافة النجاسة الباطنة بالاتصاف بالأخلاق المحمودة، التي هي التوبة من المعاصي، وحسن الصحبة مع الخلق، والنصيحة لهم، والعدل في الأمور كلها، والتواضع، وكرم النفس[2]، وبغض الدنيا، والزهد فيها، والإخلاص والخوف، والصبر والشكر، والصدق والتوكل، ومحبة الله تعالى، ومحبة رسله، إلى غير ذلك من الأوصاف المحمودة، التي من اتصف بها، فقد تنقى من أوصاف البشرية وتطهر الطهارة المعنوية.

فهذا أنموذج وقانون، يعرف العاقل المنصف [به حسن شريعتنا، وجمال طريقتنا، وأنها جارية على نهج العقول، ومستحسنة][3] عند من له محصول. ومن أراد أن يتبين محاسن شريعتنا على التفصيل، فلا يصل إلى ذلك إلا ببحث كثير وتطويل.

فإن وقف[4]، فأمعن النظر، واستدت منه الفكر، قضى من عجائبها كل عجب، وعلم على القطع والبتات، أنها حق من الله، من غير شك ولا ريب. وأن الذي جاء بها، لا يجوز عليه الغلط ولا الكذب.

فها نحن معشر المسلمين، قد أرصدنا شريعتنا للاستعراض، ونادينا عليها في سوق الاعتراض، لئلا يعترض أحد أو يعارض[5]، فيدمغه ناقد لقوله وحافظ. ولم نكِل حكايتها إلى غبي غافل، عن مقاصد شرعنا جاهل.

وقد آن أن نذكر ما اعترض به النصارى على ديننا، وننفصل عنه إن شاء الله[6]، وعند ذلك يتبين صميم جهلهم، وسوء صنيعهم وفعلهم.

1- في ط: "متنجس".
2- في خ/م، جاءت بعد "كرم النفس" عبارة "حب الخمول"، وهي عبارة غير مناسبة لسياق الكلام.
3- في خ/م، استبدلت العبارة بين معقوفتين بالعبارة التالية: "على نهج العقول وجمال طريقتنا وأنها جارية على نهج العقول المستحسن"، وهي عبارة غير سليمة.
4- في خ/م: "وفق".
5- في خ/م: "إلا معترض أو معارض".
6- في ط: "الله تعالى".

الفصل الثاني

[دفاع عن الإسلام][1]

اعلم أن النصارى يعيبون دين الإسلام ويقبحونه عند جهالهم وعامتهم، بأمور من فروع الإسلام، لا ينبغي لمنصف أن يعيبها ولا يعيب شرعا هي فيه.

وقد كنا بينا فيما تقدم، أنه لا ينبغي أن ننبذ الشرائع أو نجحدها، بما تجوزه العقول، بل يتلقى ذلك المجوز عقلا، الذي جاءت به الشرائع بالقبول، إذا علم صدق ذلك الشرع، بل ينبغي للعاقل، أن ينظر في دليل صدق ذلك الشرع. فإن وجده دليلا صحيحا، قبل منه كل ما يقول، فإنه صادق، والصادق لا يقول ما تكذبه العقول. نعم قد يقول ما يقصر العقل عن إدراكه، وليس ذلك طعنا على قول الصادق، وإنما العجز في حق العقل. فليس كل ما تأتي به الشرائع، يعرف العقل جوازه، قبل وقوعه. بل قد يكون منه ما يجهله.

وهذا بين عند الفهم المنصف، وقد كنا قررنا ذلك بأبلغ من هذا فيما تقدم.

فإذا تقرر ذلك قلنا للنصارى: كان يجب عليكم أن تنظروا في الأدلة، التي بها استدل هذا النبي على صدقه، فإذا صحت، لزمكم قبول قوله، وإن لم تصح لديكم، رددتم كلية شرعه، ولا تعترضوا ببعض ما جاء به، مما يجوزه العقل على ما تقرر.

ونحن قد أثبتنا الأدلة القاطعة على صدقه وأنواعها، فيجب عليكم أن تقبلوا شرعه، إذ قال أنا رسول الله إلى الناس كلهم، وإلى اليهود والنصارى. وقد ظهر صدقه في قوله، وإن لم تفعلوا فقد وجبت عليكم اللعنة، وحاقت بكم الطامة، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [2].

ونحن نذكر إن شاء الله[3]، ما اعترضوا به على[4] ديننا، ونحكي اعتراضهم كما ذكروه في كتبهم ونسبوه إلى أساقفتهم.

قال صاحب كتاب الحروف بعد أن ذكر وصية عيسى التي قال فيها: "احذروا أنبياء الكذب الذين يأتونكم بلباس الحملان"[5] يعني سمة الأبرار وزي العباد، وباطنهم ذئاب

1- العنوان ساقط من خ/م.

2- سورة الرعد، آية: 42.

3- في ط: "الله تعالى".

4- في خ/م: "على" ساقطة.

5- متى17: 15.

خاطفة. قال بعد ذلك معرضا بنبينا، ومستنقصا لديننا، "وقد رأينا نفاذ قوله هذا، فممن ادعى النبوة، فأظهر سمة الحملان، ثم عمل عمل الذئاب، فأمر[1] بخلاف هذه الوصايا، من العداوة للناس عامة، والتحريض على قتل من خالفه، والأمر بالقصاص والانتقام. ثم أمر بالإكثار من النساء، ورخص في طلاقهن، وأحل تزويج المطلقات الفاجرات، ثم ردهن إلى الأزواج الأولين، بعد طلاق ثان، وأحل ذلك لهن من الرجل الثاني إلى الأول. ثم ما وصف الله به من الجور، والقساوة والظلم، إذ زعم أنه يهدي بعضا ويضل بعضا".

وقال القوطي الذي قدمنا ذكره: "لا فائدة في شريعتكم، لأنا نجد الأحكام الشرعية حكمين: الأول التوراوي الذي هو من لطمك فالطمه"، و[2]الآخر الإنجيلي الذي هو: "من لطم خدك اليمنى فانصب له اليسرى".

وأنت ترى فضل هذا على الأول، ثم لا تجد لهذين الحكمين ثالثا، إلا كان داخلا فيهما.

هذا[3] ما يعترض به من ينتمي إلى النظر من أقستهم، وإن كان بعيدا عن التحقيق.

وأما عامتهم ومن لا مبالاة بهم، فقد تقولوا العظائم وجاهروا بالتواقح والشتائم.

ونحن نجيب هذين القسين، على ما قالاه جوابا يرفع الاشتباه، ونرجو به التقرب من الإله، فنقول للأول:

أما استدلالك على رد نبوة نبينا بقول عيسى، فتجهيل للعامة، وتلبيس عليهم، فإنك أدخلته[4] في جملة أنبياء الكذب، وقد شهد الأنبياء بصدقه، كما قدمنا. بل قد شهد كتابك بصدقه وبنبوته، فإنه قد جاء فيه من قول عيسى، مالا يمكنك إنكاره، حيث ذكر البرقليط، وأخبر أنه يأتي، ووصفه بما ينبغي له، وقد قدمنا ذلك مستوفى، فهذا منك ياهذا، جهل بكتبك، وتكذيب لأنبيائك ورسلك، وإنما الذي حذر منه عيسى وغيره من الأنبياء، إنما هم أنبياء الكذب، كما قال، ولم تزل الأنبياء يحذرون من الأنبياء الكذابين.

1- في خ/م: "فأمن".
2- في ط: "الواو" ساقطة.
3- في ط: "هذا منتهى".
4- في خ/م: "أدخلت".

ولقد أكثر من مثل هذا التحذير، نبينا عليه السلام، حتى قال: "يكون في آخر الزمان ثلاثون كذابا[1]، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، فلا رسول بعدي ولا نبي". وقد وجد بعضهم ولا بد من أن يوجد الباقي، كما قال الصادق.

وأما قولك: إن سمة نبينا سمة الحملان، وعمله عمل الذئاب، فكذب صراح، وإفك وقاح، ونحن قد بينا سمته، وعمله ومنهاجه، وقد عرف حاله القريب والبعيد. بل سمته سمت الأنبياء، وعمله عملهم، ولا فرق بينه وبينهم، إلا أنه أفضلهم وأكملهم، وإنما قلنا ذلك، لأن في صحف إشعياء أنه قال: "أتت أيام الافتقادات أيام الكمال". ثم قال: "لتعلموا يا بني إسرائيل الجاهلين، أن الذي تسمونه ضالا، هو صاحب النبوة، تفترون بذلك على كثرة ذنوبكم، وعظم فجوركم".

وإنما قلنا: إنما عنى نبينا، ولم يرد غيره. لأنه قال يا بني إسرائيل، وهذا خطاب لجميعهم، ولم يكذب[2] جميع بني إسرائيل بنبوة نبي، إلا نبوة محمد. إلى غير ذلك مما تقدم. وأما عيسى وغيره، فكان منهم من آمن به وصدقه على ما هو معروف.

وأما قولك: أمر بخلاف هذه الوصايا، من العداوة للناس. فكذب وتشنيع، لا يرضى به سفلة الناس، بل قد أمر بالألفة والاجتماع، والتحاب في الله، والمؤاخاة في ذاته، والتعاون على البر والتقوى، ونهى عن التباغض والتدابر، والتخاذل على ما بيناه من شرعه.

وكل ذلك من حاله وحالهم معروف، بحيث لا يجهل ومشهور، بحيث لا ينكر نعم رحمته للمؤمنين، وغلظته على الكافرين.

وكذلك وصفه الله في كتبه، وعلى لسان رسله، قال الله العظيم في محكم وحيه الكريم: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] وكذلك كانت أحوال أصحابه، قال الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[4]، وليس كما تقولونه أنتم عن أصحاب عيسى، أنه لما تقبضت اليهود عليه فروا عنه، وأنكروه وحلفوا على أنهم لم يعرفوه، فأسلموه وتركوه.

1- في خ/م: "كذابون".
2- في ط: "تكذب".
3- سورة التوبة، آية: 128.
4- سورة الفتح، آية:29.

وقد بينا فيما تقدم ما ذكرت الأنبياء من أوصافه، وعلى أنه لم يغلظ على الكافرين حتى تمردوا على الله، وكذبوا رسالات الله، وذلك أنه أقام بين أظهرهم عشر سنين أو نيفا عليها، يدعوهم إلى الله، على سبيل الوعظ والإنذار، والتعليم والتبليغ، وإظهار الآيات والعجائب، ملينا لهم القول، ومظهرا لهم الإشفاق، وباذلا لهم النصيحة، صابرا بنفسه على ما يلقى من أذاهم، ومن سبهم، وهم مع ذلك يبالغون في ضرره، بكل ما يمكن، وكلما ألح عليهم بالإنذار، زادوا في الإضرار، حتى هموا بقتله، وطرده عن بلده وأهله.

وبعد ذلك أمره الله بالانتصار ممن ظلمه، وإخراج من أخرجه، ولذلك أنزل الله[1] عليه: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾[2].

وأما قوله والتحريض على قتال من خالفه، فهذا لا ينبغي أن يعاب به دين، فإن الكافر بالحق لا حرمة له، وجنايته أكبر من كل جناية، فعقوبته ينبغي أن تكون أكبر من كل عقوبة، لا سيما بعد أن تقدم للكافرين بالأعذار، وبولغ لهم في الإنذار، ولأجل أن الكافر لا حرمة له عند الله، يعاقبه في الدار الآخرة عقوبة لا انقطاع لها باتفاق الشرائع.

وإن جاز أن يعاب شرعنا، [من حيث أنه][3] جاء بقتال الكافرين، جاز أن يعاب شرع موسى، فإنه جاء بقتال الجبارين، على ما لا يخفى على أحد من المتشرعين، فقد لزم هذا المنكر لشرعنا، من حيث أنه شرع فيه القتال، أن ينكر ما يدين به ويعتقده من شرع موسى بن عمران، وينبغي له أن يسفه فعل يوشع[4] بن نون، حيث أذاق الجبارين أشد القتل وأعظم الهون، ثم أعجب من ذلك جهلهم بما في كتبهم، أو مجاهرتهم بإنكارها.

وذلك أنه يجدون في كتبهم أوصاف النبي ﷺ، ويجدون فيها أنه يبعث بالقتل والسيف، ثم ينكرون ذلك، ويباهتون فيه. وقد ذكرنا من ذلك ما فيه كفاية، ومن ذلك ما قد جاء في كتاب إشعياء، أنه أخبر عن هزيمة العرب، وقتل أشرافهم، فقال لما ذكر النبي: يدوسون الأمم كدوس البيادر، وينزل البلاء بمشركي العرب، وينهزمون". ثم قال: "وينهزمون بين يدي سيوف مسلولة، وقسي موتورة من شدة الملحمة"[5].

1- في ط: "الله تعالى".
2- سورة الحج، آية:39.
3- في ط: "لأنه".
4- في ط: "يشوع".
5- إشعيا 21.

وكذلك قال حبقوق: "تضيء لنوره الأرض، وستنزع في قسيك إغراقا، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء"[1]، وهذه[2] نصوص على اسمه وصفته كما تقدم.

وقد أشار إنجيلكم إلى هذا، فإنكم تزعمون أن عيسى قال لتلاميذه: "إني كنت أرسلتكم وليس معكم مزود[3] ولا خف، فهل ضركم ذلك أو نقصكم شيئا؟ قالوا: لا. قال: أما الآن، فمن لم يكن له[4] مزود فليشتر مزودا ومن لم يكن له سيف فليبع ثيابه[5] وليشتر سيفا"[6].

فأمرهم باشتراء السيوف للقتال، بعد أن كان نهاهم عن القتال، لعلمه أن محمدا يبعث بعده بالسيف، وهذا كثير بحيث لا يحتمل التأويل.

وجب[7] من ذلك كله: أنهم قد ذكروا في إنجيلهم، أن عيسى قال لهم: "لا تحسبوا أني قدمت لأصلح بين أهل الأرض، لم آت لإصلاحهم، لكن لألقي المحاربة بينهم، إنما قدمت لأفرق بين المرء وابنه، والمرأة وابنتها، [حتى يصير][8] أعداء المرء أهل بيته"[9].

وهذا نص، بأن عيسى إنما جاء بالمحاربة، وإلقاء العداوة بين الناس، وهذا عين ما أنكروه علينا، ثم قد [زادوا على][10] ذلك أنهم حكوا أنه قال: "لم آت لأصلح [بين الناس و][11] لم آت لإصلاحهم" وظاهر هذا: إنما جاء بفساد أهل الأرض.

وهذا لايصح أن يقوله عيسى عليه السلام، ولا غيره من الأنبياء، وهو من كذبهم وتحريفهم. وقد قدمنا ذلك فيما سبق. ومن العجب أنهم يقولون: أن ملة المسيح وشريعته، لم تأت بقتال، ويتمدحون بأنها لم تظهر بقتال، وإنما ظهرت بما ظهر على أيدي الحواريين من العجائب. وهم مع ذلك يعترفون بمحاربة قسطنطين، وبمقاتلته من خالفه، وأنه الذي

1- حبقوق3: 9، لكن النص لا يوجد فيه اسم "محمد".
2- في خ/م: "وهذا".
3- في خ/م: "مرود".
4- في ط، قبل "مزود"، أضيفت: "كيس فليأخذ كيسا".
5- في ط: "من ثيابه".
6- لوقا22: 35-36.
7- في ط: "وخير".
8- في ط: ما بين المعقوفتين ساقط وجاء مكانه "و".
9- متى10: 34-36.
10- في ط: ما بين المعقوفتين ساقط وجاء مكانه: "زاد وأعلى".
11- في ط: ما بين المعقوفتين ساقط وجاء مكانه "أهل الأرض".

تلقيت عنه الشريعة الصليبية، فإنه أُري في النوم صورة الصليب، وقيل له بهذا تنصر. ففعله واعتقده وقاتل فنصر.

وأعجب من ذلك، تلبسهم بالقتال، والإكثار منه أبد الدهر إلى اليوم. وهم مع ذلك يدعون أن القتال غير مشروع لهم، ويذمون الشريعة التي جاءت به، فهم قد ناقضت أفعالُهم أقوالَهم، وشهدت على كذبهم أحوالهم، ثم نقول لقسطنطين ولجماعة النصارى المقاتلين، قتالكم من خالفكم، لا يخلو إما أن يكون مشروعا لكم، أو غير مشروع لكم. فإن كان مشروعا لكم، فلأي معنى تخالفونا في ذلك، وتذموا شرعنا لأجله؟ وإن لم يكن مشروعا لكم، فلأي معنى تركتم شرعكم، وفعلتم خلافه؟ وكيف حل لكم ذلك؟ فأنتم بين أمرين قبيحين، عليكم إما أن تعترفوا بأن قتال الأعداء جائز حسن، فلا تذموا شرعنا لأجله، وإما أن تعترفوا بأنه غير جائز وقبيح، فيلزمكم التناقض والسفه، والخروج عن شريعة المسيح. فأنتم على المثل السائر: أعور بأي عينيه شاء.

فإن قالوا إنما نقتصر بالقتال لأنفسنا، ونمتنع ممن يريد[1] ظلمنا. قلنا: ومن شرع لكم أن تنتصفوا ممن ظلمكم، أو تنتصروا لأنفسكم؟ بل قد حكيتم في إنجيلكم، أنه قال لكم: احفظوا أعداءكم، وأكرموا من أساء إليكم، فإن لم تحفظوا إلا إخوانكم، فما أجركم[2] على ذلك".

وهذا نص، على أنه ينبغي لكم أن تستسلموا عن قاتلكم، ولا تنتصروا ممن ظلمكم، فإن لم تفعلوا ذلك، فقد تركتم شرعكم واستهنتم بسنة نبيكم. ثم يلزمكم على ذلك، أن تعترفوا بأن شرعكم ناقص، إذ قد بين لكم نبيكم بعض المصالح، وتركها[3]، وهو القتال الذي استدركتموه بنظركم، من حيث كان ضروريا ومحتاجا إليه، وتعترفوا بكمال الشرع، الذي جاء بالقتال الذي هو شرعنا.

وعند هذا يتبين فساد قولهم: إن الحكم حكمان، لا ثالث لهما. ويفسد عيبهم علينا القصاص، وذلك أنهم يزعمون، أن حكم التوراة يقتضى القصاص، وحكم الإنجيل يقتضى العفو. ثم زعم ذلك الجاهل، أن لا حكم ثالث، ولم يشر بثالث متوسط هو أكملهما وأتمهما، وهو الحكم الفرقاني، حيث قال الله العظيم: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا

1- في ط: "يريد به".
2- في ط: "أجرؤكم".
3- في ط: "وترك بعضها".

عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [1]، وقال: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [2].

ثم العجب من هؤلاء الجهال، كيف يذمون شريعتنا ويكذبونها، من حيث أنها تضمنت القصاص، ويؤمنون بشريعة موسى، وقد صرحت بالقصاص. فيلزمهم على قولهم، أن يكذبوا بشريعة موسى، ويذمونها من ذلك الوجه.

ثم أعجب من ذلك كله، مدحهم شريعتهم، من حيث كانت مبنية على العفو والصفح، ثم مع ذلك أبوا أن يجوزوا عفو الله تعالى عن آدم، حين أكل من الشجرة. حتى قالوا: إن جميع بني آدم، كانوا مرتهنين بمعصية أبيهم، حتى فداهم المسيح بنفسه. بل لم يتصور عندهم، عفو الله حتى انتقم من "إله"[3] مثله، تعالى الله[4] عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

فعلى هذا نقول لهم: لا يخلو العفو من أن يكون هو الأولى مطلقا، أو[5] الانتقام هو الأفضل، أو الحالة الثالثة. فإن كان العفو هو الأولى، فلم لم يعف الله تعالى عن آدم، من غير أن [يعاقبه وبنيه] [6]، على ما زعمتم؟ وإن كان الانتقام هو الأولى، فلم لم ينتقم من آدم وبنيه مطلقا؟

فلم يبق على هذا، إلا أن الأولى هو الحالة الثالثة، وهو الانتقام في حال من مستحقه، والعفو في حال أخرى عن مستحق العقاب تفضلا وتكرما، حسب ما يريده الباري تعالى.

وعلى هذا المنهاج السديد، والأمر الرشيد، جاءت شريعتنا. فهي كاملة متممة، والحمد لله. ثم إذا كان العفو هو الأولى والأفضل، وبه جاءت شريعتكم، فلأي معنى تتركون شريعتكم الأولى؟

فقد اعترفتم بألسنتكم، وتناقضتم بأفعالكم، وكم لكم منها وكم؟

وأما اعتراضه على شرعنا، بتحليل نكاح الكثير من النساء، فذلك مالا ينبغي أن ينكره، أحد من العقلاء، فإنه من مجوزات العقول، وقد ورد بذلك الشرع الصادق المنقول، ثم قد ورد عن جماعة من الرسل، وقد جاءت بذلك الكتب، ألم يجيء في التوراة، أن إبراهيم

1- سورة النحل، آية 126.
2- سورة الشورى، آية: 41.
3- في خ/م: "الله".
4- في ط: "تقدس".
5- في خ/م: "هو".
6- في خ/م: "يعاقب به".

كانت له سارة[1] وهاجر؟ وكذلك ورد فيها، أن يعقوب جمع بين أختين ليئة وراحيل، وقد ثبت أيضا أن سليمان كانت له مائة امرأة أو تسعة وتسعون. بل قد روي في الإسرائيليات، أنه كان له ثلاث مائة امرأة حرة، وسبع مائة سرية[2].

فإن كذبتم شرعنا، لأجل أنه اشتمل على جواز نكاح نساء كثيرة، فلتكذبوا بنبوة إبراهيم، ويعقوب، وسليمان، ولا فرق بين نبينا وبين هؤلاء الأنبياء، في أن كل واحد منهم، رسول الله، يبلغ حكم الله. فما لكم تنكرون ما بمثله تعترفون، وتكذبون عين ما تصدقون؟ فعل[3] المعتوه الذي لا يعرف مابه يفوه.

ثم لا ينكر عاقل، حكمة الله تعالى، في شرعية كثرة النساء، إذ مقصوده بذلك، إنما هو تكثير النسل، وعمارة الدنيا بالذراري، ليكثر الصالحون، لما أراد الله بهم من الكرامة، وليكثر الطالحون، لما أراد الله بهم من الشقاوة والتعذيب، ولتنفذ على خلقه أحكامه، وتجري عليهم أقداره، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[4].

وأما اعتراضه بالطلاق، ورد المطلقات، فقد تقدم ذكره على أوضح المقالات، وأشفينا في الجواب على أحسن الغايات، فلينظره من أراده في باب النبوات.

وأما اعتراضهم، على اعتقادنا أن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، فقد قدمنا فيه قولا كافيا، ولكنا مع ذلك نزيده[5] إيضاحا فنقول:

قد قام الدليل القاطع، والبرهان الصادع، على أن الله تعالى منفرد بخلق الموجودات، ومريد لكل الحادثات، لا يخرج عن قدرته ممكن، ولا يشذ عن إرادته حادث، والهدى والضلال [من][6] الحوادث، فإذن، [هي مستندة له][7]، و[موجودة بإرادة][8]، وتحقيق هذا البرهان يعرف في موضعه.

1- في خ/م: "صارة".
2- الملوك الأول11.
3- في ط: "فلعل".
4- سورة الأنبياء، آية: 23.
5- في ط: "نؤيده".
6- في خ/م "من" ساقطة.
7- في ط: "فهما مستندان إليه".
8- في ط: "موجودان بإرادته".

ثم نقول: لا يشك عاقل، أن الهدى والضلال وما في معناهما، أمور محدثة، وأفعال موجودة بعد أن لم تكن، وكل فعل محدث، فلا بد له من فاعل محدث بالضرورة، ففاعل الهدى والضلال وخالقهما، إما أن يكون الله سبحانه، أو غيره. محال أن يكون غير الله، لاستحالة وجود خالقين، ويلزم منه امتناع الخلق، كما قدمنا حين ذكرنا دلالة التمانع، فلم يبق، إلا أن يكون الفاعل هو الله تعالى، إذ لا خالق إلا هو ولا مبدع سواه.

ثم نقول للنصارى، صلب المسيح وقتله، إما أن يكون ضلالا، وإما أن يكون هدى، ومحال أن يكون هدى، فإنكم تكفرون من فعل ذلك وتضللونهم، ولأجل ذلك الفعل، حاق الغضب واللعنة[1] على اليهود بزعمكم، فلم يبق إلا أن يكون ضلالا لهم[2].

وإذ[3] كان كذلك، فقد لزمكم أن الله فعل الضلال، فإنكم قد صرحتم، بأن الله إنما فعل ذلك، لأجل خطية آدم، ولا من أحد من ولده، وإنما أراد أن ينتقم من إله مثله، فقد صرحتم ونصصتم على[4] أن الله تعالى أراد الضلال وفعله، على أقبح ما سمع، وأشنع ما به يتحدث. ثم إنا لا ندري مما يكون التعجب أكثر، إن كان من ذهاب عقولكم، أو من جهلكم بكتبكم.

فأما نقص عقولكم، فإنكم تقولون أقوالا تتناقضون فيها ولا تشعرون، وتلتزمون ضروبا من المحالات، وتنكرون أمورا جائزات، كما قدمناه[5] آنفا. ولم نزل نبين ذلك من أول كلمة من هذا الكتاب إلى آخره.

وأما جهلكم بكتبكم، فقد جاء في كتابكم نصا، هذا المعنى الذي أنكرتم[6] علينا، وذلك أن عيسى قال حين دنا أجله: يا أبتي[7]، إنك قادر على جميع الأشياء، فرج[8] عني هذه الكأس، ولكن لست أسألك أن تفعل مشيئتي، إلا[9] مشيئتك[10]. وهذا نص على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يفعل ما يريد، وأنه أراد صلب المسيح بزعمكم، وكان ضلالا لليهود بلا شك.

1- في ط: "وحاقت اللعنة".
2- في ط: "أن يكون ضلالا".
3- في ط: "وإذا".
4- في ط: "ونصصتم أن".
5- في ط: "قدمنا".
6- في ط: "أنكرتموه".
7- في ط: "أبتاه".
8- في ط: "فزح".
9- في ط: "بل".
10- متى26: 39.

فما لكم تخبطون، وعن كتبكم تعرضون، بل أنتم عن عقولكم مصروفون، وفي ورطة الجهل مرتبكون، وفي بحبوحة الضلال عمهون.

فلقد صدق الذي قال: اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال.

والكلام على الهدى والضلال، والطبع والختم، يستدعي تطويلا، وشرحا وتفصيلا، ومن طلبه وجده، إذا ساعده التحقيق ورافقه التوفيق.

وقد حصل غرضنا من مكالمة هؤلاء، وإفحامهم والحمد لله.

وأما قوله ودعواه، أنا وصفنا الباري تعالى بالجور، والقساوة والظلم، فعلى المثل السائر: رمتني بدائها[1] وانسلت[2].

أما نحن، فننزه الله تعالى عن كل ما ذكر، ولا نقول بقول يؤدي إلى ذلك، وكيف يصح في حقه تعالى الظلم والجور، وهو إنما يتصرف في ملكه ومُلكه وخلقه. ولا يجب عليه لأحد من خلقه حق، بل هو متفضل بكل ما يفعل، وإنما يتصور الظلم والجور، في حق من تصرف في ملك غيره، أو عدل عن فعل ما وجب عليه، وهذا كله في حق الله تعالى محال.

وإنما يلزم وصفه بالظلم، والجور والقساوة، لمن قال إن آدم عصاه، ثم جعل ذنبه على جميع ولده، ثم لم يقنع بشيء من دمائهم، بل ولا من دمائهم كلهم، حتى انتقم من إله[3] مثله، وأجرى دمه على خشبة الصليب، فهذا ظلم من حيث حملُ الذنب من لم يفعله، وجور من حيث قتَل إلها، لأجل لقمة من شجرة أكلها غيره، وقساوة من حيث قتل ولده وحبيبه، في عبده العاصي عندكم ولم يعف.

نعوذ بالله من هذه القبائح، ومن التزام هذه الفضائح، وتتبع جهالات الجهال، [يخل بعقول][4] العقال.

على أن كلام هؤلاء القوم، لا يستحق أن يسمع، إذ ليس لهم في العقول مطمع، ولكثرة فساد كلامهم، يحار النحرير الناظر في هذيانهم، فيظل متعجبا وينشد متمثلا.

1- في خ/م: "برأيها".

2- من أمثال العرب المشهورة، وزعموا أن سعد بن زيد مناة بن تميم كان تزوج رهم بنت الخزرج بن تيم الله بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة، وكانت من أجمل الناس، فولدت له مالك ابن سعد وعوفاً، وكان ضرائرها إذا سابينها يقلن: يا عفلاء فقالت لها أمها: سابينك فابدئيهن بعفال فسابتها بعد ذلك امرأة من ضرائرها، فقالت: يا عفلاء، فقالت ضرتها رمتني بدائها وانسلت فأرسلتها مثلاً. وبنو مالك بن سعد رهط العجاج، وكانوا يقال لهم بنو العفيل.

3- في خ/م: "الله". بحق معقول

4- في ط: " بحق معقول".

تفرقت الظباء على خداش[1] ... فلا يدري خداش[2] ما يصيد .

وأنا أكرر الاستغفار من حكاية[3] كلامهم، وأسأله النفع بإظهار فساد مرامهم، ومع ذلك فقد أصبنا منهم غرضا وصادفنا منهم مقتلا . ولئن زادوا زدنا وإن عادوا عدنا .

إن عادت[4] العقرب عدنا لها ... وكانت النعل لها حاضرة.

وينبغي أن نختم الكتاب، بدعاء مأثور عن رسول الله، فلعل الواقف على كتابي هذا يؤمن عند خاتمته، وعسى الله أن يشركنا في صالح دعوته .

فأقول: اللهم اقسم لنا من خشيتك، ما تحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك، ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين، ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا، آمين آمين.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة على محمد سيد المرسلين، وسلام عليه وعليهم في العالمين، وعلى صحبه أجمعين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

[نجز الكتاب المبارك][5] بحمدالله، وحسن عونه [وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيئين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما][6] وحسن توفيقه، على يد العبد الفقير إلى الله تعالى، علي بن محمد بن عانبه الفيومي نسبا، والشافعي مذهبا . حامدا لله ومصليا ومسلما على رسول الله، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، في سابع عشرين شهر ربيع أول سنة تسع وسبعين وثماني مائة.

قال في أصل النسخة: وكان الفراغ منه، ضحوة سادس شهر شعبان، سنة ست وعشرين وسبع مائة، بدمشق المحروسة والحمد لله رب العالمين.

1- في ط: "خراش" . والبيت من الأمثال العربية المشهورة وورد "بخراش" و"بخداش" . وقد ذكره ابن الأثير في المثل السائر، والأبشيهي في المستطرف في الباب الذي أفرده في الأمثال الشعرية. وذكره ابن القيم قائلا: "يحكى أن بعض العرب: أرسل صائدا له على صيد فخرج الصيد عليه من أمامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله فوقف باهتا ينظر يمينا وشمالا ولم يصطد شيئا فقال: تكاثرت الظباء على خراش ... فما يدري خراش ما يصيد" .

2- في ط: "خراش" .

3- في ط: "حكايات" .

4- في خ/م: "عادة" .

5- في خ/م: مكان العبارة بين معقوفتين فارغ.

6- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.

وكان الفراغ منه أواخر يوم الخميس أواخر شهر جمادى الأولى سنة اثنين وأربعين وماية وألف بجزيرة جربة. وأما الفراغ من نسخ أصله ضحوة سادس يوم من شعبان سنة ستة وعشرين وسبع ماية بدمشق المحروسة. ووجدت على الأصل المنتسخ منه ما صورته: "قرأته على الإمام العالم الزاهد مصنفه -رضي الله عنه- بتاريخ مفتتح عام ثمانية وعشرين وستماية. وكتب العبد الفقير إلى الله أحمد بن يوسف السلاسي: "ووجدت على الأصل أيضا: "بلغت المقابلة بالمبيضة والحمد لله وحده، وذلك على يد الفقير إلى مولاه الغني به أحمد بن عمر في العشر الأول لمحرم سنة سبعة عشر وستماية والحمد لله حق حمده والصلاة على محمد نبيه وعبده.

ووجدت أيضا على الأصل المنتسخ منه ما صورته: طالعته من أوله إلى آخره فاستطعت طلعه في موارده ومصادره وإن وجدناه البحر للمعارف زاخرا، وفجرا للحقائق باهرا، فياله من تأليف ما أبدع اختراعه، وأبرع مأخذه وأنواعه، لقد برز في حلبة السباق، وأعجز عن اللحاق، وتتحير الألباب في فهمه، وتتفرق القلوب عن نظمه، جلا نوره ظلام الشكوك، ونهج طريقا للسلوك. وكسرت معنويته الحقيقة مجاز الصلبوب، وحيرت بزئبق إكسيرها كيما الجبروت، ووعدت الواحد بنفي الشريك، ونقض التركيب، والتثليث، وسهلت منهج الحق بين وأورث زند المعارف، منار اهتداء، وقبلة اهتداء، وحجة حاسمة في الابتداء والانتهاء، ورفعت لجاج الأعجاج، بما بسطت من الحجاج، و افك الافك ببرهاتها في فتى تاتيدها اللاهوتي وسلطانها المؤلف حياته اسمه وبقاء رسمه على فناء الأيام وموت الآنام إلى أحرزنه من الأجر وجارة من جزيل الدخر أن حج الله به ميزانه وبيض ديوانه واستخلصه خلاصة لوجهه وأمانا من توبيخه، ونجهه إنه منعم كريم ونفع به الناظر فيه ومجالسه ومن يصطفيه وكتب خادم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن أبي أحمد بن موسى بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن مغيرة بن شرحبيل.

ملحق1

نص كتاب "تثليث الوحدانية في معرفة الله"

قال صاحب كتاب: "تثليث الوحدانية في معرفة الله".

الحمد لله بالغ القوى التي فطرنا عليها، وأمرنا بحمده، فنحن نحمده ونشكره ونعظمه، بمثل تعارفنا في الحمد والشكر والتعظيم لملوكنا، وأهل الرهبة من ذوي السلطان منا، فرضا له شاكرين حامدين، معظمين غير واقفين على ذاته، ولا مدركين لشيء منه، وإنما نقع على أسماء أفعاله في خليقته وتدبيره في ربوبيته.

الآن وجب علي أن أسألك في أمر التثليث عن خلق الله لجميع ما خلق، إن كان خلقهم بقدرة وعلم وإرادة، أم خلقهم بغير هذا؟ فإذا اضطرتك المسألة إلى القول بها فإني أسألك: إن كانت أسماء لذاته؟ أو أسماء لأفعاله؟ فإن قلت: هي أسماء لذاته، فقد نقضت، وجعلتها أسماء للذات ووقعت فيما أنكرت من الجسم. وإن قلت: من أسماء أفعاله التي منها سمي قادر عالم مريد فهو التثليث الذي أمرنا القول به.

فإن قلت لم لا تقولون بسم القادر العالم[1] المريد، إذا قلتم باسم الآب والابن والروح القدس[2]. فيتبين: آب، وابن، وروح القدس[3]، ثالثا.

اعلم أن المسيح لما بعث الحواريين إلى جميع الأجناس، قال لهم: "من آمن منهم فعمدوه على اسم الآب، والابن، والروح القدس[4,5] وإنما خاطبنا بمثل تعاقلنا، فجعل هذه الأسماء كاختلاف قضايا تلك الأفعال، ثم واسط، ثم أخر.

فأول القضايا: خلق الله الجميع بريا[6] سماها: أبا، وأضافها إلى القدرة. وأضاف قضية وعظ المسيح للناس إلى العلم، وسماه: ابنا، لأن العلم لا يوقع عليه، حتى يتولد

1- في خ/م: "القادر العالم".
2- في خ/م: "القدوس".
3- في خ/م: "القدوس".
4- في خ/م: "القدوس".
5- متى 28:19.
6- في ط: "بيد".

كلاما. وأضاف قضية فناء الدنيا[1] ومكافآت جميع أهلها[2] بأعمالهم إلى الإرادة، وسماها: روح القدس[3]، الذي هو قادر عالم مريد، أسماء[4] للواحد الذي لا يتكثر.

إن قلت: إذ قلتم[5] بالتثليث لأنها أسماء أفعال الله، فأسماء أفعاله أكثر من ثلاثة، فقولوا بها كقولكم بالتثليث، لأن عزيز وقوي وغلوب وسميع وقاهر وبصير وغفور وراضي وساخط ومعاقب وغيرها من أسماء أفعاله، فقولوا بها أجمع كقولكم بالتثليث، قلت لك: هذه التي ذكرناها هي أصول جميع التسمية، ومنها تنبثق، وفيها تندغم، فعزيز وقوي وغلوب وقاهر وما أشبهها أصلها القدرة، ومنها تنبثق وفيما تندغم، وغفور ورحيم وراضي وساخط ومعاقب أصلها الإرادة، منها تنبثق وفيها تندغم؛ فإن قلت: فقديم وحي ليست منبثقة منها، ولا مندغمة فيها، فقولوا بالتخميس. قلت لك: إن قديم وحي أسماء ذات لا أسماء[6] أفعال، وكل اسم للذات إنما يؤدي معنى واحدا لنفي ضده، فقديم لنفي محدث، وحي لنفي ميت، ورب لنفي مربوب، وإله لنفي مألوه، فكل اسم من هذه: القدرة والعلم والإرادة التي هي أسماء أفعال ثلاثة لذات واحدة لا يتكثر، وكما أنا قد فهمنا أن نفس الإنسان لا يقوم لها فعل إلا عن ثلاثة، إن نقص منها واحد لم يتم له فعل، وإن زاد فيها رابع لم يتفق، كذلك فهمنا عن خالقنا أن تدبيره بنا عن ثلاثة، وذلك أن الإنسان لا يقوم له فعل دون الثلاثة؛ وذلك: القدرة والعلم والإرادة لا[7] رابع منها، فإن عجزت معها[8] واحدة لم يتم له بالاثنين فعل، لأنه إن علم وأراد ولم يقدر فقد عجز، وإن قدر وعلم ولم يريد، فلا يتم له شيء إلا بالإرادة، وإن قدر ولم يعلم، لم يتم له فعل بالجهل. فقرب لنا الكتاب: معرفة الخالق بخلقه لهم، بمثل تعارفنا في أنفسنا، أن القدرة والعلم والإرادة خواص قائمة هي المتممة للفعل منا، وإنها لذات واحدة. وكذلك التثليث في الله واحد.

1- في ط: "فناء جميع الدنيا".
2- في ط: "مكافاة أهلها".
3- في خ/م: "القدوس".
4- في ط: "اسما".
5- ما بين المعقوفتين ساقط في ط.
6- في خ/م: " اسم".
7- في ط: "والإرادة لا رابع" .
8- في ط: "منها".

فإن سأل سائل من المخالفين فقال: فما الدليل على صدق ما تدعون من تثليث وحدانية الخالق؟ وكيف يمكن أن يكون[1] الثلاثة واحدا والواحد ثلاثة، مع ما ابتدأتم به من القول وإثباتكم إياه فردا لم يزل؟

قلنا لهم: إما أن تكون الثلاثة واحدا والواحد ثلاثة، فذلك[2] لعمري مالا يمكن كونه، ولكنا[3] نقول: أن جوهرا قديما لم يزل موجودا بثلاث خواص أزليات، جوهرات غير متباينات، ولا متفرقات في الجوهر القديم الأزلي، الذي لا يتبعض ولا يتجزأ بعينه وكماله، فلا هو ثلاثة، وجميع الثلاثة خواص هي بمعنى ما هو واحد، ولا هو واحد بمعنى ما هو ثلاثة، أعني ليس هي[4] خاصة واحدة، بل ثلاثة خواص، فهذا مذهبنا في تثليث وحدانية الخالق.

ثم نبدأ بالقول في الاتحاد، فإن قلت فإذا كان[5] التثليث عندكم أسماء أفعال لخواص قائمة، والذات واحد لا ينقسم ولا يتبعض فلم[6] بعضتموه دون الآب وروح القدس[7]؟ [ولم سميتم المسيح ابنا][8] ولم سميتموه أبا وروح القدس؟

اعلم أنها لم تفارقنا[9] القضايا بالأفعال اختلفت أسماءها كما قدمنا فأضفت[10] قضية خلق الخليقة بدءا[11] إلى القدرة وسميت أبا وأضفت قضية الموعظة إلى العلم المتولد كلاما وسمى ابنا وانفردت قضية الوعظ باللحمة دون غيرها لأن المسيح إنما اتخذ في الدنيا للموعظة لا لخلق الخليقة لأن الله لو اتخذ جسما ليخلق به الخلق بدءا[12] يسمى الجسم أبا وأضفت اللحمة إلى الأب ولكنه إنما اتخذه لموعظة الخلق والوعظ مضاف إلى العلم

1- في ط: "تكون".
2- في ط: "فلذلك".
3- في ط: "ولكن".
4- في ط: "هو".
5- سقطت كلمة "كان" من خ/م.
6- في خ/م: "فلما بعضمتوه".
7- في خ/م: "القدوس".
8- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.
9- في ط: "لما تعارفت القضايا بالأفعال".
10- في ط: فاختلفت قضية خلق الخليقة.
11- في ط: "بيد".
12- في ط: "بيد".

المتولد كلاما فسمى إبنا فلذلك قال الإنجيل التحمت الكلمة وسكنت فينا فأفرد الكلمة بالإلتحام لأنها الواعظة بالأمر والنهى دون القدرة والإرادة فهذا أخصر[1] شرح الإتحاد.

فإن سأل سائل عن معنى الإتحاد قلنا نقول بذلك تقليدا للإنجيل والنبيين ورسل[2] رب العالمين فيما نقلوا من ذلك وأعلموناه[3] عمن الله وفيما نص لنا عنهم بتصديق الأخبار الذي لا تكاذب فيها.

فإن قلت وكيف يجوز أن يتوحد[4] القديم بالحادث والخالق بالمخلوق قلنا على تقليد الكتاب وعلى الجائز في العقول وذلك أنا لا نقول إن القديم في الجوهر صار حادثا ولا الحادث في الجوهر صار قديما ولكنا نقول صار الحادث إلها ولا نقول صار الإله حادثا[5] كما نقول صارت الفحمة نارا ولا نقول صارت النار فحمة.

فإن قلت فما علة هذا الإتحاد قيل لك الإرادة[6] وسائلك[7] هذا كسائل يسأل فقال لم خلق الله العالم فمن الجواب له أن يقال له أراد ذلك فإن قلت أفهذا الإتحاد[8] قديم أو حديث[9]؟ قيل لك قديم وحادث، فإن قلت فكيف يكون قديما وحاديثا[10]؟ قيل لك قديم بالقوة حديث[11] بالفعل. وكل عنده حاضر لأنه تبارك وتعالى لا تأخذه الأزمان ولا يعد الأشياء بالأعداد وكل عنده مقيم حاضر[12].

ثم نقول لمن ناظرني من نافية[13] المسلمين: إن كتابكم يقول إن موسى سمع الله وكلمه

1- في خ/م: "أحصر".
2- في خ/م: "رسول".
3- في خ/م: "وأعلمونه".
4- في خ/م: "يتوخذ".
5- في خ/م: "ولا إن الحديث في الجوهر صار قديما، ولكنا نقول صار الحديث إلها، ولا نقول صار الإله حديثا".
6- في خ/م: "للإرادة".
7- في خ/م: "سئلك".
8- في خ/م: "الاتخاذ".
9- في ط: حادث.
10- في ط: "حادثا".
11- في ط: "حادث".
12- في ط: "حاضر مقيم".
13- في ط: "باقية المسلمين".

تكليما فكيف كان ذلك وأنتم قد أعجزتم جميع الحاسات من إدراكه في الدنيا والآخرة لأنه لا مفطور ولا مشبه بشيء مما يتصور في الأوهام[1].

فإن قلتم إنه كلمه بذاته فقد أوجبتم له جارحة النطق ووقعتم فيما أنكرتم[2] من الجسم وإن قلتم إن الله خلق له كلاما فقد أثبتم كلاما مخلوقا قائما بخلقه جوهرا في نفسه إذ لم يكن عرضا في الله قال لموسى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ [3]، وأثبتم أن الكلام واسطة بين الله وبين موسى وأن موسى[4] أقر لها[5] بالربوبية لقوله: ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [6] وقول الصدى الذي هو المتكلم له: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾، فإن قلت أن الصدى لم يقل له أنا الله ولكنه في مسامع موسى أنا الله قلت لك أن الصدى هو العامل في مسامع موسى وهو المحرك له وعليه رد وإياه أجاب[7]. والدليل على أنه كان في غفلة فما كان يريد الله من إرساله إلى فرعون حتى خلق له نارا أبصرها فنزع إليها فلما أتاها أحجب الله له فيها صدى قال له: ﴿ أَنَا ٱللَّهُ ﴾، و﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ إلا أن تقولوا إن موسى قد كان يعرف ما كان يريد الله من إرساله إلى فرعون دون النار والكلام فيكون خبر النار والكلام لا معنى لهما وخبرهما لم يفد شيئا، وهذا من القول تشنيع الكذب وإذا لم يكن بد من أن موسى لم يدرك المرسل له إلا بواسطة اتخذ[8] له يسمى باسمه فالواسط هو العامل في موسى وعنه تحمل الرسالة حتى يأتي فرعون بمصر ويقول إن الله تراءى لي بطور سيناء وبعثني إليك لترسل معي بني إسرائيل ولا تعذبهم مجددا الموضع الذي أقبل منه من عند الله وكان الله بمصر وفي كل مكان ولا كان يعجز موسى عن معرفة الأمر والنهي إلا بكلام محدود من جسم مفطور خلق الله له نارا أبصرها فنزع إليها ثم أحجب فيها صدى سمعه منها قام عنده مقام خالق فسماه إلها.

1- في خ/م: "أوهام".
2- في ط: "فيما أنكرتموه".
3- سورة طه، آية: 14.
4- "وأن موسى"، ساقطة من خ/م.
5- "لها" ساقطة من ط.
6- سورة الأعراف، آية: 143.
7- في خ/م: "جواب".
8- في ط: "اتحد".

فإذا لم يكن بد من الصدى فقد قال أنا الله فأسألك إن كنت تصدق الصدى أم تكذب فإنه لم يكن بدا[1] من تصديقه في قوله بالربوبية[2] إذ قال: ﴿ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾، قلنا لكم وكذلك صدق المسيح في قوله أنا الله وإنا لنرى كذا صدقه[3] الحواريون ومن اتبعه من غيرهم في قوله في الربوبية كتصديق موسى للكلام والاتمار[4] له برسالته إلى أهل مصر وقد أوجبتم أن جسم المسيح وكلامه لما خاطب[5] بالربوبية مثل جسم النار والكلام إذا خاطب موسى بالربوبية.

فإن قلت إن موسى لم يعبد النار والكلام[6] كما تعبد النصارى المسيح. قيل لك إن الكلام قال له اعبدني وسجد له موسى وقال: تبت إليك وأنا أول المؤمنين فإن قال المسلم عند الإضطرار إن النار والصدى واسطة ولكنها خلاف المسيح وكلامه لأن النار ليس من طبعها الكلام وأما المسيح فإنه كان إنسانا معروفا بالكلام فلا آية فيه قلنا لك إذ قد أوجبتم أن الخليقة لا تدرك الخالق إلا بجسم مخلوق يتخذه[7] وتجعله واسطا بالواسط[8] بينه وبين من خاطب من الأنبياء ويصير الواسطة لهم إلها فقد جامعتموه على الإقرار بواسط[9] مخلوق بالربوبية للمسيح ووقعتم فيما أنكرتم وليس ينفعكم ملجؤكم إلى القول بأن النار والمسيح ليس آية.

وإنما أوجبتم علينا الشرك في قولنا بواسطة فإذن العقل والحق لا يعيب الواسط فكلا الواسطين بين الله والخلق. وإذا ذهبتم إلى أن النار صادقة لا يتخوف منه[10] الكذب وأن المسيح يتخوف عليه الكذب فإن موسى قد أوجز في النار والكلام وإنما قطع الشك

1- في ط: "فإذا لم يكن بد".
2- في ط: "قول الربوبية".
3- في ط: "صدق".
4- في ط: "وألا يتمارى وأظنها الأصح".
5- في ط: "خطب".
6- "والكلام" ساقط في ط.
7- في ط: "تتخذه".
8- في ط: "واسطة".
9- في ط: "بواسطة".
10- في ط: "عليها".

باليقين بآية العصا واليد الذي أدخل[1] في جيبه وكذلك قطع المؤمنون بربوبية المسيح شكهم بإقرار الموتى عند إحيائه لهم بربوبيته وإن ذهبتم إلى أن خلق النار في ذاتها أشرف فإن كل مخلوق في الدنيا هو منافع لولد آدم مسخرة لهم وكفى بقولكم في قرآنكم[2] إن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم وأن ابليس مسخوط عليه في الأبد لإبائته[3] السجود له وقوله: ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [4].

فإن قلتم كذبتم على المسيح لأنه لم يدع مما قلتم شيئا قلنا إنما أنكرتم علينا القول بما وجدنا في كتابنا نحن لا نعتدل[5] بمثل هذا في الأبد فاضررناكم من كتابكم إلى القول بمثله فلما ثبت[6] قلتم كذبتم على المسيح فلم تكذبونا وكتابنا على القول بمثل قولكم في واسطة موسى وعبادته لها وأنتم لما أوجبتم أن الأمة تحاسب بعملها يوم القيامة أن محاسبها يخاطبها يوم القيامة ويكافئها بأعمالها ثم يقول قرآنكم[7]: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [8].

فما تنكرون أن يكون المسيح الذي كان واسطا[9] للوعظ أن يكون هذا المقبل مع الملائكة كما قدمه في الإنجيل حيث قال: "يقعد ابن الإنسان أعني[10] الحجاب المتخذ من نسل آدم في مجلس عظمته ويقدم[11] جميع الأمم بين يديه ويميزهم كما يميز الراعي الغنم من المعز فيحمل المؤمنين عن يمينه والمجرمين عن شماله ثم يعاتبهم ويأمر[12] كل طائفة بمثل ما قدموا في دنياهم"[13].

1- في ط: "أدخلها".
2- في خ/م: "قولكم"، وهو تصحيف.
3- في ط: "لإبائه".
4- سورة الأعراف: آية: 12.
5- في خ/م: "نعتدل"، وهو تصحيف.
6- في ط: "أبينا".
7- في خ/م: "تقول قراءتكم".
8- سورة الفجر، آية: 22.
9- في ط: "واسطة".
10- في ط: "يعني".
11- في ط: "وتقدم".
12- في ط: "ويامن".
13- متى25: 31-33.

وإذا أوجبتم أن الله لا مفطور ولا مدرك بحاسة فقد وجب أن المحاسب المسموع مدرك بالحواس مع إقراركم أن ربكم قال ترون ربكم ولا تضامون في رؤية القمر ليلة البدر أو لم تتكرون أن يكون المسيح الذي كان واسطا للوعظ أن يكون هو المقبل مع الملائكة كما قال عنه قرآنكم: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [1].

ابتداء احتجاج الثلاث ملل بعون الله:

اعلم أن أهل الملل أجمعين متكافئون[2] في إدعاء الإيمان حاكمون[3] على كل قوم لأنفسهم بالإيمان ولغيرهم بالكفر قد غلبت عليهم في ذلك الغواية[4] وتأديب الصبا ووصية الآباء والأجداد[5] حتى صار ذلك طبعا فيهم لازما لهم فكلهم قد سهل عليهم انتقاص[6] غيرهم وطاب عندهم[7] دينهم بالتهنية في دنياهم عن ميعاد[8] آخرتهم وصاروا في تدبير دنياهم ومعايشهم على خلاف ذلك لأنك تجد أهل كل ملة يزعمون أن غيرهم من الملل ألحف على كل طلب معايشهم والطف[9] في استجلاب أرزاقهم.

وأحسب أن العلة في ذلك رغبتهم في التكاثر من الدنيا وهي[10] التي تدخلهم إلى التحاسد والمغايرة[11] فيعجز كل قوم أنفسهم في طلب معاشهم وأن الآخرة عندهم مهملة لبعدها عن حواسهم.

1- سورة البقرة، آية: 210.
2- في خ/م: "متكافئين"، وهو تصحيف.
3- في خ/م: "حاكمين"، وهو تصحيف.
4- في خ/م: "العزاية"، وهو تصحيف.
5- في خ/م: "الأدباء"، وهو تصحيف.
6- في خ/م: "ابتغاض"، وهو تصحيف.
7- في خ/م: "عنادهم"، وهو تصحيف.
8- في ط: "معاد".
9- في خ/م: "النطف"، وهو تصحيف.
10- في ط: "وهي".
11- في ط: "المعايرة".

فلذلك يزعم[1] أهل كله ملة أنهم أحق خيرا من غيرهم فلذلك قل تناصفهم فيها وإن طال عصرهم لأن كل قوم قد قلدوا سلفهم وطاب عندهم خبرهم في مدح دينهم وذم غيرهم فأسقط الرجل منهم كل حاسة وأمات خواطره وأذهب فهمه بقطع كشفه عن مصالح ما يستقبله من خبره وإستعماله إياه بما هو مدبر عنه من دنياه.

ولتجدن[2] الرجل من كل ملة يروم شراء خرقة يرقع بها ثوبه أو شركة لنعله فتراه يستجير ويستشير خوف السقطة والغلط، ثم إذا صار إلى كشف دينه ومعاده أكتفى فيه بتقليد سلفه ثم لا يبالى [بدليل] [3] من خالف ملته وانتقص[4] كل خارج عن دينه.

فكل يقتحم المناظرة وإن لم يحسنها ويراها فريضة وهو لا يفهمها ولم يتخذ شيئا من العلوم والصناعات إلا الفضول معترف فيها للفضائل لا الجدال والمناظرة وأن الجميع يدعون أمرا لا يقدرون على التناصف فيه لبعد غايته [لأنهم يختلفون في الباري الذي][5] لا يدركونه بالحواس فيختلفون في معرفته وإنما يتعارف الناس فيما [يُدرك بالحواس ويُتصور][6] في الأوهام فينقمع العقل السليم في إجابة الحق إذا أدركه وانكشف[7]. فلذلك يجادل كل قوم عن دينهم ويفضلون أنفسهم على غيرهم ويدلك على ذلك أنك تجد الصقلبي العبد الحبشي يقع مرقوقا بيد رجل من أحد الثلاث ملل فيرده إلى ملته ويورد عليه أخبار سلفه فيتقبله منه كتقبل الأطفال المعذبين فيه وعلته في ذلك أنه يجد صدره خاليا من الأخبار المدونة في الكتاب[8] فيتعلق بما أورد عليه من أخبار من علمه ويتمكن ذلك في صدره حتى يصير واحدا من أهل الملة في إدعاء الفضل لها وانتقاض[9] أهل غيرها والطعن عليهم.

1- في خ/م: "يزعمون"، وهو تصحيف.
2- في خ/م: "وليجدن"، وهو تصحيف.
3- في خ/م: "كيف"، وهو تصحيف.
4- في ط: "وينتقص".
5- في ط: "وهو أنهم ليختلفون في معرفة الباري تعالى لأنه".
6- في ط: "يدركونه بالحواس ويتصورونه".
7- في ط: "وانكشف له".
8- في ط: "الكتب".
9- في ط: "انتقاص".

ولو أن مجوسيا دخل بلدنا طارئا أو تاجرا فكبرت[1] عليه مجوسيته ووحش لوحدته على البقاء عليها عازما على رفضها ثم طلب الخروج إلى أفضل الثلاث الملل المفسدة[2] عليه مجوسيته لتحير وعمى أيتها[3] أفضل فخرج[4] إليها [إذا وجد][5] كل قوم يدعون لأنفسهم الإيمان ولغيرهم الكفر ثم تجدهم متكافئين في إدعاء الآيات لأن أهل كل دين يزعموه أن بينة دينهم على آيات قامت وبراهين ظهرت وما تجد عند أحدهم آية من تلك الآيات التي زعموا أنها اضطرت عقل المجوسى إلى الدخول في أديانهم.

ولكن الذي كان يضمه إليه حسن نظره أن يتوقف حتى يسمع حجتهم ويستعمل عقله في دعواهم ليفهم [ما احتجاجهم من نبذ الحق][6] فكان يجد في دعواهم أن النصراني والمسلم مقران لليهودي بأن دينه أول وأنبياؤه حق ثم يقول النصراني إن كتابي جاء من بعد فنسخ طاعة دين اليهودي ثم يقول المسلم وكذلك جاء كتابي بعد فنسخ طاعة دين النصراني كما نسخ اليهودي فإذا كشف[7] المجوسي اليهودي عما ادعياه أنكرهما وقال لم يأت بعد كتابي من الله كتاب ثم إذا سأل النصراني عما ادعاه المسلم أنكر أيضا وقال لم يأت [كتاب من الله بعد كتابي][8].

فوجب على النصراني أن يأتي بالبينة على اليهودي من الكتب التي أقر له بها فإن لم يكن فيها مسيحا منتظرا فلا حجة له عليه ولا معلق له إليه وإن كان فيها مسيحا منتظرا يرجى صلاح الحال من سببه[9] ووافقت علاماته علامات الذي قد جاء وظهر فإذا كان فقد اختار النصراني الرسالة الأولى والثانية لنفسه وخرج اليهودي عن رضا[10] المعبود بجحده الرسالة الثانية ودفعه لسنته[11] فيما أعقب به في عباده من الرسالة الثانية

1- في خ/م: "فكسرت"، وهو تصحيف.
2- في خ/م: "المسدة"، وهو تصحيف.
3- في ط: "آية".
4- في ط: "فيخرج".
5- في ط: "لأنه يجد".
6- في خ/م: "فاحتجاجهم من نبر الحق"، وهو تصحيف.
7- في ط: "كاشف".
8- في ط: "بعد كتابي من الله كتاب".
9- في خ/م: "سببه"، وهو تصحيف.
10- في خ/م: "رضى".
11- في ط: "بسنته".

ثم يحمل المسلم البينة على النصراني من الكتب التي أقر له بها وجامعه عليها فإن لم يكن فيها محمد منتظرا[1] فلا حجة له عليه ولا مطعن[2] له إليه.

وإن كان فيها محمد منتظرا ثم وافقت علاماته علامات الكتب فقد أصاب المسلم ولزم النصراني الخروج عن رضا معبوده.

قال: ومن بينة النصراني على اليهودي أن في الكتب التي أقر له بها وجامعه عليها مسيح منتظر لا يقدرون على جحده لأن إنتظاره معروف فيهم وظاهر عليهم ودل على زمان مجيئه أنهم منتظرون له منذ سبيت اليهود وبددت إلى اليوم فإذ قد لزم اليهود انتظاره[3] من وقت تفريقهم في الدنيا فقد وجب للنصارى أن يقولوا أنه قد جاء والدليل على أنه هو أن اليهود اختلفت من سببه فصارت فرقتين على الكفر والإيمان به فالفرقة الكافرة هم اليهود والفرقة المؤمنة هم النصارى فآمنت طائفة وكفرت طائفة والكتب أجمع مع كلامهم يحتجون بها بعضهم على بعض يجتمعون على ألفاظها وقراءاتها ويختلفون في تأويلها كفعلهم إلى هذه المدة والذي يستدل به للفرقتين على كفر أحدهما أن ننظر في الكتب ونستدل بها على حالة بني إسرائل منذ كانت على الإيمان والكفر فإنهم إن كانوا على الكفر فإنه يلزمهم الذلة إذ الذلة والأسرة والفرقة علامة الكافرين وموجودة[4] في الكتب أن الله لم يوعد بالثواب [في الآخرة][5] لبني إسرائيل على الطاعة والإيمان وإنما وعدهم في الدنيا فوعدهم عند الطاعة والإيمان بالملك والنعمة والنقمة من عدوهم والتثمير لزرعهم وفواكههم وأوعدهم عند الكفر والعصيان بالتغلب عليهم والملك والقهرة لهم من عدوهم فلم يزالوا مؤيدين عند الطاعة والإيمان ومستعبدين عند الكفر والعصيان قال: وأنا أثبت لك أن المسيح قد جاء من كلام الأنبياء قال النبي هوشع بن بئيرى[6] عليه السلام هكذا بكلام عبراني: "كي يا ميم رييم يا شابوا بأنا إسرائل أن ملخ

1- في خ/م: "منتظر"، وهو تصحيف.

2- في خ/م: "معلق"، وهو تصحيف.

3- في ط: "بانتظاره".

4- في ط: "موجود".

5- ما كتب بين معقوفتين ساقط من خ/م.

6- في خ/م: "باوي". ابن بئيري. وهو نبي من الأنبياء الصغار، تنبأ أيام الملوك عزريا ويوثام وأحاز وحزقيا ملوك يهوذا ويربعام الثاني ملك المملكة الشمالية (هو1: 1). ويظن أن فترة نبواته دامت حوالي أربعين سنة، في القرن الثامن قبل الميلاد. وقد عاصر هوشع سقوط السامرة سنة 722 ق.م. وكان ينتمي إلى مملكة الشمال، وإلى تلك المملكة (أي السامرة). تنبأ، وكان معاصرا لإشعياء

وإن صار"[1] تفسيره[2]: "إن أياما كثيرة يقيموا بنى إسرائيل دون ملك ودون مقدم"[3]. فإذا سئل اليهودي الجاحد إن كان لهم ملك أو مقدم فلا يكون جوابه إلا أن يقول ليس عندنا ملك ولا مقدم فيقال لهم إذ ليس عندكم ملك ولا مقدم فاسمع ما قال يعقوب الذي كان له اثنى عشر ولدا الذي منهم يوسف الصديق رضي الله عنهم أجمعين إلى يوم الدين قال الفاضل يعقوب بكلام عبراني: "لو يا صور شابات مى يهودا ومحو كيك [صبان غلات غاض][4] كى يا بوشيلو ولوا اقاهث عميم"[5]، وهذا تفسيره[6] لا ينتقض قضيب[7] الملك من يهودا وراسم من بين رجليه حتى يأتى المسيح وله تطوع الأمم.

فيقال له[8] إذ ليس لكم ملك ولا مقدم فقد جاء المسيح لقول[9] يعقوب [لا ينتقض قضيب الملك من يهودا وراسم من بين رجليه حتى يأتي المسيح فقد كمل ما قال يعقوب][10] النبي إذ ليس لهم ملك.

وقال يرميا[11] النبي عليه السلام في الطائفة الكافرة به بكلام عبراني هكذا: "أم يا

الذي تنبأ لملكة الجنوب (يهوذا) (قابل هو1: 1 مع إش1: 1). كما أن هوشع عاصر عاموس في المملكة الشمالية وميخا في المملكة الجنوبية. وسفر هوشع أول أسفار الأنبياء الصغار في ترتيب وضعها في الكتاب المقدس. وهو السفر الثامن والعشرون، في العهد القديم ويتألف من قسمين: ص1-3، ثم ص4-14. أما القسم الأول فيرجع إلى السنوات الأولى من عهد نبوءة هوشع. وهو يفسر إصحاحات القسم الثاني، التي تدور حول عدم وفاء شعب بني إسرائيل في تاريخهم الطويل (4: 1-5: 7، 6: 4-7: 16، 8: 11)، وحول ضرورة الطهارة، والاعتراف بمحبة يهوه (6: 1-3، 12: 14)) ويرمز إلى خيانة بني إسرائيل لله في الإصحاحات الثلاثة الأولى بالخيانة الزوجية.

1- سفر هوشع3: 4. כִּי יָמִים רַבִּים, יֵשְׁבוּ בְּנֵי יִשְׂרָאֵל--אֵין מֶלֶךְ וְאֵין שָׂר.

2- في خ/م: "فسره".

3- هوشع3: 4، "لأن بني إسرائيل سيقعدون أيام كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحةوبلا تمثال وبلا أفود وبلا ترافيم".

4- في ط: "مبين رعلاف عاد".

5- التكوين49: 10. לֹא-יָסוּר שֵׁבֶט מִיהוּדָה, וּמְחֹקֵק מִבֵּין רַגְלָיו, עַד כִּי-יָבֹא שִׁילֹה, וְלוֹ יִקְּהַת עַמִּים.

6- في خ/م: "فسره".

7- في ط سقطت كلمة "قضيب".

8- في ط: "لهم".

9- في ط: "كقول".

10- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.

11- في ط: "إرميا".

عمود موشا وشموال لفاناى[1] أن نفشى[2] الها عم هذا شلاح معال فاناى ويا ساوها ياكى نمروا[3] أناه ناسا وامرتا [لاميم مي][4] لما باث لما باث امى لسانى[5] أمى لا راعاب لا راعاب وخلاي[6] حامتي[7] بام".[8]

اسمع كلام الله على لسان رميا[9] النبي تفسيره[10]: "إن وقف إلى موسى وشموال لا نرضى عن هذه الأمة أرميهم من قدامى ويخرجوا فإن قالوا أين يخرجوا فتقل لهم من الموت إلى الموت ومن الغي إلى الغي[11] ومن الجوع إلى الجوع ويكمل غضبي فيهم".[12]

فيهم في غضب الله بكفرهم بالمسيح الذي قد جاء.

ثم قال الله[13] على لسان يعقوب النبي الفاضل بلسان سرياني هكذا: "[الا يا عضا عاث شلطان مرفاث][14] يهودا وصفوا متانا بانوهي عاض على ما عاثرا[15] ياتا ماشيحا داث لاه ملخوثا ولاه اشتماعون عما[16] مايا" وهذا تفسيره[17]: "كما قاله الله على لسان نبيه

1- في ط: "لقاني".

2- في ط: "نقسى".

3- في ط: "يمرو".

4- في ط: "لاهيم هى".

5- في ط: "تشاني".

6- في ط: "خلاقى".

7- في ط: "جماتى".

8- إرميا15: 1-2، א וַיֹּאמֶר יְהוָה, אֵלַי, אִם-יַעֲמֹד מֹשֶׁה וּשְׁמוּאֵל לְפָנַי, אֵין נַפְשִׁי אֶל-הָעָם הַזֶּה; שַׁלַּח מֵעַל-פָּנַי, וְיֵצֵאוּ. ב וְהָיָה כִּי-יֹאמְרוּ אֵלֶיךָ, אָנָה נֵצֵא; וְאָמַרְתָּ אֲלֵיהֶם כֹּה-אָמַר יְהוָה, אֲשֶׁר לַמָּוֶת לַמָּוֶת וַאֲשֶׁר לַחֶרֶב לַחֶרֶב, וַאֲשֶׁר לָרָעָב לָרָעָב, וַאֲשֶׁר לַשְּׁבִי לַשֶּׁבִי.

9- في ط: "إرميا".

10- في خ/م: "فسره".

11- في ط: "الفنى إلى الفنى".

12- إرميا15: 1-2. ثم قال الرب لي وان وقف موسى وصموئيل أمامي لا تكون نفسي نحو هذا الشعب. اطرحهم من امامي فيخرجوا ويكون إذا قالوا لك إلى أين نخرج انك تقول لهم هكذا قال الرب الذين للموت فإلى الموت والذين للسيف فإلى السيف والذين للجوع فإلى الجوع والذين للسبي فإلى السبي.

13- في ط: "تعالى".

14- في ط: الا يا عصا عاث غلطان مد أفات".

15- في ط: "عاث ذا".

16- في ط: "عاما".

17- في خ/م: "فسره".

يعقوب: "لا ينتقض قضيب الملك من يهودا وراسم من أنبيائه[1] حتى أن يأتي ما شيحا الذي هو المسيح الذي له ملك[2] وله تطوع الأمم".

وقال الله تعالى على لسان يرميا النبي في انقطاع ملكهم بكلام عبراني هكذا: "فأضاع أدوناى ياحور أف كل كان[3] إن إسرائيل"، وهذا تفسيره[4]: "قطع الله بشدة غضبه جميع دولة إسرائيل" فافهم فقد جاء المسيح وانقطع ملكهم.

وقد قال الله على لسان يرميا النبي في إثبات شريعة المسيح وإيمان الحواريين قائلا بلسان عبراني: "[من ياميم بايم نوم أدوناي واحارتي لابت وابت إسرائيل يهودا بريث حاد شالو خبريت أشير نار بي أبوثام باليوم موسى أثام هي أرص نص ثم ميلت عابا ضيم][5] تفسيره، يقول الله: وأثبت لبيت إسرائيل ويهودا عهدا جديدا ليس كالعهد الذي قلت لآبائهم في اليوم الذي أخرجتهم من أرض مصر من بيت العبودية".

فبين الله بهذا الكلام إيمان الحواريين[6] والتابعين لهم كما قال الله في موضع آخر على لسان إرمياء النبي بلسان عبراني عن إيمان الحواريين قال: "اشربوا[7] بانيم شوبابيم نوم ادوناى كى انوخى با علتى باخيم ولا كحتى اتخيم [أحاد مي عيدا وشنايم مشباحا واهاباتى][8] أتخيم سيون"[9].

1- في ط: "أبنائه".

2- في ط: "الملك".

3- في ط: "مكان".

4- في خ/م: "فسره".

5- إرميا 31: 31-32. ورد النص في ط باختلاف طفيف في بعض الحروف والكلمات، " هنا يا ميم بايم نوم يهوه واخارتى ات بت إسرائيل وايت بت يهودا بريت حارشاه لو اخبريت اشير بريت ات ابو ثام بيوم هو تزيكى بيرم لهو عاييم مى ارس مصريم امير همه هفرو ات بريت وانبى بعلتى بم نام يهوه ". والنص بالعبرية هو: " לא ל ֹא כַבְּרִית, אֲשֶׁר כָּרַתִּי אֶת-אֲבוֹתָם, בְּיוֹם הֶחֱזִיקִי בְיָדָם, לְהוֹצִיאָם מֵאֶרֶץ מִצְרָיִם: אֲשֶׁר-הֵמָּה הֵפֵרוּ אֶת-בְּרִיתִי, וְאָנ ֹכִי בָּעַלְתִּי בָם--נְאֻם-יְהוָה. לב כִּי ז ֹאת הַבְּרִית אֲשֶׁר אֶכְר ֹת אֶת-בֵּית יִשְׂרָאֵל אַחֲרֵי הַיָּמִים הָהֵם, נְאֻם-יְהוָה, נָתַתִּי אֶת-תּוֹרָתִי בְּקִרְבָּם, וְעַל-לִבָּם אֶכְתֲּבֶנָּה; וְהָיִיתִי לָהֶם לֵאל ֹהִים, וְהֵמָּה יִהְיוּ-לִי לְעָם. ".

6- في خ/م: "الحواريون".

7- في ط: "شوبوا".

8- في ط: "أحاد معير وشنايم مشتبان وهاباتى".

9- إرميا 3: 14. שׁוּבוּ בָנִים שׁוֹבָבִים נְאֻם-יְהוָה, כִּי אָנ ֹכִי בָּעַלְתִּי בָכֶם; וְלָקַחְתִּי אֶתְכֶם אֶחָד מֵעִיר, וּשְׁנַיִם מִמִּשְׁפָּחָה, וְהֵבֵאתִי אֶתְכֶם, צִיּוֹן

تفسيره: "ارجعوا يا أولاد اللجاجة فإني [انضريت فيكم][1] وآخذكم واحدا من مدينة واثنين من عشيرة وأدخلكم إلى صهيون وكذلك آخذ الحواريين واحدا من مدينة وإثنان من عشيرة"[2]، ثم قال لضيق الآية: "واناتتى[3] لا خيم روعيم كلبى" تفسيره: "ونعطيكم رعاة كقلبي"[4].

[ثم قال][5]: "وأراع أتخيم رعاه واهسكال"[6] تفسيره[7]: "ويرعوكم المعرفة[8] والفهم"[9] [وكذلك جعل من الحواريين أئمة ورعاة يعلموا الناس المعرفة والفهم][10]. ثم قال لضيق الآية في ألا يعمل بالعهد البالي: "واها ياكى ترفوا[11] افريتم بأريش بالبوميم هاهما نوم ادوناى لو يمروا [عر دارون ريث][12] ادوناى ولو يا عالا على لاب ولديز كا وابوا ولوا يفقوا ذوا ولو ياعا ساعود"[13]، تفسيره[14]: "ويكون إذا كثرتم وتنمو في الأرض في تلك الأيام يقول الله لا يقولوا[15] أبدا بتابوت عهد الله ولا يصعد على قلب ولا يذكر به ولا يعتقده ولا يعمل به أبدا"[16].

1- في ط: "سدت عليكم".

2- النص العربي من سفر إرميا3: 14: "ارجعوا أيها البنون العصاة يقول الرب لاني سدت عليكم فآخذكم واحد من المدينة واثنين من العشيرة واتي بكم إلى صهيون"

3- في ط: "وناتي".

4- في ط: "كقلبي".

5- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

6- النص العبري من إرميا3: 15: " וְנָתַתִּי לָכֶם רֹעִים, כְּלִבִּי; וְרָעוּ אֶתְכֶם, דֵּעָה וְהַשְׂכֵּיל. ".

7- ساقطة في ط.

8- في ط: "بالمعرفة".

9- النص العربي إرميا3: 15 " وأعطيكم رعاة حسب قلبي فيرعونكم بالمعرفة والفهم. ".

10- ما بين المعقوفتين ساقطة من خ/م.

11- في ط: "تربوا".

12- في ط: "غر دارون بريث".

13- النص العبري من سفر إرميا3: 16، "וְהָיָה כִּי תִרְבּוּ וּפְרִיתֶם בָּאָרֶץ בַּיָּמִים הָהֵמָּה, נְאֻם-יְהוָה--לֹא-יֹאמְרוּ עוֹד אֲרוֹן בְּרִית-יְהוָה, וְלֹא יַעֲלֶה עַל-לֵב; וְלֹא יִזְכְּרוּ-בוֹ וְלֹא יִפְקֹדוּ, וְלֹא יֵעָשֶׂה עוֹד.".

14- في خ/م: "فسره".

15- في ط: "تقولوا".

16- النص العربي من إرميا3: 16، "ويكون إذ تكثرون وتثمرون في الأرض في تلك الأيام يقول الرب أنهم لا يقولون بعد تابوت عهد الرب ولا يخطر على بال ولا يذكرونه ولا يتعهدونه ولا يصنع بعد.".

فاعلم أنه أمن الحواريين والتابعين لهم من الأمم.

ثم قال سليمان الفاضل: "لم أتعلم علما وعرفت معرفة المقدسين"[1].

فافهم أيها الإنسان ما هي معرفة المقدسين الذي لا يمكن لأحد أن يكون مقدسا إلا أن عرفها وآمن بها.

وفي[2] حقيقة الإيمان قال: "من صعد إلى السماء وهبط من قبض الأرواح في كفيه من جمع الماء في ثوب"[3]، ثم قال بكلام عبراني: "مى هاكيم كل افس أريس [مشموا أمشم][4] بنوا"[5].

فافهم فسره وكن عاقلا مدبرا ترشد.

قال سليمان: "مى هاكيم كل افس أريس [مشموا أمشم][6] بنوا"[7] تفسيره: "من أقام جميع أقطار الأرض ما اسمه واسم ابنه" ثم قال لضيق الآية بالعبراني: "كل أمراث ألواه صروفا ماغين هو [لا حول ها حوسيم بوا][8-9]، تفسيره[10]: "جميع كلام الله ترس منير هو لجميع الواثقين[11] به"[12] فافهم.

1- سفر الأمثال30:3.

2- ساقطة من خ/م.

3- الأمثال30: 4. من صعد إلى السموات ونزل من جمع الريح في حفنتيه من صر المياه في ثوب، ثبت جميع أطراف الأرض ما اسمه وما اسم ابنه إن عرفت.

4- في ط: "ماشموا وماشم".

5- النص العبري من الأمثال30: 4، ד מִי עָלָה-שָׁמַיִם וַיֵּרַד·מִי אָסַף-רוּחַ בְּחָפְנָיו מִי צָרַר-מַיִם בַּשִּׂמְלָה--מִי, הֵקִים כָּל-אַפְסֵי-אָרֶץ:מַה-שְּׁמוֹ וּמַה-שֶּׁם-בְּנוֹ، כִּי תֵדָע.

6- في ط: "ماشموا وماشم".

7- النص العبري من الأمثال30: 4، ד מִי עָלָה-שָׁמַיִם וַיֵּרַד·מִי אָסַף-רוּחַ בְּחָפְנָיו מִי צָרַר-מַיִם בַּשִּׂמְלָה--מִי، הֵקִים כָּל-אַפְסֵי-אָרֶץ:מַה-שְּׁמוֹ וּמַה-שֶּׁם-בְּנוֹ، כִּי תֵדָע.

8- في ط: " لات سيم بو".

9- الأمثال30: 5، النص العبري: "ה כָּל-אִמְרַת אֱלוֹהַּ צְרוּפָה؛ מָגֵן הוּא، לַחֹסִים בּוֹ".

10- في خ/م: "فسره".

11- في خ/م: "الوارقين".

12- الأمثال30: 5، والنص العربي: "كل كلمة من الله نقية ترس هو للمحتمين به".

ثم قال الله على لسان يرميا[1] النبي بكلام عبراني: "هنا ياميم بايم توم[2] أدوناى واكراتى ات بت إسرائيل وات بت يهودا بريت هارشاه زيرع آدام وزيرع مهيما"[3] تفسيره: "هذا يوم يأتى يقول الله ونزرع في بيت إسرائيل وبيت يهوذا نسل آدمى ونسل بهيمي"[4].

فكان النسل الآدمي الحواريون المؤمنون بالمسيح عند إقباله والتابعين لهم وكان النسل البهيمي اليهود الجاحدين[5] للمسيح وكذلك الحواري يحيى[6] الذي اسمه جوانش قال من لم يؤمن[7] ولم يتمادى في تعليم المسيح فلا إله له فأفهم ترشد.

اعلم أني كتبت لك بالعبراني والسرياني[8] من شهادات الأنبياء عن الله من الكتب التي بأيديهم وأن اليهود لا يقدرون على إنكار حرف منها إذا احتج معهم بها بالعبراني والسرياني كما نطقت به الأنبياء رضي الله عنهم في إثبات إقبال المسيح وإيمان الحواريين[9] والتابعين لهم وفي إطراح اليهود الملاعين الجاحدين للمسيح سيدنا فأفهم.

1- في ط: "إرمياء".

2- في ط: "نوم".

3- النص اختصار لما ورد في النص العبري من سفر إرميا 31: 31-34: לא· ל֣א כַבְּרִית, אֲשֶׁר כָּרַתִּי אֶת-אֲבוֹתָם, בְּיוֹם הֶחֱזִיקִי בְיָדָם, לְהוֹצִיאָם מֵאֶרֶץ מִצְרָיִם: אֲשֶׁר-הֵמָּה הֵפֵרוּ אֶת-בְּרִיתִי, וְאָנ֣כִי בָּעַלְתִּי בָם--נְאֻם-יְהוָה. לב כִּי ז֣את הַבְּרִית אֲשֶׁר אֶכְר֣ת אֶת-בֵּית יִשְׂרָאֵל אַחֲרֵי הַיָּמִים הָהֵם, נְאֻם-יְהוָה, נָתַתִּי אֶת-תּוֹרָתִי בְּקִרְבָּם, וְעַל-לִבָּם אֶכְתֲּבֶנָּה; וְהָיִיתִי לָהֶם לֵאל֣הִים, וְהֵמָּה יִהְיוּ-לִי לְעָם. לג וְל֣א יְלַמְּדוּ עוֹד, אִישׁ אֶת-רֵעֵהוּ וְאִישׁ אֶת-אָחִיו לֵאמ֣ר, דְּעוּ, אֶת-יְהוָה: כִּי-כוּלָּם יֵדְעוּ אוֹתִי לְמִקְּטַנָּם וְעַד-גְּדוֹלָם, נְאֻם-יְהוָה--כִּי אֶסְלַח לַעֲו֣נָם, וּלְחַטָּאתָם ל֣א אֶזְכָּר-עוֹד. {ס} לד כּ֣ה אָמַר יְהוָה, נ֣תֵן שֶׁמֶשׁ לְאוֹר יוֹמָם, חֻקּ֣ת יָרֵחַ וְכוֹכָבִים, לְאוֹר לָיְלָה; ר֣גַע הַיָּם וַיֶּהֱמוּ גַלָּיו, יְהוָה צְבָאוֹת שְׁמוֹ.

4- إرميا 31: 31-34. "ها ايام تاتي يقول الرب واقطع مع بيت اسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا. 32ليس كالعهد الذي قطعته مع ابائهم يوم امسكتهم بيدهم لاخرجهم من ارض مصر حين نقضوا عهدي فرفضتهم يقول الرب 33 .بل هذا هو العهد الذي اقطعه مع بيت اسرائيل بعد تلك الايام يقول الرب.اجعل شريعتي في داخلهم واكتبها على قلوبهم واكون لهم الها وهم يكونون لي شعبا 34. ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد اخاه قائلين اعرفوا الرب لانهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم الى كبيرهم يقول الرب.لاني اصفح عن اثمهم ولا اذكر خطيتهم بعد".

5- في خ/م: "الجاحدون".

6- في ط: "يوحنا".

7- في خ/م: "يامن".

8- في خ/م: "الرسياني".

9- في خ/م: "الحواريون".

قال: وأنت أيها الإنسان تجدوا في كتابكم في آل عمران:﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾[1].

فأنت مقر بالتوراة والإنجيل فاثبتوا دينكم من التوراة كما أثبتنا نحن ديننا من كتب الأنبياء واعلم أنه لا نقبل لكم من كتبكم شيئا فإن قلت من كتابك شيئا قلت لك كما قال رسولك: "البينة لمن ادعى واليمين على من أنكر"[2]، فوجب عليك أن تثبت دينك من التوراة والإنجيل التي أنت مقر بهم وأنت مدعى أن كتابكم من الله فاثبتوه من التوراة بالعبراني ومن الإنجيل بالعجمي كما أنتم مقرون.

وقولكم وما محمد إلا رسول الله قد خلت من قبله الرسل فإني أطلبك من الكتب التي جاءت به الرسل كما قلتم فاتي[3] بما ادعيت وإلا يميني لأني أنكر لك ولا نقبل لك من النبوات والروايات المرويات عن مسلم في كتابه الذي قال حدثنا سفيان عن الزهري عن قتادة عن عائشة قالت جاءت امرأة رفاعة إلى الرسول فقالت له كنت لرفاعة فطلقني فتزوجت عبدالرحمن بن الزبير فتبسم الرسول ضاحكا وقال أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عبدالرحمن بن الزبير عسيلتك وفي رواية أخرى عن عائشة قالت طلق رجل إمرأة ثلاثة فتزوجها رجل ثم طلقها قبل أن يدخل بها وأراد زوجها الأول أن يتزوجها فسئل الرسول عن ذلك قال لا حتى يذوق الآخر من عسيلتها ما ذاق الأول.

فافهم فمثل هذه النبوات لا نقبلها منكم لأن المسيح يقول: "لا ينبغي لرجل طلاق زوجته إلا أن تزنى وإن زنت فلا يحل له مراجعتها ومن طلق امرأته فقد جعل لها سبيلا إلى الزنى أعنى من طلقها دون سبب ومن زوج مطلقة فهو فاسق بها"[4].

1- سورة آل عمران، آية: 3-4.

2- الحديث ورد عند البيهقي في سننه، "أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان أنبأ أحمد بن عبيد الصفار ثنا جعفر بن محمد الفريابي ثنا الحسن بن سهل ثنا عبد الله بن إدريس ثنا بن جريج وعثمان بن الأسود عن بن أبي مليكة قل كنت قاضيا لابن الزبير على الطائف فذكر قصة المرأتين قال فكتبت إلى بن عباس فكتب بن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم ولكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر".

3- في ط: "فاتت".

4- متى5 :32.

وأنتم تقولوا: لا يحل لزوجها مراجعتها إلا أن تزنى بدل أن تنهو عن الزنى[1] تأمروا بالزنى[2] وهو عندكم فريضة التياس.

وأنا أريد قطع ذنب التيس وأن نجعله في ذقنه ليلوح لسته لمعرة صرصر الشمال وحمارة قيظ هجير الجنوب.

وهذا جواب كلامك انتصافا منك كما يقول قرآنك ومن انتصف من بعد ظلمه فلا جناح عليه فافهم.

ثم قلت في شعرك: أراد النصارى ينصرون محالهم.

فانصر أنت محالك لأنك قلت بالسفه والطعن في ديننا وقلت الكذب على مسيحنا كيف قلت ما لم تعلم وكيف تجرأت أن تتكلم واعلم أنك إن أرسلت بعد هذا بالشتم فإني أبعث إلى كل بلد كتابا بنص شريعتكم وبكل ما نعرف فيها من الأقاويل التي لاتقدرون على إنكارها.

فافهم لأنك قلت في المسيح: [أنه][3] غثاء وأوطار وأنك سبيت الحاكم عليك وعلى جميع الأمم يوم القيامة لكن سوف تلقاه حاكما ليس يطلب عليك بينة فإن أرسلت بعد هذا بالشتم فإني أعرفك بشجرتك ما هي حتى تعلم من أنت وأعلم أني لم أريد في الأول شتم أحد لكن لما بعث إلى أول كتاب بالسفه والسب رددت له الجواب بأمه هاجر ولم نقل فيها عشر ما قال الله فيها في التوراة[4] فاسمع قول الله عنها وعن ابنها: "رأت سارة[5] ابن هاجر المصرية[6] الذي ولدت لإبراهيم وهو يلعب فقالت لإبراهيم ارمي هذه الأمة وابنها أن[7] ليس يرث هذه الأمة وابنها مع ابني إسحق فصعب على إبراهيم ما قالت له عن ابنه فقال الله لإبراهيم لا يصعب عليك بكلام سارة[8] عن الصبي وعن أمتك وجميع ما تقول لك سارة[9] اسمع من قولها فقال إبراهيم هذا كلام الله إلى قائلا لا يرثك هذا"[10].

1- في خ/م: "الربا".
2- في خ/م: "الربا".
3- في ط سقطت كلمة "أنه".
4- في ط: "وعن ابنها".
5- في خ/م: "صارت".
6- في خ/م: "المصري".
7- في ط: "إذ".
8- في خ/م: "صارت".
9- في خ/م: "صارت".
10- تكوين21: 13.

إن الذي يخرج من صلبك هو يرثك.

ثم قال الله لإبراهيم بإسحق يتسمى نسلك.

فافهم ترشد واعلم كيف قطع الله ورث إسماعيل وأمه في قوله: "لا يرثك هذا" ثم قال [عن إسحق الذي يخرج من صلبك وكيف قال الله][1] لإبراهيم باسحق يتسمى نسلك ولم يقل بإسماعيل يتسمى نسلك، فأخذ إبراهيم خبزا وجرة ماء وجعل على أكتاف الأمة وجعل إسماعيل على عنقها بالليل وأخرجها بولدها عن العمران فتناسلت[2] منه الأمة الذي قال فيها قرآنكم ﴿ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ [3].

فافهم والسلام على من اتبع الهدى وآمن بشريعة المسيح حقيقة الإيمان ورحمة الله وبركاته كمل كلامه.

1- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.
2- في خ/م: "فتتسلت".
3- سورة التوبة، آية: 97.

ملحق2

كلام صاحب الحروف

لما أفهمتنا الشواهد العقلية: أن الخالق لم يزل حيا ولم يزل ناطقا، قلنا: فهل يحق أن يكون هو بحياته ونطقه شخصا واحدا جامعا لأجزاء مختلفة، كما يقال في حد الإنسان: أنه حيوان ناطق مائت؛ إذ تسمى أجزاء جوهره مع أعراضه المختلفة فيه: أقنوما واحدا، شخصا واحدا، ولا يسمى كل جزء وكل عرض منها أقنوما أنسيا: وذلك أن[1] اسم الأقنوم واجب للشيء المستغنى بذاته القائم بشخصه. ولا لذي الاضطرار ولا لذي الاشتباك كالأعراض. فإن الأجزاء والأعراض لا تقوم مكتفية بذواتها، كما أن حر النار الذي هو جزء من قوى النار لا يقوم بذاته أقنوما منفردا دون أصلية النار وضوئها. وكذلك الأعراض المشتبكة في الجوهر كالسواد والبياض وما أشبههما، لا تقوم أشخاصها مكتفية بذواتها دون الجوهر اللازم لها. فالأقنوم هو المستغني بذاته عن أصل جوهريته كالإنسان المستغنى بخاصية إنسانه عن الناس، والشجرة عن الأشجار، والدينار عن الدنانير، فامتناع أجزاء الإنسان من القيام أشخاصا لاضطرارها وعجزها عن القيام بذواتها كروحه العاجزة عن القيام بتحديدها إنسانا دون جسمه ونطقه، وكذلك نطفة وجسمه يعجز كل واحد منهما عن القيام بتحديده إنسانا دون روحه، وذلك لاضطرار كل جزء منها إلى صاحبه في القيام بإنسانيته.

فإذا تقرر هذا، فحياة الله ونطقه لا يخلو من أن يكونا جزأين من جوهره، كما هو من الإنسان أو غير جوهره، فإن قلنا: هما جزءان من جوهره ألزمناه ما يلزم الإنسان من الاضطرار والتأليف، لأنا وجدنا أجزاء الإنسان لاضطرار بعضها إلى بعض تقصر عن احتمال أسماء الأقانيم، وهذا يستحيل على الجوهر الأزلي، إذ هو يتعالي[2] عن الأجزاء والتأليف والتركيب والأعراض. فوجب[3] أن تكون خواصه لغنائه وكمالها، تسمى أقانيم قائمة بخواصها، ومستحقة أن توصف منها[4] بجوهرية قديمة كقدمه، لا جزأين مركبين، ولا عرضين مضطرين[5]، لأنه لم يزل حيا وناطقا بكلمته.

1- في ط: "لأن".

2- في ط: "متعالى".

3- في ط: "فأوجبوا".

4- في ط: "ومستحقة الذي توصف به".

5- في ط: "منفصلين".

ومن زعم أن الحياة من الله، والنطق منه: محدثان؛ وصف الله تعالى في أزليته بالموت والجهل. وإن قلنا: إن حياته[1] ونطقه غير جوهره أزليان، فقد أشركنا مع الله في أزليته غيره فلذلك يسمى كل واحد من الروح والكلمة جوهرية خاصة، فوجب أن يكون جوهر الخالق تعالى: أقنوما، خاصا، قائما، كاملا بخاصته[2] لم يزل. ونطقه الذي هو كلمته أقنوما، خاصا كاملا قائما بخاصته[3] لم تزل. [وروحه أعني حياته: أقنوما، خاصا، كاملا بخاصة لم يزل][4] فهذه ثلاثة أقانيم معروفة بمعانيها، لا متفاصلة، ولا متركبة، ولا متشابكة، جوهر واحد، ذات واحدة[5]".

1- في ط: "وإن قلنا حياته".
2- في ط: "بخاصية".
3- في ط: "بخاصية".
4- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.
5- في خ/م: "واحد"، وهو تصحيف.

ملحق3

كلام صاحب المسائل

هذه الثلاثة الأقانيم متوحدة لأجل الآب، متساوية لأجل الابن، منتظمة الروح، فنؤمن أن الأب أب لأجل أنه ذو ابن، والابن ابن، لأنه ذو أب، والروح القدس منبثق، لأنه من الآب والابن، فالأب أصلية الإلهية، لأنه كما لا يخلو قط أن يكون إلها كذلك لم يخل[1] قط أن يكون أبا، الذي الابن منه مولود، والذي الروح القدس منه ليس مولودا، لأنه ليس ابنا ولا غير مولود، لأنه ليس مخلوقا، لأنه ليس من شيء، بل إله منبثق من الآب والابن إله.

وأقنوم الآب غير أقنوم الابن، وأقنوم الابن غير أقنوم الروح القدس، لكن التثليث المقدس ذات واحدة، إلهية واحدة، وهذا تصريح بأن الأقانيم: آلهة، وإن كان كل واحد[2] منها غير الآخر.

وقد ذهب "سباليش"[3] إلى أن[4] الثلاثة الأقانيم ممتزجة في أقنوم واحد، وهو عند كثير منهم مكفرا وكالمكفر. وقد ذهب "آريش" إلى أنه إلهية الأقانيم منخزلة[5] ومتبعضة الذات، وهو عندهم مفتر خارجي".

وقال صاحب كتاب "المسائل": "لسنا نؤمن أن في التثليث شيئا مخلوقا أو خادما كالذي أنشأه "دنونيشيش"، أو غير معتزل كقول "أونوميش"، أو ناقص الامتنان كقول "أوتفش"، أو مقدما أو مؤخرا أو صغيرا كقول "آريش"، ولا ذا جسد كقول "مالطه" و"ترتليان"، ولا مصورا بالجسدية[6] كقول "أريد" و"نمرشيش"، أو محجوبا بعضه عن بعض كقول "أوريان"، ولا مربيا من المخلوقات كقول "فرطنات"[7]، ولا متفرق الإرادة والعوائد كقول "مرحيون"،

1- في ط: "يخلو".
2- في ط: "وإن كان واحد"، وهو تصحيف.
3- في ط: "شباليش".
4- في خ/م: سقطت "أن".
5- في خ/م: "منخذلة".
6- في ط: "بالحيدية".
7- في ط: "فرشاط".

ولا منقلبا من ذات التثليث إلى طبيعة المخلوقات كقول "أفلاطون" و"ترتليان"، ولا منفردا في رتبة مشتركا في أخرى كقول "أوريان"، ولا ممتزجا كقول "شباليش" بدل كله كامل لأنه كله واحد، ومن واحد لا مفرد[1] كزعم "شلبانش".

1- في ط: "لا تعدد".

ملحق4

كلام أغشتين

قال أغشتين: ما أقر علماء المجوس بالقوة الماسكة لكل شيء، وأراد بعضهم أن ينزلوها جوهرا غير حي ولا مستغن بنفسه، وجب علينا أن نحتج عليهم بما يضمهم إلى الإقرار بأن تلك القدرة ذات علم وإرادة".

قال: "وقد رد علينا هذه المقالة "برفيريش" فقال: لا نقول أنه شيء فيكون قد سميناه بالأشياء التي لا تسلم[1] من عيب، ولكنا نقول: "أنه" ولا نقول: "شيء" ثم قال: "ألستم تقرون[2]: أن الذي قدر هو الذي علم، وأن الذي علم هو الذي أراد، فهو واحد في جميع المعاني.

وإنما القدرة والعلم والإرادة أسماء صارت فيما بين الخلق والمخلوق، وليست لا خالقة ولا مخلوقة، لأنه لو لم يكن الشيء المقدور لم يسم ذو[3] قدرة، ولو لم يكن الشيء المعلوم لم يسم ذا علم، وكذلك القول في الإرادة، فهذه الأسماء، إنما هي أعراض وأسماء فيما بينه وبين الخلق مثل قولنا: ذو رحمة وذو حكم وذو عقاب، فلو لم يكن الخلق المرحوم لم[4] يلزمه اسم الرحمة وكذلك غيرها".

قال "أغشتين" في جوابه عن قوله: "لا نقول أنه[5] لكل شيء عقيب، وما لم يكن له عقيب فليس بشيء، لأن عقيب شيء لا شيء، وإذا كان إنما ينفي عنه اسم شيء، لأن الأشياء كلها له، فمثل ذلك يجب عليه في قوله:" أنه[6]" أو قوله: "كان"؛ مع أنا لا نعرف شيئا نقول فيه:" أنه[7]" إلا بعد معرفتنا إياه "شيئا"، وحسبنا في هذا قولنا: شيء ليس كشيء من جميع الأشياء".

1- في خ/م: "تتسلم".
2- في ط: "تقرأون".
3- في ط: "ذو".
4- كلمة "لم" ساقطة من خ/م.
5- في ط: "أن".
6- في ط: "أن".
7- في ط: "أن".

قال:" وأما قوله: أن القدرة والعلم إنما هي أعراض لزمنه فيما بينه وبين الخلق، وأنها مثل الرحمة والحكم؛ فإنا نحتج عليه في ذلك بأن نقول: لست تنكر أنه كان قبل الأشياء ودون الأشياء بلا ابتداء، فهل تقدر أن تجحد أنه كان أبدا قادرا ؟ فإذا أقررت أنه لم يزل قادرا، فقد أقررت أن القدرة صفة أزلية، فإن قلت: أنه لا يجوز أن يسمى قبل أن يكون الشيء المقدور عليه قادرا[1]، وإنما يسمى قادرا بعد كون الشيء المقدور علينا؛ قلنا: أفكان يقدر على أن يقدر، أم لا؟ فلا بد لك من أن تقول: كان يقدر. فيلزمك وصفه بالقدرة على كل حال.

وكذلك قولنا في العلم والإرادة؛ وقولك: يرحم ويغفر ويحكم، ليس مثل قولنا: يقدر ويعلم ويريد، لأنك لا تقول: كان أبدا يرحم، وكان أبدا يخلق. ولا بد من أن تقول: كان أبدا يقدر، وكان أبدا يعلم وكان أبدا يريد.".

ثم قال بعد كلامه مع الفلاسفة: "فنحن ما لم نصفه بالعلم والإرادة، لم نصفه بمدبر ولا حي".

ثم قال: "إن قلنا عرفناه بوحدانيته، وعلمناه بذاته من غير نظرنا إلى فعله، الدال على قدرته وعلمه وإرادته، فقد كذبنا. لأنه لا يقدر أحد أن يقول: أنه وقع على معرفته إلا بما نظر إليه من خلقه، وتفكر فيه من حكمه، وبمعرفته بنفسه؛ وكل هذا إقرار بالثلاثة الأقانيم التي ذكرنا، لأنا لما وجدنا الخلق الذي لم يقدر أن يكون بنفسه وجب الإقرار بالشيء الذي به قدر[2] أن يكون، وهي القدرة التي سماها علماء المجوس: الهيول.

ثم لما نظرنا إلى تدبير الخلق، وجب الإقرار بالعلم والإرادة، لأن التدبير لا يكون إلا ممن يعلم ويريد فثلاثتها اسم لإله واحد، ونعت لمدبر فرد، ولا تجد هي غيره ولا يجد هو غيرها؛ فهذا قولنا في التثليث الذي وصفه الإنجيل وأمر بالإيمان به وسماه باللسان العجمي:" الآب والابن والروح القدس".

قال أغشتين: قد أجمعت الملة[3] على أن الله تعالى قد كلم موسى تكليما، واجتمعت

1- في ط: سقطت كلمة "قادرا".
2- في ط: "الذي قدر".
3- في ط: "أجمعت الملة"، قول أغشتين هذا "أجمعت الملل الثلاث"، يدل على أنه غير القديس اغسطين (354-430)م كما ذهب إلى ذلك حجازي السقا في تحقيقه للكتاب، لأن القديس أغسطين عاش قبل الإسلام ولا يجوز أن يذكر الإسلام. اللهم إن كان يقصد ملة غير ملة الإسلام كالديانة المانوية التي كانت منتشرة على عهده، بل هو نفسه كان مانويا قبل أن يتحول إلى المسيحية. ولقد أكد لي أنه غير القديس أغسطين الدكتور فان كونينزفلد في لقاء لي معه أثناء زيارته لمؤسسة دار الحديث الحسنية أيام 2010/11/30-2010/12/10، مستدلا على رأيه بكون القديس أغسطين لا توجد من بين مؤلفاته ما يذكره القرطبي هنا مثل "مصحف العالم الكائن"، ونرجو في الطبعة القادمة أن نحقق من يكون أغشتين هذا الذي يذكره القرطبي.

على أن موسى سمع صوتا يقول له: أنا ربك. فأخبرونا أتؤمنون بأن الصوت الذي سمعه موسى هو ذات الرب، وأن الرب في ذاته مسموع، أم تقولون: إن الرب أسمع موسى صوتا على ما شاء[1] من رفع وخفض، وغلظة ورقة، وأنه ابتدأ الصوت متى شاء، وقطعه متى شاء، وأنهى إلى موسى من إرادته ما شاء؟

فإن قالوا: إن الصوت نفسه هو الرب، وأن الرب مدرَك بالسمع، فقد خرجوا عن مذهبهم في نفي التشبيه. وإن قالوا إن الصوت من فعل الله، وأن الله خلق الصوت على ما وافقه، وأظهر فيه من إرادته ما شاء، وأن الصوت قد كان له مبتدأ ومنتهى، وأن الله الخالق له لا مبتدأ له ولا منتهى. قيل لهم: فقد ثبت أن الصوت الذي سمعه موسى[2] كان مخلوقا، فكيف جاز لموسى أن يقول سمعت الله؟ فإن قالوا مقام الصوت من الله، مقام صوت الإنسان من الإنسان، وأنا نسمع صوت إنسان فنقول: سمعنا فلانا. وكذلك وجب على موسى لما سمع صوت الله[3]، أن يقول سمعت الله. قيل لهم فقد أقررتم أن الصوت من فعل الله، كما أن صوت الإنسان من فعل الإنسان، ولستم تقدرون أن تقولوا إذا سمعتم صوت رجل: سمعنا ذات المريد لذلك[4] الصوت الذي ابتداه وخاطب به، ولكنكم تقولون سمعنا صوت فلان، وسمعنا فلانا إذ سمعتم فعله[5]، وكذلك من سمع صوت الله، وجب أن يقول: سمعنا الله. لإن الله خلق الصوت، وجعله حجابا لإرادته التي أظهرها فيه، فقد ثبت أن الناس لا يسمعون الرب، إلا بصوت مخلوق على ما يشبهه تعارفهم، يكون حجابا فيما بينهم وبينه[6].

والواجب عليهم أن يخاطبوا الصوت باسم الذي الصوت له، كما أن الصوت[7] إنما خاطبهم عن الله. ومثل ذلك يلزمهم في كل ما يشبه التحديد مما وقع في كتب الملل الثلاثة من التشبيه بالعالم، ووصف نفسه بالعين والوجه والفم، ولا يمكن جحده، فقد رضي أن ينسب إلى نفسه مثل كلامهم، وأن يخاطبهم في مثل لغتهم، فقد ثبت أنه أتخذ التشبيه حجابا بينه وبين خلقه.

1- في ط: "يشاء".
2- كلمة "موسى" ساقطة في ط.
3- اسم الجلالة "الله" ساقطة في خ/م.
4- في ط: "صوت المريد كذلك".
5- في ط: "صوته".
6- في ط: "بينه وبينهم".
7- في خ/م: "السوط"، وهو تصحيف.

ثم قال بعد ذلك كلاما معناه: كما جاز أن يتخذ صوتا، ويجعله حجابا لإرادته حتى أظهرها فيه، كذلك يجوز أن يكون قادرا على اتخاذ أي صورة شاء، وأن يظهر لعباده في أي حلية وافقه[1]، وتلك الصورة ملك له يبدلها كيف شاء، لأنا إن قلنا إنه لا يقدر أن يسمع عباده صوتا، ولا أن يظهر لهم بصورة، فقد أزلنا عنه القدرة على كل شيء.

ثم قال بعد ذلك: فعلمنا أن الحجاب مخلوق، وعلمنا أن الله خالق كل شيء، ووجب علينا إنزاله من الإكرام، بحيث أنزله الله المحتجب به. لأنا[2] متى لم ننزل كل شيء على ما أنزله عليه، فقد عصينا. لأنا لا نجد بدا من أن نكرم الملائكة، مالا نكرم الشياطين، ونكرم الصالحين مالا نكرم الفجار. وهكذا، فلا بد أن يكون شيء أعز من شيء، وشيء أقرب إلى الله من شيء، حتى يكاد شيء في العز أن يتصل بخالقه، ويكون أعز الأشياء. ويكاد شيء أيضا أن يكون في الهوان، بحيث لا يكون شيء تحته.

والواجب على العارف بالله، أن ينزل كل شيء بحيث أنزله الله، ويسميه بما سماه الله، فإن أقر بأن الله خاطب بصوت مسموع، أو ظهر في صورة مرئية، فقد أقر بأن الله خص ذلك الصوت وتلك الصورة، بما لم يخص به شيئا من المخلوقات، وأن الواجب على من سمع ذلك الصوت، أن يقول سمعت صوت الله، ومن رأى تلك الصورة، أن[3] يقول رأيت صورة الله، ولهذا وجب على موسى إذ سمع صوت القائل: أنا ربك، أن يجاويه باسم رب[4]، ويقول بأنه ربه، ووجب على آدم إذ قال: يا آدم، أن يستجيب فيقول: ما ترى[5] يا رب. وكذلك في مخاطبته لجميع الأنبياء، لأن الصوت لم يقل: أنا صوت الله، وأنا أخاطب عن الله، وإنما الله خاطب به فقال: أنا الله. فالواجب أن نخاطب بمثل ما خاطب به.

ومثل ذلك يجب في الصورة، ومن ظهر له الله في صورته، كما ظهر لإشعياء ولدانيال[6]، فقد وجب عليه أن يسجد للصورة، وأن يخاطبها باسم الله، لأن علمه بأن الله خص تلك الصورة بالاتحاد[7] لها، والاحتجاب بها، ضام له إلى عبادته فيها، لأنه قد رضي أن يرى فيها ويعبد بها.

1- في ط: "وافقته".
2- في ط: "لأنه".
3- كلمة "أن" ساقطة في ط.
4- في ط: "الرب".
5- في ط: "هأنذا".
6- في خ/م: "ولدايقال" وهو خطأ.
7- في ط: "بالاتخاذ".

وقد علمنا أن الله خلق[1] الصوت الذي أسمعه لموسى، كما علمنا أن الله خلق جميع الأصوات، ولكن وجب علينا الإقرار لذلك الصوت بالربوبية، ما لم يجب لغيره، لعلمنا أن الله ولي المخاطبة بذلك، وكذلك يجب في الصورة أن يخصها[2] من الإكرام، بما خصها الله به.

ومن قال لا يجب أن يخاطب الصورة باسم الله، ولا أن يجاوب الصوت باسم الله، فقد قال: إنه لا يجوز أن يتخذ الله صورة، ولا أن يسمع صوتا، وإذا وجب إكرام الحجاب، بإكرام المحتجب به، فلم[3] يبق علينا من الكلام شيء إلا في الحجاب الذي اتخذه منا، وهو المسيح، والاستشهاد بالتوراة والإنجيل في أمره، إلا أنا نقدم القول في ذلك بالقياس، لئلا نستشهد[4] بالكتاب إلا فيما كان داخلا تحت الإمكان.

ثم قال: هذا وإن لم يوجبه القياس إيجاب الاضطرار، فإنه يجوزه تجويز الإمكان، لأن القياس الذي فضل به الإنسان على جميع خلقه، وخاطبهم بمثل لغتهم وتشبه بهم في مخاطبتهم، وخلق كل شيء لهم ومن أجلهم، وأوجب لهم البقاء معه في رضوانه، وألا يكون دونهم أبدا، وأنه ظهر لهم بحجاب مخلوق، فتشبه لهم بنعت محدد، فغير ممتنع فيه، ولا بعيد أن يكون حجابه فيما بينه وبينهم منهم[5] ومما يشبههم، ونزوله إلى مخاطبتهم في مثل لغتهم، هو[6] نزوله إلى الظهور لهم في مثل صورتهم، لأن اتخاذ الصورة مثل اتخاذ الصوت.

ثم قال: شواهده الواضحة كثيرة، من ذلك قول يرميا[7] النبي حيث يقول مناجيا الله: "يا رجاء إسرائيل ويا[8] مخلصه من الغم، لم ستكون في المستقبل كالغريب في الأرض، أو كالمسافر يعدل إلى المبيت؟ لم ستكون في المستقبل كرجل صالح لا يقوى أن يخلص"[9].
وقول إشعياء النبي حيث يقول: "إن العذراء ستحمل وتلد ولدا، ويدعى ولدها عجيبا

1- في ط: "خالق".
2- في ط: "يحصها".
3- في ط: "لم".
4- في خ/م: "نستشهر" وهو تصحيف.
5- في ط: "بينه وبلغهم منه".
6- في ط: "وهو".
7- في ط: "إرمياء".
8- في ط: "يا مخلصه".
9- إرميا 14: 8-9.

مدبرا إلها قويا، والدا مقبل الدهر العالم يكثر ملكه ولا يكون لسلطانه انقطاعا ولا آخر"[1]، وقوله أيضا: "من ذا يقبل خبرنا؟ أمن ذا ظهر له ذراع الرب؟ ثم وصف أنه ظهر ضعيفا محتقرا وأنه هدى بنفسه إلى القتل طوعا ووصف خبره[2] المسيح ظاهرا كما كان"[3]، وقول يعقوب[4] لبنيه حيث يقول: "لا ينقضي الملك من سبط يهوذا، ولا يزال منهم أمير حتى يأتي الذي هو مرسل، وهو يكون رجاء الأجناس"[5] وكذلك[6]: لا ينقطع الملك منهم حتى يأتي المسيح.

هذا ملخص كلامه وزبدته في عدة أبواب من كتابه المتقدم الذكر، من غير أن أخرج عن لفظه إلا ألفاظا يسيرة يتصل بها الكلام ولا تغير المعنى.

1- إشعيا7: 14.

2- في ط: "خبر".

3- إشعيا53: 1-12.

4- في ط: "يعقول".

5-تكوين49: 10.

6- في ط: "وتترجم كذلك باختصار".

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- الكتاب المقدس: العهد القديم، جمعية الكتاب المقدس، الإصدار الثاني 1995م، الطبعة الأولى.
- ابن النديم الفهرست، ضبطه وشرحه وعلق عليه وقدم له يوسف علي طويل وضبط فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1416هـ/1996م.
- ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح مطبعة مدني القاهرة،1379 هـ/ 1959 م.
- ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق أحمد محمد شاكر، تقديم إحسان عباس منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الثانية 1403هـ1983م.
- ابن حزم، الفصل في الملل..وبهامشه الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المجلد الأول دار المعرفة بيروت لبنان ط 3 1395هـ/1975م.
- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار الفكر الطبعة السادسة 1417هـ/1997 م.
- أبو حامد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، دراسة وتحقيق حمزة بن زهير حافظ، شركة المدينة المنورة للطباعة.
- أصول السرخسي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الاولى 1414 هـ- 1993 م.
- أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي،ت سنة 575 هـ، فهرسة بن خير، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة دار الكتاب المصري، بيروت دار الكتاب اللبناني،الطبعة الأولى 1989، المكتبة الأندلسية مجلد9، ص 373).
- أبو الحسن العامري، الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق ودراسة أحمد عبد الحميد غراب، الرياض مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الطبعة الأولى، 1408هـ/1988م.
- أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي،كتاب التنبيه والإشراف طبع بمدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل سنة 1893م.
- أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ت440هـ، "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، صح عن النسخة القديمة المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد

الدكن الهند 1377هـ/1958م السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية11، ص:6.

- أبو حامد الغزالي، الرد الجميل على إلهية عيسى بصريح الإنجيل ضبط نصه وعلق عليه أبو عبد الله السلفي الداني بن منير آزهوى، المكتبة العصرية للطباعة والنشر الدار النموذجية المطبعة العصرية الطبعة الأولى 1420هـ/1999م.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المختار في الرد على النصارى، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي دار الجيل بيروت لبنان مكتبة الزهراء القاهرة الطبعة الأولى 1411هـ/1991م ص:75.
- أبو محمد علي بن حزم،الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمان عميرة، دار الجيل بيروت لبنان الطبعة الثانية 1416هـ/1996م، الجزء الأول ص:59.
- أيت بلعيد أحمد، إثبات نبوة محمد، منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- البخاري، صحيح البخاري، مراجعة وضبط وفهرسة محمد علي قطب وهشام البخاري المكتبة العصرية صيدا بيروت الطبعة الخامسة 1420هـ/1999م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، شرح وتحقيق أحمد صقر دار إحياء الكتب العربية.
- الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966، تراثنا المكتبة الأندلسية 3.
- دراسات في الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها دار صادر بيروت الطبعة الخامسة 1399هـ1979.
- الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان،سير أعلام النبلاء مؤسسة الرسالة، سنة النشر: 1422هـ / 2001م.
- السموأل بن يحيى المغربي، بذل المجهود في إفحام اليهود قدم له وخرج نصوصه وعلق عليه عبد الوهاب طويلة، دار القلم دمشق الدار الشامية بيروت الطبعة الأولى 1410هـ/1989م.
- الشرقاوي، محمد عبد الله، بحوث في مقارنة الأديان، القاهرة، دار الفكر العربي 1410هـ/2000م.

- الطوبي المصطفى، مقالات في علم المخطوطات، تقديم شوقي بنبين، الرباط، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2000.
- عبادة كحيلة، تاريخ النصارى في الأندلس، المطبعة الإسلامية المدنية، الطبعة الأولى 1993.
- عبد العزيز بن عبد الله،"الفكر الإسلامي وأثره في فلسفة بن ميمون وتطور التقاليد اليهودية ضمن مجلة أكاديمية المملكة المغربية الدورة الثانية لسنة 1985م بأكادير أيام 14-16/ربيع الأول، 27-29/نونبر 1985م.
- علي بن رين الطبري، الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد ﷺ تحقيق وتقديم عادل نويهض منشورات دار الآفاق الجديدة الطبعة الرابعة 1402هـ/1982م.
- عمار البصري كتاب البرهان وكتاب المسائل والأجوبة، تحقيق ميشال الحايك، دار المشرق بيروت، 1977، سلسلة بحوث ودراسات5، ب. سلسلة جديدة الشرق المسيحي. النص من كتاب المساءل والأجوبة.
- القاضي أبو بكر الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الثالثة 1414هـ/1993م بيروت لبنان.
- القاضي عبد الجبار الهمداني، تثبيت دلائل النبوة، تحقيق وتقديم عبد الكريم عثمان الجزء الأول دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع لبنان د ت.
- القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل قوم نصوصه على نسختين خطيتين أمين الخولي بإشراف طه حسين، وزارة الثقافة والإرشاد القومي الإدارة العامة للثقافة الطبعة الأولى 13800ـ/1960م القاهرة مطبعة دار الكتب الشركة العربية للطباعة والنشر.
- القرطبي، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام تقديم وتحقيق أحمد حجازي السقا دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة.
- القشيري صحيح مسلم
- الماوردي أدب الدنيا والدين، بيروت دار الكتب العلمية، 1987.
- هنانو ملك "من التوراة" مجلة المجمع العربي المجلد التاسع والثلاثون الجزء الثاني أبريل 1964.



- **يوسف الكلام**، من مواليد 16 يوليوز 1969.
- أستاذ مقارنة الأديان بمؤسسة دار الحديث الحسنية بالرباط.
- حاصل على شهادة الدكتوراه من كلية الآداب بالرباط سنة 2006.
- رئيس جمعية البحوث والدراسات في الفكر الإسلامي ومقارنة الأديان.
- عضو الهيئة الاستشارية لمجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة الجزائر.
- له كتاب مطبوع بعنوان: تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكالية التقنين والتقديس، دار صفحات للدراسات والنشر 2009، سوريا.
- له كتب وترجمات قيد الطبع منها: "مدخل إلى دراسة اليهودية" و"مدخل إلى دراسة المسيحية".
- له أيضا مقالات علمية عديدة منشورة بمجلات علمية محكمة منها: بحث بعنوان: "إسهامات الفكر الإسلامي في تطور حركة نقد الكتاب المقدس قراءة نقدية في تاريخ نشأة حركة الكتاب المقدس في الغرب". مجلة التأصيل السعودية، نوفمبر 2010 العدد الثاني.
- kellamyoussef@hotmail.com



❖ **نادية الشرقاوي**، من مواليد الرباط بتاريخ: 03 يوليوز 1975،

❖ حاصلة على الدكتوراه في مقارنة الأديان من كلية الآداب بالرباط سنة 2006.

❖ عضو مؤسس لجمعية البحوث والدراسات في الفكر الإسلامي ومقارنة الأديان.

❖ عضو الهيئة الاستشارية لمجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة الجزائر.

❖ لها كتاب مطبوع بعنوان: "منهج القرآن في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى"، دار صفحات للدراسات والنشر سنة 2010م، سوريا، وكتب أخرى قيد الطبع.

❖ لها أيضا مقالات علمية عديدة منشورة بمجلات علمية محكمة منها بحث: تفسير "يا أخت هارون" على ضوء الدراسات المقارنة في علم الأديان"، مجلة الدراسات القرآنية مركز الدراسات الإسلامية **SOAS** جامعة لندن.

❖ charkaouinadia@hotmail.com

إصدارات
2012-2011
صفحات للدراسات والنشر

نحو فكر حضاري متجدد
سورية - دمشق - ص.ب: 3397
هاتف 2213095 تلفاكس: 00963112233013
www.darsafahat.com info@darsafahat.com

1) الله والفيزياء الحديثة، بول دافيز، ترجمة هاله العوري، 2012م.

2) الفناء في الإنسان - كبار الصوفية، هالة العوري، 2012م.

3) النشأة الدموية الأسرار المفقودة للماسونية، جون ج. روبنسون، ترجمة وتعليق: محمد الواكد، 2012م.

لقد استخدمت الماسونية لقرون رموزها وطقوسها الغامضة في سرية تامة، وذلك قبل أن تكشف عن وجودها في لندن في عام 1717م. ما إن أصبحت الماسونية معروفة، انتشرت في كافة أنحاء العالم، واستقطبت الملوك، والأباطرة، ورجال الدولة لكي يقسموا يمينها المقدس. استقطبت أيضاً الثوريين العظماء مثل جورج واشنطن وسام هيوستن في أمريكا، خواريز في المكسيك، وغاريبالدي في ايطاليا، وبوليفار في أميركا الجنوبية. كما أنها مُنعت لقرون من قبل هتلر، وموسوليني، وآية الله الخميني. ولكن من أين أتت هذه المنظمة القوية؟ ما الذي كانت تفعله في تلك القرون السرية قبل أن تخرج من سريتها إلى النور قبل أكثر من 270 سنة؟ ولماذا هذه الكراهية العمياء والهجوم الشرس الذي شنته الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ضد الماسونية؟

هذه الرواية البوليسية المدهشة تجيب عن تلك الأسئلة، وتُثبت أن فرسان الهيكل في بريطانيا، الذين فرّوا من اعتقال وتعذيب البابا والملك، قد شكّلوا جمعية سريّة ذات حماية متبادلة، أُطلق عليها فيما بعد اسم: الماسونية. بناء على سنوات من البحث الدقيق، هذا الكتاب يحل آخر ما تبقى من ألغاز الماسونيين - كلماتهم، ورموزهم، وألغازهم السرية التي فقدت معانيها الحقيقية في العصور القديمة. مع خلفية غنية تلقي الضوء على المعارك الدامية، وعلى الملوك الانتهازيين والباباوات الماكرين، وعلى التعذيب والاضطهاد الديني الذي مورس في القرون الوسطى، نجد أن هذا الكتاب القيّم والمهم يجعلنا نلقي نظرة جديدة على تاريخ الأحداث التي أدّت إلى الإصلاح البروتستانتي.

جون ج. روبنسون هو كاتب ذو اهتمام خاص في تاريخ بريطانيا في العصور الوسطى وفي الحروب الصليبية. يترأس أمانة أسرية مكرسة للبحث التاريخي والنشر. السيد روبنسون هو مدير أعمال تنفيذي، ومزارع أغنام، وجندي بحرية سابق، كما أنه عضو في أكاديمية العصور الوسطى الأمريكية، وفي منظمة المؤرخين الأمريكية، وعضو في اتحاد المراقبين الملكي في لندن. يعيش في مقاطعة كارول في كنتاكي.

4) أصول النقد والتحليل في الكتابة التاريخية (مجموعة مقالات)، أ.د.مرتضى حسن النقيب، 2012م.

هذا كتاب عن إشكالات النقد والتحليل في العمل الكتابي الأكاديمي من وجهة نظر كمنهجية، تتضمن مقالات تعود لحقول التاريخ السياسي والنظم وعلم التاريخ لدولة الخلافة والدول التي تفرعت عنها، كتبت بموضوعية تامة، بعيدة عن التحيز أو أي هوى فكري أو عقائدي، نفعها يعود للقارئ المتخصص وطلبة الدراسات العليا أكثر مما تخدم اهتمامات وعناية القارئ العام. والأهم ان الكتاب ليس بنظرية إفتراضية في رؤية وكتابات المؤرخ بقدر ما هو تحصيل معرفي لأقوال المؤرخين عن المشكلات المنهجية والتاريخية الواردة في المصادر والمراجع واستخداماتها في العمل الكتابي الناجح. مخطوطة الكتاب تتكون من سبع مقالات متداخلة منهجياً، كلها اعتمدت التوثيق الدقيق وأحياناً التزمتن كذلك في النقل للأفكار والنصوص المستخدمة وماسواها من ادعاءات غير معتمدة، الأولى تدور حول مصنف نكت الوزراء للجاجرمي، احد الصدور الكبار أيام السلاجق الأواخر والفرع الفغوري الحاكم في باميان، والثانية تناولت تطاولات الواعظ والمصنف البغدادي الشهير ابن الجوزي على مؤرخ مرو وكبير بيت السمعاني ابو سعد المروزي، والثالثة في النسب الفاطمي واشكالاته المنهجية، فيما تناولت الرابعة حالة الإدارة الحلبية وتطورت الوزارة الأيوبية المحلية أيام مملكة الظاهر غازي والعزيز محمد وحفيده الناصر يوسف، سلطان الشام في تسميته اللاحقة، والخامسة تعالج الجهاد الذي تبناه الأتابك عماد الدين زنكي من اجل إنجاحه في التغلب على اولى الإمارات الصليبية الأربع التي قامت في بلاد الشام أيام الحملة الصليبية الأولى في 490هـ. وهناك مقالتان في الإنكليزية عن أهمية وأصالة السياسات.

5) الذات الجمالية، أ.د.عقيل مهدي يوسف، 2012م.

6) المعاد عند الفلاسفة المسلمين من الكندي إلى ابن رشد (مقاربة تحليلية)، د.إياد كريم الصلاحي

7) الفن عند الفارابي، زكاء مردغاني، 2012م.

8) إشكالية العقل والعقلانيّة لدى برهان غليون وعبد الله العروي، مبارك حامدي.

9) معجم ألفاظ العقيدة الإسلامية، إعداد سائر بصمه جي، 2012م.

إن مفهوم العقيدة في اللغة مأخوذ من العقد والربط والشدّ بقوة، ومنه الإحكام والإبرامُ، والتماسك والمراصة، والإثباتُ ؛ ومنه اليقين والجزم. أمامفهوم العقيدة اصطلاحاً فهو يطلق على الإيمان الجازم والحكم القاطع الذي لا يتطرق إليه شكٌ. وعليه فإن دراسة ألفاظ العقيدة، ومصطلحاتها، وتحديد معانيها على مذهب أهل السنة والجماعة، وبيان مراد الطوائف بها، كل ذلك ضرورته ماسة، وأهميته لا تخفى، يحوي هذا العمل على أكثر من 950 مصطلح ، والتي حاولنا أن نشمل فيها معظم مصطلحات العقيدة الإسلامية.

10) تميم البرغوثي مثيرات الأسلوب الشعريّ دراسة نصيّة في المحفّزات الجمالية ومختارات شعرية، عصام شرتح، 2012م.

تمتاز القصيدة عند البرغوثي بمزاوجتها بين إيقاع شعر التفعيلة، والإيقاع العمودي الكلاسيكي، وهذه المزاوجة ساهمت في تكثيف رؤيته والتعبير عنها بطرائق جديدة مبتكرة، تؤكّد شاعريته ،ومهارته في صوغ لغة شعريّة مثيرة.

إنّ أبرز مايميّز شعرية البرغوثي طريقة بنائه للقصيدة، فهو يبنيها على القفلة الشاعريّة الدهشة التيتجاوز البناء السطحي الساذج، محاولاً بناء القصيدة كاملة على ركائز فنيّة.

تقف قصائد تميم على قضايا وجوديّة كبرى، وقضايا قوميّة كبرى، فهو شاعر شمولي الرؤية واسع المنظور، عميق الحسّ والإدراك، ومرهف الأسلوب الإبداعي، يلوّن في أساليب قصائده تبعاً لمثيرات التشكيل وطريقة البناء، وهو ذو موهبة فذّة في التقاط المشهد وتصويره بواقعية حسيّة حيّة مباشرة حيناً، وبترسيم ذهني تخييلي بعيد حيناً آخر.

تمتاز قصائده بمزاوجتها بين أسلوب السؤال، والنداء، وأسلوب السرد والحوار ،لخلق حركةجدليّة صاخبة ضمن الدفقة الشعريّة الواحد .

إنّ شعريّة البرغوثي ترتكز على مثيرات الصورة الحركة، أو الصورة التقريعيّة ذات الزخم الانفعالي، والاحتجاج الغاضب، لهذا يطغى على قصائده إيقاع الأصوات المجهورة الحادة الصاخبة على إيقاع الأصوات المهموسة، ما يجعل نفسه الشعري نفساً حاداً عنيفاً في كثير من الحالات، خاصّة في الشكل العمودي.

11) الماغوط وثورة الشعرية(بين شعرية النثر ونثرية الشعر) ومختارات شعرية، عصام شرتح، 2012م.

تمتاز قصائد محمد الماغوط بمناوشاتها التشكيلية المراوغة التي تخفي وراءها عبثاً في العقائد والشرائع والعادات ؛ مما يجعلها تضج بالشكوى والألم والسخرية اللاذعة بمعالم الوجود وحركة الأشياء ، وتمتاز بطابعها التجريدي رغم إيقاعها العاطفي البسيط ؛ من خلال الاستعارات المفاجئة التي تعتمد المزج بين المحسوسات أو المجردات ، لإثارة الحركة الذهنية صوب تداخل الموصوفات وغرابتها الإسنادية .

تكتظ قصائد الماغوط بمعجم لغوي سياسي يشي بالواقع المعاصر والتطورات السياسية المعاصرة ؛ إذ نجده يستخدم مصطلحات مشتقة من حقل السياسة ، وتمتاز قصائده بتنوع حقولها الدلالية ، كحقل النبات والماء والاقتصادوالتجارة وحقل الزراعة وعلم الاجتماع والفلك والسياسة والطب والهندسة وبتراكم الصفات والمسميات المتباعدة ، لخلق تراكيب جديدة مثيرة تشي بالمراوغة التشكيلية والحنكة الاستعارية بالمزج بين الأوصاف الحسية والمجردة والأوصاف المجردة بالحسية،مما يجعل مفردات قصائده متنوعة مستقطبة من حقول مختلفة ؛ وكأن معجمه الشعري موسوعة علمية متكاملة شاملة للمفردات الحياتية كلها على المستويات كافة .

12) ممدوح عدوان مدونات الفن الشعري ومختارات شعرية، عصام شرتح، 2012م.

تكشف مدونة التجربة الشعرية – عند ممدوح عدوان – عن رؤى جمالية ؛ تميزت بها أصداء هذه التجربة ؛ كحيازتها على مداليل التراث والتقنيات السردية الفاعلة في تحريك الحدث الشعري ؛ وتكثيف مدونات القصيدة – لديه – بما في ذلك تعزيز الطاقة الدلالية والإيحائية لقصائده ؛ من حيث الكثافة الشعورية والمد الانفعالي لهذه التجربة والقدرة التصويرية على مباغتة القارئ بالجديد والممتع على الدوام ؛ نظراً إلى ما تضمه هذه التجربة من فضاءات دلالية غاية في المكاشفة والمواربة التصويرية والقفزات التخييلية القادرة على بث الحدث الشعري وتعميق فاعليته الدلالية ضمن المساق النصي العام .

13) التعصب في الفكر الصهيوني، عبير سهام مهدي، 2012م.

يعد التعصب ظاهرة مركبة متنوعة الأسباب والأوجه ، فله أسباب اجتماعية ، وسياسية، ونفسية، وهو ظاهرة عامة، عرفتها التيارات الفكرية المختلفة في حقب التاريخ كلها، مع التباين في أسبابها وأنماطها وصورها، حيث تختلف مكونات التعصب وطرق ممارسته.

ويبدو أن الاهتمام ببحوث التوجهات التعصبية نحو الجماعات والقوميات الأخرى قد بدأ منذ العشرينيات من القرن العشرين على يد بوجاردس، وقياسه للمسافات الاجتماعية التي يرتضيها الشخص بينه وبين أعضاء القوميات الأخرى ابتداءً من المصاهرة وانتهاءً إلى زيارة البلد أو الطرد منه.

وتنبع أهمية الدراسة التي بين أيدينا، والتي تحاول الكشف عن ماهية هذه الظاهرة ومكوناتها الفكرية والنفسية ووسائل تنميتها، فضلاً على تسليط الضوء على المهمة التي يؤديها التعصب في صياغة الشخصية اليهودية المتعصبة وتكوينها وتقصي الأثر الذي تركته ظاهرة التعصب بعد قيام الكيان الإسرائيلي على المستويين الداخلي والخارجي، وهذا كان واضحاً في الاستنتاج العالمي له على الصعيد القانوني والفكري، والذي توج باستصدار قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ذي الرقم 3379 عام 1975م.

14) فن الترجمة " بين النقل والإبداع في سرد شهرزاد"، ياسمين فيدوح، 2012م.

ما من معطيات خالصة إلا وتؤول إلى نتائج إيجابية، من باب الاستنباط، وليس من باب الحكم. ومن ثمّ فإنه يفترض من "متقصي موضوع الترجمة"، والمستفيض في بحثها، التسلح بأدوات النص، والكتابة، والقراءة، والتأويل، وألاّ يكون ملماً بثقافة اللغتين، المترجم منها والمترجم إليها وحسب، بل يفترض أن يكون على وعي تام بنظريات تحليل المعنى، وعلى دراية واسعة بقوانين التشكيل البلاغي، والنحوي، وأنساق التلقي لكل من اللغتين.

15) معارج المعنى في الشعر العربي الحديث، د. عبد القادر فيدوح، 2012م.

الشعر جوهر الرؤيا الكشفية التي تبحث في علاقتنا بالكون، وتقرب صلتنا فيما تتخذه المعرفة البدئية بالمعرفة الوجودية؛ الأمر الذي يدفعنا إلى تفجير السؤال الناتج من القلق، المفعم بالصدى، المعلل للصمت - في طريقه الصاعد إلى السكون - بالإمكان: سؤال القلق المعبر عن الثبات في سبيل التحول، سؤال يغوص بكليته نحو سلم الفكر الصاعد بالمشاهدة - اللانهائية -

مشاهدة "الظاهر الخفي"، مشاهدة "الإشعاع النوراني"، المشاهدة المشرئبة بالسعي الدائب للوصول إلى جوهر رؤيا ملكة الإبداع، المشعّة ببناء بهاء جمال روحها الفياض، ونصاعة تركيبتها الباهرة.

ولعل هذا ما يميز القصيدة المعاصرة، في سمتها الاختراقي، إلى كل ما يمت بصلة إلى الذخيرة الباطنية بحرقة الوجد، حيث البركان الشعري لا يخمد، ولا يسكن بفيضه الكشفي؛ ولكنه دائم البحث عن المضمر في الكون، والمسكوت عنه في الواقع، وهو الموقف المؤسس للوعي المتجدد، المفضي إلى تعدد زوايا الرؤيا؛ تجاويا مع "كل جزئية من الكون موقف" بحسب "مواقف النفري".

16) مبادئ اللغة العبرية، د. مصطفى زرهار، 2012م.

يضع هذا الكتاب قواعد اللغة العبرية بين أيدي القراء والدارسين لما لهذه اللغة من روابط قرابة وثيقة باللغة العربية فهما من أصل سامي واحد، وبينهما ارتباط لغوي وثيق ، فضلاً عن كونها لغة العهد القديم، مما يجعل الإلمام التام بنصها الديني وتطويعها لخدمة النص القرآني وفهم أسراره أمرا واجبا لدارسي النصوص الدينية . ولتفهم طبيعة النصوص الدينية وما قد تحتويه من مشاكل لغوية لا يستقيم إدراك الهدف منها أو شرحها دون إن نفهم اللغة التي كتبت بها فهما سليما،و ذلك من خلال الوقوف على أسرار هذه اللغة وتراكيبها النحوية. أضف إلى ذلك دور اللغة العبرية في الكشف عن الكثير من غموض الألفاظ والتراكيب في لغتنا العربية وإسهامها في تصور مراحل تطورها اللغوي. فاللغة هي الظاهرة الأولى في كل عمل فني يستخدم الكلمة كأداة للتعبير، لأنها أول شيء يصادفنا، هي النافذة التي من خلالها نطل ومن خلالها نتنسم ، هي المفتاح الذهبي الذي يفتح كل الأبواب، فاللغة هي الجناح الناعم الذي ينقلنا الى شتى الافاق ، وقد عرف الانسان العالم او حاول ان يعرفه للأول مرة يوم ان عرف اللغة.

17) مقاربات في دراسة النص التوراتي(سفر راعوث أنموذجاً)، د. مصطفى زرهار، 2012م.

إن أهمية هذا البحث تنبع من الدور الكبير الذي تلعبه الأديان على مستوى العلاقات الإنسانية.

- كيف يمكن أن نفك التماهي الذي يصطنعه أتباع الأديان بين عقولهم وبين نصوصهم الدينية ؟
- كيف نجعل العقل يعي تعقله للنصوص ؟
- كيف نزيل من العقل أنانيته الطائفية بأن يدرك أن الطائفية في عمقها نفي للعقل واغتيال للإنسان ؟

إن النصوص التوراتية والإنجيلية والقرآنية أنتج بعض أتباعها نظريات في التطرف والكراهية أشعلت حروبا طاحنة حصدت أرواح البشر، والإشكال الأعمق هو أن جميع الأديان تدعى أنها موجهة لجميع البشر في كل الأمكنة والأزمنة.

لا نريد تقديم قراءة طائفية ولكن نريد قراءة إنسانية للدين، قراءة جديدة للنص الديني تستجيب لمصلحة هذا الإنسان وتستحضر روح ومقاصد الدين والأديان في عمومها.

وقمنا بدراسة البنية التركيبية للعهد القديم والروايات المختلفة لمضامينه وقضاياه، مبرزين نظرية المصادر داخل العهد القديم انطلاقا من الدراسات الغربية، مسلطين الضوء على أهم القضايا التي تناولها النقاد منذ الإرهاصات الأول لنظرية المصادر إلى تشكلها في إطار المضامين الوثائقية، والتي شكلت مصادر النص التوراتي.

كما حاولنا إعطاء أهم ترجمات العهد القديم، موضحين الاختلافات الموجودة فيما بينها، هذا بالإضافة إلى تقسيمات العهد القديم حسب الرؤية اليهودية، كما أشرنا إلى موقف القرآن الكريم من العهد القديم الذي نحسبه أول رائد لنقد نصوص العهد القديم.

18) نقض كتاب تثليث الوحدانية في معرفة الله - نموذج لعلم العقيدة والكلام عند مالكية الغرب الإسلامي، الإمام المحدث أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي (ت656هـ) - دراسة وتحقيق وتقديم: يوسف الكلام-نادية الشرقاوي، 2012م.

ليست الرغبة في تحقيق هذا الكتاب وليدة اليوم، وإنما ترجع إلى عقد من الزمان، عندما أسسنا "جمعية الإمام ابن حزم للطلبة الباحثين في مقارنة الأديان"، وكان من أهدافنا إعداد فهرسة لكتب المقارنة بين الأديان، وتكلفنا نحن بفهرسة الخزانة الملكية. وأثناء القيام بهذا العمل أثار انتباهنا مخطوطة لمؤلف مجهول تحمل عنوان: "نقض تثليث الوحدانية"، فقمنا بطلبها، فتبين أن المخطوطة هي لكتاب الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام للقرطبي، فقمنا باقتناء الكتاب وقررنا إعادة تحقيقه. ولا ندعي أن ما قمنا به تحقيق تام، فلازال ينقصه الشيء الكثير ولكن لما رأينا جهدا مهما قد بُذل في هذا العمل، لم نشأ أن نتركه يضيع، ونحرم الباحثين في هذا المجال من الإطلاع على هذه المخطوطة التي لم تعتمد في التحقيقات السابقة، ونكفيهم مشاقّ التنقل إلى الخزانة الملكية وطلبها للقراءة، فقررنا نشر هذا العمل حسب ما وصلنا إليه، آملين أن نعيد نشره مرة أخرى في طبعة منقحة مفيدة بحول الله تعالى.

19) يسوع المسيح خارج العهد الجديد، مدخل إلى الأدلة القديمة، روبرت فان فورست ، ترجمة: وسيم عبده، تقديم ومراجعة: د.منذر الحايك، 2012م.

لقد شغلت الباحثين لفترة طويلة قضية شخصية المسيح التاريخية ومدى تطابقها أو اختلافها مع مسيح العقيدة. وانقسموا في تصورهم لشخصية المسيح إلى تيارات متباينة، كان منهم من يقول أنه كان من الأنبياء المنذرين بنهاية العالم، وآخرين يرون فيه مجرد شخصية خيالية مختلقة، ومنهم من يراه حكيماً زاهداً من أتباع الفلسفة الكلبية، لكن معظمهم يعتقد بأن المسيح التاريخي هو غير مسيح العقيدة. ولأن يسوع المسيح لم يترك أي أثر مباشر، وكل ما يعبر عنه هو الأناجيل التي كتبت بعد حياته بزمن طويل، ولم تكتبها الأسماء التي تنسب إليها، فحتى الكنيسة الآن تستخدم عبارة "وفقا لمتّى"، أو "وفقا لمرقص" . .. أي أنها منقولة عنهم. لذلك فإنّ الدراسات التي تتناول حقيقة يسوع غالباً ما تثير خلافات حادّة تشمل، إضافة للباحثين، رجال الكنيسة وعامة الناس، وتستمد هذه الخلافات إشكاليتها الخطرة لأنها تلامس بشكل مباشر قضايا أساسيّة من الإيمان المسيحي. ويأتي هذا الكتاب، معتمداً على المصادر القديمة من خارج العهد الجديد، ليتناول كل تلك الإشكاليات ويخضعها لطرائق النقد العلمي، فيخرج بنا إلى نتائج في غاية الأهمية، إن كان على مستوى عقائد الإيمان المسيحي أو على المستوى التاريخي لشخصية يسوع المسيح.

20) السوق الدينية في الغرب، دارن أ.شركات، كريستوفر ج.إليسون، روناي ستارك، لورانس ر.إياناكوني ترجمة: د.عز الدين عناية، 2012م.
تتوجه إلى علم الاجتماع الديني، المحكوم بالأطر النظرية الكلاسيكية، الذي طالما ساند أطروحات أفول المقدّس، واكتساح العلمنة، وانحسار الدين، انتقادات جمّة بشأن قصور أدواته عن الإحاطة بالواقع الديني الراهن.
ومن هذا الباب، تعالج الأبحاث الواردة في هذا الكتيّب الموضوع بمناهج مستجدة. في جانب من تلك الأبحاث تعالج سوق الدين في أمريكا، التي تتميز بحيويتها العالية وتحرّر أنشطتها، جراء تطوّر مفهوم الدين المدني، فضلا عما يتسرّب إليه الدين نحو شتى أطراف النسيج الاجتماعي. كما تتابع الأبحاث، من جانب آخر، الواقع الديني الأوروبي، الذي ما فتئت مؤسّسة كنسيّة واحدة، ذات لون كاثوليكي، أو لوثري، أو أنغليكاني، تحتكر الفضاء في مجمل أقطاره. وقد لا تقنع تلك المؤسسة بما تنعم به من حظوة من قبل الدولة، بل تعمل جاهدة للتضييق على نظيراتها من التقاليد الدينية الأخرى.
بات القول بتراجع الدين أو تمدده على المحك، جراء اختبار الوقائع ضمن اقتصاد الاعتقاد، الذي بقدر ما ينشغل بمستهلكي الدين والمزودين به، يولي الفضاءَ الحاضنَ عناية أيضا، من حيث احتكار النشاط فيه أو تحرره. ومن هنا تقدّر وتقيم مستويات الركود والحراك في الحقل الديني.
21)العبادات في الأديان السّماويّة (اليهوديّة، المسيحيّة، الإسلام، والمصريّة والعراقيّة واليُونانيّة والرُومانيّة والهندُوسيّة والبُوذيّة والزرادشتيّة والصّابئيّة)، عبد الرزّاق رحيم صلال المُوحي، ط3، 2012م.
هذا الكتاب هام جداً جداً، فكم من النّاس والمثقفين يعرف كيف يصلّي اليهود؟، وكيف يزكّون؟، وكيف يتطهّرون؟، وإلى أين يحجّون؟، وكيف يصومون؟، وكيف يتوضؤون؟، وما هي أعيادهم؟، وكذلك الأمر للمسيحيين، وهذه الدّراسة دراسة مقارنة هامّة تبيّن النّصوص المُوثّقة من التّوراة والأناجيل والقرآن الكريم والسُنّة النّبويّة ، ما أصاب بعض الدّيانات السّماويّة من تحريف وابتعاد عمّا نزل أصلاً في كُتُبها السّماويّة، حتّى وصل بعضهم إلى تحليل ما حُرِّمَ في كُتُبهم، وتحريم ما أُحلّ؟، وتبديل ما ليس يبدل.
22)العبادات في الدّيانات القديمة المصريّة والعراقيّة والرُومانيّة والهندُوسيّة والبُوذيّة والزرادشتيّة والصّابئيّة، عبد الرزّاق المُوحي. ط2، 2012م.
23)العبادات في الدّيانة المسيحيّة، عبد الرزّاق المُوحي. ط2، 2012م.
24)العبادات في الدّيانة اليهُوديّة، عبد الرزّاق المُوحي. ط2، 2012م.
25)خفايا الاستغلال الجنسي في وسائل الإعلام، ويلسون براين كي، ترجمة، مُحمّد الواكد، ط3، 2012م.
ما الهدف من الاستغلال الإعلامي الجنسي؟، هذا الكتاب غير العادي يكشف كُلّ الطُرق التي تقوم بها كُلّ من المجلات والصُحُف والأقنية التّلفزيونيّة والأفلام والمُوسيقى الشّعبيّة، والتي تقوم على مبدأ الاغتصاب والاستغلال الفكري للشّعب، بعد قراءته لابُدّ أنّكَ ستنظر، وتنصت، وتدرك، ولكنْ بطريقة جديدة تماماً، لا تدعهم يضعون السّتار أمام عينيْكَ وأذنيْكَ وفمكَ وأنفكَ وحواسّكَ كُلّها، أيها المُشتري، كُنْ حريصاً!، كُنْ حريصاً!، أولاً من أنّ الإعلان مُصمّمٌ من أجل أنْ يضعكَ في عالم الخيال، تلك هي رسالة الاستغلال الإعلامي الجنسي، ما الرمُوز المخفيّة في وسائل الإعلام الأمريكيّة؟، ما كيفيّة قيام تلك الرمُوز ببرمجة عقلنا الباطن وتكييفه؟، إنّه كشف مُثير لعواقب الإغواء اللاشُعُوري؛لأنّ وسائل الإعلام تَعلم كُلّ شيء عن مُخيلاتك، ومخاوفكَ، وعاداتكَ المُتأصلة والعميقة، فهي تعلم إذاً كيف تستغل مشاعركَ وسُلُوككَ الشّرائي، وكيفيّة قيام إعلانات الحلوى بإزالة مخاوفكَ من زيادة الوزن . اكتشافُ أنّ مجلات مثل (بلاي جير) و(فيفا) المُخصّصة للنّساء، هي في الواقع تستهدف الرّجال، كيفيّة قيام إعلانات السّجائر بإزالة مخاوفكَ من الإصابة بالسّرطان، كيفيّة قيام الأفلام بابتكار طُرق تعذيب جديدة من أجل إيلامكَ، ومن أجل زيادة أرباحها، كيفيّة قيام إعلانات الأزياء بالتّوجّه إلى السّحاقيّة المُستترة، كيفيّة نجاح مُوسيقى الرُوك الشّعبيّة السّاحق في ترويج المُخدرات، كيفيّة قيام صُور الأخبار بقولبة وصياغة آرائكَ، كيفيّة تضمين كلمة من أربعة أحرف وإخفائها في صُور طعامكَ وفي صُور ملابسكَ من أجل إثارة الرّغبة الجنسيّة، كيفيّة قيام كُل ذلك، وأكثر من ذلك كثيراً . بإثارتكَ، واستعبادكَ، ومن دُون أدنى علم حسّي بذلك! (صدمة مدهشة!) (سحرٌ شديد!) (الأمرُ يتطلّب أقصى درجات الحرص!).
26)كيف صَنَعَ اليهُود الهُولُوكُوست؟، نُورمان فنكلشتاين، ترجمة ، د. ماري شهرستان، ط2-2012- 2007م.
قال الحاخام آرنولد جاكوب فولف مُدير جامعة دي يال«يبدو لي أنّهم يبيعون الهولُوكُوست عوضاً عن أنْ يُعلّموه». إنّ هذا الكتاب هو في . آن واحد . تشريح واتّهام لصناعة الهولُوكُوست. إنّه يُؤكّد أنّ الهولُوكُوست هو تقدمة إيديُولوجيّة للهولُوكُوست النّازي. إنّ إحدى أكبر القوّات العسكريّة وأعظمها في العالم؛ وحيث إنّ فيها انتهاكات حُقُوق الإنسان هائلة قدّمت نفسها كبلد ضحيّة. وقد جنت أرباحاً وفوائد هائلة عن هذا الوضع . الضّحيّة الذي لا مُبرر له وخُصُوصاً الحصانة في مواجهة النّقد حتّى الأكثر ثُبوتاً وسناداً. يقول فنلكشتاين: كان أهلي يندهشون . غالباً . عندما يجدون أنّني مُستنكر. إلى حد كبير. تزوير واستغلال الإبادة النّازيّة . الجواب الوحيد والأبسط هو التّهم التي يستعملونها لتبرير السّياسة الإجراميّة لدولة (إسرائيل) ودعم الولايات المُتّحدة لهذه السّياسة. هُناك . أيضاً . دافع شخصي؛ إنّه الحملة الحاليّة لصناعة الهولُوكُوست الهادفة إلى ابتزاز المال من أوروبة على حساب الضّحايا المُحتاجين للهولُوكُوست، وضعت استشهادهم في مُستوى أخلاقي لكازينو مُوناكو. نُورمان ج.فنكلشتاين يهودي يفضح كيف صَنَعَ اليهُود الهولُوكُوست، وكيف يستثمرونه، وكيف يخدعون به الدُنيا وأوروبة وأمريكا.
27) عروبة الخليج ...حقائق جغرافية ولغوية، أ.د. قصي منصور التّركي، 2011م.
28) سيرة الملك فيصل الثاني 1935-1958 آخر ملوك العراق، طارق إبراهيم شريف، 2011م.
29) علم النفس التجريبي، د.علي عودة محمد، 2011م.

30) ظواهر الإنسان الخارقة وقواه الحسية الفائقة حدود العلم الحقيقية لعلم نفس الساي Psi، د. علي شاكر الفتلاوي، 2011م.

علم نفس الساي psi في سعيه للسير باتجاه «رحلته العلمية الشاقة» من أجل وصف وتفسير عناصر الطاقة الإنسانية الفائقة، وفهم آليات عملها قدر الإمكان، يضع الأسئلة التالية، محاولاً الإجابة عنها :ماهي قدرات الإنسان الخارقة؟ ما طبيعتها؟ وما تصنيفها؟ هل يستطيع العلم – والبحث التجريبي خاصةً – فك أسرار العلاقة أو الحاكمة في فعل تلك الطاقات والقدرات؟ وما علاقة الشخصية الإنسانية بقدرات الـ psi ؟ وهل صحيح أن هنالك عوامل يمكن أن يفضي توافرها إلى ظهور تلك القدرات؟ وهل من حدود منطقية للعلم تفصل في ظواهر الـ psi ؟ وما هو الوجه الآخر للعلم في تصديه لتلك الطاقات؟ وكيف تساعد بحوث الدماغ والتغذية الاسترجاعية الحيوية وعالم فيزياء الجزيئات في توضيح وتفسير ظواهر الساي؟ وهل من إمكانية لتأثير الفكر والعقل على الأحداث والأشياء؟ولعل من أهداف الكتاب الرئيسية أن تنال قيَم العلم وتطبيقاته في ثنايا الثقافة المجتمعية؛ ليكتسب المجتمع تلك القوة الثقافية الإيجابية التي تعمل رافداً مباشراً في خلق وبلورة «عقل علمي» لدى الأفراد، من خلال الدفع باتجاه ترسيخ منهج الوعي بحدود العلم الواقعية من جهة، وآفاق تلك الحدود من جهة أخرى، دون الاستسلام للأكاذيب الزائفة والموروثات غير الدقيقة، أو المشاهدات الموهومة الشائعة.

31) الأعياد في حضارة بلاد وادي الرافدين، د. راجحة خضر عباس النعيمي، 2011م.

الكتاب دراسة سريعة لحياة الشعوب البدائية التي لا تختلف في أسلوب حياتها عن طريقة إنسان عصور ما قبل التاريخ.
نشأة الأعياد في حياة الإنسان، كلمة عيد أصلها واشتقاقها حيث تناولت الباحثة الكلمة السومرية «EZEN» التي تعني العيد وأشرت إلى أنها كلمة كانت تعبر عن الفرحة والاحتفال الذي لا يرتبط بوقت محدد من أوقات السنة. وتناولت كلمة عيد باللغة الأكدية «isinnu» وأوضحت بأنها كلمة مقتبسة من الكلمة السومرية ولكنها تعني العيد الدوري الموقوت وبينت أيضاً الأسباب التي جعلت منها تعبر عن الأعياد الدورية رغم اقتباسها من الكلمة السومرية. وعرضت المعاني المختلفة التي كانت تعبر عنها كلمة عيد باللغتين السومرية والأكدية، ثم تناولت الباحثة أنواع الأعياد والاحتفالات القديمة بعد أن قسمته إلى عدة أقسام، (أعياد القرى، أعياد المدن الكبرى). وتحدثت عن عيد آكيتو خلال الفترات السومرية والبابلية وقسمته كذلك إلى عدة أقسام، الأول يتضمن تحليل كلمة آكيتو والتي اعتبرتها تعني «استنزال المطر». وهذا يعني أن احتفالات آكيتو في بلاد وادي الرافدين ما هي إلا استمرارية لتلك الطقوس السحرية التي مارستها كثير من شعوب العالم من أجل استنزال المطر في حالة انحباسه، وأخير فقد تحدثت الباحثة عن الزواج المقدس خلال الفترات التي سبقت الألف الأول قبل الميلاد وذلك لأن الإشارات التاريخية المدللة عليها لم تربطها بشكل واضح مع احتفالات عيد آكيتو. وعرضت لشعائرها في الأدوار التاريخية المختلفة.

32) العصر الأيوبي، قرن من الصراعات الداخلية، د.منذر الحايك، تقديم د.سهيل زكار، 2011م.

عندما توفي نور الدين لم تفقد الأمة المشروع بفقدان القائد، فقد جاء صلاح الدين، الذي كان مسكوناً بروح سلفه، ليحقق الجزء الأكبر من مشروع التحرير، مستفيداً من الوحدة. ولكن البيت الأيوبي، الذي قام حكمه أساساً على مشروع الدولة الموحدة والجهاد للتحرير، تناسى المشروع بوفاة صلاح الدين، وغدت الشام منقسمة، لا تتوحد إلا بتحالفات هشة ضد مصر، ولم يكن صلاح الدين هو من قسم الدولة التي جهد لتوحيدها، ولكن الإقطاع العسكري، وهو النظام السائد وقتها، كان سبب التجزئة، فبوفاة السلطان تتحول الإقطاعيات إلى ممالك، لقد كانت مرحلة الانقسام الأيوبي مرحلة عقيمة على الصُعد كلها، ما منح الفرنجة أعواماً طويلة أخرى، أمضوها في بلادنا، ليس لقوتهم التي ارتجّت بعد حطين، بل لضعف الكيانات السياسية الأيوبية وتخاذلها، لكن من جهة أخرى، ومع أن ملوك البيت الأيوبي تخلوا عن السياسة الهجومية للتحرير، فلا بد أن نشير إلى دفاعهم القوي في وجه الفرنجة، حيث تمكنوا من صد حملات كبرى، كان ممكناً أن تقلب وجه الشرق العربي المسلم، وعلينا أن لا نحملهم كل أوزار زمانهم، فقد كانوا جزءاً من مجتمعهم بكل ما فيه من فضائل ونقائص، ومع أن الأيوبيين كانوا أكراداً في أصلهم، فقد عدوا أنفسهم عرباً بثقافتهم ودينهم، فأحبوا اللغة العربية، وقربوا إليهم الشعراء والأدباء، وعقدوا مجالس الفقه، وكانوا رواة، تسند إليهم بعض الأحاديث الشريفة، كما تميزوا بالبساطة، وربما التقشف، فلم تعرف بلاطاتهم التقاليد الملكية، أو أبهة الملك، إن تاريخ البيت الأيوبي لا يبدو واضحاً من سير ملوكه، أو تدوين أحداثه، بل يحتاج على نحو ضروري إلى دراسة العلاقات الداخلية بين ملوك البيت وسلاطينه وتحليلها، ودور الأمراء، والقوى العسكرية، وشبه العسكرية، وتأثير كل هؤلاء في تلك العلاقات، وهذه هي المزية الجديدة التي انفرد بها هذا الكتاب، والتي لم يتطرق إليها البحث سابقاً وفق علمي.

33) نزهة الأنام في محاسن الشام، غوطة دمشق ومنتزهاتها، أبو البقاء عبد الله البدري، تحقيق: الدكتور منذر الحايك، 2011م.

يعد هذا الكتاب الأقدم في موضوعه، فمؤلفه أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري(847-894 هـ)، يتحدث عن غوطة دمشق يوم كانت جنة الدنيا. عن فاكهتها في زمن كانت فيه أنواع الصنف الواحد من الفاكهة أكثر من أن تحصى، بل إن بعض الأنواع لا يجد له المؤلف اسماً فيقول: مجهول. عن الزائر الذي شبع من الفاكهة التي تطفو على سطح النهر، والفقراء الذين يحملون مكاتلهم على رؤوسهم ويسيرون في دروب الغوطة، فيعودون وهي ممتلئة بالثمر الحلال الذي سقط عليهم.
عن أزهار وثمار كانت متاحة للغني والفقير، كالنيلوفر، والتمر حنه، وقف وانظر، وورد دمشق الجوري. عن فوائد كل نوع من الثمر أو الخضراوات واستعمالاته الطبية كما قررها كبار أطباء ذلك العصر.
يتحدث عن منتزهات دمشق التي لا مثيل لها: الربوة، والجبهة، وبين النهرين، والشرفين، والنيربين، والحواكير. . . عن عادات أهل دمشق في نزهاتهم واحتفالاتهم، وعن أشعارهم بكل موسم وبكل فصل، بل وبكل نوع من الزهر والفاكهة والشجر.
عن أهل دمشق وكيف كانوا يستعدون للشتاء. عن الثلج وتخزينه للصيف. عن قاقات دمشق، وعن صناعاتها التي اشتهرت في أرجاء العالم، وسارت بها القوافل. مع كل طرفة ونادرة وحكاية وشعر وفائدة.

34) منامات الوهراني وحكاياته، الشيخ ركن الدين محمد بن محرز الوهراني، تحقيق: د.منذر الحايك، تقديم أ.د.سهيل زكار، 2011م.